

أعمال
نصائية

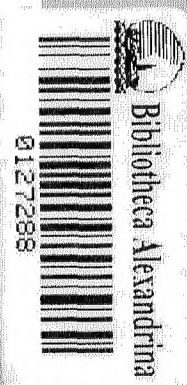


ثربانتس

دون كيخوته

ترجمة
عبد الرحمن بدوي

إصدار
الطبعة
الطبعة



شریانقس
دون کی غوتہ ۱۴

دون کيخوته

الهيئة العامة لأكاديمية الإسكندرية	
رقم التسجيل	٢٠٥
رقم التسجيل	٤٤٦٥٠

أعمال خالدة

١

دون كيخوته

ثريانتس

(الجزء الأول)



Library of the Alexandria University
Bibliothèque d'Alexandrie

ترجمه عن الاسبانية

د. عبد الرحمن بدوي





Author : Miguel de Cervantes
Title : Don Quijote de la Mancha
Translator: Dr. Abdel-Rahman Badawi
Al- Mada : P. C.
Cultural Foundation
First Edition 1998
Copyright ©

اسم المؤلف : ثريانتس
عنوان الكتاب : دون كيخوته/١
ترجمة : د. عبد الرحمن بدوي
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
المجمع الثقافي / أبو ظبي
الطبعة الأولى : ١٩٩٨
الحقوق محفوظة

المجمع الثقافي

الامارات العربية المتحدة - أبو ظبي
ص.ب. : ٢٣٨٠
تلفون : ٢١٥٣١٠٠

Cultural Foundation

U.A.E. Abu Dhabi
P.O.Box: 2380
Tel. 215300

دار المدا للنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩٠ - ٧٧٦٨٢٤ - فاكس : ٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١
فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.

Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or
7366 , Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,
Fax : 9611- 426252

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

تصدير عام

ثريانتس ودون كيخوته

روائع الأدب العالمي أربع : «الإلياذة» لهوميروس ، و«الكوميديا الإلهية» لدانتة ، و«دون كيخوته» لثريانتس ، و«فاوست» لجيته .
وها نحن أولاء نقدم الى القارئ العربي الثالثة من هذه الروائع .
والصفة السائدة في الأولى هي البطولة ، وفي الثانية القداسة ، وفي الثالثة التهكم ، وفي الرابعة الإنسانية .

ودون كيخوته تجسّد للمثال ، وللقيم المجردة ؛ إنه الجانب المثالي من الوجود ، الذي يصصره الجانب الواقعي ، ويظل الصراع بين كلا الجانبين متصلًا ، لا يفت في عضده انتصار الواقع على المثال باستمرار . ومن هنا كان هذا الديالكتيك الحي الذي يمثل طرفيه كل من الفارس دون كيخوته وحامل السلاح سنشو پنثا . ولهذا كانت قصة «دون كيخوته» هي قصة الوجود نفسه بقطبيه المتنافرين المتصارعين المتنازعين ، ومن نزاعهما يتألف ديالكتيك الوجود ؛ وكانت شخصية دون كيخوته من النماذج الإنسانية العليا ، الى جانب پروميشيوس ، وفاوست ، وهاملت ، ودون جوان . إن دون كيخوته يمثل روح الإنسان ، أما رفيقه سنشو پنثا فيمثل بدن الإنسان ، هذا الرفيق الأصيل للروح .

- ١ -

حياة ثريانتس

أما المؤلف فهو ميغيل دي ثريانتس ساهدرا Miguel De Cervantes Saavedra الذي ولد في قلعة هنارس ، وعمّد في كنيسة القديسة مريم الكبرى في التاسع من شهر أكتوبر سنة ١٥٤٧ . وكان أبوه ، رودريجو دي ثريانتس ، جراحًا ، وأمه ، ليونور دي كورتيناس .

وأَمْضى طفولته في مدينة بلد الوليد حيث كان أبوه يمارس مهنته . ويقال إنه درس عند اليسوعيين في «مدرسة الجماعة» في إشبيلية . وربما يكون قد درس أيضاً في شلمنقة لأن في مؤلفاته إشارات غريبة إلى هذه المدينة المشهورة بجامعتها الدينية «والتي تسمى في كل العالم أم العلوم ، ويدرس فيها في العادة من عشرة إلى اثني عشر ألفاً من الطلاب ، وهم زمرة فتية ، يغلبها الهوى ، وفيها اندفاع ، وحرية ، وتصنع ، وإسراف ، وظرف ، وشيطنة ومزاج»^(١) . كما أنه درس في مدريد لمدة قصيرة .

وسافر إلى إيطاليا لأسباب اختلف فيها ، فزعم البعض أنه هرب إلى إيطاليا خوفاً من توقيع العقاب عليه بسبب مبارزة بينه وبين شخص يدعى أنطونيو دي سيجورا ، ويقال إنه حكم على من يدعى «ميجيل دي ثربانتس» Zerbantes بسبب ذلك بالنفي عشر سنوات وقطع يده اليمنى . ولكن هذه الدعوى لاتزال بمعزل عن كل تأكيد^(٢) . - وفي إيطاليا عمل في حاشية الكردينال جولو أكوافيفا Acquaviva . وتعلم اللغة الإيطالية ، واستطاع أن يقرأ كبار الكتاب الإيطاليين في الأصول ، وأعجبه منهم خاصة أريوستو ، وسيتأثر بملحمته «أورلندو الغاضب» في قصته هذه «دون كيخوته» . ولذت له الحياة الحرة في إيطاليا في ذلك العصر ، عصر النهضة بروحه الطليقة ، وحساسيته المرفهة المتفتحة للجمال والآداب والفنون ، وتأثره بروائع الفن والأدب اليونانيين . وقد قَدَّم لنا ثربانتس في قصة «المجاز فديريرا» صورة جميلة لفيرنيسه (فلورانس) «ذات الموقع البديع... النظيفة ، ذات الأبنية الفخمة ، والنهر العذب والطرق الهادئة» . ونعت روما بأنها «سيدة الدنيا» ، وقد أعجبه فيها مرمرها المتداعي ، وتمائليها الكاملة والنصفية ، وأقواسها المقطوعة ، وحمائماتها المتهدمة ، وبواباتها الرائعة ، ومدرجاتها الواسعة . وطالما تردد ذكر روما في قصصه وأشعاره ، وكأنها رؤيا ساحرة .

وانخرط في الجندية سنة ١٥٦٨ فتبدى عن جندي صعب المراس . واشترك في معركة الليباننتو Lepanto البحرية (٧ أكتوبر سنة ١٥٧١) ، وهي المعركة التي وقعت بين الأتراك من ناحية ، والبنادقة والإسبان وبعض الأوروبيين من ناحية أخرى ، وكان الأسطول التركي

(١) راجع من دراسات ثربانتس :

a) Rodriguez Marin: Cervantes estudio en Sevilla (1905);

b) Rodriguez Marin: Cervantes y la Universidad de Osuna, in, Homenaje a Menendez y Pelayo, 1899;

c) Narciso A. Cortes. Cervantes en Valladolid, Madrid, 1918;

d) Blanca de los Rios: "Estudio Cervantes en Salamanca"? in España Moderna, 1899.

Jeronimo Moran: Vida de Cervantes, Madrid 1867. (٢)

مؤلفاً من ٢٠٠ جاليره تتلوها سفن صغيرة أخرى ، بينما كان الأسطول المسيحي مؤلفاً من ٢٠٠ جاليره تتلوها سفن صغيرة عديدة ، عقد لؤاها لدون خوان النمساوي ، وانتهت بهزيمة الأتراك ، مما أوقف التوسع العثماني في البحر الأبيض المتوسط . وفي هذه المعركة فقد ثربانتس يده اليسرى كما قال ، ولكن ذراعه لم تُقطع ، بل فقد القدرة على استعمالها فقط . وهذا الحادث ظل ثربانتس يتباهى به طوال حياته ، وينشد فيه القصائد .

كذلك اشترك في حملة كورفو (جزيرة يونانية) ، وفي مغامرات القرصان وغاراتهم على نورايين وتونس . واشتهر جندياً ممتازاً ، وهو في بالرمو مع فرقته .

وفي طريق عودته الى اسبانيا هاجمت سفينة الجاليرات التركية ، وأخذته أسيراً الى مدينة الجزائر . وهنا في الجزائر قضى خمس سنوات أسيراً سجيناً . وكانت الجزائر ، كما وصفها ، آنذاك مركزاً لأعمال البحرية التركية والإسلامية بعامّة ، يأوي إليها القراصنة من كل أنحاء الدنيا . وحاول في أثناء أسره أن يهرب ، ودبر خطة لذلك مع بعض الأسرى الاسبان ، ولكن الخطة فسدت ، وكاد أن يقتل . ولما لم تُجد خطة الهرب لم يجد غير الفدية بالمال وسيلة لإطلاق سراحه . وكتب الى كاتب الملك فيليب الثاني ، ملك إسبانيا ، يتوسل إليه أن يحث الملك على تحرير هؤلاء الأسرى النصارى في رسالة طويلة تفيض شكوى وأسى . ولكن فيليب لم يستطع إنقاذ هؤلاء . فلم يكن أمام ثربانتس من وسيلة غير الفدية بالمال . وقد تم ذلك في سنة ١٥٨٠ بتوسط من الأخ التليشي خوان خيل .

وفترة الأسر هذه التي قضاها ثربانتس في مدينة الجزائر كان لها أعمق الأثر في نفسه وفي إنتاجه . وقصة «دون كيخوته» خير شاهد على هذا الأثر البالغ . ففيها فصول طوال تصف أحداثه في الجزائر ، واتخذ من هذه المدينة إطاراً لأحداث جميلة رواها ، كما أن معرفته بالقليل من العربية قد ظفر بها في أثناء هذا الأسر .

* * *

عاد ميغيل دي ثربانتس إذن الى وطنه في سنة ١٥٨٠ . ولكنه عاد ليلقى هنا العذاب والشقاء والإنكار والفقر والحرمان .

عاش في مدريد ، وولد الوليد ، وتزوج من السيدة كاتالينا دي پلاثيوس ، وهي من اسكيباس Isquvias ، وكان زواجاً غير موفق .

وعاش في إشبيلية ، «ويا لها من مدينة كم فيها من حياة وحركة . وغدو ورواح ، وتنوع في الأزياء ، واختلاط في اللهجات كأنها برج بابل ، وتدافع العربات المحملة

بالثروات! ويا لنشاط التجارة في بيت العقود الخاصة بأمريكا ، ويا لضجة الميناء! وما أجمل وأرق حواشي شطآن الوادي الكبير! وما أفتن النساء الغاديات في الطرقات أو المتطلعات من النوافذ! أي وسط لذيذ! أي شمس رائعة! وأي سماء رافلة في الحبور...!» - كما قال رود ريجث مارين في مقدمة نشرته النقدية لقصة «رنكونيته وكورتاديو»^(١) . ويلوح أنه شارك في هذه الحياة الشهوانية العرمة الحاملة بالأحاسيس . وربما ترجع الى هذه الفترة حادثة غرامه مع أنا فرنكا دي روخاس Ana Franca de Rojas التي كانت ثمرتها بنتاً غير شرعية سميت إيزابل دي سابورا ، وقد تزوجت زوجاً عجيباً ، أثار الشائعات الغريبة حولها وحول أبيها غير الشرعي^(٢)

وكان يغشى الأوساط الأدبية ، ولكنه لم يلق فيها غير الإنكار . وكان أشد الأدباء حملة عليه - غيرة منه وحسد - لويه دي بيجا المؤلف المسرحي الغزير وزعيم المسرح الإسباني .

وعلى الرغم من أن «دون كيخوته» طبعت عشر طبعات منذ ظهورها في مدريد سنة ١٦٠٥ فإنها لم تدر على صاحبها ما يكفل له الكفاف! فعاش ثريانتس بئساً ، يتردد بين السجن وبين حياة أقرب ما تكون الى حياة السجن ، ويتعيش من الكتابة للفتيات اللواتي لا يستطعن الكتابة! بعد أن فقد وظيفته محصلاً للضرائب ، الى أن توفي في الثالث والعشرين من أبريل سنة ١٦١٦ .

- ٢ -

مؤلفاته

كان ثريانتس شاعراً ، ومؤلفاً مسرحياً ، وقصصياً يكتب الأقاصيص القصيرة والقصة الطويلة .

ولكن شعره ليس في مرتبة عالية ، بل هو أضعف جوانبه ، حتى لقد قال عنه لويه دي بيجا : إنه أسوأ الشعراء الجدد . ومعظم قصصه ومسرحياته يتخللها الشعر المتفاوت الجودة والطول . وأطول قصائده تلك التي بعنوان «رحلة البرناسو» (مدريد ، سنة ١٦١٤) ، وقد استلهم فيها الشاعر الإيطالي اتشيزي كابورالي دي پروجيا (١٥٣١ - ١٦٠١) . وفيها عقد

(١) Rinconete y Cortadilla, novela de Miguel de Cervantes Saavedra. Edición crítica de Francisco Rodríguez Marín. Se- villa. 1905.

(٢) راجع في هذا الموضوع Fitzmaurice-Kelly: Miguel de Cervantes, 1917 صفحات ١٤٤-١٨٠ .

اجتماعاً بين الشعراء في حضرة أپولو ، لم يجد ثربانتس فيه مكاناً لنفسه فاضطر الى الجلوس على معطفه في هذا الحفل العالي ، ورمز بذلك الى السخرية من نفسه ، والى مكانته الفعلية في عالم الشعر .

ومسرحه لا يفضل كثيراً شعره . ومن أهم مسرحياته : «نومانثيا» ، «حمامات الجزائر» ، «الجلف السعيد» ، «أوردمالس» . وهي مسرحيات تمثل الإنفعالات والشخصيات ، ولا يهتم فيها بالعقد والحكايات ، وأحياناً تكون الشخصيات رمزية ، تعبر عن أحوال نفسية معقدة أو مبادئ أخلاقية .

أما ميدانه الحقيقي فهو القصص : القصيرة والطويلة .

وقد بدأ بقصة رعوية هي «جالطيه» Galatea التي نشرها في سنة ١٥٨٥ ، وكان قد فرغ منها في سنة ١٥٨٣ وهو في سن السادسة والثلاثين . وهذا النوع من القصص قد انتشر في اسبانيا منذ منتصف القرن السادس عشر بعد أن استورد من إيطاليا ، وإن كان قد ظهر قبل ذلك ما يشبه النوع الرعوي عند غالسيا ورئيس الكهنة في هينا (المتوفي حوالي سنة ١٣٥٠م) ، والمركز دي سنتيانا وجريلاسو . ولكن القصة الرعوية بالمعنى الدقيق لم تظهر قبل سنة ١٥٤٩ حين نشرت أول ترجمة اسبانية «الأركاديا» تأليف يعقوب سنثارو (١٤٥٨ - ١٥٣٠) وهو من نابلي ولكن أصله من اسبانيا ، وقصة «أركاديا» هي النموذج لكل القصص الرعوية من بعد . ومن ثم انتشر هذا النوع في إسبانيا انتشاراً هائلاً في العصر الذهبي (القرن السادس عشر) . ويتميز هذا النوع بالخصائص التالية : الرعاية ليسوا غير فرصة للتمويه عن شخص حقيقي ، ليس من أفراد الشعب ، بل هو من رجال البلاط ، ولغته رفيعة ، والطبيعة التي يصفها هؤلاء القصاص طبيعة زائفة ، تعوزها الطراوة والنضرة ، وليس فيها أحداث ذات بال ، بل أمور عارضة أغلبها غير قابل للتصديق ، والأسلوب فيها يجمع بين النثر والشعر . ومن أبرع من كتبوا في هذا النوع في ذلك العصر من الاسبان : مونتمايور ، وخيل پولو ، ثم صاحبنا ثربانتس . وفي دون كيخوته آثار واضحة لهذا النوع ، كما يتبين للقارئ .

ولكن الفن القصصي تجلى أكثر في أقاصيصه التي دعاها باسم «أقاصيص نموذجية» Novelus ejemplares ، وهي : «التورية» ، «العاشق الحر» ، «رنكونيته وكورتاديو» ، «الاسبانية الانجليزية» ، «المجاز قدريرا» ، «قوة الدم» ، «الغيور الاستريماوراوي» ، «الغسالة الشهيرة» ، «الفتاتان» ، «السيدة كورنليا» ، «الزواج الخداع» ، «حديث الكلاب» . ويمكن تقسيمها الى طوائف : (١) الطائفة الأولى تسود فيها النبرة المثالية ،

والتأثير الإيطالي ، مثل «العاشق الحر» ، «الفتاتان» ، «السيدة كورنليا» ، «الإسبانية الإنجليزية» ، «قوة الدم» . (٢) والطائفة الثانية تجمع بين النزعة المثالية والنزعة الواقعية ، وتشمل : «التورية» ، «الفسالة الشهيرة» ، «الغيور الاستريما دوراوي» . (٣) والطائفة الثالثة تسودها النزعة الواقعية ، وتدخل فيها : «رنكونيته» ، «الزواج الخداع» ، «حديث الكلاب» ، «المُجاز فديرييرا» . وإلى الطائفة الأولى تنتسب حكاية «الأسير» في «دون كيخوته» ، وإلى الطائفة الثانية تنتسب حكاية «الوقح العجيب» في «دون كيخوته» . ولما كان في عزمنا أن نترجم هذه «الأقاصيص النموذجية» فإننا نمسك هنا عن الخوض في تحديد خصائصها ، مرجنين الحديث عنها إلى التصدير الذي سنستهل به هذه الترجمة . ولنمض إلى القصة الطويلة ، إلى رائحته الكبرى ، «دون كيخوته» .

- ٣ -

«دون كيخوته»

نشر ثريانتس الجزء الأول من هذه الرائعة تحت عنوان «النبيل البارح دون كيخوته دلامنتشا» El ingenioso hidalgo don Quijote de la Mancha ، في مدريد سنة ١٦٠٥ عند الطابع خوان دلاكوستا . لكن بعض المعاصرين يشير إلى أن هذا الكتاب قد تداولته المحافل الأدبية في القصر الملكي وهو مخطوط قبل أن يطبع . كذلك ذهب البعض إلى الزعم بأن الكتاب هو توسع لأقصوصة قصيرة ، ولكن هذا الزعم على غير أساس . وطريقة تأليف الكتاب تثير الكثير من المشاكل . فالجزء الأول قسمه المؤلف نفسه إلى أربعة أقسام ، ولكن المؤلف عند نهاية القسم الأول من هذا التقسيم الرباعي يذكر أن ختام حادثة دون كيخوته مع الفتوة البشكونشي لم يوجد ، ولكن ثريانتس «لم ييأس أبداً من أن يعثر على خاتمة هذه الحادثة الشائقة» . ثم عدل ثريانتس عن هذا التقسيم حين نشر الجزء الثاني . وصار يتألف من جزئين .

ومشكلة أخرى هي عدم الإحكام في التأليف ، إذ تخلله الكثير من الحكايات العارضة التي تقطع تسلسل الرواية . وهنا نصل إلى مشكلة التأثيرات .

لقد رأى منندث بيدال Menendez Pidal أن الفصول الأولى من «دون كيخوته» متأثرة بمسرحية قصيرة entremes صاحبها مجهول ، والدليل على ذلك أن البطل يرى نفسه في أبطال الأغاني الملحمية الشعبية ، بينما في سائر الكتاب لا يفقد الشعور بشخصيته . ومن

ناحية أخرى ذهب بعض النقاد الى الظن بأنه وجد في الواقع مجنون ، استوحى منه ثربانتس شخصية دون كيخوته . والواقع أنه منذ القرن السادس عشر وحوادث جنون من هذا النوع يذكر وقوعها ، جنون سببته قراءة كتب الفروسية . فقد ذكر ثاباتا (١٥٢٦ - ١٥٩٥) Luis Zapata في كتابه «الأمشاج» Miscelanea - وهو كشكول جامع لحوادث ، وأقوال ومنازعات - حادثاً من هذا النوع فقال : «ولا شيء أعجب بين حوادث عصرنا العجيبة من فارس هادئ جداً ، عاقل جداً ، محترم جداً . ولكنه خرج مجنوناً من القصر بغير سبب ، وبدأ في ارتكاب حماقات أورلندو ، فانتزع ملابسه ، وصار عارياً ، وقتل حماراً بطعنات سكين ، وطارد العمال بالعصا ، ولما لم يعرفوا السبب في ذلك قالوا إنه ورث ذلك عن إحدى عماته ، وهكذا من المؤكد أن ثمة أحوالاً وصفات وراثية» .

ويقول مينندث پلايو Menendez Pelayo إن في «دون كيخوته» كل نماذج القصة السابقة على قصته . فالنوع الرعوي يظهر في حكاية مرثيلا وخريستمو ، والنوع العاطفي يتجلى في أخبار كردنيو ولوسنده ودوروتيه . وثمة تشابه في بعض الحكايات مع قصة «ديانا» تأليف مونتمايور . والآثار الإيطالية ظاهرة في ثنايا الحكايات التي يحفل بها «دون كيخوته» .

وهناك أشباه ونظائر خصوصاً بين هذا وبين «أورلندو الغاضب» لأريوستو ، وقد ذكرنا من قبل أنه كان معجباً بهذا الكتاب أثناء مقامه في إيطاليا .

كذلك رأى أولشر أسبين^(١) أن ثمة ما يدل على تأثير خوان دي فالدس (المتوفي سنة ١٥٤١) في ثربانتس ، وكان فالدس مصلحاً دينياً وناقداً أدبياً ، وعالمًا باللغة الإسبانية .

وبالجملة فقد خضع ثربانتس في «دون كيخوته» لجملة تأثيرات أدبية ، من حيث النوع الأدبي ، والتصوير للأشخاص ، حتى لكان هذه القصة جماع لكل الفن القصصي كما عُرف حتى ذلك الحين .

(أ) الدوافع إلى تأليفه:

والدافع الظاهري الأول الى تأليف هذه القصة هو السخرية من قصص الفروسية التي انتشرت انتشاراً هائلاً في اسبانيا في ذلك العصر - القرن السادس عشر - وكان لها ضحاياها . إذ يصرح في «الاستهلال» بأن القصد من كتابه «ليس إلا كبح بل تحطيم ما

(١) Oliver Asin: Iniciacion al estudio de la Historia de la lengua Española, 1949, p. 120.

لكتب الفروسية من تأثير وسلطان عند عامة الناس» ، وصديقه المزعوم يقول له : « ولتطلع ببصرك الى تحطيم هذه الآلة الفاسدة المؤلفة من كتب الفروسية ، مما يعافه الناس ، ويشني عليه أكثرهم » . كذلك يقول في ختام الكتاب : « وكان هدفي هو أن أجعل الناس يكرهون القصص المفتعلة الخيالية التي ترونها كتب الفروسية ، والتي بدأت - بفضل قصص «دون كيخوته» الحقيقي - تنهار ولا بد أن تسقط في النهاية » .

ولو تساءلنا عن الأسباب التي من أجلها يهاجم ثريانتس كتب الفروسية ، لوجدناها ترجع الى الأسلوب ، والى المادة .

فالأسلوب مفتعل ، كله صناعة وتعقيد . وثريانتس يرى أن يكون الأسلوب بسيطاً ، وخالياً من الصنعة .

وأما من حيث المادة فهو يأخذ عليها الكذب الذي تحفل به . إنها كاذبة ، زائفة . ولهذا يقول شماس طليطلة إن هذه الكتب شديدة الضرر على المجتمع ، وكلها يشبه بعضها بعضاً ، وهي تشبه الخرافات التي لا يبراد منها غير الإمتاع ، لا تلك التي يبراد منها ضرب الأمثال والإمتاع معاً .

وعلى هذا فإن فساد كتب الفروسية يقوم أولاً على أساس أنها تخلو من الاحتمال ، فهي بالتالي يعوزها الصدق الأدبي . وثريانتس يهاجم الأدب القائم على الخيال الجامح ، الذي يتفنن في خلق مواقف غير معقولة ، وفي إيراد مخارج منها أشد إغلالاً في عدم المعقولية . أعني أن ثريانتس كان يشترط في الأدب أن يكون صادقاً معقولاً ، بعيداً عن الخوارق والتهاويل ، واقعياً قدر الإمكان ، بحسب حساباً للطبيعة الإنسانية بعيوبها ونقائصها ومحدود قدرتها .

والنقد الثاني يقوم على أساس نظرة كلاسيكية في تقدير الأعمال الأدبية ، نظرة تقول بالاعتدال والتوازن والتناسب ، وتنفر من التهويل والمبالغة .

والنقد الثالث يقوم على أساس افتقار كتب الفروسية الى الحقيقة التاريخية .

ولكن إذا كان ثريانتس قد هاجم كتب الفروسية من ناحية النقد الأدبي ، فإنه في الواقع تأثر بها ، كما كان عصره متأثراً بها .

وكما لاحظ سلفادور دي مدرياج^(١) في بحثه العميق عن «دون كيخوته» بأن كتب الفروسية كانت واسعة الانتشار في كل أوروبا الغربية ، وليس في اسبانيا وحدها . وهناك ثلاث حقائق ينبغي أن نحسب حسابها :

Salvador de Madariaga: Don Quixote: an introductory essay in Psychology. Oxford, 1948, pp. 31 uqq. (١)

الأولى : أن كل الناس كانوا يقرأون كتب الفروسية ، ولم يكن دون كيخوته هو الوحيد في معرفتها ، بدليل أن القسيس ، والحلاق ، وابنة أخي دون كيخوته ، وصاحب الفندق ، والخدامة ، والناس الذين لقيهم في الطريق ، والتلاميذ ، والدوق والدوقة ، والشماس ، كل أولئك كانوا على علم بكتب الفروسية ومغامرات أماديس وذريته . هذا كله يرد في «دون كيخوته» نفسه ؛ فضلاً عن ذلك فإنه خلال المائة عام التي تلت نشر قصة «أماديس الغالي» ظهر حوالي خمسين قصة شعبية في إسبانيا والبرتغال ، وكانت تطبع بمعدل قصة كل عام بين سنة ١٥٠٨ وسنة ١٥٥٠ ؛ وأضيف إليها ٩ بين سنة ١٥٥٠ وسنة الأرمادا ، وثلاث أخرى قبل ظهور دون كيخوته^(١) . ومثل هذا الزواج حدث في إيطاليا وفرنسا وألمانيا وهولنده وانجلترا ، وفي كل الأوساط ، وخصوصاً بين النساء وعامة الشعب .

والحقيقة الثانية : هي أن أصحاب الامتياز العقلي يعلنون استنكارهم لكتب الفروسية ، معترضين عليها من حيث الذوق الكلاسيكي . والذين يمثلون هذا الاتجاه في «دون كيخوته» نفسها ؛ فارس المعطف الأخضر ، والقسيس ، وشماس طليطلة ، وثرباتنس نفسه . وقام بالحملة عليها في إسبانيا من هذه الناحية لويس فيثس (١٤٩٢ - ١٥٤٠) المفكر والمربي الكبير في عصر النهضة الإسبانية ؛ وفي إيطاليا هاجمها جيرولمو موتسيو ، وفي فرنسا مونتاني ، وفي ألمانيا يوستوس ليسيوس ، وفي هولنده ديرك كورنهرت ، وفي انجلترا بن جونسون .

والحقيقة الثالثة : أن كتب الفروسية قد شجعها أمراء وبلاطاتهم ، وبعض رجال الدين القلائل ، فنحن نعلم أن كارسل الخامس ، وفرنسوا الأول ، ولويس الرابع عشر ، ووليم الصامت كانوا مولعين بها ؛ وبفضل رعاية هؤلاء انتشرت في فرنسا وإيطاليا وهولنده وألمانيا . والقديسة تريزه الأبليّة كانت تدمن قراءتها في شبابها ، وكان القديس أغناطيوس دي لويولا ، مؤسس الطريقة اليسوعية ، من المغرمين بها حتى في سنّه الناضجة . وكذلك أعجب بها كبار الكتاب والأدباء ، وعلى رأسهم لويه دي فيجا الذي قال : «كثيرون يسخرون من كتب الفروسية... وهم على حق في ذلك إذا كانوا ينظرون فقط الى السطح الخارجي لها... لكن لو نفذوا الى الأعماق لوجدوا فيها كل أجزاء الفلسفة ، أي الطبيعية ، والعقلية ، والأخلاقية» . كذلك أعجب بها من بين كبار الأدباء في أوروبا : توركوأتو تسو ، وكورني ،

Henry Thomas: Spanish and Portuguese Romances of chivalry. Cambridge University Press, 1920, pp. 147-148 (١)

ومدام دي سفنييه ، وجيته ، ووالتر اسكوت ، والدكتور جونسون ، وبيرك ، وكيتس - كل هؤلاء قرأوا كتب الفروسية وأعجبوا بها ، وأقروا بجمالها وفائدتها .

« وثمة شك ضئيل في أن من الواجب أن نضع ثربانتس بين هؤلاء ، من حيث هو عبقرية مبدعة . ولا نفتقر لتأييد ذلك الى برهان مباشر وغير مباشر . فالذين يمثلونه في القصة - القسيس وشماس طليطلة - يتكشفون لنا في الواقع أقل كراهية لكتب الفروسية مما جعلونا نتوقع . فالقسيس ، في فحصه ، يستثني ما لا يقل عن أربعة من التحطيم (« أماديس الغالي » ، « بليانس » ، « پلمارين من انجلترا » ، « تيرانته الأبيض ») ، ويشيد باثنين منها ، بتحفظ في حالة (« تيرانته ») وبمبالغة في حالة أخرى (« پلمارين من انجلترا ») . وفضلاً عن ذلك فإن هذا الفصل يبرهن بكل قوة على أن ثربانتس كان من المدمنين على قراءة كتب الفروسية على نحو عجيب ، وأنه كان يعزفها كلها تقريباً معرفة وثيقة ثابتة ، وهو أمر أقل ما يقال فيه أنه لا يوحى بأنه كان يكرهها كراهية لا يمكن التغلب عليها . ولهذا فنحن لا نعجب حين نجد ثربانتس ، في شخص شماس طليطلة ، بعد أن يعرض كل اعتراضاته ضد كتب الفروسية ، يمضي للإشادة بها في موضع ، وإن كان مختلطاً في معايير الأدبية ، فإنه مع ذلك مدح واضح لها على أساس ما تهيؤه للعقل المبدع من مادة »^(١) .

ولهذا فإن من الواجب أن نبحث عن سبب آخر أكثر وجاهة وعمقاً ، مع بقاء السبب الأول عاملاً من العوامل الدافعة الى تأليف « دون كيخوته » .

لقد رأينا أي حياة حيّتها بعد عودته من الأسر ، فقر ، ومأس أسرية ، وسجن . اشترك في حملة فيليب الثاني على الأتورس (جزر الخالدات) ، وكان في مايو سنة ١٥٨٢ في تومار في البرتغال ، وكلف بمهمة صغيرة في وفادة الى وهران ، ثم عاد الى قرطاجنة في اسبانيا في شهر يونيو ، ومنها الى مدريد . ولم يكن له عمل ثابت . فاشتغل بالكتابة ، وغشى محافل الأدباء ، ونظم الشعر للنشر في المختارات ، وكتب سوناتات باسم الغير ، وألف حتى سنة ١٥٨٧ من عشرين الى ثلاثين مسرحية . ولكنه ظل مع ذلك فقيراً . ووقعت أخته مجدلينا في مغامرات غرامية مع عكسريين ومدنيين ، خرجت منها مثلومة العرض مخدوعة ، فعاشت مع ابنة غير شرعية ، فقيرة تكسب قوتها من الخياطة . وكان أبواه في فقر مدقع كذلك . وأخوه

(١) سلفادور دي مدريجا ، الكتاب المذكور ، ص ٢٤ . وانظر هذا الفصل كله بعنوان : ثربانتس وكتب الفروسية .

فقط ، رودريجو ، هو الذي كان ميسور الحال شيئاً ما ، إذ كوفئ على شجاعته في حملة الأتورس سنة ١٥٨٣ . وثرانتس وقع في غرام مع أنا فرنكا دي روخاس ، أنتج بنتاً غير شرعية كما قلت من قبل ، وتزوج في ١٤ ديسمبر سنة ١٥٨٤ من كتلينا دي بلاثيوس زواجاً غير موفق . وعين في سنة ١٥٨٨ موظفاً في حملات التفتيش والاستيلاء على البضائع ، ومحضلاً للمكوس والضرائب . ووقع في نزاع مع أصحاب البضائع أدت الى إصدار قرار بحرمانه دينياً ، إذ استولى على مخازن حبوب يملكها رجال الدين في اشبيلية . ونقل بعدها الى استجه Ecija للقيام بحملات الاستيلاء ، فوقع في مشاكل من جديد . وحاول الخلاص من هذه الوظيفة التي جلبت عليه السخط والمشاكل فتوجه بالتماس الى الملك يرجو تعيينه في إحدى الوظائف الخالية في أمريكا . ولكن التماسه قوبل بالرفض سنة ١٥٩٠ . وعاد الى وظيفة محصل الضرائب يمارسها في مدن كثيرة ومقاطعات عديدة ، في صيف سنة ١٥٩٣ في استجه ومرشانه وأثريه ، وفي خلال سنة ١٥٩٤ في مقاطعة غرناطة ، وحتى نهاية السنة عمل أيضاً في قادس ، ورنده ، والمنكر ، وخموتريل ولوشه . ولكن كانت عليه متأخرات في التحصيل ، وكان دائماً يطالب بها .

وتوفي أخوه في سنة ١٦٠٠ في معركة نيوبورت Nieuport حيث انتصر موريس دي نساو على ألبرت ابن أخي فيليب الثاني . وانهاالت مطالبات الخزائن على ثريانتس بالمتأخرات التي عليه . وفي سنة ١٦٠٢ سجن في أشبيلية بسبب مخالفة بسيطة . وهكذا أمضى حياته هذه بين قضايا ، وعمليات حسابية ، وعمليات استيلاء ، ومضايقات من كل الأنواع ، وسجن بين الحين والحين .

وانتقل ثريانتس الى بلد الوليد في سنة ١٦٠٤ . وفي يوم الاثنين ، السابع والعشرين من شهر يونيو سنة ١٦٠٥ ، استيقظ أهل مسكنه على صوت نداء استغاثة . فاستيقظ لويس واستبان دي جاريباي ومعهما الشموع ليشاهدا ماذا جرى ، فوجدا عند مدخل البيت رجلاً نبيلاً ، مسلول السيف ، والدماء تتدفق من جروحه العديدة . فناديا على ثريانتس ، وقام الثلاثة بمساعدة الجريح ، ونودي على قسيس وجراح وشرطي . وهذا الجريح هو جسيار دي اثلپيتا ، من بمبلونه في مقاطعة نبره ، وفارس من فرسان طريقة شنت يعقوب (سنتياجو) . ولكنه كان بانساً ، في بلد الوليد ، غير أنه كان صديقاً للمركيز دي فالنيس de Falces ، وهو قائد فرقة البنادق الملكية . وتوفي اثلپيتا في يوم ٢٩ دون أن يفصح عن اسم القاتل . ولكن التحقيق دل على أنه كان ثم مباراة بينه وبين القاتل ، انتهت الى إصابته بجراحات بالغة . كما تبين أنه كان على صلات غرامية بإحدى السيدات المتزوجات اللواتي

تسكن في بيت ثريانتس . ولهذا لا يستبعد أن يكون زوجها هو الذي جرح اثيليتا بعد تبادل عبارات . ودارت الظنون حول ايزابلا بنت ثريانتس . ولهذا دارت الشكوك حول ثريانتس نفسه وأنه هو القاتل أو المتعارك مع اثيليتا ، فأمر القاضي باعتقال ثريانتس وبنته ، وأشخاص آخرين . وبعد تحقيق طويل تبين أنه لا شأن لثريانتس وسيدات بيته بمقتل اثيليتا ، وأن هذا إنما كان على علاقة مع زوجة أحد القضاة واسمه جلفان ، وأن المعركة دارت بينه وبين جلفان هذا . لكن على الرغم من إعلان براءة ثريانتس فقد جرّ هذا الحادث عليه الويلات ، ودارت الشائعات حول بنته .

ومثل هذه الحياة الحافلة بالشقاء والمشاكل والاتهامات الباطلة والدعاوى الظالمة كان من شأنها أن تملأ نفسه مرارة وأسى ، جاهد فلم يلق جزءاً عن جهاده ، وبرز في الأدب ، فلم يكافأ المكافأة اللائقة ، واضطر إلى العمل في وظائف هي بطبعها مصدر مصادمات ودعاوى كاذبة ومتاعب لا تنتهي ، وتوالى عليه المصائب في أهله وبيته وشرف ابنته ، واتهم كذباً بالقتل . كل هذا جعله يئس من الإنسان والدنيا ، ويتجرع طعم الرماد في كل شيء . لهذا لم يجد خيراً من السخرية والتهكم يستعين بهما على احتمال الحياة ، ولم يجد خيراً من عالم الفن القصصي ينتقم فيه لنفسه مما يلقاه من ظلم الناس ودنيا الناس .

ولهذا هاجم الناس جميعاً بسخرية لاذعة وتهكم قاتل في هذه الرائعة الكبرى ، «دون كيخوته» . هاجم البلديات ، وعقليتها الضيقة ، وهاجم الأديرة وأنظمتها الزائفة الكاذبة ، وهاجم «التفتيش» Inquisicion بجبروته وطغيانه واستبداده ومظالمه التي لم تشهد لها الإنسانية مثيلاً في تاريخها الحافل مع ذلك بالمظالم ، وسخر من أدياء الشجاعة ، وأدياء الحكمة ، وأدياء التقوى ، وتهكم على النقابات بسلوكها النفعي وسخر من الجماعات الأدبية وما يسودها من حسد ونفاسة ووضاعة ، وما يصدر عن الشعراء والكتاب الموضعا من مهازل أدبية وتملق ورياء وما يلجأون إليه من كسب وضيع عند أقدام الأقوياء ، وتغامز على رجال العدالة ، ورجال الدين ، ونبلاء الأقاليم . وبالجمل فإنه لم يدع طبقة ولا طائفة ولا جماعة إلا وسلقها بالسنة حداد من التهكم النافذ والسخرية الجارحة .

وهكذا جاء «دون كيخوته» سخرية من البطولة الزائفة ، والعدالة المموهة ، والحقارة الاجتماعية ، والنفاق الذي ساد في ذلك العصر فرفع أقدار العاجزين ، وأعطى المراتب الرفيعة للدسائس والغشاشين والمتملقين والزاحفين والموضعا . ويكفي أن يعلم المرء أن أقوى شخصية في ذلك العصر ، عهد فيليب الثالث ، كان راهباً يتلقى الاعتراف من الملك ، ويدعى الأخ لويث ألياجا Luiz Aliaga ، الذي ولد حوالي سنة ١٥٦٠ وتوفي سنة ١٦٣٠ .

ولد من أسرة فقيرة ثم انخرط في الرهبنة الدومينيكية ، وصحب القديس فرنسيسكو اكسافير مدة من الزمن . ثم عين متلقي اعتراف الملك حوالي سنة ١٦٠٠ ، ومنذ ذلك الوقت وتأثيره في الدولة في تزايد مستمر حتى صار بعد قليل الحاكم الحقيقي غير المتوج في كل اسبانيا ، وعُيّن القائم الأكبر على «التفتيش» في اسبانيا ، فأصدر قراراً بإرغام المسلمين على التنصر أو مغادرة اسبانيا ، ونفذ هذا القرار الإجرامي أبشع تنفيذ . وفي الوقت نفسه كان هذا الراهب الهزيل النحيل المعروق العظام مرتشياً فاحش الارتشاء ، يرتشي بالجواهر والمذابح الذهبية والبقايا المقدسة ، والمبالغ النقديّة الطائلة ، وبكل ما يعرض عليه «من أجل تسيير ضمير الملك» كما قال . ودبر قتل كبار القوم ، فاتهم بتدبير مقتل الكونت دي فلانديانا الذي كان يقف في وجه أطماعه ، وذلك بأن سلط عليه مجهولاً صرعه .

والى هذا الراهب السفاح الجامع لكل صفات الخساسة والحقارة ينسب تأليف الجزء الثاني الزائف من دون كيخوته الذي نُشر سنة ١٦١٤ . ونمسك عن مزيد من الكلام في هذا الباب لأننا نتناول هذه المشكلة في مقدمة الجزء الثاني من «دون كيخوته» .

قصد إذن ثرياتس من «دون كيخوته» أن يكون مرآة للعصر ، بكل مخازيه الاجتماعية والسياسية والإدارية ، وما يعج به من رذائل ونفاق ودعاوى زائفة في الآداب والأخلاق . وقد تناول هذا كله بسخرية ليس حزينة ، بل بهجة ، تنظر الى العيوب بأفق ، وتتردد بين البسمات والعبرات .

(ب) بناء «دون كيخوته»:

قلنا إن الجزء الأول من «دون كيخوته» حين ظهر سنة ١٦٠٥ كان مقسماً الى أربعة أقسام واستمر هذا التقسيم حتى ظهر الجزء الثاني من «دون كيخوته» سنة ١٦١٥ . وكانت الأقسام على النحو التالي :

- ١- القسم الأول : الفصول ١ - ٨ ؛ ٨ ؛ فصول
- ٢- القسم الثاني : الفصول ٩ - ١٤ ؛ ٦ ؛ فصول
- ٣- القسم الثالث : الفصول ١٥ - ٢٧ ؛ ١٣ ؛ فصلاً
- ٤- القسم الرابع : الفصول ٢٨ - ٥٢ ؛ ٢٥ ؛ فصلاً

والقسم الأول يروي الخرجة الأولى لدون كيخوته وبداية الخرجة الثانية ، وفيها مغامرة الطواحين ، وبداية مغامرة البشكوني .

والقسم الثاني يبدأ بختام مغامرة البشكوني ، ويحكي قصة مرثيلا وخريستمو .
والقسم الثالث يحكي لقاءه مع الينجواسيين الأشرار ، وما وقع له في الفندق الذي حسبه قصراً هو وحامل سلاحه ، والمغامرة مع قطعان الغنم ، ومع جثة الميت ، ومع الطواحين ، وخوذة ممبرينو ، والمحكوم عليهم بالإعدام ، ومقامه في جبل الشارات (سيرتا مورينا) وقصة كاردنيو . وفي الفصلين الأخيرين من هذا القسم - ٢٦ ، ٢٧ - يعود القسيس والحلاق للظهور بقصد إعادة دون كيخوته الى قريته . وهذا الفصلان ٢٦ ، ٢٧ يعدان المحور الذي تدور من حوله القصة في جزئها الأول ، فهما معقدا الصلة بين الخمسة وعشرين فصلاً الأولى ، والخمسة وعشرين فصلاً الأخيرة . وفي هذه تبلغ أوجهاً وكمال تحقيقها لفكرتها الأساسية . ومن هذا المحور المركزي يمكن إدراك الجزء الأول من دون كيخوته بوضوح ، إنه قلب القصة .

والقسم الرابع يروي أحاديث دوروتييه ، وقصة المستطلع الأخرق ، ومعركة دون كيخوته مع قزب النبيل الأحمر ، وقصة ولية العهد ميكوميكونا ، ثم حكاية الأسير (ثربانتس) نفسه ، وما وقع من غرائب الحوادث في فندق ، ومغامرة دون كيخوته مع جنود الأخوة المقدسة ، وكيف سُحر ، وحديث الشماس عن كتب الفروسية ، وما جرى من جدل بينه وبين دون كيخوته ، ونزاع دون كيخوته مع المغاز ، ثم عودة دون كيخوته وسنشو پنشا الى قريتهما .

ومسار الحركة في القصة يتلخص في خروج دون كيخوته ، وهو نبيل من إقليم المنتشا ، من الطبقة المتوسطة بين النبالة الحقيقية وبين عامة الناس ، خروجه من بيته في قرية لم يشأ ثربانتس ذكر اسمها ، بحثاً عن المغامرات ، ثم عودته الى قريته بعد ما وقعت له عدة مغامرات تثير الضحك والإشفاق معاً . وقد خرج مرتين ، الأولى تتألف من ١- الخروج من بيته ، ٢- فندق ومغامرة ، ٣- عودة ومغامرتان . والخرجة الثانية تتألف من : ١- خرجة ، ومغامرات وأحداث عارضة ، ٢- فندق ، ٣- مغامرات وأحداث عارضة ، ٤- فندق ، ٥- عودة ، ومغامرة وحادث عارض . والخرجة الأولى مرتبطة بالثانية ، فالأولى تمثل الفكرة الأساسية العامة ، والثانية تعطي التفاصيل ، الأولى توضح المعنى العام ، والثانية تتعقد فيها الأحداث العارضة والمغامرات .

والموضوع الأساسي في القصة هو التعارض بين أحوال وأعمال الوسط الاجتماعي النبيل

من المنتشا ، وبين فكرة غريبة جداً هي أن يصبح فارساً جوالاً ، وأن يبعث بذلك العصر الوسيط . ومهمة الفارس الجوال هي حماية المستضعفين ، ومعاقبة المجرمين ، وتصحيح الأخطاء ، والقضاء على الجرائم ، والفصل بين المنازعات لصالح العدالة ، والانتصاف للمظلومين . وغلطته الوحيدة هي أنه ولد متأخراً عن العصر الذي كان يجب أن يولد فيه ، متأخراً بثلاثة قرون .

وهذه الفكرة الغربية إنما تولدت في ذهنه من قراءة كتب الفروسية وتشبع نفسه كلها بها ، حتى تسلطت على عقله تسلطاً جنونياً .

- ٤ -

شخصية دون كيخوته

قلنا إن دون كيخوته من النماذج الإنسانية الكبرى . وقد قال سلفادور دي مدياجا « إن دون كيخوته ، وسنشو ، ودون خوان ، وهاملت ، وفاوست هم أعظم شخصيات أبدعها الإنسان ، وقد تدرت صورهم - وهم في هذا يشبهون الرجال العظام الذين خلقهم الله مباشرة - في كل جيل بدثار متزايد من الأساطير والآراء والتفسيرات ، والرموز . وهذه ميزة للكائنات الحية التي أبدعها الفن والتي بحيويتها تفرض شخصيتها على العقل الكلي للإنسانية .

« في فاوست يتجلى الميل إلى إبداع الأفكار جزءاً من خلق الشخصية كما انبثقت من عقل جيته (وربما حتى من عقل مارلو) . إن جيته شاعر من نوع خاص ، ألماني جداً في نزعة العقلية ، وفي اهتمامه بالثقافة والفلسفة على نحو من شأنه أن يضعه في جو نبيل سام من التصورات والرموز حتى حين يعبر عن نفسه بوصفه فناً مبدعاً . ومن هذه التصورات والرموز صنعت شخصية فاوست . فلا عجب إذن أن يضيف كل جيل من القراء جواً فكرياً جديداً إلى الجو العقلي الفني الذي تصوّرت فيه شخصيته .

« ولا شيء من هذا في شكسبير ، فهذا شاعر خالص ، يشعر أكثر مما يفكر ، كما كان يلذ لأونامونو أن يقول ، وفكره ، في حيويته ، يجري مثل العصارة أو الدم ، خلال البنية القوية لشعره . لكن هاملت يبعث نشاطنا العقلي بواسطة شعور السكون والخواء الذي يحملهما سرّ شخصيته . إبداع عظيم غامض ولا يمكن تفسيره للعقل ، حقيقي عيني بالنسبة إلى الغريزة ، معروف قبل أن يفهم كالأشخاص وشؤونها في الحياة ، هاملت هو هذا كله إنه تقعر ، وخواء إنساني يحاول العقل أن يملأه بأفكاره وتفسيراته . ومن هنا جاء

ذلك المحصول الوافر من الأفكار حول هاملت ، المحصول الذي يلقي به كل جيل في هوة شخصيته المتسلطة .

«ودون خوان يجذب النقاد لعدة أسباب ، من بينها تنوع نموذجه وتطوره من الصورة التي قدمها ترسو دي مولينا في ملهاته العظيمة غير المستوية ، حتى الصورة غير المعقولة ، ولكنها طريفة التي قدمها ثورياً ، وصفته البارزة بوصفه بطل الحب الطاعي ، والتنوع الحديث لشخصية أفروديت التي لا ترحم ، وثالثها ، وإن لم يكن أقلها ، الميل الطبيعي عند كل كاتب إلى إغناء نفسانية دون خوان بتجاربه هو الدون خوانية .

«أما فيما يتصل بدون كيخوته وسنشو ، فإن محصول الأفكار والتفسيرات ، والرموز التي تنمو وتتجمع حولهما - إنما يرجع فقط الى عمق روحيهما ، وثرء التربة الإنسانية التي نَقَبَ فيها دون كيخوته من خلالهما ، والى ذلك الإيقاع الدقيق للمغامرة المزدوجة التي تأسر الخيال وتطبعه منذ البداية ببساطتها الظاهرية ، ثم تغزو العقل بتعقدها المُدْهِل .

«وعلى هذا النحو دُفِنَتْ شخصيتا دون كيخوته وسنشو تحت ثناء من الأفكار والرموز ، وبعضها غير معقول ، وبعضها الآخر عميق نقاد ، ومعظمها صادر عن توازن وتقابل لا يوجد في الكتاب ، وما هو إلا نتيجة لتعارض زائف سطحي بين الفارس وحامل سلاحه . فالزوج دون كيخوته - سنشو يفسران على أساس التضاد ، وخصائصهما تحولت الى سلسلتين من القيم المتعارضة . فالى دون كيخوته تعزى سلسلة من : «الشجاعة - الإيمان - المثالية - اليوتوبيا - الحرية - التقدم» ، بينما تعزى الى سنشو سلسلة مضادة تماماً تتألف من : «الجهنم - التردد - الواقعية - النزعة العملية - الإدراك الواقعي - الرجعية»^(١) .

ويريد سلفادور دي مدياجا أن يعدل من هذه النظرة التقليدية الى كلا البطلين ، فيقول إن حالة دون كيخوته هي حال خداع ذاتي . إنه حالم ، خجول في أمور الحب ، يقضي معظم أيامه في فراغ من العمل ، وكان مولعاً بكتب الفروسية ، ولكن لا عجب في هذا من أجل إزجاء أوقات فراغه وما أطولها وكان يحب المسرح . وسخاؤه وأدبه كانا مضربا الأمثال . وعقله سليم في كل ما لا يتعلق بشؤون الفروسية الجوّالة . وروحه تنم عن الرحمة والإخاء ، وتشيع فيها روح دينية متحفظة في مظاهرها الخارجة .

وكان خداعه لنفسه في البدء خفياً ، ولكنه زاد كلما اصطدم بالوقائع في مغامراته ، فلم يكن على شعور واضح بشخصيته ، وبمدى قدرته .

(١) سلفادور دي مدياجا ، «دون كيخوته» ص ٨١-٨٢ .

أما سنشو ، فهو في نظر سلقادور دي مدرياجا « نغمة أخرى من دون كيخوته في مقام موسيقى آخر » (ص ٩٦) . وكلاهما أخوان ، وصانعهما (ثربانتس) قصد أن يرسمهما وفقاً للنموذج نفسه . ويسعى دي مدرياجا جهده في بيان رأيه الغريب هذا ، بأن يبين أنه لم يكن جباناً ، بل كان شجاعاً عند الحاجة ، وأن الأساس في أخلاقه هو التعارض بين ثقته وسلامة رأيه حين يواجه الواقع العيني ، وبين عجزه وسذاجته حين يواجه الأمور المجردة ، « إن سنشو يعالج الأفكار المتجسدة في أجسام مادية بثقة ، ولكن عقله يصيبه الشلل حين يدخل عالم الأفكار المجردة والأشباح والتهاويل ، وهي أمور يضعها كلها عقله المختلط في باب واحد » (ص ١٠٥) .

وعلى الرغم من طرافة رأي مدرياجا ومهارته في تحليل كلتا الشخصيتين ، فمن العسير أن نوافقه على هذه المفارقة ، أولاً لأنها تضر إضراراً بالغاً بشخصية دون كيخوته لصالح سنشو ، دون أن يفيد هذا التقريب بين كليهما في شيء ، إلا من الناحية الإنسانية ، ولا من ناحية الفن . ولولا هذا التعارض المستمر بين كلتا الشخصيتين في رد فعلهما بإزاء المواقف التي تتبدى لهما ، لما سارت القصة على النحو الذي سارت عليه . ثم إن الهدف الأول ، وهو بيان فسر كتب الفروسية ، سيفيغ تماماً لو قربنا بين كليهما ، لأن سنشو لم يقرأ ، ولم يكن في وسعه أن يقرأ ، حرفاً واحداً من كتب الفروسية ، بينما لوثة دون كيخوته مردها - في بادئ الرأي على الأقل - إلى إدمانه على قراءة كتب الفروسية . ثم إن سنشو لم يصدر في أعماله كلها عن أية نبالة أو سخاوة في الأخلاق ، بل كان دافعه الوحيد دائماً هو النهم المادي والجشع والرغبة في الامتلاك .

ألا إن هذا التقريب بين الشخصيتين ليفقد القصة أروع ما فيها ، إنه محاولة زائفة من أجل التباهي بالتجديد المنطوي على إثارة المفارقات ، مما برع فيه - مع الأسف الشديد - بعض الطامعين في الطرافة بأي ثمن ، على حساب الذوق الفني ، والحقائق التاريخية ، والتمييز العقلي السليم ! ولا شيء أشد إفساداً لحكم الباحث أو الناقد من مثل هذه النزعة الضالة المضللة ، بل هذه اللعبة السخيفة .

إن دون كيخوته رمز النبالة الساعية في خير الإنسانية ، ولكن وسائلها العاجزة لا تستطيع تحقيق أمانها ، رمز للمثل الأعلى الإنساني ، الذي دائماً يصطدم بالواقع الكالحي فينتهي بالإخفاق ، ولكنه إخفاق هو عندي أعظم من كل نجاح عملي مادي واقعي لاصق بالطين ، إنه القطب الهادي دائماً إلى مزيد من السمو الإنساني ، الداعي إلى مزيد من العدالة والإنصاف وتقرير الحقوق ، إنه صوت العدالة العليا تصرخ في عالم حافل بالمظالم ،

ولا عليه إن ظل صوتاً « يصرخ في البرية » فإن هذا النداء - حتى لو كان خافتاً جداً تطفئ عليه كل أصوات الظلم والنفاق والخديعة والوضاعة والمَلَق والدسّ والوصولية والإمعية - سيظل دائماً العلامة على نبل جوهر الإنسان ، رغم خساسة أفعاله ودناءة أطماعه . والإنسانية لم تتقدم على مدى الزمان إلا بفضل نماذج قليلة من دون كيخوته تألقت في سمائها الملبّدة بالغيوم في لحظات صحو وصفو نادرة . وإذا كان النجاح في واقع الحياة من حظ من يسلكون مسلك سنشو پنتا ، فتتّب لهذا النجاح الوضع الدنيء ، بل تتبّ للإنسانية كلها إن صارت كلها من نوع سنشو پنتا وعدمت كل دون كيخوته

مدريد - برن (سويسرة)

عبد الرحمن بدوي

١٩٥٥ - ١٩٥٦

التبيل البارع دون كيخوته دلامنتشا

تأليف

ميغيل دي ثرینتس سابدرا

استهلال

أيها القارئ الخلي!

تستطيع أن تصدقني دون أن تستحلفني إذا قلت لك إنني كنت أودّ لهذا الكتاب ، لأنه وليد عقلي ، أن يكون أجمل وأروع وأظرف ما يمكن تخيله . بيد أنني لم أقو على مخالفة نظام الطبيعة الذي يقضي أن يلد الشيء شبهه . وماذا عسى إذا أن تلد قريحة عقيم فاسدة التهذيب مثل قريحتي ، اللهم إلا تاريخ ولد جاف هزيل شاذ مليء بالأفكار المتفاوتة لم يتخيّل مثله أحدٌ من قبل ، وكأنه إنما ولد في سجن فيه لكل المضايقات مقاعدها ، ولكل نائمة حزينة منزلها ؟ إن الراحة وسكون المقام وطيب المروج وسجّو السموات وخرير الينابيع ودعة الروح - كل أولئك تردّ عظم ربّات الوحي خصباً بالغاً ، وتهب الدنيا ثماراً تملؤه رضى وإعجاباً . لكن لو حدث لوالد أن كان له ولدٌ دميم خلا من كل ملاحظة ، إذا لألقى حبه إياه على بصره غشاوة فلا يرى معاييه ، كلا بل يراها آيات ذكاء ومفاتيح يرويها لأصدقائه على أنها مخايل لطف وحلاوة شمائل . وإنني وإن لم أكن غير أب زعيم لدون كيوخوته - وإن بدا أنني أبوه حقاً - فلست أريد أن أساير العرف الجاري ، ولا أن أضرع إليك ، أي قارئ العزيز جداً ، كما يفعل غيري فألتبس منك ، وكأن في عيني عبثة ، أن تغتفر أو تغضى عما عسى أن ترى في ابني هذا من أخطاء ، فما أنت له بقريب ولا صديق ، ونفسك معه بين جنبيك حرّة مختارة كأنك أجمل من تحلى بزيّنة ، وتقيم في بيتك سيداً مطاعاً سيادة السلطان على ما يُجبى من خراج ، وتعلم المثل المشهور : «تحت رداثي أقتل السلطان» . وكل هذا يعفك من كل التزام قبلي واحترام ، وهكذا تستطيع أن تقول عن (هذا) التاريخ كل ما يحلو لك ، دون أن تخشى عقاباً عما تقول من سوء ، أو ترجو ثواباً لما نناله به من خير .

بيد أنني كنت أود أن أقدمه إليك مجرداً عارياً ، لا أزيّنه باستهلال ولا بفَتْرةٍ لا ينتهي ، من الأناهيد والأهاجي والمدائح المعتادة التي ألفها الناسُ في مطالع الكتب . لأنني أستطيع أن أقول إنه على الرغم مما كلفني تأليفه ، فإن أشق ما صادفته هو كتابة المقدمة التي تقرؤها الآن . فكأين من مرة أمسكت بالقلم ثم أُلقيت به لأنني لم أكن أدري ماذا أكتب . وكنت على حيرتي هذه ذات يوم ، الورق أمامي والقلم على أذني ومرفقي يستند الى المنضدة ، وكفني على خدي أفكر فيماذا أقول ، وإذا بصديق ذكي لطيف يدخل عليّ ، فلما رأيته حالماً مفكراً سألتني عن السبب . ولم أشأ إخفاءه عنه ، فأجبت أنه إنما أفكر في الاستهلال الذي عليّ أن أدبجه لتاريخ دون كيخوته ، وأن اليأس بلغ مني مبلغاً جعلني أقرر العدول عنه فلا ترى النور هذه الأعمالُ المجيدة التي قام بها ذلك الفارس النبيل .

قلتُ له : « كيف تريد مني ألا أحفل بما عسى أن يقوله ذلك المشرّع القديم المسمّى بـ«الجمهور» ، حينما يراني بعد أعوام طوال رقدت خلالها في صمت النسيان وقد جئتُ اليوم حاملاً أعوامي على عاتقي ، ومعني أسطورة جافة جفاف عود الغاب ، فقيرة من الإبداع ، هزيلة الأسلوب ، عارية من الأفكار ، يعوزها التحصيل العلمي والمذهب ، خالية من الحواشي على الهوامش ومن الشروح في الآخر . - بينا أرى كتباً أخرى ، وبعضها أيضاً خرافي قصد به العامة ، أراها حافلة بكلمات أرسطو وأفلاطون وزمرتهما من الفلاسفة على نحو يجعلها مصدر إعجاب القراء فيرون في مؤلفيها علماء محققين وفُصحاء مُحصلين ؟ ولله درهم حينما يقتبسون من آيات الكتاب المقدس ؟ إذ لن رأيتم أنداداً للقديس توما وأضرابه من علماء الكنيسة الفحول انظر الى مهارتهم الفائقة حينما يصوّرون في سطر عاشقاً فاسقاً ، إذا بهم في السطر التالي يدبّجون موعظة قصيرة مسيحية ما أمتع سماعها وقراءتها ومن هذا كله خلا كتابي ، إذ ليس لديّ ما أحشني به في الهامش أو أشرحه في الآخر ، ولا أدري أي مؤلفين اتبعت حتى أذكر أسماءهم في مطلع كتابي ، كما فعل غيري ، في ترتيب أبجدي يبدأ بـ«أرسطو» وينتهي بـ«كسينوفون» أو «زويلوس» و«زيوكسيس» ، وإن كان أحدهما ناقداً حاسداً والثاني رساماً . وينقص كتابي أيضاً الاستهلال بالأناشيد ، أو على الأقل بأناشيد مؤلفوها دوقات أو مركيزات أو كوندات أو أساقفة أو سيدات أو شعراء مفلقون ، وإن كنت واثقاً أنني إذا طلبت بعضها من صديقين محترفين أو ثلاثة لأعطوني منها ما لا يضارعه أناشيد أشهرهم في بلادنا أسبانيا . - وأردفت قائلاً : « وأخيراً ، أي سيدي وصديقي ، قد عقدتُ العزم على أن يبقى السيد دون كيخوته مقبوراً في أضابير محفوظات إقليم الماتششا ، حتى تأذن السماء فترسل من يزيّنه

بكل هذه الأشياء التي تنقصه ، لأنني أشعر بعجزتي عن تجهيزه بها ، نظراً الى قلة بضاعتي وضآلة تحصيلي ، ولأنني بطبعي متكاسل عن السعي وراء مؤلفين يقولون لي ما أجيد قوله دونهم . وذلك مصدر ما وجدتنني فيه من حيرة وحلم ، وهو سبب كاف كما سمعت لإغراقي في كليهما » .

وما سمع صديقي هذا الكلام حتى ضرب جبينه بكفه واستغرب عليه الضحك وقال :
« أخي ! بربك لقد انتشلتني من وهم كنت فيه منذ أن عرفتك ! فلقد كنت أحسبك رجلاً عاقلاً ، حكيماً في كل أعمالك ، لكنني أراك الآن بعيداً عن أن تكون كذلك بُعد الأرض عن السماء . وأنى لمثل هذه التفاهات اليسيرة العلاج أن تعوق عقلاً ناضجاً مثل عقلك وأن تحيره ، وهو الذي اعتاد أن يهاجم ويدلل ما هو أشد وأصعب ؟ الحق أن هذا ليس منشؤه قلة المهارة ، بل إفراطاً في الكسل وفقراً في التفكير . أتريد مني إثبات صحة ما أقول ؟ إذن انتبه وسترى كيف أقضي ، ما بين غمضة عين وانتباهتها ، على كل هذه الصعوبات وأعالج كل هذه العيوب التي تقول عنها إنها تضاييك وتخيفك إلى حد يجعلك تعدل عن إذاعة تاريخ رجلك الشهير دون كيخوته ، نور الفروسية الجواله كلها ومرآتها » .

فأجبتة وقد سمعت كلامه : « على أي نحو ترى إذن أن تملأ فراغ خوفي وتكشف الغمة عن اضطرابي ؟ » .

فقال مجيباً : « أما عن أول شيء يضاييك ، وهو ما يتصل بالأناشيد والأهاجي والمدائح التي تنقص استهلال الكتاب ، فالعلاج عندي أن تبذل شيئاً من المجهود في نظمها بنفسك ثم تنسبها الى ما تشاء من أسماء ، وما عليك إذا نسبته الى النجاشي إمبراطور الحبشة أو إمبراطور طرابزون ، فقد شاع عنهما أشاعران فحلان ، فحتى لو لم يكونا كذلك ورأيت بعض المتحذلقين و« العلماء المدققين » يعضون ذيلك لمثل هذا القول ، فلا تحفل بهم مقدار مُرابطين^(١) ، إذ لو انكشف كذبك ، لن تقطع اليد التي كتبتة .

« أما عن ذكر الكتب والمؤلفين في الهامش ممن نقلت عنهم الكلمات والأقوال التي وضعتها في تاريخك هذا ، فما عليك إلا أن تتصرف بحيث ترد بعض الجمل اللاتينية في موضعها المناسب ، من محفوظك أو مما لا يكلفك البحث عنه جهداً كبيراً . فمثلاً حينما تتكلم عن الرق والحرية تستطيع أن تكتب :

(١) مرابطي Maravetli ، عملة إسبانية اختلفت قيمتها بحسب الأزمنة ، أشهرها كانت من النحاس وتساوي ٢٤/١ من الريال real .
(أي ٤/٣ سنتيم من البسيطة) .

« الحرية أغلى من أن تباع بكل الذهب »^(١)

ثم تذكر في الهامش اسم هوراس أو من قال ذلك . فإن اتصل الأمر بقدره الموت ، فعليك بقول القائل^(٢) :

« يركل الموتُ صرّح من أوتى المُلدُ

ملك ، برجليه رَكَلَ كوخ الفقير »

وإذا عرض الحديث للحب الذي يأمر به الله نحو الأعداء ، فادخل من فورك الكتاب المقدس وهو أمرٌ لا يحتاج إلا الى قليل من الاهتمام ، واذكر على الأقل قوله تعالى : « أما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم » . وإذا تطرقت الى الأفكار السيئة ، فاذكر ما ورد في « الإنجيل » : « وتطرد من قلبك خواطر السوء »^(٣) ، أو الى تغيّر الخلال ، فاستعن بمثنوي كاتو^(٤) ،

إن نِلْتُ سَعْدًا ازددت وُدًا
فإن أغصمتُ أصبحتُ قُرْدًا

فبمثل هذه الفتات من اللاتيني وأشباهاها ، سيقولون عنك إنك نحويٌّ ، وهذا أمرٌ ليس بالهين ولا الزهيد في هذه الأيام .

« أما عن وضع حواشٍ وشروح في نهاية الكتاب ، ففي وسعك أن تفعله بكل اطمئنان على النحو التالي : فإن كان عليك أن تذكر اسم مارد في كتابك ، فاجعله المارد جالوت^(٥) ، تظفر بحاشية طويلة متهينة لا تكلفك شيئاً ، إذ تستطيع أن تقول : « وكان المارد جالوت من بني فلسطين ، قتله الراعي داود بحجر من مقلّعه في وادي البطم ، كما رُوي في « سفر الملوك » في الإصحاح الذي يقصّ هذه الحكاية »^(٦) . ولكي تبدو عالماً راسخاً في الآداب

(١) هذه العبارة ليست لهوراس ، بل وردت في « خرافات ايسوبوس » (خرافة الذئب والكلب ، الكتاب الثالث ، خرافة رقم ١٤) . وقد اعتذر كورتيجون Cortegon عن ثريانتس هنا فقال : « حينما تلقى ثريانتس زيارة الوحي ، لم يكن له أن يقطعها وينلق الباب من أجل أن يذهب للبحث عن صاحب هذه الجملة التي انتزعتهما ذكرى قراءة قديمة غامضة من ذاكرته » . ويرى رودريجت مارين أن يعتذر عن ثريانتس بأن يراعى أمران (الأول) أن ثريانتس ليس المتكلم هنا بل أحد أصدقائه ، والثاني أن هذا الصديق لا يؤكد أن هذا القول لهوراس بل يقول : « ثم تذكر في الهامش اسم هوراس أو من قال ذلك » (راجع نشرة مارين ص ٣١ تعليق ٥) .

(٢) هوراس ، الكتاب الأول ، النسخ الرابع Carmina, I, vol. IV .

(٣) « إنجيل متى » ، الفصول ٥ ، ١٥ .

(٤) أوفيد يوس ، « الأحزان Tristes » ، المراثية رقم ٦ .

(٥) مارد من بني فلسطين طوله ستة أذرع ، ولد في جيث ، وتحدى جميع المبرانيين . ولكن (النبي) داوود برز له في مبارزة منفردة ولم يكن معه غير مقلّاع ، فجندله بحصاة واحدة ، وانتزع منه سيفه ، واحتز به رأسه . قال الطبري : « فلما عاين جالوت قذفه بحجارة فصكه في رأسه ومات ، وانهزم بنو فلسطين وحصل النصر » .

(٦) « سفر الملوك ١ » فصل ١٧ (= « صمويل » الأول ، إصحاح ١٧) .

الإنسانية والكونيات ، فاجعل نهر التاجه مذكوراً في ثنايا كتابك ، تظفرُ بشرح آخر رائع ، وذلك بأن تكتب ، «نهر التاجه : سُمّي بهذا الاسم لأنه مأخوذ من اسم ملك إسباني قديم ، ينبع من المكان الفلاني ، ويصب في الأوقيانوس بعد أن يغسل جدران مدينة لشبونه المشهورة . ويقال إنه يحمل في جريانه رمالاً من الذهب الخ^(١)» . وإذا عرض لك الحديث عن اللصوص ، فسأمدك بقصة كاكوس^(٢) التي أحفظها عن ظهر قلب ، أو عن غوان ساقطات ، فما هو ذا أسقف موندونييدو^(٣) يُعيرك لميا وليدا وفلورا ، ومادة لحاشية حافلة بالثقة ، أو عن نسوة قاسيات ، فسيقدم لك أوفيديوس نموذج ميديا ، أو عن ساحرات ، فعند هوميروس تجد كالفُسو ، وعند فرجيليوس تجد كركيه ، أو عن قواد شجعان ، فسيعيدك يوليوس قيصر نفسه في «شروحه» ، وفلوپترخس يعطيك آلفاً من أضراب الإسكندر . وإن عن لك أن تتحدث عن الحب فببضع كلمات من اللغة الإيطالية ستجد عند ليون العبري ما يملأ جعبتك ويفيض عنها ، وإذا لم يلذ لك السياحة في بلاد الغربية (بحثاً عن كلمات الحب) ، فعندك في بلادك فونسيكا وكتابه «في الحب الإلهي» ، وهو يتضمن كل ما تصبو إليه أنت وأبرع الناس في الموضوع . وبالجمله ، فليس عليك إلا أن تذكر الأسماء التي أشرت إليها ، أو تذكر هذه القصص في ثنايا قصتك . وكلّ إلي أن أضيف حواشي في الهامش وفي الختام ، وهأنذا أعطيك عهداً وثيقاً أن أملاً هوامش كتابك وأربع ورقات في آخره .

«ولنصل الآن الى النقل عن المؤلفين ، مما يرد في سائر الكتب ، وينقص كتابك . والعلاج لهذا بسيط جداً ، فما عليك إلا أن تبحث عن كتاب اقتبس عنهم جميعاً منذ الألف حتى الياء ، كما نقول ، وهذا الثبّت الأبجدي تضعه كما هو في كتابك . فإن انكشف هذا التزييف ، بالنظر الى قلة جدوى هؤلاء المؤلفين عندك ، فماذا يهمك ؟ ومن يدري! لعل من المغفلين من يحسب أنك انتفعت بهم جميعاً في قصتك الساذجة البسيطة . وحتى لو لم يفد هذا الثبّت في شيء آخر ، فإن هذا الثبّت الطويل لا بد أن يضيء على الكتاب شيئاً من المهابة والتأثير . فضلاً عن هذا ، فمن هو الذي سيحفل - إذ لا مصلحة له في هذا - بالتحقق مما إذا

(١) يسخر ثربانتس هنا من لوبه دي بيجا الذي قال كلاماً كهذا في الشروح التي أوردتها في ختام مسرحيته «أركاديا» .

(٢) الإشارة الى فرجيليوس ، «الإنياذة» ، الكتاب الثامن ، البيت رقم ١٨٥ .

(٣) هو أنطونيو دي جبار (١٤٨٠ - ١٥٤٥) الذي اشتهر بتأليفه ، خصوصاً كتابه «رسائل شخصية» Epistolae familiares ، وفي إحدى هذه الرسائل «مكتبة ريبادنييرا» ج ١٣ ، ص ١٧٧ يتحدث عن لميا وكيدا وفلورا وفي مطلعها ورد : «هذه رسالة لذيدة جداً في القراءة ، خصوصاً بالنسبة الى العشاق» . وثربانتس يتهمها هنا طبعاً على هذا «الأسقف» الذي يكتب عن بنات الهوى الساقطات .

كنت قفوت إثر هؤلاء المؤلفين أو لم تفعل ؟ وإن لم يخطئ ظني فأني أعتقد أن كتابك هذا ليس في حاجة مطلقاً الى شيء من هذه الأشياء التي تقول إنها تنقصه ، لأنه من أوله الى آخره ليس إلا هجاء لكتب الفروسية ، وهي كتب لم يسمع بها أرسطوطاليس ، ولم يكن عند شيشرون أدنى فكرة عنها ، ولم يتناولها القديس باسيليوس بكلمة واحدة . ومن ناحية أخرى ما شأن ما فيه من غرائب وشواذ بمقتضيات الحقيقة أو أرساد علم الفلك ؟ وماذا يهمه من الأقيسة الهندسية أو مراعاة قواعد الخطابة وبراهينها ؟ وهل من شأنه أن يعظ الناس ، فيخلط الأمور الإنسانية بالأمور الإلهية ، خلطاً يابأه عقل كل مسيحي ؟ - ليس لكتابك أن يفيد إلا من المحاكاة من أجل الأسلوب ، فكلما كانت المحاكاة أكمل اقترب الأسلوب من الكمال . وإذن ، فمادام القصد من كتابك ليس إلا كبح بل تحطيم ما لكتب الفروسية من تأثير وسلطان عند عامة الناس ، فهل أنت في حاجة الى استجداء أقوال الفلاسفة ومواعظ الكتب المقدسة وأخيلة الشعراء وخطب الخطباء وكرامات الأولياء ؟ لكن اجتهد أن تكون ألفاظك بسيطة صافية آمنة حسنة السبك ، وأن تكون فواصلك رنانة وحكايتك مُسليّة موشاة وأن تكون معانيك مفهومة لا غامضة ولا مضطربة . واجعل قراءة قصتك تثير الضحك في الحزين ، وتزيد من بهجة الضاحك ، وتطرد الملل عن البسطاء ، وتدعو الى إعجاب الحاذقين بإبداعها ، ولتكن بحيث لا تقتحمها عين أهل الجدة ولا يرى الحكيم مندوحة من إطرائها . وتتطلع ببصرك الى تحطيم هذه الآلة الفاسدة المؤلفة من كتب الفروسية ، مما يعافه بعض الناس ويثني عليه أكثرهم . فإن وُقِّت لمرادك ، لم تكن قد بُليت قليلاً » .

وكنت أستمع الى ما يقوله صديقي في صمت بالغ ، وانطبعت كلماته في نفسي على نحو جعلني لا أماري فيها بل أراها سديدة تستوجب الثناء ، حتى رغبت في أن أولف منها هذا الاستهلال الذي ترى فيه أيها القارئ الرقيق الحاشية ، فطنة صديقي ومهارته ، وحسن الحظ الذي قيض لي أن أجد في الوقت المناسب مثل هذا الناصح الأمين ، وأخيراً ستستنشي نسيم الراحة حينما تجد قصة دون كيخوته دلامانتشا الشهير بكل بساطتها وبغير خلط ولا التواء . وإن جميع سكان إقليم سهل مونتيل ليعتقدون أنه كان أعف عاشق وأشجع فارس شوهد في هذه المنطقة طوال عدة سنوات . لا أود أن أبالغ في تمجيد الخدمة التي أصطنعها عندك بتعريفي إياك بفارس نبيل شريف كهذا ، غير أنني أود أن تحمد لي تعريفي إياك بسنتشو پنثا ، حامل سلاحه ، وفيه سترى فيما أعتقد ، كل مناقب المهنة مجمعة بعد أن كانت مشتتة في هذا الحشد الهائل الزائف من كتب الفروسية .

قَرَنَ الله عَمْرَكَ بالعاية ، ولم ينسني . والسلام

القسم الأول

الفصل الأول

في أحوال وأعمال النبيل الشهير دون كيخوته دلامنتشا

في ناحية من نواحي إقليم المَنتشا ، لا أريد أن أذكر لها اسماً^(١) ، ومن زمن غير بعيد كان يعيش نبيل ممتن في مَسَلَحَتهم رمح ، ولهم ثُرسٌ عتيق وبرذونٌ ضامر وكلبٌ ستلوقي . وكان ينفق ثلاثة أرباع دخله في قِذْرِ يطهو فيه من لحم الضأن أكثر من لحم الثور ، وشرائح لحم مخللة كل عشاء تقريباً ، ومزيج من البيض والودك^(٢) ، وعدس في يوم الجمعة ، وزغلول حمام فوق الطعام المعتاد أيام الأحاد . وكان ينفق ما تبقى في شراء صدرية من الجوخ الرقيق ، وثبان من المخمل وخُفَّين من نفس القماش ، من أجل أيام الأعياد ، وخُلة من أفخر العهن^(٣) كان يتباهى بها خلال أيام الأسبوع . وكانت تقيم معه جارية تجاوزت سن الأربعين ، وبنت أخ لم تبلغ العشرين ، وصبي للحقل والمدينة كان يُسرج البرذون ويستعمل المنجل . وكان صاحبنا النبيل يشارف الخمسين ، مجدول الخلق ، ضامر البدن ، أعرج الوجه ، شديد البُكور ، مولعاً بالصيد . وكان يقال إنه يلقب « كيخادا » أو

(١) إما أن يكون هذا مجرد تمجيد أدبي ، أو هو لا يريد فعلاً أن يذكر اسمها . فإن كان الأخير فيقال إنه يقصد أرجمسيا - ٨١ gamusia . راجع مبحث مارين في الجزء ٩ من ص ٧٦ - ص ٨٤ من نشرته الكبرى ، مدريد سنة ١٩٤٩ .

(٢) ترجمة للمعبدة duelos y quebrantos التي حار الشراح في فهم معناها وهم يتتبعون دقائق ألعمة هذا النبيل الشهيراً فمنهم من قال إن المقصود بها هو « البيض والودك » (ترجمة أودان الفرنسية سنة ١٩١٤) ، ومن قال : « هي الجاسبون المقلبي مع البيض » (الترجمة الإيطالية عمل فرانشيسكو زيني سنة ١٩٢٢) . ومن قال : « يسمى بهذا الاسم في إقليم المَنتشا عجة من البيض والمخ » (الطبعة الأولى من «معجم» الأكاديمية الإسبانية سنة ١٧٢٩ - ١٧٣٩) ، أو « قدر من لحم الطير والخنزير كان أكلها حلالاً في مقاطعات قشتالة في أيام السبت إبان الأيام التي فيها صيام عن اللحم » (الطبعة الرابعة عشرة من نفس المعجم سنة ١٩١٤) ، وأخيراً « هي شيء مقلبي يتألف من البيض وودك الحيوان ، خصوصاً المخ ، وكانت أكلة يحل تناولها في أيام الامتناع عن اللحوم حسبما تقضي به أوامر الكنيسة في أيام السبت في مقاطعات قشتالة » (الطبعة الخامسة عشرة من نفس «المعجم» سنة ١٩٢٥) .

راجع في هذا بحث مارين في نشرته (ج ٩ ص ٨٥ - ص ١١٤) .

(٣) تَبَان : Culzas ، سروال يغطي الجسم من الخاصرة حتى القدمين . صدرية sayo لباس يغطي من الرقبة حتى الخاصرة . عهن : نوع من السوف sepe jeta . في النص ورد vellori وهو نوع من الجوخ الرمادي متوسط الجودة .

« كيسادا » ، ففي هذه المسألة خلافٌ بين المؤلفين الذين تناولوه ، وإن كان أرجح الآراء يومئذ إلى أن لقبه هو « كيخانا » . بيد أن هذا أمر ليس بذي بال في قصتنا هذه ، والمهم هو ألا نحيد في رواية الوقائع عن الحقيقة قيد أنملة .

ويجب أن تعلم إذن أن هذا النبيل كان يقضي الأوقات التي لا عمل فيها ، أعني طوال العام تقريباً ، في الإنكباب على قراءة كتب الفروسية ، بلذة ونهم يبلغان حدّاً يجعله يكاد ينسى الخروج للصيد وإدارة أمواله . وقد حمله حب الاستطلاع والإفراط في هذه القراءة على بيع فنانق^(١) كثيرة من أجود أراضي القمح من أجل شراء كتب في الفروسية يقرأها . ولهذا اقتنى في منزله منها كل ما استطاع اقتناؤه . وكان يرى أن أروعها جميعاً تلك التي وضعها فلثيانو دي سلفا الشهير^(٢) . ذلك أنه كان مأخوذاً بوضوح نثره ، وبدت كلماته المعقودة كأنها عقود اللؤلؤ ، خصوصاً حينما يبلغ من قراءته إلى قوله في مواضع عدة من رسائل الغزل والتحدي : « إن علة علة العقل التي أصابت عقلي أضعفت عقلي حتى شكوت لعله من جمالك »^(٣) ، أو قوله : « إن السموات العلى التي تقوي إلهيتك إلهياً بعون النجوم ، وتجعلك مستحقة للحقوق التي تستحقها عظمتك » .

بهذه العبارات وأمثالها فقد هذا السيد المسكين صوابه . فكان يقضي الليالي يعذب نفسه في فهمها وتعمقها واستخلاص المعنى من أحشائها ، على نحو ما كان أرسطوطاليس نفسه يفعله لو بحث حياً لهذا الغرض وحده . ولم يقنع بالجروح التي كان دون بليانييس يصيب بها أو يتلقاها ، لأنه تخيل أنه مهما يكن من مهارة الطبيب الذي يضمدها فلن يخلو الأمر من تغطية الجسم بالندوب والوجه بالآثور . ولكنه حمد للمؤلف طريقته الرشيقة في ختم كتابه بالوعد بهذه المغامرات التي لا تنتهي ، بل كثيراً ما راودته نفسه أن يممسك بالقلم وينجزه بالحرف الواحد ، كما وعد . وما من شك في أنه كان سيفعل هذا ويتمه على خير وجه يشرفه ، لولا أن صرفته عن

(١) الفنيقة : مكيال يسع ٥٥٠ لتر ، والكلمة الاسبانية fanega عربية (راجع المقدسي ٢٤٠ : ٥١٠ وراجع دوزي : تكملة المعاجم العربية ج ٢ ص ٢٨٥) وكانوا يقولون أيضاً « فنقة » ومنها الكلمة البرتغالية القديمة fonga (راجع البكري ١١٣ : ١٠) .

(٢) فلثيانو دي سلفا (سنة ١٤٩٢ ؟ - سنة ١٥٥٨ ؟) ولد في ثيودا رديجو وعشق ابنة يهودي متنصر هي جرائالي واقترب بها رغم معارضة أهلها ، واتخذ من ذلك موضوعاً لكتابه « حلم فلثيانو دي سلفا » وفيه تصوير مزاي الحب . واشتهر خصوصاً بتأليف كتب في الأنواع التي يتذوقها الجمهور ، وبخاصة القصص . وغير مؤلفاته « ثلستينا الغانية » وإن كانت خليطاً من الأشخاص المتفاوتين كل التفاوت ومن الأشجار المنسدة في ثنايا الحديث ، ويهمنها منها هنا قصته : « السفر التاسع من أسفار أماديس دي جولا (أماديس الغالي) » وهو تاريخ أصحح أمير وفارس ذي سيف مسلول ، ألا وهو أماديس اليوناني ، ابن لسورتي اليوناني ، امبراطور القسطنطينية وطرابزون ، وملك رودس ، ويبحث في أعماله الحربية العظيمة ومغامراته العالية الجريئة في الحب .

(٣) هنا يستخدم المؤلف جناساً وتورية بناهما على المعنى المشترك لكلمة razon التي تدل على « العلة أو السبب » وعلى « العقل » فامكنه التلاعب هنا ببراعة لم يتمكن من أدائها في العربية حرصاً على المحافظة على الأصل .

ذلك شواغل أجل وأشدّ إلحاحاً . وكأين من مرة اختصم مع قسّ القرية - وكان عالماً ظفر بإجازته في شِغُونسِه^(١) - حول مسألة من كان أفضل في الفروسية : بالمرين الانجليزي ، أو أماديس الغالي . وكان يؤكد للأسطى نقولاس ، حلاق القرية ، أن فارس فيبوس^(٢) لم يكن يدانيه أحد ، وإذا كان لأحد أن يقرب به فليس إلا دون جلاور ، أخا أماديس الغالي ، لأنه كان مستعداً لكل شيء ، ولم يكن متدلاً ، ولا هرعاً^(٣) كأخيه ، وفي الشجاعة لم يكن ليقبل عنه في شيء .

وبالجملة ، لقد كان غارقاً في قراءاته إلى حد أنه كان في الليل يقرأ من المساء إلى الصباح ، وفي النهار من الصباح إلى المساء . ولقلة نومه وكثرة قراءته جفت دماغه حتى مسّه طيفُ جنة . وامتأل خياله بكل ما قرأه في هذه الكتب ، عن ألوان السحر والخصومات والتحدي والمعارك والجروح ولقعات المجاملة ، والعشق والعذاب والغرائب المستحيلة ، وامتأل وهمه يقيناً بأن هذا المخزن الهائل من التهاويل والأحلام هو الحقيقة بعينها ، ولم يكن ثمّ في الدنيا أصدق من هذا التاريخ . وكان يقول إن السيد روي دياث كان من غير شك فارساً حقاً ، ولكنه لم يكن أبداً من أنداد فارس السيف المسلول الذي فلق - بضربة واحدة - بظهر سيفه - ماردين وحشين هائلين فشطّهما شطرين . وكان يفضل برنردو دل كاربيو لأنه قتل رولند المسحور في رونسفالس ، مستعيناً بحيلة هرقل لما أن خنق أنطاويوس^(٤) ، ابن الأرض ، بين ذراعيه . وكان يشني كثيراً على المارد مورجانتة لأنه وإن انحدر من أصلاب أولئك المردة العتاة المتوغري الأخلاق ، فإنه كان وحده من بينهم دمّ الطبع محمود الشمائل . وكان آثرهم عنده غير مدافع ، رينالدوس دي مونتالبان ، خصوصاً حين يراه يخرج من قصره ويسلب كل من يلتقى في طريقه من السابلة أو حين ذهب ليسرق تمثال محمد^(٥) ، في الناحية الأخرى ، وكان هذا التمثال من خالص الذهب ، فيما يقولون . وكان على استعداد للتنازل عن جاريته ، بل وعن بنت أخيه في سبيل أن يركل الخائن جلالون بضع ركلات . وأخيراً ، وقد فقد صوابه ، استبدت به فكرة هي أغرب ما يتخيله مجنون في هذه

(١) شغُونسِه Signenza بلدة صغيرة وجامعتها هزيلة - ولهذا فالمؤلف إنما يتهمك هنا بهذه الدرجة الدراسية .

(٢) فيبوس ، وفي الإسبانية Iñbu الاسم الخرافي للشمس

(٣) الهرع ، السريع البكاء .

(٤) أنطاويوس ، مارد من ليبيا ، ابن إلهة الأرض وإله البحر وكان من القوة في المصارعة بحيث كان يباهي بأنه يستطيع أن يبني معبداً لأبيه من جماجم خصومه بعد أن يصرعهم . وكان يستمد قوته طالما كان مستنداً بأقدامه إلى الأرض . فاحتال هرقل حينما بارزه بأن رفعه في الهواء ثم عصره بين ذراعيه حتى مات .

(٥) كان هذا مدى إدراك القوم في ذلك العهد العاثر بالحروب بين المسلمين والنصارى في اسبانيا ، للإسلام وللنبي محمد . وسترى شواهد هذه العقلية في ثنايا الكتاب كله مما يصور مشاعر التعصب المسيحي ضد الإسلام وما انطوى عليه من جهل واقتراء واختراع للأكاذيب .

الدنيا : فقد رأى من اللائق بل من الضروري ، سواء لتألق مجده ولخدمة وطنه ، أن يصبح فارساً جوالاً ، فيسعى في منابها ، ببرذونه وسلاحه ، وراء المغامرات ، وأن يمارس جميع ما قرأ أن الفرسان الجوالين يمارسونه : فيُصلح الأخطاء ، ويتعرض للأخطار في كل المناسبات حتى ينال بمجابهتها والتغلب عليها ذكرى لا تمحي أبداً . وكان يُخيل إليه ، هذا المسكين ، أن قوة ساعده ستتوّج بتاج امبراطورية طرابزون على أقل تقدير . وراح ، نشوان بهذه الأفكار الحلوة وما فيها من إغراء لا يقاوم ، راح يبادر الى وضع هذه الأمنية موضع التنفيذ . فكان أول شيء عمله هو أن ينظف مشكاً^(١) كان ملكاً لأجداده ثم ظل قابلاً في ركن من الأركان منذ قرون فريسة للصدأ والرطوبة ، ففسله وحكّه وأصلحه بقدر ما تهيأ له . لكن تبين له أنه ينقص هذا المشك شيء مهم وهو أنه لم يكن فيه خوذة^(٢) كاملة بل بصلة فحسب . فعالج الأمر بمهارته : فأتى بورق مقوى وصنع منه شبه نصف خوذة عشتها مع البصلة فبدت على هيئة خوذة كاملة . صحيح أنه حين جرب ليرى إن كانت تصمد لحد السيف ونصل السكين فجرد سيفه وأهوى عليها بضربتين من حده كانت الأولى كافية لأن تحطم في برهة واحدة عمل أسبوع . فتضايق من سهولة تمزيقها ، ولكي يطمئن على هذا الخطر شرع في عملها من جديد ، وبطنها بقضبان حديدية خفيفة ، حتى اطمأن الى صلابتها ، واعتقد أنها خوذة من أدق الأنواع ، دون أن يحاول تجربتها مرة أخرى .

ثم راح يفتش عن برذونه ، وعلى الرغم من أنه كان فيه من الأوجاع أكثر مما فيه من الأعضاء^(٣) ومن العيوب أكثر مما كان في فرس جونيل^(٤) ، فكان « جلدأ على عظام »^(٥) ،

(١) مشك unas armas : مجموعة من الأسلحة .

(٢) الخوذة Ceinda طلاء حديدي للرأس يليسه المحارب مستدير نصف كروي ، أما البصلة morion فكانت بيضا مرتفع الجوانب .

(٣) هنا يتلاعب ثريانتس باللفظ Cuatro ، فهو يدل على نوع من العملة يساوي ٢ سنتيم ، بينما الريال يساوي ٢٥ سنتيم . وهو يقول حرفياً : « وبالرغم من أنه كان فيه من الأرباع Cuartos أكثر مما في الريال real » . وكلمة Cuarto تدل أيضاً على الجرد في الفرس ، « أي ما يحدث في عرض عرقوبه ظاهراً وباطناً من تزايد وانتفاخ عصب ويكون مع المفصلي طولاً كالتموزة » (مبادئ اللغة للخطيب الإسكافي ، ص ١٢٩ ، القاهرة سنة ١٢٢٥ هـ) . ولم نستطع أن نأتي بالعبرة بحرفها ، فاقبتنا معناها كما فعل كارليزي في ترجمته الإيطالية وفياردو في ترجمته الفرنسية .

(٤) كان بيترو جونيلاً مهرباً في قصر الدوق بورسو في فرارا بإيطاليا في القرن الخامس عشر ، وكان فرسه مصدراً لكثير من النوادر الأدبية والطرائف المضحكة . ومما يروى أن الدوق بورسو الفراري لما شاهد فرسه وكانت ملأى بالأوجاع عجوزاً سأل كانيلا ماذا هو فاعل ببرذونه . فراح كانيلا يمدح خصال فرسه وراهن الدوق على مائة دينار في مقابل زكية من القمح على أساس أن فرسه يفتقر قلزة أكبر من أجود خيول الدوق . ثم أسعد برذونه على سلم القصر ووضعه عند نافذة ثم دفعه منها فوق في الميدان . ففسحك الدوق واهترف بأنه خسر الرهان!

(٥) باللاتينية في النص ، وهي مأخوذة ، مع شيء من التعديل من عبارة وردت في مسرحية هزلية تأليف بلوتوس الشاعر اللاتيني بعنوان « جرة ملأى بالذهب » Aulularia (٣ ، ٦١) .

فإنه تراءى له أنه لا فرس الإسكندر المدعو بوقفالس ولا فرس «السيد» المدعو بابيبيكا بقادر على أن يجاري برذونه هذا : وظل أربعة أيام يتخيل أي اسم يعطيه لهذا البرذون ، إذ رأى (بحسب ما قاله لنفسه) أنه ليس ثمة من سبب لأن يظل فرس مثل هذا الفارس الشهير ، وهو في ذاته فرس جواد ، بغير اسم يشتهر به . ولهذا حاول أن يجد له اسماً يتفق مع ما كان عليه من قبل أن ينخرط في سلك الفرسان الجوالين ، ومع ما صار إليه حينئذ . وكان العقل يقضي بأنه مادام سيده قد غيّر من أحواله ، فيجب أن يتغير اسمه فيصبح اسماً فخماً رناناً حسبما يقتضيه الوضع الجديد والمهنة الجديدة التي اتخذها . وهكذا ، وبعد أن استعرض أسماء ألفها ثم محابها ، وقصصها ثم زادها ، وركبها وحلها في ذاكرته وخياله ، توصل أخيراً إلى تسميته باسم : «روثيناته»^(١) ، وهو اسم بدا له فخماً رناناً يدل على ما كان عليه وما صار إليه ، إذ كان «فرساً سابقاً» فصار «سابق الأفراس» .

ولما أن أعطى فرسه هذا الاسم الذي وافق مزاجه ، ودّ أن يعطي لنفسه اسماً ، فأنفق ثمانية أيام أخرى في هذا الأمر ، في نهايتها توصل إلى أن يسمي نفسه باسم : «دون كيخوته» ، ومن هنا وقع لبعض الناس الذين ألفوا هذا التاريخ الحقيقي أن يقولوا إن اسمه الحقيقي يجب من غير شك أن يكون «كيخادا» ، لا «كيسادا»^(٢) كما حلا لآخرين أن يلقبوه . وهناك تذكر أن الشجاع أماديس لم يقنع بأن يلقب باسم «أماديس» فحسب ، بل أضاف إلى اسمه اسم بلده ليشتهر ، ولهذا تلقب بلقب : أماديس الغالي ، فشاء أيضاً ، شأنه شأن كل فارس حقيقي ، أن يضيف اسم بلده إلى اسمه ، ولهذا تسمى «دون كيخوته دلامنتشا» وخُيل إليه بهذا أنه دلّ بوضوح على جنسه ووطنه ، وأنه شرف وطنه بأن اتخذ نسبة إليه .

فلما نظف سلاحه ، وصنع من البصلة خوذة ، وأعطى لبرذونه اسماً ، ولنفسه التأييد^(٣) ، اقتنع بأنه لم يعد ينقصه شيء اللهم إلا البحث عن سيدة ليعشقه ، إذ كان يحسب أن الفارس الجوال بغير عشق مثله مثل الشجرة بغير أوراق ولا ثمار ، أو الجسم بلا

(١) هنا يتلاعب المؤلف أيضاً بهذا اللفظ ، إذ كلمة rocinante مؤلفة من rocin (= برذون) و ante (= سابقاً) - أي الفرس الذي كان سابقاً برذوناً ، كما يمكن أن تتركب هكذا ante (= أول) ثم rocin (= برذون - أي أول فرس بين أفراس الدنيا) .

(٢) «كيخادا» معناه في الإسبانية : فك (في الحنك) ، و«كيسادا» معناها كحك بالجن . و«كيخوته» معناها درع الفخذ . ويرى كلمتين أن ثربانتس اختار هذا الاسم لبطل قصته لأن النهاية - ote - في اللغة القشتالية تدل عادة على أشياء مضحكة حقيرة .

(٣) التأييد Confirmation ، شعيرة من شعائر الكنيسة الكاثوليكية لتأييد المسيحي في إيمانه ، وهي من خواص عمل الأسقف ، ومن المعتاد في مثل هذه الأحوال أن يلقب المؤمن بلقب جديد . وهنا يقصد بالتأييد أنه أعطى نفسه هذا اللقب الجديد : «دون كيخوته دلامنتشا» .

روح . وقال في نفسه : « لو قدر لي بسبب خطاياي ، أو بالأحرى لحسن حظي - أن أصادف في تجوالي مارداً من المردة كما يقع عادة للفرسان الجوالين وأن أجندله من أول لقاء أو أشقه نصفين ، أو أنتصر عليه أخيراً واضطره الى التسليم ، أفلا يكون من الخير أن يكون لدي من أرسله إليه ليدخل ويركع أمام سيدتي الحلوة ويقول لها بصوت ضارع خفيض : « أنا المارد كركوليمبرو ، سيد جزيرة مالندرائيا ، الذي انتصر عليه في مبارزة منفردة الفارس الذي لا يحيط بمعاني مدحه وصف : دون كيخوته دلامنتشا ، الذي أمرني بالمشول أمام حضرتك ، لكي تتصرف عظمتك في كما يحلو لها ؟ » أوه! كم غلبت على صاحبنا الفارس نشوة الطرب لما أن ألقى هذا الخطاب ، وخصوصاً لما وجد من سيعطيها اسم سيدته . إذ يقال إن هذه كانت فتاة فلاحه مليحة الوجه تسكن في قرية مجاورة لقريته ، وكان يتعشقها حيناً من الزمان ، وإن كانت هي لم تعرف عن هذا الأمر شيئاً ولم يكن يعنيه في قليل أو كثير . وكانت تدعى الدونشا لورنثو ، فاستحسن أن يطلق عليها اسم السيدة التي سيطرت على أفكاره . فبحث لها عن اسم لا يبعد كثيراً عن اسمها ، اسم يشتم منه ويمثل السيدة العظيمة والأميرة ، فلقبها بلقب : دُلْشِنْيا دل توبوسو ، لأنها كانت من قرية توبوسو ، وقد بدا له اسماً موسيقياً نادراً ممتازاً ، لا يقل عمقاً في التعبير عن سائر الأسماء التي أطلقها على نفسه وعلى أشيائه .

الفصل الثاني

في أول خُرْجة للماهر دون كيخوته خرجها من وطنه

فلما تجهّز بجهازه ، لم يشأ أن ينتظر أكثر مما انتظر لتنفيذ ما انتواه . وحشه على الإسراع اعتقاده أن العالم سيفقد الكثير إذا تأخر ، فكّم كان يرجو أن ينتقم من مظالم ، وأن يصلح من أخطاء وأن يعالج من إهانات ، وأن يصحح من إساءات ، وأن يسدّد من ديون! ولهذا ، ودون أن يخبر أحداً بما طوى عليه كُشْنُحه ، ودون أن يراه أحد أفاق ذات يوم ملتهب القيث من أيام تموز قبل أن ييزغ النهار وتسلح بكل سلاحه وركب متن روثيناته ، ولبس خوذته الغريبة واستلّام لامته البيضاء ، وأمسك برمحه ، وخرج الى الحقول من باب خلفي ناحية حوش الدواجن وقد استطاره الفرّح إذ شعر بالسهولة التي تمّ بها البدء في تنفيذ غرضه النبيل . لكنه لم يكّد يخطو بضع خطوات حتى هاجمته فكرة مخيفة كانت على وشك أن تصرفه عن المضي في مشروعه . إذ تذكر أنه لم يسّلع فارساً ، وقوانين الفروسية لا تخوّل له إذن أن يدخل في مبارزة مع أي فارس ، وحتى لو سلّح فارساً فليس له أن يحمل إلا أسلحة بيضاء ، بوصفه فارساً مبتدئاً ، دون شارة على لامته حتى يستطيع أن يظفر بها بشجاعته . هذه الخواطر أوقعتّه في حيرة ، لكن جنونه أزرى بكل عقل فقرّر أن يقوم بتسليحه فارساً أول من يلقاه ، وهو في هذا إنما يحاكي كثيراً غيره مما فعلوا فعلته كما تدل عليه قراءاته في الكتب التي أدت به الى هذه الحال . أما عن الأسلحة البيض فقد رأى أن يحكّ أسلحته ، في أول مناسبة تعرض له ، على نحو يجعلها أبيض من السمّور . وهكذا اطمأنت نفسه ومضى لطبيّته يسلك سبيلاً لم تكن إلا تلك التي اختارها فرسه ، إذ رأى في ذلك سر المغامرات .

وبينا يسير كان صاحبنا المغامر الجديد يتحدّث الى نفسه قائلاً ، من ذا الذي سيشك ، في الأجيال المقبلة حينما تذاع قصة مغامراتي الحقيقية ، ، أن الحكيم الذي

سيكتبها لن يصف خرجتي الأولى هذه بقوله : «لم يكد أبولو الأشقر ينشر ذوائبه الذهبية من شعره الجميل على وجه البسيطة الفسيح ، ولم تكد الطيور الصغار ذوات الأصباغ الرائعة تحيي ، بقيثارات ألسنتها وبأنغام أعذب من الشهد ، مقدم الفجر الوردي وقد غادر فراشه الوثير حيث ترقد عروسه الغيور وتبدى للأحياء من أطناف الأفق المنتشاي - حتى غادر الفارس الشهير دون كيخوته دلامنتشا حشايا الكسل ، وامتنى صهوة فرسه الشهير روئيناته وسلك سبيله خلال سهل مونتييل القديم الذائع الصيت ؟ . وهو كان يتجول فعلاً في هذا المكان . ثم أضاف قائلاً : «طوبى للعهد الذي ستذاع فيه أفعالي الجريئة الرائعة الخليفة بأن تنقش على البرنز ، وتحفر على المرمر ، وترسم على الخشب ، لتحيا أبداً في ذاكرة الأجيال المقبلة وأنت أيها الحكيم الساحر ، أياً من كنت ، يا من قُدِّر لك أن تكون مؤرخاً لهذه الأحداث الرائعة ، أتوسل إليك ألا تنسى فرسي الطيب روئيناته ، رفيقي الدائم في جميع أسفاري . ثم استأنف بلهجة العاشق الوامق حقاً : «أي أميرتي دُلثيا ، سيدة هذا القلب الأسير لقد أمنتني إهانة بالغة بوداعي ، وبما أمرت به من حرمانني القاسي من المثل في حضرة جمالك . فتفضلني يا سيدتي بتذكر هذا القلب ، قلب عبدك الذي برحت به الآلام حباً فيك» . ثم أضاف الى هذه الترهات مئات أخرى كلها على غرار ما لقنته كتبه ، محاكياً لغتها قدر المستطاع .

وفي خلال ذلك كان يسلك سبيله رويداً رويداً ، بينما الشمس تصاعد وتتقد أشعتها حتى كانت تكفي وحدها لصهر مَحّه لو كانت في محه بعد بقية . وسار اليوم كله دون أن يقع له ما يستحق أن يذكر . ولكم ساءه هذا ، لأنه كان يود لو التقى في التو بمن يبلو وإياه صلابة عضلاته . على أن من المؤلفين من يذكر أن أولى مغامراته كانت مغامرة ميناء ليشه ، وآخرون يقولون إنها كانت مغامرة طواحين الهواء . ولكن تحقيقي لهذا الموضوع وما وجدته مسجلاً في أخبار المنتشا دلاً على أنه ظل سائراً اليوم كله ، حتى إذا ما وافى المغيب كان هو وبرذونه يتساقطان إعياء ويموتان ظمأ . فراح ينفذ المكان من كل ناحية عساه أن يبصر قصراً أو كوخاً للرعاة فيه يجد المأوى والعلاج لحاجته الملحة - فلمح غير بعيد من الطريق الذي كان يسير فيه فندقا ، فحُيِّل إليه كأنما رأى النجم الذي سيهديه الى أعتاب ، إن لم يكن الى قصر خلاصه . فحث الخطى حتى بلغه مسقط الليل .

وتصادف أن كان عند الباب امرأتان من اللواتي يطلق عليهن اسم «بنات الهوى» وكانتا في الطريق الى أشبيلية مع بعض البقالين الذين قرروا النزول بهذا الفندق تلك الليلة .

ولما كان صاحبنا المغامر يظن أن كل ما يقع له وما يراه أو يفكر فيه إنما يقع على غرار ما قرأ ، فإنه لم يكذب يبصر الفندق حتى خاله قصراً له أربعة أبراج وتيجان فضية لامعة ، ولا ينقصه الجسر المتحرك ولا الخنادق ولا أية تفصيلة من التفاصيل التي توصف بها أمثال تلك القصور . فاقترب من الفندق الذي خاله قصراً وتلّبت غير بعيد ممسكاً بعنان روثيناته ، في انتظار طلوع عفريت بين الأفاريز العليا المسننة ليعلن في بوقه عن وصول فارس إلى القصر . لكنه لما استبطل الأمر ورأى روثيناته تستعجل الوصول إلى الاصطبل ، اقترب من الباب ، وشاهد البنتين الفاسقتين اللتين كانتا هناك ، فتبدتا له أنستين جميلتين أو سيدتين رشيقتين تسترفهان . ومن عجائب الصدف في هذه اللحظة أن راعي خنازير كان يجمع شمل قطيع من الخنازير (واعذرني ، فهذا هو اسمها) على أكوام الثبن ، فكان ينفخ في قرن فتجتمع على صوته هذه السوائم . هنالك حُيِّل إلى دون كيخوته أن عفريتاً أعطى إشارة الوصول ، فكان له ما رام . وهزته النشوة فاقترب من الفندق والسيدتين ، اللتين لم تكادا تبصران هذا القادم المسلح على هذا النحو ومعه رمحه وترسه ، حتى عادتا مرتاعتي إلى داخل الفندق . وفهم دون كيخوته أن السر في فرارهما هو الرهبة . فرفع حافة الخوذة الكرتونية ، وكشف عن وجهه الجاف الأشعر ، وقال لهما برقة ورزانة صوت : « لا تُراعا يا صاحبتَي العصمة ، ولا تهربا ، فإن نظام الفروسية الذي أنتسب إليه يقضي بعدم إهانة أحد ، خصوصاً إن كان مثلكما أنستين من معدن الحسب الصميم كما تدل عليه سيمما حضرتيكما » .

فحملتا إليه بمجامع عيونهما بحثاً عن وجهه تحت حافة الخوذة الرديئة التي غطته . لكنهما حينما سمعتاه يدعوهما باسم « أنستين » ، وهذا أمر بعيد جداً عن مهنتهما ، لم يتمالكا من الضحك على نحو جعل دون كيخوته يغضب . فقال لهما بلهجة جادة : « - الأدب من شيمة الجمال ، والضحك لسبب تافه حماقة ، غير أنني لا أقول لكما هذا لأضايقكما أو أعكر صفو سروركما ، فسروري إنما هو بخدمتكما » .

فزادت هذه اللهجة التي لم يفهماها وعبوس وجه صاحبنا الفارس من ضحكاتهما ومن غضبه حتى أوشك الأمر أن ينقلب سوءاً ، لولا أن ظهر صاحب الفندق في هذه اللحظة ، وكان رجلاً بديناً أحالته سمائه وديعاً ، ولما رأى هذا الوجه الغريب ، المسلح بهذه الأسلحة المتفاوتة ، بعنانه ورمحه وترسه ودروعه أوشك أن يشارك الفتاتين في إظهار حبوره . لكنه تدارك نفسه وقد فزع من هذا الشبح الشاكي السلاح وعزم على مخاطبته بأدب فقال : « أي سيدي الفارس ! إن كنت تبحث عن مأوى ، دون فراش (إذ ليس في هذا الفندق كله سرير واحد) ، فستجد سائر ما تبني موفوراً جداً .

فلما رأى دون كيخوته تواضع قائد الحصن - إذ هكذا بدا له صاحب الفندق والفندق -
أجاب ،

- أي شيء يكفيني يا صاحب القصر ، إذ ،

السيف كل عتادي وراحتي في جهادي^(١)

فلما سمعه يدعوه castellano^(٢) (= صاحب القصر) حسبته إنما فعل ذلك لأنه بدا له
شبه لصوص قشتاله (Castilla) - وهو في الحقيقة كان أندلسياً من أهل ساحل سان لوقار ، لا
يقبل شأناً في اللصوصية عن قاقوس^(٣) ، ولا في الهُزء عن تلميذ أو خادم - فردّ عليه قائلاً ،
- وعلى هذا فإن الصخر الصيخود هو كل سرير جنابك ، ولومك دائماً سهاد ، فإذا كان
الأمر هكذا ، فتستطيع أن تترجل ، وأنت واثق أنك ستجد في هذا الكوخ كل فرصة وفرصة
لاكتحال السهاد طوال العام كله ، لا ليلة واحدة فحسب .

وأمسك الركاب لدون كيخوته ، فنزل عن صهوة فرسه بكل عناء ومشقة ، ومثله مثل
صائم يومه كله .

وقال لصاحب الفندق أن يعنى عناية خاصة بفرسه ، لأنه خير دابة في الدنيا . فرمقه
صاحب الفندق ولم يجده فرساً جواداً كما زعم دون كيخوته ، بل ولا نصف جواد . بيد أنه
ساقه الى الاصطبل وعاد يسأل الضيف عما يريد ، وكانت الفتاتان مشغولتين بخلع سلاحه
من عليه ، بعد أن جنحتا للسلم معه . فجردتاه من دروع الصدر والأكتاف ؛ لكنهما لم
تستطيعا أبداً تخليصه من بنية رقبته ، ولا من خوذته الغريبة التي ربطت بأشرطة خُصُر .
وكان لا مندوحة عن قطع هذه الأشرطة التي استعصى حل عقدها ؛ غير أن دون كيخوته لم
يوافق على هذا أبداً ، وفضل أن يظل الليل طوله وخوذته مثبتة على رأسه ، فكان أغرب

(١) اعتادت الطبقات (الرئيسية وغيرها) أن تورد على أنها نثر ، وهي في الحقيقة بيتان مأخوذان من قصيدة رومانسية قديمة أوردتها
أمبيريس (دون ذكر السنة ، ولكن يظهر أنها بين سنة ١٥٤٥ و ١٥٤٩) في «مجموع القصائد الرومانسية» (ورقة ٢٥٢) ، وتقول ،

السيف كل عتادي وراحتي في جهادي

والصخر كل سريري ورقدي في سهادي

(٢) هنا يتلاعب المؤلف باللفظ ، إذ يمكن أن يفهم بمعنى صاحب القصر ، وبمعنى قشتالي ، نسبة الى إقليم قشتالة في قلب اسبانيا ،
وفي الحالة الأولى يكون مأخوذاً من castillo (= قصر) وفي الثانية من النسبة الى castillo (= قشتالة) . وترجمة هذا التلاعب في
اللغات اللاتينية سهل ، وفي العربية غير ميسور .

(٣) قاقوس Cacus ، في الأساطير الرومانية ، كان مارداً وقاطع طريق يعيش في كهف على تل الأفتين (الثل الجنوبي وأحد تلال روما
السبعة) . ولما كان هرقل يسوق قطعان جربون توقف للراحة في المكان الذي سيصبح روما ، فسرق قاقوس بعض الماشية منه
وساقها الى كهفه وأخفاها . وارتحل دون أن يكتشف السرقة ، لكن خوار ثيرانه جاوبته الثيران المساقة في الكهف . هنالك هاجم
الكهف وذبح قاقوس واستعاد ثيرانه .

وأظرف منظر يمكن أن يتخيله إنسان . وخلال هذه المراسم ، وقد اعتقد تماماً أن العاهرتين اللتين قامتا بخلع سلاحه كانتا سيدتين عظيمتين في هذا القصر ، أنشدتهما برشاقة جمّة هذه الأبيات^(١) ،

فارساً بالغريد يُخدَم	حَبَّـروني هل رأيتم
من حِمى الضيعة أقدم ؟	مثل كيخوته لما
رس ينفدقن العناية	فالأنيسات على الفا
ذون ينفدقن الرعاية	والأميرات على البر

على البرذون أو على روئيناتته ، لأن هذا ، يا سيداتي ، هو اسم فرسي كما أن دون كيخوته دلامنتشا هو اسمي . وعلى الرغم من كوني لم أشف أن أكشف عن نفسي قبل أن يكشف عنها ما سأبذله في خدمتكما من أعمال ، فإن الحاجة الى جعل هذه القصيدة الرومانسية العتيقة ، التي تحمل اسم لانتاروته ، مراعية لمقتضى الحال قد كانت سبباً في أن تعرفا اسمي قبل الوقت المناسب . لكن سيأتي الزمن الذي تأمران سيادتكما فيه وأنا أطيع ، ويشهد ساعدي على رغبتني في خدمتكما .

فلم تُحر الفتاتان جواباً ، وهما لم تتعودا على سماع أمثال هذه البلاغات . ثم سألتاه هل يريد أن يأكل شيئاً . فأجاب دون كيخوته ،

— أي شيء يكفيني ، إذ لو صدق ظني لجاء كل شيء على ما يرام .

ولحسن الحظ كان اليوم يوم جمعة ، ولم يكن في الفندق كله إلا شطائر من سمك يسمى في قشتالة باسم أباديخو ، وفي الأندلس : بكلاه ، وفي مناطق أخرى : كوراديو ، وفي غيرها : تروتشويله . فُسئل هل يريد سعادته أن يأكل تروتشويله ، إذ لم يكن ثم غيره حاضراً للأكل . فأجاب ،

— إن وجدت تروتشويلات كثيرة فيمكن أن تكون بمثابة تروتشه ، إذ يستوي عندي أن أعطى ثمانية ريالاً فردية أو قطعة من ذوات الثمانية ريالاً . ومن يدري! فلعل هذه التروتشويلات أن يكون لحمها كلحم العجل ، وهو أرق من لحم الثور ، أو كلحم الماعز وهو أرق من لحم التيس . وأيا ما كان ، فعليّ به حالاً ، لأن التعب وعبء السلاح لا يحتملان دون معاونة الكرش .

(١) عدل كيخوته في هذه القصيدة لتطابق مقتضى اسمه وحاله . لإنها في الأصل باسم لانتاروته ، وبلده . وصيغتها الأصلية هكذا : « لم تخدم سيدات فارساً كما خدم لانتاروته ، حينما قدم من بريطانيا . كم من سيدات اعتنين به ، وكم من فتيات اعتنين بفرسه » .

فأعدت له مائدة عند باب الفندق حيث الطقس أبرد ، وأحضر له صاحب الفندق قطعة من هذه البكلاء رديئة الطهي مسيخة مليخة وخبزاً أسود عنفاً مثل سلاحه . وكما كان مشاراً للضحك الشديد أن يرى وهو يأكل ، لأنه كان مغطى بالخوذة وحافتها مرفوعة فلم يكن ليتمكن من أن يحمل الى فمه شيئاً بيده ، بل كان لابد أن يناوله شخص آخر ، فقامت بذلك إحدى الفتاتين . ولم يكن ممكناً كذلك سقيه ، لولا أن صاحب الفندق اهتدى الى حيلة هي أنه خرق عوداً من الغاب وضع أحد طرفيه في فمه وصب في الطرف الآخر خمراً وإبان هذا كله كان الفارس المسكين متذرعاً بالصبر حتى لا يقطع أشرطة بصلته . وفي هذه الأثناء تصادف أن قدم الفندق خاصي خنازير ، وشرع حين وصوله في النفخ خمس أو ست مرات في صفارة من غاب . وكان هذا كافياً ليلقي في روع دون كيخوته أنه كان في قصر شهير ، وأنه يتناول طعامه بمصاحبة موسيقى ، وأن الأباديخو كان تروتشه ، والخبز الأسود خبزاً من الخوّاري ، والعاهرتين سيدتين جليلتين ، وصاحب الفندق أمين قصر . فحمد الله على فراره وخروجه . لكن الأمر الذي ألقاه هو أنه لم يُسلح فارساً ، إذ حُيّل إليه أنه لا حق له شرعاً في المغامرة قبل أن يتلقى مرسوم الدخول في نظام الفروسية .

الفصل الثالث

في الطريقة الظرفية التي بها سُلِّح دون كيخوته فارساً

وما أن أقلقه هذا الخاطر حتى عَجَلَ بالفراغ من هذا العشاء الفندقية الهزيل . وما أتمه حتى دعا صاحب الخان واقتاده الى الاصطبل وأغلق الباب وجثا على ركبتيه أمامه قائلاً :

– لن أنهض من حيث أجتو ، أيها الفارس الشجاع ، إلا إذا تفضل أدبُك فتعطف عليّ بنعمة أريدها منك ، سَتُعَلِي من مجدك ، وتخدم الإنسانية .

فلما رأى صاحب الفندق ضيفه جاثياً عند قدميه وسمع منه هذه العبارات ، حذق فيه حائراً لا يعرف ما يفعل ولا ما يقول ، وألَحَّ عليه أن ينهض . فلم يشأ النهوض إلا بعد أن وعده بإجابته الى النعمة التي التمسها . فأجاب دون كيخوته :

– لم أكن أتوقع من كرمك غير هذا . وهأنذا أقول لك إن هذه النعمة التي أرجوها وكرمك سيمنحنيها ، هي أن تسلخني فارساً غداً صباحاً . وأنا من ناحيتي سأسهر هذه الليلة في هيكل قصرِك سهرة السلاح ، وغداً تتحقق أقصى أمانِي ، حتى أقدر ، حسبما يقتضيه الواجب ، أن أذرع أركان الدنيا الأربعة ، باحثاً عن المغامرات ابتغاء مرضاة المحتاجين ، مما هو واجب الفروسية والفرسان الجوالين أمثالي الذين تدفعهم طباعهم الى أمثال هذه الأفعال الجليلة .

وكان صاحب الفندق خبيثاً الى حد ما ، كما كان يقال ، بدأ يغمزه في عقله ، واقتنع تماماً بهوسه حينما سمعه يقول هذه العبارات . لكنه لكي يهيئ زاداً من الضحك تلك الليلة ، قرر أن يتابعه على هواه ، فأجابه بأنه على حق تام في هذه الأمنية ، وأن هذا القرار طبيعي ومن شأن ذوي الحسب اللباب الذين يتطاولون الى أعراف المجد ، كما يدل عليه سيماه . وأردف قائلاً : «وأنا أيضاً كنت في سني شبابي أزاوِل هذه المهمة الشريفة ،

فطوفت بأرجاء الدنيا سعياً وراء المغامرات . لم أقعد عن زيارة رِبَض الأعواد^(١) في مالقة ، وجزائر رياران^(٢) ، وفرجار أشبيلية^(٣) ، وسويقة^(٤) شقوبية ، وميدان^(٥) الزيتون في بلنسية ، ودورية غرناطة^(٦) ، وشاطئ سان لوقار^(٧) ، وفرس قرطبة^(٨) ، وفنادق طليطلة^(٩) ، وأماكن أخرى كثيرة بلوت فيها سرعة أقدامي كما بلوتُ خفة يديّ ، وأوقعت آلاف ألوان الأذى ، وغازلت الأرامل وروعت الكواعب وغررت باليتامى ، حتى ذاع صيتي في كل المحاكم الإسبانية تقريباً . وفي النهاية جئتُ الى قصري هذا أعيش معتزلاً ، أكل من مالي ومال غيري ، وأستقبل فيه سائر الفرسان الجوالين ، من أية طبقة ومنزلة كانوا ، لا لشيء إلا لأنني أحبهم حباً جماً ، بشرط أن يشركوني في أموالهم لقاء نواياي الطبية . ثم قال له أيضاً إنه لا يوجد في القصر هيكل يقضي فيه سهرة السلاح ، إذ هدم القديم لبناء آخر

(١) كان هذا الربض حياً خارج المدينة ، سمي بهذا الاسم لما نصب فيه من أعود تستخدم لتجفيف السمك وتعريضه للهواء بعد تملّحه ، وكان عددها قرابة الثلاثين عوداً تشغل المسافة من وادي المدينة (وهو نهر) حتى الجانب الآخر ناحية أبراج فونسيقة ، بين الطريق وساحل البحر . وكان ينشاء أهل الحظ واللهو يلعبون بالرمح ويمأذون بطولهم .
(٢) كانت مجموعة من المنازل المنعزلة في مدينة مالقة أيضاً ، يملكها فرسي لوبث الأرياراني ، وفيها حانات وحوانيت يغشاها أهل البطالة والمرح . وسميت «جزائر» لأن كلمة «جزائر» تطلق على مجموعات المنازل المنعزلة . وكان فرسي لوبث هذا قبطاناً في أسطول فرديناند وإيزابيلا الملكين الكاثوليكيين كما يسميان .
(٣) فرجار أشبيلية : حي على طول الأسوار ، عن شمال الداخل من باب ارنال حيث شارع اللافونة . وفي هذا الحي كانت بيوت الدعارة العمومية ، وكانت في السور بوابة خلفية تغني عن الحقول . وفي ثنايا بيوت الدعارة كانت توجد بيوت صغيرة باسقة تملكها مع ذلك الكنائس والأديرة والمستشفيات وبعضها لأفراد من الناس . وكان بيت الدعارة يسمى في لغة القوادين بعدة أسماء : «الجموك ، الكمبيو ، حقل المنوبر ، القفار ، الخ» . وكذلك كانت لنزيلاته أسماء لا تقل عدداً عن ذلك

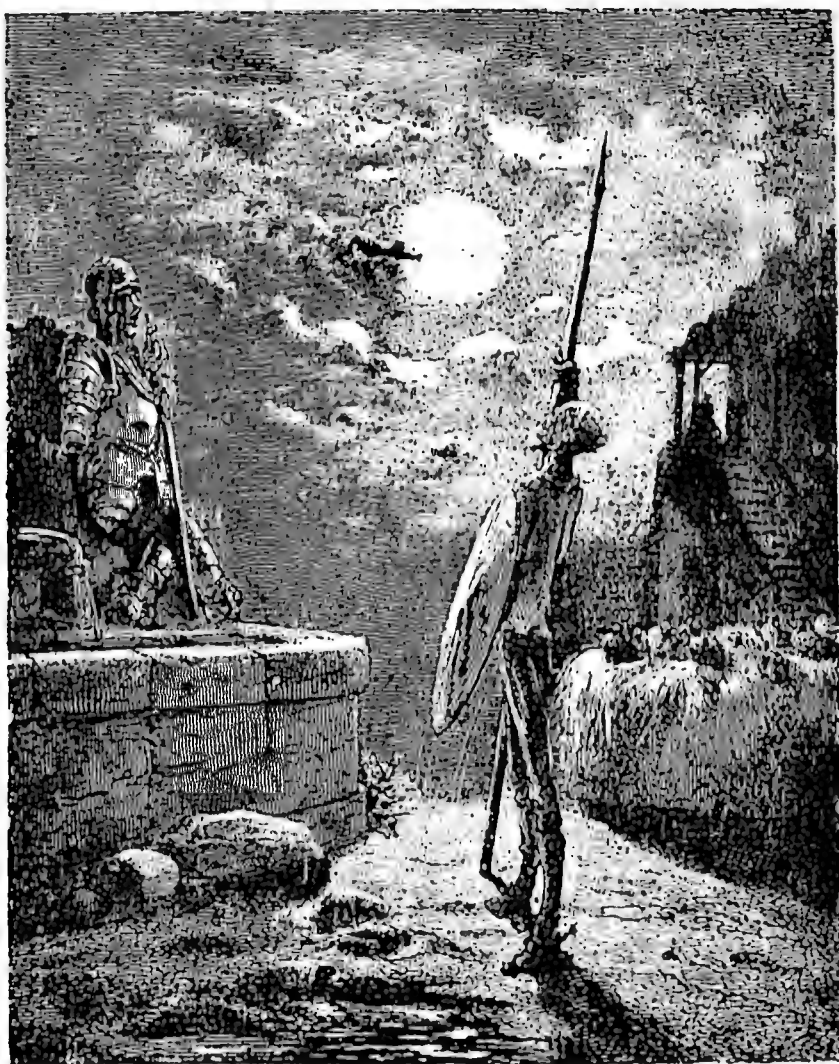
(٤) سويقة شقوبية ، تصغير «سوق» azoguejo العربية . وكان يطلق على ميدان صغير في ربض مدينة شقوبية ، تمر عليه القناه المرتفعة الرومانية Acueducto . وفي القرن السابع عشر كان يقال : «هو من شقوبية» كان في شقوبية ، أو خبيث من شقوبية» للدلالة على شخص ماكر داهية خبيث . وكان يتردد على هذه السويقة المحتالون والسحرة والمشعوذون .
(٥) هذا الميدان كان يقوم ناحية ميدان Olivereta الحالي ، وكان ينشاء المهرجون والمومسات والقوادون وأشباههم ، وكان مركزاً للدعارة .

(٦) تقع هذه الدورية (مكان دائري) حوالي باب الثوابين Bibarubin ، والميدان الذي تشغله فيه أشجار رائعة . وكان يجتمع فيها الصعاليك والمتشردون .

(٧) يطلق على «مغربية» الزهراء «مغربية» قوئل وكستونولو ، وكلها متقاربة تقع على شاطئ فخر Vejer . و«المغربية» معناها «مصادد سمك التونة» (راجع ميغل أسين بالاثيس ، «بحث في الأسماء العربية لبعض الأماكن في اسبانيا» ص ٦٦ ، مدريد سنة ١٩٤٤) . وكانت مرتاد الصعاليك الذين يأتون الى «المضارب» لسرقة سمك التونة .

(٨) ميدان وحي في جنوب مدينة قرطبة سمي - هو والشارع الذي يمر فيه والنافورة التي به - بهذا الاسم لفرس من الحجر كان في أعلى النافورة . وكان هذا الميدان مرتاد الظرفاء والخبفاء والمجانين . وكثيراً ما يرد ذكره في الأناهيذ الرومانسية .

(٩) هذه الفنادق الصغيرة الشهيرة كانت تقع على نواحي مدينة طليطلة ، خصوصاً على الطريق الى مدريد . وكان يرتادها طلاب الطعام الشهي والشراب الفاخر والقمار . ولهذا ردد ذكرها ثريباتس في بعض قصصه ، خصوصاً في قصتي : «النسالة الشهيرة» و«التواد المحظوظ» .



الفصل الثالث : دون كيخوته يُرسم فارساً

جديد ؛ ولكنه يعلم أن هذه السهرة يمكن أن تمضي في أي مكان يشاؤه المرء ، وأن دون كيخوته يستطيع أن يسهر هذه الليلة في فناء القصر ؛ فإذا ما تنفس الصبحُ أقيمت كل المراسم والطقوس المطلوبة بمشيئة الله ، فيصبح فارساً مسلحاً ، فارساً لا كالفرسان .

ثم سأله هل يحمل معه نقوداً . فأجاب دون كيخوته قائلاً إنه لا يحمل مليماً واحداً ، لأنه لم يقرأ أبداً في قصص الفرسان الجوالين أن أحداً منهم كان يحمل نقداً معه . فرد عليه صاحب الفندق بأن هذا غير صحيح ؛ لأنه وإن لم تذكر القصص هذا الأمر ، فإن مؤلفيها لم يروا من الضروري ذكر هذا الأمر البسيط الطبيعي ، ألا وهو حمل النقود وارتداء القمصان البيض ، فليس معنى عدم ذكرها إذن أن الفرسان الجوالين لا يحملون معهم منها ، وهو واثق ومتأكد أن أولئك الذين امتلأت بذكر أفعالهم الكتب كانوا يحملون دائماً وفي كل ظرف كيساً مليئاً بالنقود ، وقمصاناً وصندوقاً صغيراً مملوءاً بالمراهم لنث الجراح التي يصابون بها ، إذ لا يصادف دائماً أن يوجد في الحقول والقفار التي تجري فيها المعارك وتتلقي فيها الجراحات من يقوم بتضميدها ، اللهم إلا إذا كان لهم صديق حكيم ساحر يهب لمعاونتهم ، فيرسل لهم على متن السحاب والهواء فتاة أو عفريتة معه قنينة فيها شراب إذا ما شربوا منه بضع قطرات شفوا من جراحهم في الحال وكأنهم لم يصابوا أبداً .

فإذا لم يتيسر هذا النوع من الاسعاف ، رأى الفرسان القدامى أن من سداد الرأي - في مثل هذه الأحوال - أن يتزود حاملو أسلحتهم بالنقود وبعض ألوان العتاد الأخرى الضرورية ، مثل القتل والمراهم لدسم الجروح وتضميدها ، فلو حدث أن لم يكن لهم حاملو سلاح (وهذا أمر نادر جداً أن يكون) ، تولوا هم حملها كلها في خرج لطيف جداً حتى لا تبدو للناس ويضعونها على غرابي الفرس وكأنها شيء آخر أكبر أهمية ، ذلك أن عادة حمل الخرج ، اللهم إلا في مثل هذه الحالة الخاصة ، لم تكن متبعة عند الفرسان الجوالين . ثم نصحه بل أمره ، وكأنه إنما يأمر ابنه في السلاح ، أو من سيكون كذلك عما قليل ، ألا يسافر مرة أخرى بغير نقود ولا زاد من نوع ما ذكرناه ، وسيرى كم سيفيده هذا الاحتياط في اللحظات التي يكون أبعد عن أن يفكر فيه . فوعده دون كيخوته أن ينجز ما نصحه به بكل دقة .

ثم رتب كل شيء من أجل إجراء سهرة السلاح في فناء فسيح بجوار الفندق . فجمع دون كيخوته سلاحه ووضعه على حوض إلى جوار بئر ، ثم احتضن ترسه وأمسك برمحه ، وبحركة رشيقة أنشأ يغدو ويروح أمام الحوض ، ولما بدأ هذه العملية ، كان الليل قد عسعس . وكان صاحب الفندق قد قص على النزلاء جنون ضيفه هذا وسهرة السلاح التي

يقوم بها والاحتفال الذي سيقام لتسليحه فارساً . فتعجبوا من هذا الطائف الجنوني ، ومضوا يراقبونه من بعيد . وكان هو يتجول بخطوات بطيئة موزونة ، أحياناً ، وأحياناً أخرى كان يستند إلى رمحه ويتعهد بنظره أسلحته دون أن يتحول عنها طول ساعة كاملة . ثم أرخى الليل سدوله كلها ، بيد أن القمر كان يلقي ضوءاً وضاحاً ينافس من أعارته إياه (أي الشمس) ، حتى كان كل ما يفعله الفارس المريد تأخذه عيون الجميع .

وفي هذه اللحظة تراءى لأحد البغالين الذين نزلوا في الفندق أن يسقي دابته ، وكان لا بد لهذا من رفع أسلحة دون كيخوته عن الحوض . فلما رآه هذا مقبلاً صاح فيه بصوت عال : - أنت ، أياً من كنت ، أيها الفارس الجسور الذي أتيت لتمس سلاح أشجع الفرسان الجوالين الذين تقلدوا السيوف ، حذار مما أنت فاعل ، ولا تمسسها إذا شئت ألا تدفع حياتك ثمناً لتهورك .

فلم يحفل البغال بما قال ، وبالسوء ما فعل ، ولو حفل به لأبقى على صحته . بل أمسك بالسيور وألقى بالحزمة بعيداً . فما أن أبصر دون كيخوته ما فعل حتى ارتفع ببصره إلى السماء واتجه بأفكاره (فيما بدا) إلى سيدته دلغيا وقال : - أعينيني ، يا سيدتي ، في هذه الالهانة الأولى التي يعانيتها هذا القلب الأسير لك ، ولا عدمت مساعدتك وفضلك في هذا الخطر الأول .

وبينا كان يتفوه بهذه الكلمات وأخرى تشبهها ، ألقى بترسه ورفع رمحه بيديه وأهوى بضربة محكمة على رأس البغال ، جندلته على الأرض في أسوأ حال ، وكانت تكفي ضربة أخرى لاستدعاء جراح ، ولما تم له هذا ، جمع سلاحه واستأنف التجوال ذاهباً جانباً بنفس الهدوء الذي كان فيه قبل .

وبعد قليل اقترب أحد رفاق البغال ودون أن يعلم ما حصل - لأن الآخر كان لا يزال مجندلاً فاقد الوعي - ابتغاه سقي بغاله . لكن في اللحظة التي رفع فيها السلاح عن الحوض ألقى دون كيخوته بترسه ورفع رمحه من جديد ، دون أن يقول كلمة أو يلتمس شيئاً من أحد ، ثم شج رأسه ، دون أن يفتتها ، شجها إلى أربع قطع . فهرع جميع من في الفندق على هذه الضجة ومعهم صاحب الفندق . فلما رأهم دون كيخوته احتضن ترسه وأمسك بسيفه وصاح :

- يا سيدة الجمال ، يامعوان قلبي الضعيف ، أن لك أن تلحظي بعيون عظمتك هذا الفارس ، عبدك ، الذي تنتظره هذه المغامرة المروعة

وبهذه الكلمات أحس أن القوة كلها تجمعت فيه ، فلو هاجمه جميع البغالين في الدنيا لما تقهقر خطوة واحدة . وكان إخوان الجريحين لما شاهدوهما في هذا الحال قد بدأوا

يحبسون دون كيخوته بالأحجار التي انهالت عليه كالأمطار ، وراح هو يدرؤها عن نفسه بترسه ، ولم يجرؤ على الابتعاد عن الحوض لئلا يترك سلاحه . فصاح صاحب الفندق فيهم أن يدعوا الفارس وشأنه ، لأنه كما قال لهم من قبل رجل مجنون وما دام مجنوناً فسيخرج سليماً حتى لو قتلهم عن آخرهم ، وكان دون كيخوته من جانبه يصيح بأعلى صوته ناعثاً إياهم بأنهم خونة كفر ، قائلاً إن سيد القصر فارس جبان دنيء ، إذ سمح بمعاملة الفرسان الجوالين على هذا النحو ، ولو كان هو تلقى رتبة الفروسية لكشف عن خيائته ، ثم وجه الخطاب الى الجمع قائلاً : أما أنتم أيها الأوغاد الأنجاس الأذنياء ، فلست أحفل بكم في شيء . ألقوا حجاركم عليّ ، وأقبلوا وهلموا ، هاجموني بكل ماؤتيتم من قوة ، وسترون جزاء وقاحتكم المجنونة .

وكان يلقي هذه الكلمات برباطة جأش واستكبار ، أثارا الرعب فيمن هاجموه ، حتى إنهم توقفوا عن قذفه بالأحجار كما نصحبهم صاحب الفندق . هنالك تركهم دون كيخوته يحملون الجريحين ، واستأنف سهرة السلاح بنفس الجد والهدوء .

لكن هذه المساخر لم تعد ترضى صاحب الفندق ، فقرر أن يقفها عند حد وأن يسرع فيمنحه رتبة فارس ، قبل أن يقع مكروه آخر ، فتقدم إليه بكل خضوع واستماحه العذر عما أبداه هؤلاء السفلة من وقاحة دون أن يعلم عنها شيئاً ، وهم قد لقوا عن استخفافهم هذا أبشع عقاب . وأعاد عليه ما قاله من قبل وهو أنه لا يوجد هيكل في هذا القصر ، على أن هذا الأمر غير ضروري فيما تبقى عمله ، فإن الأمر الجوهرى لتسليح المرء فارساً هو الضرب ضربتين على القفا والكتف ، حسبما يعرف عن مراسم نظام الفروسية ، وأن هذا يمكن أن يتم في الخلاء . أما فيما يتصل بسهرة السلاح ، فالشرط قد توافر ، لأن ساعتين من السهرة كافيتان ، وهو قد أمضى أكثر من أربع . وصدق دون كيخوته كل ماسمع وقال إنه على استعداد لطاعته ورجاء أن ينجز الأمر على أسرع وجه . لأنه لو هوجم مرة أخرى بعد أن يكون قد سلح فارساً ، فلن يدع شخصاً حياً في القصر ، اللهم إلا من يريده صاحبه فإنه سيبقى عليه احتراماً له .

وكان هذا إنذاراً ألقى صاحب القصر فراح يبحث عن دفتر سجل فيه ماعطاء من تبين وشعير للبالغين . ثم عاد مصحوباً بصبي يحمل شمعة صغيرة وبالفتاتين المذكورتين ، الى حيث ينتظره دون كيخوته ، وأمر هذا الأخير بأن يجثو على ركبتيه ، ثم أنشأ يتلو من دفتره كأنما يتلو صلوات ، وفي أثناء القراءة رفع يده وصفعه على قفاه صفعة قوية ، ثم ضربه بسيفه هو ضربة أخرى على كتفه ، كل هذا وهو يتمم بكلمات كأنها صلوات . فلما تم هذا أمر إحدى السيدتين بأن تنطقه بالسيف ففعلت ماأمرت به برشاقة وحشمة

بالفنتين ، إذ كان لا غنى عن الحشمة للتمالك من الضحك في كل نقطة من نقط هذه المراسم ، بيد أن الشجاعة التي أبداهها هذا الفارس المريد كانت كافية لأن تفرض الاحترام على الجميع .

وقالت له السيدة الطيبة وهي تنطقه ،

- جعل الله سيادتك فارساً سعيداً جداً ، وافر الحظ في المعارك .

فسألها دون كيخوته عن اسمها ليعرف من يدين لها بهذا الفضل ، لأنه فكر أن يشركها في الشرف الذي سيناله بقوة ساعده . فأجابته بكل تواضع قائلة إن اسمها « لاطولوسه » وإنها ابنة مرقع ثياب في طليطلة يسكن في حوانيت سانشو - بينيا ، وإنها أينما كانت ستكون على أتم استعداد لخدمته وتعدّه سيدها فرجاءا دون كيخوته - حباً فيه - أن تضيف الى اسمها لقب « دونيا » ، وأن تسمى « دونيا طولوسه » ، فوعده بأن تفعل ما به أمر ، أما الأخرى فوضعت في رجليه المهماز ، وكان بينها وبينه نفس الحوار تقريباً الذي كان بينه وبين من نطقته بالسيف . فلما سألها عن اسمها ، قالت إن اسمها « لامولينيرا » وإنها ابنة طحان نبيل في أنتقيرة ، ورجاها دون كيخوته أيضاً أن تضيف لقب « دونيا » فتسمى « دونيا مولينيرا » ، وعرض عليها خدماته وأفضاله .

فلما انتهت هذه المراسم بسرعة وركض لم يشاهد نظيرهما من قبل ، كان دون كيخوته يتحرق شوقاً الى امطاء صهوة جواده والارتحال بحثاً عن المغامرات . فشد السرج على روثينائه بكل عجلة ووثب عليها وحضن صاحب القصر (الفندق) ، وقال له عبارات في غاية الغرابة يشكر له بها فضله عليه بأن سلّحه فارساً ، عبارات يستحيل إيرادها بحروفها . ولكي يراه خارج الفندق بأسرع مايمكن ، رد عليه صاحب الفندق بكلمات لا تقل بلاغة وإن كانت أوجز ، وتركه يرحل الى حيث ألفت ، دون أن يتقاضى منه أجراً .

الفصل الرابع

فيما جرى لصاحبنا الفارس حينما غادر الفندق

بدأت أسارير الفجر في الانبلاج حينما خرج دون كيخوته من الفندق راضياً جذلان ، نشوان إذ رأى نفسه قد سُلح فارساً ، حتى اهتزت من فرحه سيور السرج ، لكنه تذكر النصائح التي أسداها إليه مضيفه فيما يتصل بالزاد الضروري الذي يجب أن يتزود به ، خصوصاً النقود والقمصان ، فقرر أن يعود أدراجه الى بلده لكي يتزود بكل ما يستطيع ، وليكون له أيضاً حامل سلاح ، على أن يكون فلاحاً جاره ، وكان فقيراً ذا عيال ، لكنه كان صالحاً تماماً لوظيفة حامل السلاح في الفروسية الجواله ، فلما عقد نيته على إمضاء هذا الأمر ، حول روئيناته ناحية قريته ، فركض الفرس بنشاط ، وكأنه تعرف طريق مأواه ، وراح يركض وكان أقدامه لا تمس الأرض .

ولم يكن دون كيخوته قد قطع مسافة طويلة حين خُيل إليه أنه تنبعت من أعماق الغابة التي كانت عن يمينه أنات كأنات الشاكي ، ولم يكذب يسمعه حتى صاح ، - الحمد لله على ما حباني من نعمة ، إذ أرسل إليّ بهذه السرعة فرصة لأداء واجبي في مهنتي هذه ، واقتطف ثمار نواياي الطيبة . فهذه الأصوات هي من غير شك أصوات محتاج أو محتاجة يحتاج الى مساعدتي وحمائتي .

ثم أدار العنان ووجه روئيناته في اتجاه المكان الذي خُيل إليه أن الصرخات كانت تنبعت منه . ولم يكذب يخطو بضع خطوات في الغابة حتى شاهد فرساً مربوطاً الى سندیانة ، وفتى صغيراً لا يتجاوز الخمسة عشر ربيعاً مربوطاً الى سندیانة أخرى ، عارياً من رأسه حتى خصره ، ومنه كانت تنبعت الصرخات ، ولسبب حقاً ، إذ كان ثمة فلاح غليظ الألواح يؤديه بضربات قوية من حزام جلدي ، ويصاحب كل ضربة بزجرة ونصيحة . إذ كان يقول له :

- لسانك ، يخرس ، وعيونك تفتح .

والصبي يجيبه :

- لن أفعل هذا مرة أخرى ، ياسيدي ، بحق الله لن أفعله مرة أخرى ، وأعدك من الآن فصاعداً أن أعنى بالقطيع كل العناية .

فلما رأى دون كيخوته هذا المنظر ، قال بصوت مغضب :

- أيها الفارس القليل الأدب ، لا يليق بك أن تهاجم من لا يستطيع الدفاع عن نفسه .
اركب فرسك وخذ رمحك (- إذ كان ثمة رمح أسند الى الشجرة التي ربطت إليها الفرس) ،
وسأريك أن من الجبن أن يفعل المرء ماتفعل الآن .

فلما رأى الفلاح هذا الشبح المغطى بالسلاح ينقض عليه فجأة شاهراً رمحه في وجهه ،
سرت فيه رعدة الموت وأجابه بكلمات رقيقة :

- سيدي الفارس! هذا الصبي الذي تراني أعاقبه إنما هو خادمي الذي يحرس قطيعاً من
الغنم في هذه النواحي ، لكنه مهمل إلى حد أنه في كل يوم تفقد واحدة ، ولأنني أعاقبه على
كسله ، بل لعلي أعاقبه على لؤمه ، يدعي أنني أفعل هذا عن بخل وخسة ولكيلا أدفع إليه
ماعلي له من أجر ، ويعلم الله وبشرفي إنه لكاذب .

- كاذب أمامي أيها الوغد الداني ؟ - هكذا قال دون كيخوته - بحق الشمس التي
تضيء لنا ، لأدري ماذا يمنعني من أن أولج رمحي في جسمك ليخترقه من الجانبين . إدفع
له أجره في الحال ودون أن تنبس ببنت شفة ، وإلا أقسم بالله أن أقضي عليك قضاءً مبرماً في
التو . حل وثاقه .

فأنغض الفلاح رأسه ودون أن يجيب بكلمة واحدة حل وثاق خادمه ، وسأله دون
كيخوته بكم يدين له سيده . فأجاب الغلام : تسعة أشهر ، وفي كل شهر سبعة ريالات .
فحسب دون كيخوته الحساب ووجده ثلاثة وستين ريالاً ، فأمر الفلاح بدفعها في الحال ،
إذا أراد النجاة بحياته . فأجاب الوغد الهيتابة قائلاً : بحق الجذع العائر الذي وقع فيه ، وبما
أقسم به من قبل (وهو لم يكن قد أقسم بشيء في الحقيقة) ، إنه يؤكد أن المبلغ ليس كبيراً
هكذا ، بل يجب أن يخصم منه ويدخل الحساب مقدار ثلاثة أزواج من الأحذية أعطاه
لخادمه ، ومبلغ ريال دفع من أجل حجامتين أجريتا له حين كان مريضاً .

- هذا حسن كله ، هكذا أجاب دون كيخوته . ولكن لتكن الأحذية والحجامة في
مقابل الضرب الذي نلت به بغير سبب ولا داع . لأنه إذا كان قد مزق جلد الأحذية التي
دفعت أجرها له ، فأنت مزقت جلد بدنه ، وإذا كان الحلاق قد أخذ منه دماً وهو مريض ،

فقد أسلت أنت دمه وهو سليم معافى . وإذن فهو لا يدين لك بشيء .
 - المصيبة ، ياسيدي الفارس ، هي أنني لا أملك الآن نقوداً هنا ، ألا فليأت أندريس معي
 الى المنزل ، وأنا أدفع له ريالاً فوق ريال .
 - أنا أذهب معه مرة أخرى ؟ هكذا قال الصبي . كلا ، وألف مرة . كلا ، ياسيدي ! أعود
 بالله من مجرد التفكير في هذا ، إنه لو انفرد بي لسلخني حياً مثلما وقع للقديس
 برثلميوس^(١) .
 - كلا ، كلا ، هكذا أجاب دون كيخوته . إنه لن يفعل شيئاً . يكفي أن أمره حتى
 يطيع ويحترم ، فإن أقسم على هذا بناموس الفروسية الذي تلقاه تركته حراً ، وأضمن
 الدفع .
 فقال الصبي : انظر سيادتك فيما تقول . إن سيدي هذا ليس فارساً ولم يتلق أبداً رتبة
 الفروسية ، إنه خوان هلدودو الغني ، من أهل قنطنار^(٢) .
 فأجاب دون كيخوته : وماذا يهم ؟ ليس ما يمنع من أن يكون أحد بني هلدودو فارساً ،
 وفضلاً عن هذا ، فكل امرئ ابن أعماله .
 فقال أندريس : هذا حق . لكن : ابن أية أعمال يكون سيدي هذا الذي يرفض أن يدفع
 أجرتي ، ثمن عرقي وعملي ؟
 فأجاب الفلاح : أنا لست ممتنعاً عن الدفع ، يا أندريس ، أي صديقي . أسعدني بأن
 تأتي معي ، وأنا أقسم لك بكل أنظمة الفروسية الموجودة في الدنيا أن أدفع لك ، كما قلت ،
 ريالاً فوق ريال ، بل ومع الأرباح والفوائد .
 فقال دون كيخوته : إني أعفيك من الفوائد ، بل ادفع له عدأً وتقديراً ، فهذا كل ما أطلبك
 به . وحاذر ألا تنجز ما أقسمت عليه ، وإلا ، وبالقسم نفسه ، أقسم بأن أعود للبحث عنك
 وعقابك ، وسأعرف كيف أجذك ، حتى لو كنت أخفى من عطاية الحائط . وإذا أردت أن
 تعرف من ذا الذي يأمرك بهذا الأمر ، لكيما تكون ملزماً أكثر بإنجازه ، فاعلم أنني الشجاع
 دون كيخوته المنتشاي ، مصلح الأخطاء ومنصف المظلومين . والآن ، فليبارك الله ! لكن
 لاتنس ما وعدت به وأقسمت عليه ، وإلا فالويل لك .
 قال هذا وشده بيديه عنان روثينانته واختفى في الحال .

(١) أحد الحوارين ، يقال إنه راح يبشر بال نصرانية حتى آخر حدود الهند ، وفي أثناء عودته كان يبشر بها في إفريقيا ولوقاؤنيا .
 واستشهد في أرمينية ، حيث سلخ حياً حوالي سنة ٧١ م . وقد نسب إليه إنجيل زائف .
 (٢) قنطنار دلا أوردن ، مدينة في مقاطعة طليطلة ، وقصائماً ملحقة بناحية توبوسو ، مسقط رأس دلفنيا ، حبيبة دون كيخوته المزعومة .

وتتبعه الفلاح بنظراته . ولما رأى دون كيخوته قد إخترق الغابة واختفى عن الأنظار ، عاد الى خادمه أندريس ، وقال :
تعال يا بني ، لأنني أريد أن أدفع ماعليّ لك ، كما أمرني مصلح الأخطاء هذا . فقال
أندريس :

- قسماً بالله! ومن الحكمة أن تفعل سيادتكم ما أمر به هذا الفارس الطيب ، عمّره الله
دهراً طويلاً جزاء شجاعته وعدالته ، وسيعود ، قسماً بحياة القديس روك ، إذا لم تدفع .
كي ينفذ ما قال . فعاد الفلاح يقول :

- وأنا أيضاً أقسم ، ولكن حبي الشديد لك يحملني على زيادة الدين لزيادة الدفع .
ثم أمسك بذراعه ، وعاد يوثقه الى نفس السنديانة ، ثم أهوى عليه بضربات تركه
بعدها كال ميت . ثم قال له :

- ناد الآن ، ياسيد أندريس ، ناد مصلح الأخطاء ، وسترى ما إذا كان في وسعه أن
يصلح هذا ، وإن كنت لا اعتقد أنني ضربتك بما فيه الكفاية ، لأنني أود أن أسلخك حياً ، وهو
ما كنت تخاف منه .

وأخيراً حل وثاقه وأطلق سراحه ليبحث عن قاضيه لينفذ الحكم الذي أصدره . فمضى
أندريس يرعف أنفه غضباً ، وهو يقسم أنه سيبحث عن الشهم دون كيخوته دلامنتشا ويقص
عليه كل شيء مما جرى ، وسيضطر سيده للدفع أضعافاً مضاعفة . بيد أن هذا المسكين
مضى لطريقه باكياً ، بينما ظل سيده يضحك . وهكذا أصلح الشهم دون كيخوته الضرر الذي
وقع!

وارتحل هذا النشوان بمغامرته التي بدت له بداية سعيدة رائعة لأفعاله في الفروسية ،
ميمماً قصد قريته ، هامساً :

- تستطيعين أن تعدي نفسك أسعد نساء الدنيا اليوم ، أيتها الحسنة . فوق ستائر
الحسنات ، دلشنيا دل توبوسو ، إذ شاء لك حسن الطالع أن يكون عبدك المستسلم
لإرادتك فارساً شجاعاً شهيراً دون كيخوته دلامنتشا ، هكذا هو وهكذا سيكون أبداً ، وقد
تلقى بالأمس ، والدنيا كلها تعلم ، رتبة الفروسية ، وها هو ذا منذ اليوم قد أصلح أكبر
فساد أنشأه الظلم وارتكبته القساوة ، إذ انتزع السوط من كف هذا الجلال القاسي الذي
مزّق ، لسبب تافه ، جسم الفتى الرفيع .

وهنا وصل إلى طريق يتقاطع في أربعة اتجاهات ، فخطرت بباله ذكرى مفترقات الطرق
التي عندها تلبث الفرسان الجواله ليفكروا : أي طريق يختارون . وتقليداً لهم ، ظل برهة

ساكناً ، ولما أفكر وقدّر أرخى العنان لروثيناته ، مسلماً أمره لهوى برذونه الذي اتبع فكرته الأصلية وهي أن يسير في الطريق الى اسطبله . وبعد أن سار مسافة ميلين تقريباً ، اكتشف دون كيخوته حشداً كبيراً ، عرف الناس فيما بعد أنهم تجار من طليطلة كانوا في طريقهم الى مرسية لشراء حرير . وكانوا ستة يحملون مظلاتهم ، ومعهم أربعة خدم على خيول ، وثلاثة صبيان بغال يسировون على أقدامهم . ولم يكد دون كيخوته يلمحهم حتى خيل إليه أنه بإزاء مغامرة جديدة ، ولكي يقلد ، ماوسعه ، كيفية الهجوم التي قرأ عنها في كتب الفروسية ، خيل إليه أن هذه هي الفرصة الفريدة للقيام بنوع منه طالما أفكر فيه . فاستوى على فرسه وامتطى ظهر التيه ومط حاجبيه وأمسك برمحه والتأم ووقف في وسط الطريق وانتظر مقدم هؤلاء الفرسان الجوالين ، إذ هكذا حسبهم . فلما وصلوا على مرمى السمع والبصر رفع دون كيخوته صوته ، وصاح بلهجة ملؤها العجرفة :

- فليقف كل في مكانه ، إذا لم يعترف بأنه لا يوجد في الدنيا بأسرها فتاة أجمل من إمبراطورة المنتشا العديمة النظير دلثنيا دل توبوسوا

فتوقف التجار عند سماع هذه الكلمات ليتأملوا الوجه الغريب الذي تفوه بها ، وسرعان ما تبينوا من وجهه وكلماته جنون صاحبه . لكنهم أرادوا أن يعرفوا الى أي مدى يذهب هذا الاعتراف الذي طالبهم به ، ولهذا أجابه أحدهم ، وكان ولوعاً بالهزل والطَّنَر :

- سيدي الفارس! نحن لا نعرف هذه السيدة الحسنة التي تتحدث عنها ، أننا إياها ، فإذا كانت على حظ من الجمال بالقدر الذي تشير إليه ، فسنعترف ، عن طيب خاطر وبلا أدنى خوف ، بالحقيقة التي تطالب جنابكم بها .

فأجاب دون كيخوته :

- لو أنني أريتكم إياها ، فأني فضل لكم في الاعتراف بحقيقة جليلة كل الجلاء ؟ المهم أن تعتقدوا بها ، دون أن تروها ، وتعترفوا تؤكدوا وتقسموا ، بل وتدافعوا عنها بحد السلاح ، وإلا ، فهي استعداد للمنازلة والمعركة ، أيها الأدعياء المتغطرسون! وسواء عليّ أبرزتم للقتال واحداً في إثر الآخر كما يقتضيه نظام الفروسية ، أم أقبلتم جماعة ، كما هو شأن الأوغاد الذين على شاكلتكم ، فأنا في انتظاركم ها هنا ، وأتحداكم ، وثقتي في الحق الذي بجانبني .

فرد عليه التاجر قائلاً ،

- ياسيدي الفارس! باسمنا جميعاً نحن الأمراء الحاضرين هنا ، نلتمس من جانبكم ، حرصاً على ألا نحمل ضماننا ما لا طاقة لها به بالاعتراف بشيء لم نره أبداً ولم نسمع

به ، ومن شأنه أيضاً أن تضارب به إمبراطورات وملكات «القرية»^(١) واستريميدورا - نقول إننا نلتبس أن تتفصلوا فترونا صورة لها ، حتى لو لم تكن أكبر من حبة الشعير ، فإننا نستطيع أن نحكم بالنموذج على الأصل ، فتستريح ضماننا ، ويرضى جنابكم . بل أعتقد أننا في صفها مقدماً ، فلو أظهرتها الصورة عواء العين ، وأن العين الأخرى تقطر كبريتاً وزنجفراً ، فإننا رغم ذلك وحرصاً على إرضاء جنابكم سنقول في إطرانها كل ما تودون .

فصاح دون كيخوته مغضباً يتلظى :

- إنها لا تقطر شيئاً إنها لا تقطر شيئاً مما ذكرت ، بل تقطر عنبراً ومسكاً بين أقطان ، وليست ملتوية ولا حدباء ، بل أشد استقامة من مغزل جواد راما (جبل الشارات) ! وستدفعون ثمن الكفر الشديد الذي نطقتم به ضد هذا الجمال ، جمال سيدتي .

واندفع وهو يقول هذه الكلمات ، مرخياً رمحه في وجه من تفوه بهذه العبارات ، اندفع بحماسة وجنون بلغا حدّاً لولا أن حسن الطالع قد جعل روئيتانته قد هوت على الأرض وألقت بسيدها يدور بعيداً على التراب ، وحاول أن ينهض ، لكنه لم يستطع أبداً لأنه كان مثقلاً بالرمح والترس والمهمازين والبصلة وسلاحه العتيق . وفي خلال محاولاته الهائلة للنهوض سدئ ، كان يقول :

- لا تهربوا أيها الجبناء ، أيها العبيد الأنجاس ، انتظروا . فما بسببي ولكن بسبب فرسي وقعت .

لكن أحد خدم البغال من أتباع التجار لم يكن سمح النفس فلم يستطع سماع هذه الكلمات المليئة بالتحدي والغطرسة دون أن يقدم إليه الجواب عنها في جنبه . فاقترب منه وانتزع رمحه وكسره ثلاث أو أربع قطع ، بإحداها هوى على صاحبنا دون كيخوته بشدة وقسوة حتى طحنه طحناً رغم سلاحه . وعبثاً صاح فيه أسياده ألا يسرف في الضرب وأن يدعه وشأنه ، فإن البغال أخذته حُمى الضرب فلم يشأ أن يخلي عنه قبل أن يفرغ جام غضبه كله . ثم جمع سائر قطع الرمح ، وكسرها الواحدة بعد الأخرى على جسم هذا الراقد

(١) القرية «ناحية من نواحي قشتالة الجديدة» - استريميدورا «منطقة شاسعة قسم منها يتبع أسبانيا ، والآخر يتبع البرتغال ، وهذا الاسم أطلق عليها في العصور الوسطى ، وهو مأخوذ من *extrema duriti* (أقصى الدويرو) . وفي العهد الروماني كان اسمها « قنونيا » ، استولى عليها الألابيون سنة ٤١١ م ، والسواب سنة ٤٢٠ والقوط سنة ٤٢٧ ، والعرب سنة ٧١٢ ، وفي القرن الثاني عشر غزا ألفونس هنريكت ملك البرتغال القسم الذي استقر من بعد في حوزة البرتغال ، وغزا ألفونس الحادي عشر ، ملك ليون ، ثم فرديناند الثالث ملك قشتالة القسم الآخر الذي أصبح أسبانياً ، وذلك في القرن الثالث عشر . والمنطقة الإسبانية عاصمتها بطليوس ، وأشهر مدنها «ماردة» ، والقنطرة ، وقورية ، وبلاستيه ، وترجاله .

المسكين الذي ظل طوال هذه العاصفة من الضرب المتهوي عليه فاغراً فاه يهدد السماء والأرض وقطاع الطرق ، إذ خالهم كذلك .

وأخيراً تعب البغال من الضرب ، وتابع التجار مسيرهم ، وهم يحملون في جعبتهم مايصلح للتندر به طوال الرحلة عن حادث هذا المجنون المسكين الذي شبع ضرباً . ولما رأى هذا نفسه وحده حاول النهوض من جديد ، لكن إذا كان لم يستطع القيام حينما كان سليماً معافى ، فكيف يستطيعه بعد أن طُحن ومُزق ؟ ورغم هذا كله كان جذلان راضياً ، إذ رأى هذه المحنة أمراً شائعاً لدى الفرسان الجواله ، ونسب الخطأ كله الى فرسه . أما النهوض فلم يكن ثم إليه سبيل ، لأن بدنه كله كان مفككاً مخروطاً .

الفصل الخامس

في تهنئة حكاية محنة فارسنا هذا

وجد دون كيخوته إذن نفسه غير قادر على الحركة ، فقرر اللجوء الى دوانه المعتاد ، وأعني به التفكير في فقرة من فقرات كتبه ، فأدى به جنونه الى تذكر حادثة قالدوئينوس ومركيز منتوا ، حينما ترك كارلوتو أولهما جريحاً في الجبل ، وهي حكاية يعرفها الأطفال ، ولا يجهلها الشباب ، ويشنى عليها بل ويصدقها الشيوخ ، وفوق هذا وذاك ليست أصدق من بعض المعجزات^(١) . فبدت له هذه الحكاية ملائمة كل الملائمة لموقفه هذا ، وهكذا أنشأ يتقلب على التراب بانفعال شديد ، ويقول بصوت فيه أنين ماقاله ذلك الفارس الجريح في الغابة ، حسبما يروون ؛

أين أنت الآن يا صاحبتني ؟ أفلا يظننيك ما يلقي الجريح ؟
أنت لا تدريين ما ألقاه أو أنت زيفٌ مالها عهد صحيح ؟

واستمر يتلو الرومانشية على هذا النحو ، إلى أن بلغ الأبيات التي تقول ،

أيها المركيز مولى منتوا أنت عمي اللخ والمولي معا

وشاء القدر في هذه اللحظة أن يمر فلاح من أبناء ضيعته وكان جارا له ، أقبل يحمل حملا من القمح الى الطاحونة . فلما شاهد هذا الرجل المنبطح اقترب منه وسأله من يكون وماذا دهاه حتى يتوجع ويئن هذا الأنين الحزين . ولم يشك دون كيخوته في أن هذا القادم هو عمه المركيز مولى منتوا ، لهذا لم يكن عنده من جواب غير أن يسترسل في تلاوة

(١) عدلنا في النص بحذف كلمة نابية .



٣ - الفصل الخامس : محنة دون كيخوته

قصيدته الرومانسية ، قصص عليه محنته وغرام ابن الامبراطور بزوجه ، على النحو الذي وردت عليه في الرومانسية .

وأصغى الفلاح مشدوهاً الى هذه الغرائب ، ثم خلع عنه حافة الخوذة وقد مزقتها ضربات العصا ، ومسح وجهه وقد علاه القتام . ولم يكذب يتعرفه بعد أن نفخ عنه الغبار حتى صاح :
- يا سيد كيهانا! - ولا بد أن اسمه كان هكذا حينما كان لا يزال بعقله ولم يكن قد تحول من نبيل هادي الى فارس جوال - من فعل بك هذا ؟

لكن دون كيهوته استمر يتلو رومانسيته رداً على كل سؤال ألقى عليه . فلما شاهد ذلك الرجل الطيب هذه الحال ، بذل وسعه في خلع صدريته وما على كتفيه ليري ما إذا كان فيه جراح ، بيد أنه لم يشاهد للدم أثراً . هنالك حاول أن يرفعه من الأرض ، ثم استطاع بمشقة بالغة أن يركبه على حماره إذ بدا له ركوبه أكثر وداعة . وبعد ذلك جمع أسلحته حتى شظايا رمحه ، وحزمها ووضعها على روثيناته ، وأمسك هذه من عنانها وحماره من مقوده ، وسار في اتجاه قريته ، مشغولاً بالتفكير في الغرائب التي تفوه بها دون كيهوته ، كذلك سار دون كيهوته مفكراً هو الآخر ، محطماً مطحوناً لا يقوى على الاعتدال على الأتات ، وهو يزفر بين الحين والحين زفرات تصاعد الى عنان السماء ، حتى اضطر الفلاح أن يسأله عما يشعر به من وجع . لكن يبدو أن الشيطان - فيما يلوح - قد أصر على أن يذكره بكل الحكايات التي تلائم حاله تلك ، فسرعان مانسي فالدوئينوس وتذكر ابن إدريس المراكشي لما أن أسره رودريجو دي نرفانت حاكم أنطقيره واقتاده الى صومته ، حتى إنه لما سأله الفلاح مرة أخرى عن حاله وما يشعر به أجاب بنفس العبارات والكلمات التي قالها الأسير الذي من بني سراج لرودريجو دي نرفانت ، حسبما قرأ قصته في كتاب «ديانا» تصنيف خورخه دي مونتمايور ، وطبقه على حاله تماماً حتى جن جنون الفلاح وهو يسمع هذا الخليط الهائل من الغرائب . فاستيقن من هذا أن جاره لابد مجنون ، وحث الخطى الى القرية ليتخلص مما أثاره دون كيهوته في نفسه من الحفيظة بخطبته المسترسلة ، التي ختمها بقوله :

- اعلموا جنابكم ، ياسيدي الدون رودريجو دي نرفانت ، أن شريفة الجميلة هذه التي ذكرتها هي الان دلثنيا دل توبوسو الحسناء ، التي من أجلها فعلت وأفعل وسأفعل أشهر أفعال الفروسية التي شاهدها الناس في الدنيا ويشهدونها وسيشهدونها .
فأجاب الفلاح :

- يا لي أنا الخاطي! انظر ياسيدي! فلست أنا دون رودريجو دي نرفانت ، ولا مركز منتوا .

بل بدور ألونسو ، جارك ، ولست أنت فالدوفينوس ولا ابن إدريس بل السيد النبيل كيخانا .
فرد عليه دون كيخوته قائلاً :

ـ أنا أعرف من أنا ، وأعرف أنني أستطيع أن أكون ليس فقط من ذكرت ، بل أيضاً «أكفاء»^(١) فرنسا الاثني عشر ، وكذلك أبطال الشهرة^(٢) التسعة كلهم ، لأن أعمالهم جميعاً فرادى ومجتمعين ، لاتداني أبداً أعمالي .

وظلوا في هذه الأحاديث وأشباهاها حتى بلغوا الناحية ساعة المنيب ، لكن الفلاح انتظر حتى يكتمل الظلام ، حتى لا يرى الناس هذا السيد المحطم على هذه الحال البائسة ، فلما أرخى الليل سدوله دخل القرية ووصل منزل دون كيخوته فوجداه مضطرباً أيما اضطراب ، وكان فيه القسيس وحلاق الناحية ، وكانا صديقين حميمين لدون كيخوته ، ولهما كانت الخادمة تقول شاكية :

ـ ماذا ترى أيها السيد المجاز بيرو بيرث (وكان هذا اسم القسيس) ، وما رأيك في محنة سيدي ؟ لم يظهر منذ ستة أيام ، لاهو ولا برذونه ولا ترسه ولا رمحه وسلاحه . يالشقاوتي ! أراهن برأسي ، وهذا حق كما أن الموت حق ، أن كتب الفروسية الملعونة هذه التي جمعها وكان يقرؤها أثناء الليل وأطراف النهار قد أحدثت في عقله اختلالاً . وإني لأذكر الآن أنني سمعته مرات عديدة يتحدث الى نفسه قائلاً إنه يريد أن يصبح فارساً جوالاً ، وإنه سيسعى في مناكبها بحثاً عن المغامرات . ألا فليسحق إبليس والزبانية هذه الكتب التي أفسدت أذكي عقل في إقليم المنتشا كله !
وقالت ابنة أخيه الشيء نفسه ، وأضافت :

ـ أعلم يا أسطى نقولا (وكان هذا اسم الحلاق) أنه قد وقع مراراً لعمي أن يقضي في قراءة هذه الكتب المنحوسة الرهيبة يومين متتاليين بلياليهما ، وعند نهايتهما يقذف بالكتاب فجأة ، ويمسك بسيفه ويبدأ في منازل الجدران . فإذا غلبه التعب قال إنه قتل أربعة من المردة الكبار كأبراج أربعة ، وإن العرق الذي كان يتصبب منه تعباً إنما كان الدم المراق من الجراح التي أصيب بها في المعركة . ثم يشرب جرة كبيرة من الماء

(١) كان هذا الاسم يطلق على أكابر النبلاء في فرنسا ، ويسمون هكذا «أكفاء» لأنهم كانوا متساوين في الشجاعة والمعنر والقيمة . وكان ملوك فرنسا هم الذين يختارونهم ، ومن أشهرهم الأكفاء الاثنا عشر الذين اختارهم شارلمان ، ومنهم : أوليغيه ، ورولان ، وريينو دي مونالبان ، وصيغت حول بطولتهم وسيدهم شرلمان أساطير عديدة .

(٢) هؤلاء يقصد بهم الأبطال التسعة المشهورون : ثلاثة يهود هم يوشع ، وداود ، ويوداس المكابي ، وثلاثة وثنيون هم الاسكندر المقدوني ، واقتطور البطل الطروادي ، ويوليوس قيصر ، وثلاثة نصارى هم : الملك ارثر ، وشارلمان ، وجودهورا دي بويون .

الفصل السابع والعشرون

في كيف أفلح القسيس والحلاق في خطتهما، وأمور أخرى
خليقة بالذكر في هذه القصة العظيمة

لم ير الحلاق بأساً فيما دبره القسيس بل وجداه صالحاً حتى إنهما قاما بالتنفيذ في الحال . فسألا صاحبة الفندق أن تعيرهما تنورة ونقاباً ، ورهنا في مقابل ذلك لديها كسوة القسيس الجديدة . واصطنع الحلاق لنفسه لحية طويلة عملها من ذنب ثور ، لحية شقراء أو حمراء ، علق فيها صاحب الفندق مشطه^(١) . وقد سألهما عن السبب في طلب هذه الأزياء التكرية فقص عليه القسيس باختصار قصة جنون دون كيخوته وكيف أنهما في حاجة الى هذه الأزياء التكرية لإنقاذ من الجبل الذي اعتزل فيه . فأدرك صاحب الفندق وزوجته في الحال أن هذا المجنون إنما هو نزيلهم منذ أيام ، صانع البلسم ، ومولى حامل السلاح الذي عانى تقلبه على الغطاء ، ولهذا راحا يقصّان على القسيس كل ما حدث في الفندق دون أن يخفيا ما أخفاه سنشو . وأخيراً ألبست صاحبة الفندق القسيس على أغرب نحو ، فألبسته تنورة من القماش المفوف بأشرطة من القطيفة السوداء سعتها شبر مفصلة قطعاً ، وصدرية من الفضّة الخضراء مزودة بإطار من الساتان الأبيض ، وكلتا التنورة والصدرية لابد أن تكون قد صنعت في زمان الملك ومبا^(٢) . ولم يشأ القسيس أن يضع نقاباً ، وإنما غطى رأسه بطاقيّة صغيرة من التل المنقوط كان يلبسها في الليل أثناء النوم . ثم عصب جيّهة بعصابة واسعة من التفتة السوداء ، واتخذ من عصابة أخرى نوعاً من النقاب يغطي لحيته ووجهه كلّهُ . ووضع على رأسه قبعته الدينية وكانت كبيرة بحيث كانت بمثابة مظلة ، وغطى كتفيه بمعطفه ، وركب بغلته على نحو ما تركب النساء ، بينما ركب الحلاق بغلته ولحيته نازلة

(١) كان من عادة الفقراء أن يضموا مشطاً في ثنايا شعر ذنب الثور لتنظيفه .

(٢) ومبا Wumba ملك القوط الغربيين (في القرن السابع الميلادي) . وهذا الاصطلاح « زمان الملك ومبا » يعبر به الاسبان عن عصر بعيد جداً .

ففعّلوا ماأمر به . وراح القسيس يسأل الفلاح تفصيلاً عن الكيفية التي وجد بها دون كيخوته . فقص عليه الفلاح القصة كلها دون أن يغفل ذكر الغرائب التي سمعها منه حين وجده وحين أتى به ، فزاد هذا من رغبة صاحب الإجازة (الليسانسييه) في أن يفعل ما فعله في الغد ، أعني : أن يستدعي صديقه الحلاق الأسطى نقولا ويغدوا معاً الى منزل دون كيخوته .

الفصل السادس

في التفتيش الكبير الشائق الذي قام به القسيس والحلاق
في مكتبة صاحبنا النبيل العبقري

كان لا يزال يغط في نومه . وطلب القسيس من ابنة الأخ مفاتيح الغرفة التي بها الكتب
سبب النكبة ، فأعطتها عن طيب خاطر . ودخلوا جميعاً ، والخادمة من خلفهم ، فوجدوا
أكثر من مائة كتاب أنيقة التجليد وطائفة أخرى لطيفة الحجم . ولم تكد الخادمة تراها حتى
أسرعت بالخروج من الغرفة ثم عادت تحمل طاساً من الماء ومِرْشَةً وقالت :
- تفضل يا سيدي المجاز ، ورش هذه الغرفة ، خوفاً من أن يكون بهاساخر من نوع أولئك
الذين تغص بهم هذه الكتب ، فيسحرنا عقاباً لنا على إيدائنا لهم بطردهم من هذا العالم .
فتبسم الكاهن من قولها ضاحكاً من سذاجتها ، وطلب من الحلاق أن يناوله هذه الكتب
واحداً بعد الآخر حتى يرى ما فيها ، إذ من يدري لعل فيها من لا يستحق عذاب النار .
فقال ابنة الأخ :

- كلا لا ترحموا أحداً منها ، لأنها جميعاً اشتركت في الجريمة . والأفضل أن نلقي بها
من النافذة في الفناء ثم نكومها ونضرم النار فيها ، أو نحملها الى الحوش وهناك نوقد النار ،
فلا يضايق الدخان .

وكانت الخادمة من نفس الرأي ، لشدة شوق كلتاهما الى القضاء على هؤلاء الأبرياء .
بيد أن الكاهن لم يوافقهما على هذا الرأي ، قبل أن يقرأ على الأقل العنوانات . وكان أول
كتاب ناوله إياه الأسطى نقولا هو : رابوع أماديس الغالي ، فقال القسيس :
- يظهر أن في هذا سرّاً ، فكما سمعت ، هذا أول كتاب في الفروسية . طبع في
اسبانيا ، وسائرهما منه نشأ وعنه صدر . لهذا أرى من الواجب الحكم عليه بالإحراق دون
شفقة ، بوصفه مؤسس هذه الفرقة اللعينة .
فقال الحلاق :

من يمنع المجد ؟

الحظ

من رضي لي الشقاء ؟

السما

إخال أني أموت

من دائي الممقوت

اتفقت على عذابي

الحظ والغرام - والسما

من يصلح بختي ؟

موتي

ونعيم الحب - من ينال ؟

القلب الأحوال

من شقاء الحب - من يعين ؟

الجنون

ليس ثم فطنة

في علاج محنة

دواؤها المضمون

الموت والجنون - وتقلب الأحوال

وكان الوقت والزمان والوحدة وجمال الصوت وبراعة الغناء - كان لهذا كله أثره في إشاعة الدهشة واللذة معاً في نفوس السامعين . فأرعيا سمعيهما ساكنين على رجاء أن يزدادا سماعاً . فلما رأيا أن صمت المغني قد طال واستطال ، قررا السعي للبحث عنه ولمعرفة من صاحب هذا الصوت الرخيم . وما نهضا حتى أمسك بهما الصوت نفسه في مكانيهما فراحا يستمعان فيه الى هذه المقطوعة :

أيتها الصداقة المقدسة ، يامن طرت بأجنحة رقيقة

تاركة مظهرك على الأرض

وصرت بين الأبرار في عليين

تقيمين ناعمة في منازل الخالدين

ومن هناك تبدين لنا - إن شئت -

وجهك الجميل منقّباً بنقاب
 تشع من خلاله أحياناً
 حميّة الفعّال النبيلة التي تُضحي في النهاية دميّة
 غادري السماء أيتها الصداقة ، ولا تسمح
 للخداع أن يرتدي ثيابك
 ليقتضي على النوايا الصادقة
 فإنّك إن لم تنتزعي منه مظهره
 فسرعان ما يقع العالم في معركة
 خليط الكراهية الأولى

وانتهت المقطوعة بزفرة عميقة وأصنى السامعان بانتباه عساهما أن يسمعا مقطوعات
 أخرى . فلما رأيا الموسيقي قد استحالت شكايات وزفرات ، بادرا لمعرفة من المغني الحزين
 ذو الزفرات الأليمة والصوت البغوم . ولم يبحثا طويلاً ، إذ أبصرا عند منعطف سن مسخرة
 رجلاً قامته ووجهه كما وجف سنشو حينما قصّ عليهما قصة كردنيو . فلما راهما هذا
 الرجل لم يضطرب ولم تستول عليه الدهشة ، بل توقف وألقى برأسه على صدره في وضع من
 يحلم حلماً عميقاً دون أن يرفع نظره اليهما اللهم إلا في اللحظة الأولى التي ظهر له فيها .
 وتعرّفه القسيس حسب الوصف الذي قام به سنشو ، وكان القسيس مهذب اللفظ أنيقه
 فاقترب منه ورجاه رجاءً صارعاً حاراً بعبارات موجزة ملحفة أن يترك الحياة البائسة التي
 يحياها في هذه القفار وإلا فقد عمره وتلك مصيبة المصائب . وكان كردنيو حينئذ في تمام
 رشده بمعزل عن تلك النوبات العنيفة التي كانت تخرجه عن طوره ، فلما رأى هذين الرجلين
 في لباس غير مألوف لدى من يردون هذه القفار انتابه نوع من الدهشة ، خصوصاً حين
 سمعهما يتحدّثان عن قصّته حديث العارف العليم بها ، فإن كلمات القسيس أكّدت له هذا
 المعنى بما لا مجال بعده لأي ارتياب . فأجابهما بهذه الكلمات :

« إنّي أرى أي سيدي - أيّاً من كنتما - أن السماء - عناية منها بإغاثة الأخيار ،
 والأشرار أحياناً أيضاً - قد أرسلت إليّ في هذه الأماكن النائية عن البشر أشخاصاً يرسمون
 أحلم عيني ويلجلى صورة جنوني في قضاء عمري بهذه النواحي ويحاولون انتزاعي من هذه
 الخلوة الحزينة وإعلاّتي إلى مقام أحسن ، وهي نعمة لا أستحقها ، ولكن لأنهم لا يعرفون
 ما أعرف ، وهو أنّي إذا خرجت من محنتي الحاضرة فسأقع فيما هو أشدّ منها - فسيقتدون
 أنّي رجل ضعيف العقل بل لعلهم يحسبون أيضاً أنّي فقدت عقلي تماماً ، ولن يكون هذا

وأخذ الحلاق كتاباً آخر وقال : هذه «مرآة الفروسية»^(١) .

فقال الكاهن : أه ! إنني أعرف سيادته . ففيه تلقى السيد رينالدوس دي مونتالبان وأصدقاءه ورفاقه ، وكلهم أشد لصوصية من كاكوس وأكفاءه فرنسا الأثنى عشر والمؤرخ الحقيقي توربين ، والحق أنني أرى ألا تحكم عليهم إلا بالنفي المؤبد ، وهذا لأنه كان لهم بعض الفضل في اختراع ماتيو بويردو^(٢) الشهير ، ومنه نسج الشاعر المسيحي لدوفيكو أريوستو برده . وهذا الأخير لو وجد هنا وتحدث بلغة غير لغته المعهودة فلن أقيم له وزناً . أما إذا تكلم بلهجته المألوفة ، فسأضعه فوق رأسي احتراماً .

فقال الحلاق : إنه عندي بالإيطالية ، بيد أنني لا أفهمه .

فأجاب القسيس : ولن يكون من الخير أن تفهمه . وكان الأولى أيضاً ألا يفهمه القائد وألاً يأتي به إلى إسبانيا ليترجم إلى اللغة الإسبانية ، إذ فقد بهذا كثيراً من قيمته الأصلية^(٣) .

على أن هذا سيكون شأن جميع الذين يريدون أن يترجموا كتب الشعر من لغة أصيلة إلى أخرى ، فمهما أوتوا من مهارة ومهما بذلوا من عناية ، فلن يستطيعوا أبداً أن يردوها إلى أصلها . وعندي أن هذا الكتاب وكل ماسنجه متعلقاً بشؤون فرنسا يجب أن ننزله ونودعه في بئر جافة حتى نقرر ، بعد تفكير أعمق ، ماذا يجب أن نفعل به . على أنني مع ذلك أستثني كتاب «برنردو دي كريبو»^(٤) ، ولا بد أنه هنا ، كما استثنى كتاباً آخر هو «رونثفالس»^(٥) ، فهذه لو وقعت في يدي ، لناولتها القهرمانة ، ومنها إلى النار بلا رحمة .

(١) يتألف من ثلاثة أجزاء ، الأول : يبحث في منامرات الكونت رولدان ورينالدوس . ونشر في أنشيلية سنة ١٥٣٣ ، والثاني نشر سنة ١٥٣٦ ويتحدث عن «غراميات رولدان وإنجليكا الجميلة» ، والثالث نشر سنة ١٥٥٠ ويروي «الوقائع الشهيرة التي جرت للأمير روسرين وخاتمة حبه للأميرة فلوريمينا» .

(٢) ألف ماتيو بويردو ، كونت أسكنديانو ، ملحمة شعرية بعنوان «أورلندو العاشق» ، نشرت في سنة ١٤٨٦ وسنة ١٤٩٥ . ثم تابع الموضوع نفسه في «أورلندو الغاضب» - هو ملحمة شبه هزلية تقع في ٤٦ نشيداً - الشاعر الإيطالي الشهير لودفيكو أريوستو الذي ولد في ١٤٧٤/٨ في ريجيومودينا ، وقد أمضى في تأليفها عشر سنوات ونشرها ، ماعدا الأناشيد الستة الأخيرة ، سنة ١٥١٦ . أما الباقي فنشره سنة ١٥٣٢ ، وتتضمن حوادث ثلاثاً رئيسية هي : الحرب التي تخيل وقوعها بين شارلمان والمسلمين ، وجنون أورلندو ، وغراميات وزواج روجيه وبرادامنته ، وقد حشى هذا كله بنوادير حزينة أو سارة ، خفيفة أو جادة ، بهجة أو مروعة . وما أكثر اختلاف ما في القصيدة من أشخاص ومواقف وأوصاف وقد مزج فيها كذلك بين الخرافات الشرقية والأساطير الأوروبية .

(٣) الإشارة هنا إلى القائد دون خيرونيمو دي أوريا الذي ترجم كتاب «أورلندو الغاضب» إلى الإسبانية ونشره سنة ١٥٥٦ . وكانت ترجمته غير جيدة نظراً لركاكتها وإهمالها وما أغفلته وما أضالته من عندها حسبما شاء هو المترجم .

(٤) عنوانه الكامل هو : «قصّة منامرات وأعمال الفارس الذي لا يقهر برنردودل كريبو» ألفها على هيئة مشمعات أجوستين ألونسو ، ونشر في طليطلة سنة ١٥٨٥ .

(٥) عنوانه الكامل هو : «الرواية الصحيحة عن معركة رونثفالس المشهورة ، وموت أكفاء فرنسا الأثنى عشر» - قصيدة ألفها فرنشكو جريدو دي فلينا ، ونشرت في بلنسية سنة ١٥٥٥ .

وأمن الحلاق على كل ماقاله القسيس ، ووجد حكمه عادلاً تماماً ، لأنه كان يعتقد في القسيس أنه مسيحي فاضل بنصر الحق فلا يقول غيره ولو عرضت عليه الدنيا بأسرها . فلما فتح كتاباً آخر وجده « بلمارين دي أوليفا » ، والى جواره « بلمارين دي إنجلترا » . هنالك صاح صاحب الإجازة :

- أوليفا هذا اسحقوه واحرقوه ، ولا تبقوا منه حتى الرماد ، أما هذه الهملا الانجليزية فاحتفظوا بها لأنها شيء فريد ، ولتصنعوا صندوقاً ثميناً مثل الصندوق الذي وجده الاسكندر فيما غنمه من دارا ، وخصصه لايداع مؤلفات الشاعر هوميروس فيه . إن الكتاب ، يا صديقي ، مهم لسبيين ، الأول أنه ممتاز في نفسه ، وثانياً لأنه يقال إنه من تأليف ملك برتغالي لودعي عالم ، فكل مغامرات قصر ميراجواردا رائعة مليئة بالحيل ، والأقوال واضحة معقولة سليمة الذوق ، متفقة دائماً مع خلق من يتفوه بها ، مع فطنة واستقامة رأي ، لهذا أقول ، بعد استئذان رأيك السديد يا أسطى نقولا ، إن هذا الكتاب وكتاب « أماديس الغالي » ينقذان من حكم النار ، وما عداهما فيعدم دون أخذ ورد .

فأجاب الحلاق : لا يا سيدي الصديق ، فإن مامعي الآن هو « دون بليانيس^(١) » الشهير .

فقال القسيس : أما هذا فالأجزاء الثاني والثالث والرابع منه في حاجة الى قليل من الراوند لاستفراغ مرارتها الغزيرة جداً ، ويجب أيضاً أن تحذف منه قصة قصر الشهرة وبعض السفاهات المشابهة . ومن أجل هذا يمكن أن نعطيها مهلة^(٢) ماوراء البحار ، ووفقاً لما تفعله تجازى : فإن صلحت جوزي بالاحسان ، وإلا جرى عليها حكم العدالة . والى أن يجين الوقت احتفظ بها عندك ، يا أخي ، ولاتدع أحداً يقرأها .

- موافق ، هكذا أجب الحلاق .

ولم يشأ القسيس أن يتعب نفسه أكثر من هذا في تصفح كتب الفروسية ، فقال للقهرمان : تناول جميع المجلدات الكبيرة وألقي بها في الحوش . وما كان خطابه لمغفل أو أصم ، بل كان الى من كان أكثر شوقاً الى إحراقها منه الى أن يعطي النسيج ماينسج به قماشاً مهما يكن دقيقاً وعظيماً . لهذا تناولت القهرمان سبعة أو ثمانية من المجلدات كتلة

(١) عنوانه الخامل : « قصة الأمير دون بليانيس الشجاع الذي لا يتهر » ابن الامبراطور دون بلانيو والامبراطورة كلارنده ، منقول عن اليونانية بتأليف الحكيم فرسوس ، وقام بقتله ابن البارون الفاضل توريبو فرزندت » ، والطبعة الأولى منه ظهرت في برعش سنة

١٥٤٧ .

(٢) أي المهلة الخافية لإعلان الفاعلين في المستعمرات إعلاناً قسائياً ، وهي ستة أشهر على الأقل .

أنها لم تتم هذه الكلمات حتى امتلأت عينها بالدموع واختنق صوتها ، ولاح كأن عقدة قد ربطت حلقها فلم تدعها تنطق بالكلمات التي حاولت أن تفصح عنها . فاعتراني ذهول لهذا الحادث الذي لم يقع لها من قبل أبداً . ففي كل مرة كانت الصدفة السعيدة أو مهارتي تجمعنا لتحدث معاً ، كان يسود حديثنا البهجة والرضا ، دون أن يداخله بكاء أو زفرات أو حسد أو شكوك . وأنا من جانبي كنت في نعمة تامة وشكر دائم على أن وهبني إياها الله حبيبة ، وكنت دائم الإطراء لمفاتنها ومحاسنها . وكانت هي بدورها تبادلي إطراءً بإطراء ، مثنية على ما أظهره حبها من سمائل عندي خليقة بالثناء . كما كنا نتبادل آلاف الأحاديث الصبيانية ونروي مغامرات الجيران والمعارف ، ولم تتجاوز بي الجراة حداً أبعد من تناول إحدى يديها البيضاء ، في شيء من العنف ، وتقريبها من فمي بقدر ما كانت تسمح بذلك قضبان نافذة واطنة كانت تفصلنا عن بعضنا بعضاً . أما في الليلة السابقة على اليوم المشؤوم لرحيلتي ، فقد كانت تبكي وتنوح ، ثم تركتني في اضطراب شديد ومخاوف . فقد أفرغني ما رأيته على لوسنده من شواهد جديدة حزينة من الأسف والتعاسة . وحتى لا أقضي بنفسي على آمالي ، أرجعت كل شيء إلى قوة الغرام الذي تشعر به نحوي وإلى الأمل الذي يسببه دائماً غرام أولئك المتحابين المولاهين . وأخيراً رحلت ، حزينة مطرقة ، ونفسي تساورها الشكوك والمخاوف ، دون أن أعلم على وجه التحقيق أسباب الشكوك والمخاوف ، وهي علامات بينات على الضربة الأليمة التي كانت تنتظرنني .

بلغت إلى حيث أرسل بي وسلمت الرسائل لأخي دون فرندو فأحسن استقبالي ولكن لم يعجل إنجاز مهمتي بل تركني أنتظر - على مضض بالغ - ثمانية أيام في مكان لم يكن الدوق يستطيع أن يراني فيه ، لأن دون فرندو كتب طالباً أن يرسل إليه المال دون أن يعلم ذلك أبوه . وما كان ذلك إلا من حيل الغدر ، فإن المال لم يكن ليعوز أخاه فكان في وسعه أن ينجز مهمتي في الحال . وكان هذا الوضع غير المنتظر يخول لي أن أعصاه ، إذ بدا لي من المستحيل أن أحتمل العيش هذه المدة الطويلة بعيداً عن لوسنده ، خصوصاً وقد تركتها على حال من الحزن وصفتها لك من قبل . ورغم ذلك فقد رضخت وأطعت ، شأن الخادم المخلص ، وإن كنت قد شاهدت أن ذلك سيكون على حساب راحتي وصحتي . وبعد مضي أربعة أيام وصل رجل بحث عني ليوصل إلي رسالة عرفت أنها من لوسنده حينما شاهدت خط العنوان ، ففضضتها وفي نفسي فزع بالغ إذ توقعت أن يكون ثمة سبب هام قد حملها إلى الكتابة إليّ خلال البعاد ، لأنها نادراً ما كانت تكتب لي وأنا حاضر . لكن قبل أن أتلو الرسالة ، سألت الرجل عما أعطاه إياها وكم من الوقت استغرقت رحلته . فأجابني أنه كان

يمر صدفة في أحد شوارع المدينة عند الظهيرة وإذا بسيدة رائعة الجمال تدعوه الى النافذة ، وعيناها مغرورقتان بالدموع ، وقالت له بلهجة وسرعة : «أخي ! إن كنت مسيحياً مؤمناً كما يبدو لي ، فأني أرجوك ، لله ، أن تحمل هذه الرسالة بسرعة ، بسرعة جداً ، الى المكان والشخص المذكورين على الرسالة ، جزاك الله خير الجزاء ، وحتى أسهل عليك هذه المهمة ، خذ ما يحتويه هذا المنديل » . ومأقلت حتى القت من النافذة منديل يحتوي على مائة ريال ، وهذا الخاتم الذهبي الذي أحمله ، وهذه الرسالة التي تمسك بها في يديك ، ودون أن تنتظر جوابي ، تركت النافذة بعد أن شاهدت أنني التقت المنديل والرسالة وبعد أن أخبرتها بالإشارات أنني سأنفذ ماأمرت به . فلما رأيت أنني سأكافأ هذه المكافأة على المهمة التي سأقوم بها ورأيت من عنوان الرسالة أنني موفد اليك يامولاي ، وأنا أعرفك جيداً والحمد لله ، ولما كنت خصوصاً قد تأثرت بدموع هذه الحسنة ، فقد قررت ألا أوكّل هذه المهمة لأحد غيري فحضرت بنفسي لتوصيل الرسالة إليك ، فأخذت سبيلي منذ أن أعطتني الرسالة فقطعت المسافة في ست عشر ساعة ، إذ طولها كما تعرف ١٨ فرسخاً » .

« وبينما كان هذا الرسول الشاكر للجميل يقص عليّ هذه التفاصيل كنت كأني معلق على كلماته ، وكانت فرائصي ترتعد بقوة لم أكد أحتمل معها الوقوف . وأخيراً فتحت الرسالة فوجدتها تتضمن هذه العبارات القليلة :

« إن ما تعهد به دون فرندو من التحدث الى أبيك ليفاتح أبي ، قد وفى به لصالحه لا لصالحك . فلتعلم ياسيدي أنه التمس الزواج مني ، وأبي ، وقد أعماه ماظن لفصل دون فرندو عليك ، قد قبل . والأمر من العدة بحيث ستتم الخطبة في خلال يومين ، ولكن في الخفاء بحيث لا يكون ثم شهود عليها سوى السماء وبعض أهل البيت . في أي حال أنا ، هذا ماأترك لك تصوّره ، فإن كان يهتمك التعجل فالحكم لك ، وإذا كنت أحبك أو لأحبك ، فالحوادث ستشهد . وإني أسأل الله أن تصل رسالتي هذه الى يدك قبل أن تضطر يدي الى الانضمام الى يد رجل لا يفي بعهده! » .

تلك كانت خلاصة كلماتها في رسالتها هذه . لم أكد أتم فراءتها حتى رحلت من فوري دون انتظار لمال أو جواب عن مهمتي . إذ تبين لي حينئذ أن دون فرندو لم يبعث بي الى أخيه من أجل شراء أفراس ، بل ليخلو الجو لتدبيره وأهوانه . واندفعت بقوة الحفيظة ضد هذا الصديق الغادر وبقوة الخوف من إضاعة قلب كسبته بعد سنوات من الغرام والخضوع ، فوصلت الغداة الى المدينة في الساعة المناسبة للتحدث الى لوسنده . دخلت بيتها سراً ، وتركت البغلة التي ركبها عند ذلك الرجل الفاضل الذي أتى إليّ برسالتها ، وشاء الحظ

فقال القسيس : ليس هذا راعياً ، بل داهية ماهر حكيم . فلنحتفظ به لأنه كالجواهر النفيس .

وقال الحلاق : وهذا المجلد الذي يتلوه هو « كنز الأشعار^(١) » .

فقال القسيس : لو كانت أقل ، لكانت أفضل . يجب أن نقتل منها بعض الخساعات التي تضر بروعتها ونهذبها ونشذبها . وليحتفظ به مع ذلك ، لأن مؤلفه صديقي واحتراماً أيضاً لمؤلفاته الأخرى^(٢) ، ففيها سمو وبطولة .

واستمر الحلاق قائلاً : وهذا هو « ديوان أغاني لوپث المالدونادو^(٣) » .

فقال القسيس : ومؤلف هذا الكتاب صديقي أيضاً ومن أعز الأصدقاء . وأشعاره إذا أنشدها بنفسه تسحر سامعيها ، ولصوته عذوبة تحيل إنشاده سحراً . إنه يطنب أحياناً في أشعاره الرعاة ، لكن الجيد لا يستكثر أبداً . فليوضع إذن مع التي احتفظنا بها . لكن ماهذا الكتاب الذي الى جواره ؟

فقال الحلاق : إنه « غلاطيه^(٤) » تأليف ميجيل دي ثرفانتس .

فقال القسيس : منذ عدة سنوات وثرفاتنس هذا من أصدقائي ، وأنا أعلمك أنه أعرف بالمصائب منه بالشعر . وكتابه لا يخلو من حسن الاختراع ، ولكنه يقتصر ولا يستنتج شيئاً . لنتظر الجزء الثاني الذي وعدنا به ، فلعله لو أصلح من شأن نفسه لظفر بالشفقة التي يحرمونه منها اليوم . وإلى أن يتم هذا ، ياسيدي الصديق ، احتفظ به قابلاً في بيتك .

فأجاب الأسطى نقولا : بكل ارتياح . وها هي ذي ثلاثة أخرى تأتي معاً ، وهي : « الأوركانا » لألونسوا دي ارثيا ، و « الأوستريادا » لخوان روفو ، محلف قرطبة ، و « مونسرات » لكروستوبال دي فرويس ، الشاعر البلنسي^(٥) .

(١) تأليف بدور دي باديا ، مدريد سنة ١٥٨٠ .

(٢) يشير ثرفانتس هنا الى « قصائد الرعاة » (إشبيلية سنة ١٥٨٢) و « الرومانثيرو » (مدريد ، سنة ١٥٨٣) ، و « فردوس الأرواح » (مدريد ، سنة ١٥٨٥) ، « مناقب وعظمة سيدتنا العذراء » في وزن الثماني ، وكان مؤلفها راهباً كرملياً (مدريد سنة ١٥٨٧) .

(٣) نشر في مدريد سنة ١٥٨٦ .

(٤) نشر ثرفانتس القسم الأول من « غلاطيه » في القلعة سنة ١٥٨٥ ، ومات قبل أن يخرج القسم الثاني .

(٥) « الأوركانا » ملحمة شعرية فيها وصف غزو الأسبان لمقاطعة أوركانا في شيلي ، وقد ظهرت في مدريد سنة ١٥٦٩ وسنة ١٥٩٠ . و « الأوستريادا » تقص تاريخ أمجاد دون خوان النمساوي منذ ثورة العرب المنتصرة في غرناطة حتى معركة لبانته التي اشترك فيها ثرفانتس نفسه ، وظهرت في مدريد سنة ١٥٨٤ . - « المونسرات » تمجد إنشاء هذا الدير المشهور في قطلونيا في القرن التاسع ، وقد ظهرت سنة ١٥٨٨ .

فقال القسيس : هذه الكتب الثلاثة هي خير ما كتب من شعر ملحمي في اللغة الأسبانية ويمكن أن تنافس أشهر ما أبدعت إيطاليا . فليحتفظ بها أئمن قلاند شعر تملكها أسبانيا . وأخيراً تعب القسيس من كثرة ما نظر فيه من كتب وأراد أن يلقي بالباقي كله في النار ، دون أن يسأله أحد عن شيء ، بيد أن الحلاق كان قد تناول كتاباً فتحه ووجد عنوانه «دموع أنجليكا»^(١) .

فقال القسيس : سأذرف دموعي أنا إذا كنت أحرقت هذا الكتاب ، لأن مؤلفه كان من أشهر الشعراء لا في اسبانيا وحدها بل وفي العالم كله ، وقد وفق أيما توفيق في ترجمة بعض خرافات أوليديوس .

(٢) قصيدة ملوية في اثني عشر نشيداً ، تأليف لويس برهونا دي سوتو ، ظهرت في غرناطة سنة ١٥٨٦ ، وكان برهونا هذا صديقاً حميماً لفرنانس ، ولد سنة ١٥١٨ وتوفي سنة ١٥٩٥ وشعره الفنائي جيد ، وكان إرهاباً بشعر جونجورا المسالي في الصنعة الشعرية ، ومن أشهره ترجمة خرافات أوليديوس ، لم رثاء الملك سباستيان ، ورثاء لجرثاسو .

نفس العبارة ووضع في إصبعها خاتم الزواج ، وهكذا ارتبطا برباط لاإنفصام له . وتقدم الزوج لتقبيل زوجته ، ولكنها وضعت كفها على قلبها وسقطت بين ذراعي أمها مغشياً عليها .

«بقي أن أقص عليكم وصف حالتي حينما شاهدت في هذا «القبول» منها ضياع آمالي وزيف وعودها واستحالة رد ما فقدته تلك اللحظة . فقدت وعي وشعرت أن السماء تخلت عني وأنا على الأرض موضوع كراهية ، لأن الهواء لم يعد يمدّ زفراتي بالأنفاس ، والماء لم يعد يمدّني بالدموع ، إنما تلظّت النار ، واحترق قلبي بالحسد والغضب . وكان إغماء لوسنده قد أثار الانفعال في كل الحاضرين ، وأبعدتها أمها عن ذراعيها لتستطيع استنشاق الهواء ، فوجد على صدرها ورقة مختومة سرعان ماالتفتها دون فرندو وأنشأ يقرأها على ضوء أحد المشاعل . فلما فرغ من القراءة ، ارتمى على كرسي وأسند رأسه الى يده ، في وضع من يفكر ، دون أن يسهم في مظاهر العناية التي وفّرت لزوجته لجعلها تفيق من إغمائها . أمّا أنا ، فحينما رأيت البيت كله على هذا الحال من الاضطراب ، تجاسرت على الخروج دون أن أهتم بأن يكتشفوا أمري ، وفي عزمي في هذه الحالة أن أثور ثورة دامية ليعرف الناس جميعاً غضبتي العادلة التي تدفعني الى عقاب الخائن ، بل وعقاب تلك التي تغيّرت عن عهدا وإن كانت لاتزال في حالة إغماء . ولكن شاء طالعي أن يحتفظ بي لشقاء أعظم ، إن كان ثمّ أعظم من شقائي ، فأمرني بالتعقل ، ثمّ حرمني بعد هذا الحدث من كلّ تعقل . فبدلاً من أن أنتقم من أعدائي الألداء ، وهو أمر كان حينئذ سهلاً ، لأنهم لم يكونوا منتبهين لي ، تخيلت أن أنتقم من نفسي فأعاقبها بالعقاب الذي استحقّوه هم ، وبقسوة أشدّ مما كان عليّ أن أفعله ضدّهم لو أنّي قتلتهم ، لأن العقاب المفاجيء ينهي العذاب سريعاً ، أمّا العقاب الذي يطول أمده في ألوان من العذاب لاتنتهي فيقتل بموت بطيء . - وأخيراً غادرت البيت وذهبت الى الرجل الذي تركت عنده بغلتي . وسرعان ماأسرّجتها وغادرت المدينة دون أن أودّع الرجل ، ولم أجرؤ على إدارة رأسي لرؤية المدينة شأني شأن لوط . فلما كنت وحدي وسط الحقول التي أرخى الليل عليها سدوله ، يدعوني هدونها الساجي الى إطلاق العنان لنواحي دون خوف من أن يسمعي أو يتعرفني أحد ، أطلقت لساني وصرخت بلعائتي ضد لوسنده وفرندو ، كما لو أنّي بهذا أنتقم لنفسي مما لحقني منها من إهانة . واتجهت لعناتي خصوصاً اليها ، ناعثاً إيّاها بالقاسية ، الجاحدة ، الزائفة ، الحائشة باليمين ، وبالمستغلة الشرهة ، لأن ثروة عدوي هي التي بهرت عينيها وجعلتها تفكر بمن حباه الحظ بمالٍ أوفر ، وفي هذه الغضبة وتلك اللعنات كنت أحاول تلمّس عذر لها فأقول : «إن فتاة

نشأت في عزلة بين أهلها واعتادت دائماً الإذعان لأبويها - لاجب في أن تنزل عند رغبتهما إذا زوجها من سيد نبيل غني وسيم ، فلو أنها رفضته لاتهمت بالجنون أو بحب شخص آخر ، وكلاهما يسيء الى سمعتها أبلغ إساءة» ثم أعود بعد ذلك الى أفكارى الأولى فأقول : «ولماذا لم تقل أنني زوجها ؟ لقد كانوا سيرون حينئذ أنها لم تختار اختياراً سيئاً غير جدير بها لا تستطيع تبريره ، لأنه قبل أن يتقدم دون فرندو لخطبتها ، لما كانا أبواها قد طمعا في خير مني لوأنهما قاسا رغبتهما بمقياس العقل . أفلم يكن في وسعها إذن - قبل أن تخطو هذه الخطوة المروعة الأخيرة ، وقبل أن تقبل ، أن تقول أنها وعدت من قبل بالزواج مني ، ففي هذه الحالة كنت سأعمل على الاستجابة لكل ماكانت ستظاھر هنالك به ؟» وأخيراً أقنعت نفسي بأن قليلاً من الحب ومن العقل ، وكثيراً من الطمع والشهوة للعظمة ، قد جعلها تنسى الوعود التي ناغتني بها وخذعتني وغزت آمالي النزيهة الشريفة . وكنت خلال هذه المناجيات والاضطرابات أسلك طريقي الليل كله ، حتى وصلت عند مطلع النهار الى مدخل من مداخل هذه الجبال . فدخلت منه ومضيت قدماً ثلاثة أيام كاملة دون أن أسلك طريقاً بعينه ، الى أن وصلت الى مرج لأعرف مكانه بالدقة ، وسألت الرعاة الذين كانوا يرعون دوابهم فيه عن أوحش مكان في هذه الجبال وأشدّها وعورة ، فأشاروا عليّ بهذا المكان ، فغدوت اليه ثوّاً وأنا موطن العزم على أن أنهي حياتي فيه . ولما دخلت هذه الوحشة الموحشة كبت بغلتي وماتت من الجوع والاضطهاد ، أو بالأحرى - فيما يخيل إليّ - للتخلص من حمل لافائدة فيه هو شخصي أنا . فوقفت على الأرض ثم انطرحت عليها وقد بلغ مني الإعياء والشقاء ، دون أن أريد من أحد - ولم يكن ثم أحد - أن يهبّ لمساعدتي . وبعد أن بقيت مطروحاً على هذا النحو وقتاً لا أدري مداه ، نهضت ولم أعد أشعر بعد بالجوع ، فرأيت الى القرب منى بعض رعاة الماعز وهم بلا شك أولئك الذين سدوا حاجتي الملحة العاجلة . فقد قصّوا عليّ بعد ذلك كيف عثروا عليّ ، وكيف أنني رويت لهم من الخزعات والترهات ما جعلهم يوقنون أنني مذهوب العقل . ولقد أحسست بنفسى منذ تلك اللحظة أن عقلى لم يعد سليماً حراً دائماً ، بل بالعكس ، صار من الضعف والاختلال بحيث صرت أرتكب آلاف الحماقات وأمزق ثيابي ، وأصرخ في هذه القفار ، لاعناً حظي العاثر ، مكرراً باستمرار اسم عدوتي الحبيب ، دون أن يكون ثم غرض إلا أن أدع حياتي تنطلق مع صرخاتي . وحينما أعود لنفسي وأثوب لرشدي أراني على نحو من الإعياء والاستسلام بحيث لا أقوى على القيام بنفسى . وأغلب مسكني في تجويف شجرة فلين تستر هذا البدن الناحل البانس . ورعاة الضأن والماعز اللذين يجوبون هذه الجبال بقطعانهم تأخذهم الشفقة

بها ، غير أنه رحل بعد لحظة طائراً على السقف ، وترك البيت كله مليئاً بالدخان ، ولما أردنا أن نشاهد ما خلف وراءه ، لم نجد كتباً ولا مكتبة . اللهم إلا أننا نذكر جيداً ، القهرمانه وأنا ، أنه في اللحظة التي طار فيها ، صاح هذا اليفن الشرير قائلاً : إنه فعل ما فعل بهذا البيت مما سيُشاهد بعد بسبب عداوة مستترة يحملها ضد صاحب الكتب والمكتبة . وأضاف أن اسمه منياتون الحكيم .

ـ بل قال : فرستون ، بهذا أجاب دون كيخوته .

فقال القهرمانه : لا أدري ما إذا كان اسمه فرستون أو فريتون ، لكنه على كل حال ينتهي بالمقطع : « تون » .

فقال دون كيخوته : هو كذلك ، وإنه لساحر حكيم وعدوي اللدود ، وهو يعاديني لأنه يعلم ، بفنونه وحروفه ، أنني لا بد أن أنازل ذات يوم فارساً يعطف هوعليه ، وأنني لابد ظافر به دون أن يتمكن علمه من أن يحول بيني وبين ذلك . ولهذا السبب يسعى جهده ليقع بي كل ما يستطيع من أضرار ، لكنني أخبره أنه لن يستطيع أن يعترض ولا أن يتجنب ما قضت به السماء .

فقال ابنة الأخ : ومن يشك في هذا ؟ لكن ياعمي لماذا تشغل نفسك بكل هذه المنازعات ؟ أليس الأفضل أن تبقى هادئاً في بيتك بدلاً من أن تذرع الدنيا بحثاً عن خبز أحسن من خبز البر ، مع العلم بأن كثيراً من الناس يذهبون للبحث عن الصوف فيعودون مجزورين ؟

فأجاب دون كيخوته : يا ابنة أخ ، كم أنت جاهلة بمجرى الأمور قبل أن أجز أنا أكون قد حلفت وانتزعت لحي كل أولئك الذين قد يتخيلون أنهم يقدرّون على مس طرف شعرة مني .

فلزمت كلتاهما الصمت ولم تشأ الإجابة ، إذ وجدت الغضب قد علت نزوته إلى رأسه .

والواقع أنه ظل ملازماً بيته خمسة عشر يوماً ساكن الجأش ، دون أن تبدر منه بادرة تدل على أنه يريد أن يستأنف هروبه الأول . وفي خلال هذه الفترة كانت له أحاديث طلية وأسمار رقيقة مع صاحبيه : القسيس والحلاق ، تدور حول دعواه أن أحوج ما يحتاجه العالم هو الفرسان الجواله وأنه لا بد من بعث الفروسية الجواله . وكان القسيس يعارضه حيناً ، ويسلم له حيناً آخر ، إذ بدون هذه الحيلة كان من المستحيل رده إلى الصواب .



الفصل السابع : دون كيخوته وسنشو پنثا في خرجة دون كيخوته الثانية
(عن جوستاف دوريه)

لم تخلقا لتطأ الطين خلف المحراث والثيران كما دلت على ذلك ملابسه . فلما رأوا أنه لم يحس بهم ، أشار القس وكان في مقدمتهم الى زميله بأن يستترا خلف الصخور القائمة هناك . واستتر ثلاثتهم هناك ليراقبوا ما يفعله الفتى . وكان الفتى يلبس معطفاً صغيراً شده الى وسطه بحزام غليظ أبيض ، وجوارب طويلة من الصوف الأسمر ، وعلى رأسه قلنسوة من القماش نفسه . فلما فرغ من غسل قدميه ، ورفع قلنسوته ورفع رأسه ، هنالك شاهد الذين يراقبونه جمالاً منقطع النظير ، حتى قال كرينو بصوت خفيض للقس : « مادام هذا ليس لوسنده ، فليس أيضاً بشراً » وخلع الفتى قلنسوته وهز رأسه يمنة ويسرة فالتشر من تحتها شعر يحسده عليه شعاع الشمس نفسه . هناك أدرك الثلاثة الطلعة أن هذا الذي حسبه فلاحاً كان فتاة شابة رقيقة ، أجمل ما وقعت عليه أعين صديقي دون كيخوته بل وعينا كرينو نفسه لو لم يعرف لوسنده لأنه أكد بعد ذلك أن جمال لوسنده هو وحده الذي يمكن أن يقارن بهذا الجمال . وكان هذا الشعر الأشقر الطويل يغطي كتفيها ، بل يغطيها كلها تحت غداثه الكثيفة ، حتى لم يكن المرء يرى منها غير قدميها . والتسريحة لم يكن لها من مشط غير أناملها التي بدت في الشعر كأثها كرات من الثلج ، كما بدا القدمان في الجدول كأنهما قطعتان من البلور . كل هذا زاد من إعجاب المشاهدين الثلاثة ومن شوقهم لمعرفة حقيقة أمرها ، فقرروا الخروج من مختبأهم . لكن حركة نهوضهم جعلت الشابة الحسناء تدير رأسها وتفصل يديها شعرها الذي يغطي وجهها ، ثم نظرت من أين جاءت الضوضاء . ولم تكد ترى هؤلاء الرجال الثلاثة حتى نهضت بلهفة ودون أن تتمهل للبس حذاثها وضم شعرها ، ثم أمسكت بحزمة صغيرة من الخرق المهلهلة كانت بالقرب منها ، ثم هربت في دعر واضطراب . بيد أنها لم تكد تخطو بضع خطوات حتى عجزت قدمها الرقيقتان عن احتمال وعورة الصخور فارتمت على الأرض . هنالك أسرع اليها الأصدقاء الثلاثة ، وبدأ القس في الكلام فقال : « قفي يا سيدتي! أيأ من كنت فاعلمي أننا لا نبغي إلا خدمتك . فلا تحاولي الفرار ، فقدماك لن تتحملان ، ونحن أيضاً لن نسمح لك بذلك » . فلم تحر جواباً وغلبتها الدهشة والاضطراب . فاقتربوا منها ، وأخذ القس بيدها واستمر يقول :

« إن ما أخفته ثيابك ياسيدتي قد نَم عنه شعرك ، وهي دلائل واضحة على أن الدوافع التي حملتك على تمويه جمالك تحت هذا القناع غير اللائق به ودفتك الى اللجوء الى أعماق هذه القفار التي يسعدنا أن نلقات فيها لا نجد دواء لإدوائك ولكن على الأقل لنبدل لك محض النصيحة . نقول هي دلائل واضحة على أن هذه الدوافع ليست هيئة . وأية مصيبة لا يمكن ،

وفي تلك الأثناء استدعى دون كيخوته سراً أحد جيرانه ، وكان فلاحاً طيباً (إن جاز أن نصف فقيراً بهذا الوصف) ، لكنه كان قليل الملح في المح^(١) . وراح يقص عليه ويحاول إقناعه ويبدل له الوعود المعسولة حتى قرر الرجل المسكين أخيراً أن يرحل معه وأن يعمل حاملاً لسلاحه .

ومن بين ما قاله له أن يستعد لمصاحبتة بقلب سليم ، إذ قد تقع له مغامرة فيستولي في لحظة على جزيرة ، يعينه حاكماً لها مدة حياته . فأغرته هذه الوعود وأمثالها سنشو پنثا (وهذا هو اسم الفلاح) فترك زوجه وأولاده وعمل حامل سلاح لجاره . هنالك احتال دون كيخوته في الحصول على المال فباع أشياء ورهن أخرى وبدد كل ما يملك حتى جمع من هذا كله مبلغاً معقولاً . وتجهز بترس من حديد اقترضه من أحد أصدقائه ، وأصلح ما استطاع خوذته المحطمة . ثم أخبر حامل سلاحه سنشو باليوم والساعة اللذين قرر فيهما الرحيل حتى يتزود هذا بما يراه ضرورياً . وأوصاه خصوصاً أن يحمل معه خرجاً ، فوعد سنشو بذلك وأضاف أنه يفكر في أن يأخذ معه حماراً فارهاً يملكه ، لأنه لا يأنس في نفسه القدرة على المشي طويلاً على قدميه . وبمناسبة الحمار راح دون كيخوته يفكر ليتذكر ما إذا كان أحد الفرسان الجواله قد اصطحب معه حامل سلاح يركب حماراً . لكن ذاكرته لم تستطع أن تقدم له مثلاً واحداً على هذا . ورغم ذلك وافق على السماح له بأن يأخذ معه الحمار ، مقترحاً في نفسه أن يزوده بركوبة أشرف متى واثت الفرصة ، وذلك بأن ينتزع الفرس من أول فارس قليل الأدب يعترض طريقه . وتزود أيضاً بقمصان وأشياء أخرى قدر الحصول عليها ، عملاً بالنصيحة التي أسداها إليه صاحب الفندق . وتم كل هذا ونجز ، ولم يودع پنثا أهله وأولاده ، ولا دون كيخوته قهرمانته وابنة أخيه بل خرجا فجأة ذات مساء من القرية دون أن يراهما أحد ، وحشاوا المسير طوال الليل حتى إذا ما تنفس الصبح كانا على يقين من أن أحداً لن يكتشف أمرهما ويلحق بهما حتى لو عدا في إثرهما .

سار سنشو پنثا ممتطياً حماره كأنه بطيريك ، ومعه خرجه وراويته ، ومعه أيضاً رغبة حارة في أن يرى نفسه حاكماً على الجزيرة التي وعده بها سيده . واتخذ دون كيخوته نفس الطريق ونفس الاتجاه اللذين اتخذهما في خروجه الأول ، أعني خلال سهل مونتيل ، وكان سيره هذه المرة أقل متاعب منه في المرة الأولى لأن الوقت كان في متوع الصبح ولم تكن أشعة الشمس لتضايقه بعد لأنها لم تكن إلا عن ميل . هنالك قال سنشو پنثا لسيده :

(١) أي طائش ، خفيف ، نزق .

- لاحظ جنابك ، أي سيدي الفارس الجوال ، ألا تنسى أبداً ما وعدتني به من جزيرة ،
إذ مهما تكن كبيرة فإن في وسعي إدارة شؤونها جيداً .
فأجابه دون كيخوته قائلاً :

- يجب أن تعلم ، أي صديقي سنشو پنشا ، أن العرف الجاري لدى الفرسان الجواله
القدماء أن ينصبوا حملة أسلحتهم حكماً على الجزر أو الممالك التي يستولون عليها ، وإني
لذو عزم وطيد على ألا يذهب هذا العرف الحميد بخطأي . بل على العكس من هذا أفكر في
أن أفوق غيري في هذا المضمار ، إذ كثيراً ، بل غالباً ما ينتظر أولئك الفرسان أن يصير حملة
أسلحتهم طاعنين في السن ، فإذا صاروا شباعى من الخدمة متعبين من قضاء الأيام المضنية
والليالي الكئيبه ، أعطوا لقب كونت ، أو مركيز على الأكثر ، مع واد أو مقاطعة صغرت أو
كبرت ، لكن إذا عشت وعشت أنا فيمكن أن أستولي على مملكة قبل ستة أيام ،
مملكة تتبعها ممالك أخرى توابع لها ، تناسب تماماً لتتويجك ملكاً على إحداهما . ولا يأخذك
العجب لهذا ، إذ تقع لهؤلاء الفرسان مغامرات عجيبة لم ير مثلها ولم يتوقعها أحد ، إلى
درجة أنني قد أستطيع بسهولة أن أعطيك أكثر مما به وعدتك .

فأجاب سنشو پنشا قائلاً : على هذا لو أصبحت ملكاً بمعجزة من تلك المعجزات التي
رواها سيادتكم فإن خرمتي ، خوانا جوتيرث ، ستصير على الأقل ملكة وأولادي أمراء .
فقال دون كيخوته : وهل ثم من يشك في هذا ؟

فأجاب سنشو پنشا : أنا أشك في هذا ، لأنني أتصور أنه لو قدر وأنزل الله على الأرض
ممالك كالأمطار الغزيرة ، فليس من بينها ما يناسب رأس ماري جوتيرث . إذ يجب أن تعلم
ياسيدي أنها لا تساوي كملكة فلسين اثنين . وأنسب من هذا أن تصبح كونتيسة ، على أن
هذا أيضاً لن يكون إلا إذا أعانها الله .

فأجاب دون كيخوته : سلم الأمر لله ياسنشو ، فسيعطيه ما يناسبها ، لكن لا تحقر من
شأن نفسك الي حد أن تقنع بأقل من حاكم مقاطعة .

فقال سنشو : لا ، أبداً يا سيدي ، خصوصاً ولي في جنابك سيد جواد يعرف كيف
يعطيني ما يناسبني وما يستطيع عاتقي حمله .

الفصل الثامن

في النجاح الرائع الذي ناله الشجاع دون كيخوته
في المغامرة المروعة العجيبة
مغامرة الطواحين الهوائية وحوادث أخرى خليقة بأجمل الذكر

وفي هذه اللحظة اكتشفوا ثلاثين أو أربعين طاحونة هوائية في هذا السهل ، فلم يكذب
دون كيخوته يراها حتى قال لحامل سلاحه :
- إن الحظ يسوق أمورنا خيراً مما تستطيعه رغبتنا ، أنظر يا صديقي سنشو پنشا ،
أمامنا على الأقل ثلاثون من المردة العتاة أو يزيديون ، أرى أن أنازلهم وأسلمهم الحياة جميعاً
بلا استثناء . وبأسلابهم نبدأ ثروتنا ، لأن هذا جهاد نبيل ، وفي سبيل الله إبادة هذه
العصابة الشريرة من وجه الأرض .
فسأله سنشو پنشا ، أي مردة ؟
فأجابه سيده : أولئك الذين تبصرهم هناك بأذرعهم الطوال ، إذ منهم من يبلغ طول
ذراعه قرابة فرسخين^(١) .
فقال سنشو : إنته جانبك ، فتلك التي ترى هناك ليست مردة ، بل طواحين هوائية ،
وما يبدو أنه أذرع ليس إلا أجنحتها التي تديرها الريح فتدير بدورها حجر الطاحونة .
فأجابه دون كيخوته : هذا يدل تماماً على أنك لست خبيراً بشؤون المغامرات ، هذه
مردة ، أقول لك . وإذا كنت خائفاً فاذهب عني وأقيم الصلاة بينا أنازلها في معركة رهيبة غير
متكافئة .

وضرب فرسه روئيناتته وهو يقول هذه العبارة ، دون أن يحفل بأقوال حامل سلاحه
سنشو الذي صرخ يؤكد أن هذه طواحين هوائية وليست مردة تلك التي راح يهاجمها . أما
هو فقد رسخ في ذهنه أنها مردة إلى حد جعله لا يسمع صرخات حامل سلاحه سنشو ، بل

(١) الفرسخ logun (وباللاتيني leuca) يساوي ٥٧٧٢ متراً ، أما فرسخ البريد فيساوي ٤ كم والفرسخ البحري يساوي ٥٥٥٥ متراً ،
أي ثلاثة أميال .

ولا أن يتعرف الحقيقة حينما اقترب منها كل القرب . على عكس هذا راح يعدو وهو بصوت مدو :

- لا تهربي ، أيتها المخلوقات الجبانة الخسيصة ، فإن من يهاجمك ليس إلا فارساً واحداً .

وتصادف في تلك الأثناء أن هبت ريح خفيفة فابتدأت الأجنحة الكبيرة في التحرك . فلم يكذب دون كيخوته يبصر هذا الأمر حتى صاح :

- حتى لو حركتم من الأذرع أكثر مما فعل المارد برياريو ، فستدفعون الثمن غالباً .

وكان وهو يتفوه بهذه الكلمات يتوجه من أعماق قلبه الى سيدته دلثنيا ، داعياً إياها أن تعينه في هذا الخطر ، ثم اندفع ، مغطى بترسه ومشرعاً رمحه ، يركض بأقصى ماتستطيعه روئينانته في وجه أول طاحونة صادفته ، لكن في اللحظة التي خرق فيها الجناح بضربة قاصمة من رمحه ، دفعته الريح بعنف حطم الرمح وسأقت معه الفرس والفارس فراح هذا يتدحرج على التراب في أسوأ حال ، فأسرع سنشو پنثا لنجدته بأسرع مايسطيعه حماره ، فلما بلغه وجده لا يستطيع حراكاً ، لأن السقطة كانت شديدة ، فصاح سنشو :

- يا لله ألم أقل لجناحك خذ حذرك مما أنت فاعل ، فما هي إلا طواحين هوائية ، ولا يجهل هذا إلا من امتلأت رأسه بأمثاله ؟

- صه يا صديقي سنشو ، بهذا أجابه دون كيخوته : إن أمور الحرب أشد من غيرها تأثراً بالتقلبات ، خصوصاً وأنا أحسب ، وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه ، أن ذلك الحكيم فرستون ، الذي سرق مني الكتب والمكتبة ، قد حول هؤلاء المردة الى طواحين ليحرمني شرف الانتصار عليها ، ذلك لشدة حقده عليّ . لكن صنعة اللعينة لن تقهر في نهاية الأمر طيبة سيفي .

فأجابه سنشو پنثا : ليفعل الله ما يريد !

ثم أعان سيده على إمتطاء صهوة روئينانته وكان كتفاها شبه متكسرين . وظلا يتحدثان عن هذه الحادثة وهما يسلكان طريق پورتولاپشه ، لأن هذا الطريق كثير الحركة فلن يخلو الأمر من لقاء كل أنواع المغامرات ، كما قال دون كيخوته ، بيد أنه كان حزيناً ساهماً لأنه فقد رمحه ، وصرح لحامل سلاحه بأسفه هذا قائلاً :

- أذكر أنني قرأت أن فارساً أسبانياً يدعى ديبجو پيرث دي فرجاس كسر سيفه في معركة فانتزع من سنديانة غصناً متيناً ، أو لعله الجذع ، وبهذا السلاح قام بمغامرات

وخلق من المسلمين قدراً جعل الناس يطلقون عليه اسم «الخناق» («متشوكا»)، فأضيف إلى اسم فرجاس في لقبه ولقب نسله. وقد قلت لك هذا لأنني أفكر في أن أنتزع من أول سندية أصادفها غصناً متيناً كذلك الغصن، به أحسب أنني سأقوم بأعمال مجيدة تجعلك تشعر بالسعادة إذ حزت شرف مشاهدتها وكنت شاهداً على عجائب لا يكاد يصدقها أحد.

- على بركة الله، هكذا قال سنشو، أعتقد أن الأمر هو كما تقول تماماً. لكن يحسن بجانبك أن تعتدل قليلاً، إذ يلوح لي أنك مائل الجنب، ولا بد أن يكون ذلك من أثر طحن السقطة.

- هذا صحيح، بهذا أجاب دون كيخوته، وإذا كنت لا أشكو الآلام التي أعانيها، فذلك لأنه ممنوع على الفرسان الجواله أن يشكوا من أي جراح، حتى لو خرجت منها أحشاؤهم.

- إذا كان الأمر كذلك، هكذا قال سنشو، فليس عندي ما أجيب به. لكن الله يعلم ما إذا كنت أسر من سماعتك تشكو، إذا ألمك شيء. أما عن نفسي فأستطيع أن أقول إنني سأصرخ من أقل ألم يصيبني، اللهم إلا إذا كان منع التشكي هذا ينسحب أيضاً إلى حملة أسلحة الفرسان الجواله.

فلم يتمالك دون كيخوته من الضحك من سذاجة حامل سلاحه، وقال له إنه يستطيع أن يشكو ماوسعته الشكوى متى شاء وعلى أي نحو شاء، برغبة أو دون رغبة، لأنه لم يقرأ حتى ذلك التاريخ ما يدل على عكس هذا في قوانين الفروسية.

وهنا لفت سنشو نظره إلى أن الوقت قد حان للطعام. فأجاب دون كيخوته إنه لا يشتهي شيئاً الآن، أما هو فيستطيع أن يأكل كما يشاء. وبهذه الرخصة تمكن ما استطاع على حماره وسحب من الخرج ما وضع فيه من زاد، ومضى يأكل ويسير الهوينى خلف سيده. وبين الفينة والفينة كان يرفع الراوية إلى فمه بلطف يحسده عليه أظرف حمار في مالقة. وبينما سار على هذا النحو، يلتهم لقمة إثر لقمة، لم يذكر شيئاً مما وعده به سيده، ونظر إلى أمر الذهاب سعيّاً وراء المغامرات مهما يكن خطرهما، نظر إليه لا على أنه مهنة قاسية، بل تسلية حقيقية.

وأخيراً أمضوا تلك الليلة تحت أيكّة، انتزع منها دون كيخوته غصناً جاسياً يمكن استخدامه رمحاً عند الحاجة، وزوده بحديد الرمح المكسور. لم ينم دون كيخوته ليلته، مفكراً في سيدته دلثنيا، ليعمل حسبما قرأ في كتبه، وهو أن الفرسان الجواله كانوا

يمضون الليالي الطوال في الغابات والقفار دون أن يغمض لهم جفن ، وهم يتسلون بذكريات سيداتهم . أما سنشو پنثا فلم يقض ليلته على هذا النحو ، لأن معدته كانت ملأى ، وليست ملأى بماء الهندبا ، فقضى الليلة في حلم واحد ، وفي الصباح كان لا بد من صوت سيده لإيقاظه وهو أمر لم تستطعه أشعة الشمس التي تسلطت على وجهه ولا غناء آلاف الأطيوار وهي تحيي مطلع النهار بصوتها الطروب . وراح سنشو يلاطف راويته وهو يفرك عينيه ، فلما وجدها أنف من الليلة السابقة امتلأ قلبه غمماً ، إذ لاح له أنهما لا يسلكان السبيل التي يمكن فيها سد هذا النقص في الحال . أما دون كيخوته فلم يحفل أبداً بالفطور ، مفضلاً كما قال أن يتغذى بذكرياته الشهية .

واستأنفا السير في طريق پورتو لاپيه ، وقرب الثالثة بعد الظهر اكتشفوه . فلما رآه دون كيخوته قال :

- هنا يا أخي سنشو پنثا نستطيع أن نخوض بأيدينا حتى المرافق فيما يسمى باسم المغامرات ، لكن حذار أن تتناول السيف للدفاع عني حتى لو شاهدتني في أشد المخاطر ، اللهم إلا إذا وجدت المهاجمين من السفلة الرعاع ، ففي هذه الحالة تستطيع معاونتي ، أما لو كانوا فرساناً فلا تسمح لك مطلقاً ولا تعترف قوانين الفروسية بأن تهب لنجدتي ، طالما لم تُسلح فارساً .

- قطعاً يا سيدي ، هكذا قال سنشو ، إن جنابك ستطاع في هذا كل الطاعة ، خصوصاً وأنا بطبعي أميل إلى المسالمة ، وأعدى أعدائي الزجّ بنفسي في الغلبة والمنازعات . لكن إذا اتصل الأمر بالدفاع عن شخصي ، فالحق أني لن أحفل آنئذ بهذه القوانين ، لأن قوانين الله والناس تبيح لكل امرئ أن يدافع عن نفسه ضد كل من تسول له نفسه الاعتداء عليه .

- لا أقول عكس هذا ، بهذا أجاب دون كيخوته . لكن فيما يتعلق بنجدتي ضد الفرسان ، اكبح جماح حركاتك الطبيعية .

- أعود فأقول ، بهذا أجاب سنشو ، إنني سأعمل بما تقول ، وسأحرص على هذا الأمر حرصي على التعييد أيام الأحاد .

وكانا يتقارضان هذا الحديث وإذا بهما يبصران راهبين من طريقة القديس بندكتوس وهما يركبان هجينين ، لأن البغلين اللذين ركباهما كانا في حجم الهجين ، ويحملان مناظير السفر والمظلات . وخلفهما سارت عربة يحيط بها أربعة أو خمسة من الخيالة ، يتبعهم بقالان مترجلان . وكان في هذه العربة - كما عرف فيما بعد -

سيدة من البشكونش^(١) في طريقها الى إشبيلية حيث كان زوجها على أهبة الرحيل الى الهند (الغربية) ليتولى منصباً رفيعاً . ولم يكن الراهبان في رفقتها ، ولكنهما كانا يسلكان نفس الطريق . فلم يكد دون كيخوته يلمح هذا الركب حتى قال لحامل سلاحه :

ـ إما أن أكون مخدوعاً ، أو نكون بصدد أروع مغامرة شهدها إنسان . لأن تلك الكتل السوداء هناك يجب أن تكون ، وهي فعلاً من غير شك ، سحرة يسوقون في هذه العربة أميرة من الأميرات سبوها ، ويجب على أن أرد هذا الاعتداء بكل قوتي ، مهما يكن في ذلك من خطر .

فأجاب سنشو : يبدو لي أن هذا أسوأ من الطواحين الهوائية . خذ حذرك ياسيدي . أولئك رهبان من طريقة القديس بندكتس ، والعربة لا بد أن تكون لناس في رحلة . أعود فأحذرك مما أنت فاعل ، ولا يغررك الشيطان .

فقال دون كيخوته : لقد قلت لك من قبل ياسنشو إنك لاتدري فتياً في أمور المغامرات . وما أقوله هو عين الحق ، وسترى مصداق قلتي في الحال .

وكان ، وهو يقول هذا ، يتقدم ويقف في وسط الطريق الذي منه جاء الراهبان . فلما وصلا الى مسافة اعتقد أنهما يسمعه منها ، صاح فيهما بأعلى صوته :

ـ أيها العفاريت الجبابة ، هيا أطلقوا في الحال سراح الأميرات الجليات اللواتي سبيتموهن وحملتموهن بقسوة في هذه العربة . وإلا فاستعدوا لموت سريع جزاءً وفاقاً بما اقترفتن من شر الاعمال .

فأمسك الراهبان بالعنان وتوقفا ، مدهوشين من منظر دون كيخوته ومن أقواله ، ثم أجاباه :

ـ سيدنا الفارس! لسنا عفاريت ولا جبابة ، بل راهبان بندكتيان نسلك سبيلنا ، ولا ندري ما إذا كان في هذه العربة أميرات سبايا أو ليس فيها .

فقال دون كيخوته : أنا لا أكل من هذه الكلمات المعسولة ، وأنا أعرفكم من قبل ، أيها الغدرة اللئام!

ودون أن ينتظر جواباً آخر همز روئيناته واندفع خفيض الريح في وجه الراهب الأول

(١) إقليم البشكونش vizcaya مقاطعة في شمال اسبانيا ، عاصمتها بلباو ، مساحتها ٢١٠٦ كم^٢ ، مطلة بجبال البرانس ، مشهورة بالحديد . وظلت مدة طويلة يستغل بها أمراؤها عن ملوك اشثوريا وقشتالة . حتى تولى خون ابن هنري الثاني دي ترينستاره ملك قشتالة سنة ١٢٧٩ باسم خون الاول ، فسمت نهائياً الى مملكة قشتالة .

بجنون حتى أنه لولا أن ترك الراهب نفسه يسقط من فوق بغله لجندله دون كيخوته على الأرض إما جريحاً بالغ الجراح أو ميتاً . أما الراهب الثاني فإنه لما رأى رفيقه وما وقع له ، وضع ركبته في قصر بغله الفاره^(١) ، وولى هارباً في السهل المنبسط ، خفيفاً بل أخف من الريح ، أما سنشو پنشا فإنه لما شاهد الراهب الآخر طريح التراب قفز من على ظهر دابته وانقض عليه وأنشأ في انتزاع برنسه وطرطوره . هنالك هرع الخادمان اللذان كانا يرافقان الراهبين وسألا سنشو لماذا يجرد سيدهما من ثيابه . فأجابهما سنشو قائلاً إن ملابس الراهب من حقه شرعاً ، لأنها أسلاب المعركة التي انتصر فيها سيده دون كيخوته ، فانقضا على سنشو ، وكانا لا يسمحان بمزاح ولا يفهمان شيئاً في مسألة هذه الأسلاب والمعركة ، وقد شاهدا دون كيخوت قد مضى بعيداً ليحدث من في العربة ، انقضا عليه وطرحاه على بطنه ولم يدعاً شعرة في لحيته وانهاالا عليه بضرب مبرح حتى تركاه طريحاً على الأرض لا يتنفس ولا يعي شيئاً . أما الراهب فلم يضيع لحظة بل ركب بغله ، خائفاً مرتجفاً ووجهه شاحب فرقاً . ولم يكد يركب حتى عدا صوب رفيقه الذي كان ينتظره بعيداً ، وهو يشاهد كيف ينتهي هذا الذعر . وقبل أن ينتظرا نهاية هذه المغامرة تابعا المسير بسرعة وهما يرسمان من علامات الصليب أكثر مما لو كان الشيطان نفسه في أثرهما .

أما دون كيخوته فقد ذهب ، كما رأينا ، للتحدث مع سيدة العربة ، فقال لها :
- إن جمالك ، يا سيدتي ، يستطيع أن يعمل في نفسه ما يهواه ، لأن وقاحة من سبوك ترقد الآن طريحة الأرض ، وقد جندلته هذه الذراع المخيفة . وحتى لا تتعبي نفسك بالاستفهام عن اسم من أنقذك ، أقول إن اسمي دون كيخوته دلامنتشا ، الفارس الجوال ، وأسير جمال العديمة النظير السيدة دلثنيا دل توبوسو ، وثنماً للنعمة التي تلقيتها مني لا أطلب منك غير شيء واحد : هو أن تعودني الى توبوسو وتمثلي باسمي أمام تلك السيدة ، وتروي لها ما فعلته من أجل رد الحرية إليك .

وكل ما قاله دون كيخوته كان يسمعه أحد حملة السلاح المرافقين للعربة ، وكان بشكونشياً ، فلما رأى دون كيخوته يحول بين العربة وبين السير زاعماً أن يجعلها تعود الى توبوسو ، اقترب من دون كيخوته وأمسك برمحه وتحدث إليه قائلاً بلهجة لم تكن اسبانية ولا بشكونشية :

(١) عبارة بمعنى همز بغله بركبته (لأنه بوصفه راهباً لم يكن في رجليه مهماز) ليسرع في الركض .



الفصل الثامن : دون كيخوته يصارع مراوح الطواحين
لما تخیلها مرّة

- اذهب أيها الفارس ، قبح الله سيرك ، قسماً بالله الذي خلقتني اذا لم تدع العرب
 لكان موتك مؤكداً تأكيداً أنني من البشكونشي!
 ففهم دون كيخوته جيداً مقال ، وأجابه بهدوء عجيب :
 - لو كنت فارساً ، وأنت لست كذلك ، لكنت عاقبت وقاحتك وتبجحك ، أيها المخلوق
 الحقير!

فأجابه البشكونشي قائلاً :
 - أنا لست فارساً ، أنا ؟ قسماً بالله أنك كاذب برىء من المسيحية! لو مددت الرمح
 واستللت السيف لرأيت الى الماء قطك سريعاً يذهب . بشكونشي على الأرض ، نبيل في
 البحر ، نبيل عند الشيطان ، وسترى كذبك إذا نطقت بكلمة أخرى .
 فأجاب دون كيخوته قائلاً : سنرى! ثم ألقى برمحه على الأرض واستل سيفه واتخذ
 لأمته ووثب بجنون على البشكونشي وهو مصمم على أن يقضي على حياته .
 ولما رآه قادماً كان البشكونشي يود لو نزل من فوق بغله لأنه دابة مأجورة لم يكن في
 وسعه الاعتماد عليها ، لكن لم يكن لديه من وقت إلا أن يستل سيفه ، وتصادف أن كان
 آنذاك بالقرب من العربة فانتزع منها وسادة جعل منها ترساً . وسرعان ما انقض كل منهما
 على الآخر وكأنهما كانا خصمين لدودين . وود الحاضرون لو فصلوا بينهما ، لكنهم لم
 يستطيعوا شيئاً ، لأن البشكونشي أقسم بلهجته الخسيصة إن لم يتركوا المعركة تأخذ
 مجراها لقتل بنفسه سيدته وكل من يعترض سبيله في ذلك ، فأشارت سيدة العربة ، مدهوشة
 فزعمة مما ترى ، الى السائق بأن يميل قليلاً ، ومن مسافة أنشأت تراقب هذا المشهد
 الرهيب ، وقد ضرب البشكونشي في اندفاعه كتف دون كيخوته أعلى الترس ضربة لولا
 الترس لشجه السيف حتى الخاصرة . فلما أحس دون كيخوته بوطء هذه الضربة الخارقة
 صاح بأعلى صوته قائلاً :

- أي سيدة نفسي ، دلثنيا ، زهرة الجمال ، أعيني فارسك الذي وقع في هذا المأزق
 الحرج وهو بسبيل إرضاء كرم قبلك!

قال هذه الكلمات وسل سيفه والتأم وهاجم البشكونشي - كل هذا في لحظة واحدة ، ثم
 وثب وهو عازم على المخاطرة بكل شيء في سبيل ضربة واحدة قاضية . فلما شاهده
 البشكونشي قادماً للالتحام به وأدرك من ملامحه عنف هجمته ، قرر أن يفعل ما فعل دون
 كيخوته . فانتظره بثبات متدرباً بوسادته ، لكن دون أن يستطيع تحريك بغله ولا توجيهه ،
 وكان البغل قد أنهكه التعب ولم يتعود على مثل هذه الألعاب الصبيانية فلم يرد أن يتقدم

خطوة أو يتأخر . وكما قلنا ، وثب دون كيخوته شاهراً سيفه على البشكونشي الحذر ، طمعاً في أن يشقه الى نصفين ، وانتظره البشكونشي كذلك شاهراً سيفه محتمياً بالوسادة . وانتظر النظارة المروعون بجزع لهيف تشانج الضربات الرهيبة التي هدد كل بها . وراحت سيده العربدة والنسوة اللواتي كن معها ينذرن آلاف النذور لسائر القديسين في الجنة وآلاف الشموع لكل هياكل الكنائس في اسبانيا ، من أجل أن ينقذ الله حامل سلاحهم وينقذهن من الخطر الداهم الذي حاق بالجميع . لكن آفة هذا كله هي أن المؤلف عند هذا الموضع ترك المعركة غامضة معلقة ، معتذراً بأنه لم يجد شيئاً مكتوباً يتصل بأعمال دون كيخوته المجيدة أكثر مما رواء ، صحيح أن المؤلف الثاني لهذا الكتاب لم يشأ اعتقاد أن تاريخاً عجيباً كهذا قد طواه النسيان ، وأن أذكاء المنتشا كانوا من قلة الرغبة في الاستطلاع بحيث لم يحتفظوا في دور محفوظاتهم أو مكتباتهم ببعض المخطوطات التي تتناول هذا الفارس الذي سار ذكره في الآفاق . ولهذا ، ووفقاً لهذا الافتراض ، لم ييأس أبداً من أن يعثر على خاتمة هذه الحادثة الشائقة . وما هوذا بفضل من رب السماء وجدها على هذا النحو الذي سيرويه في القسم الثاني من هذا الكتاب^(١) .

(١) ليضم القارئ هذه الكلمات الأخيرة ، والكلمات الأولى في الفصل التالي ، عليه أن يذكر أن عند هذا الموضع ينتهي القسم الأول من الأقسام الأربعة التي قسم إليها فرغانتس ما تسميه اليوم باسم « القسم الأول من دون كيخوته » الذي ظهر سنة ١٦٠٥ . لكن هذا التقسيم الرباعي للقسم الأول قد عدل عنه المؤلف حينما نشر القسم الثاني من الكتاب كله في سنة ١٦١٥ ، وأصبح الكتاب مقسماً الى فصول على النحو الذي تراه الآن .

الفصل التاسع

في خاتمة المعركة الرهيبة التي نشبت بين الضُّوَّة^(١) البشكونشي وبين الشجاع المُنْتَشَاوي

تركنا ، في القسم الأول من هذه القصة ، الشجاع البشكونشي والشهير دون كيخوته وسيفاهما مسلولان مشهوران ، على أهبة الضرب ضربتين غاضبتين بحد السيف ، بحيث لو طعن كل منهما في الصميم لشق الآخر من أعلى الى أسفل الى نصفين كالرمانة . لكننا رأينا ، في اللحظة الحرجة ، أن هذه القصة اللذيذة قد بترت عند هذا الموضع وصارت معلقة في الهواء ، دون أن يد لنا المؤلف أين يمكن أن نجد ختامها . فاستوقد هذا الأمر غضبي ، لأن اللذة التي ظفرت بها من قراءة هذه القطعة اليسيرة تحولت الى مضايقة ، حينما فكرت في قلة الأمل في العثور على مابدا لي ناقصاً في هذه القصة الشائقة . لكن بدا لي من المستحيل حقاً ، ومن غير المألوف أبداً ، ألا يظفر مثل هذا الفارس الطيب بحكيم يحتسب لنفسه العناية بكتابة أفعاله المجيدة التي لم يسمع بمثلها في البلاد ، فهذا أمر لم يقع أبداً لواحد من أولئك الفرسان الجواله « الذين يقول عنهم الناس إنهم يذهبون سعياً وراء المغامرات^(٢) » ، لأن كل واحد منهم قد عين خصيصاً لهذا الغرض حكيماً أو حكيمين لا يكتفيان بكتابة أعمالهم وفعالهم ، بل يسجلان أيضاً أدق دقائق أفكارهم حتى الصبائية منها ، مهما خبأتها الضمانر ، وهذا الفارس الكريم لا يستحق الشقاء الى هذا الحد فيحرم مما لم يحرم منه بلاتير وأمثاله ، لهذا لم أقوْ أبداً على اعتقاد أن تاريخاً طريفاً كهذا قد ظل ناقصاً مبتوراً ، وأرجعت الذنب في هذا الى خبث الزمان الذي يلتهم كل شيء ، مفترضاً أنه خباء إن صحَّ أنه لم يقص عليه . وكذلك قلت لنفسني : مادام يوجد بين الكتب التي اقتناها بطلنا هذا كتب حديثة مثل « دواء الغيرة » و« حوريات هينارس » ، فإن تاريخه لا يمكن أن يكون قديماً ، وإذا لم يكن كتب

(١) مصدر بمعنى الصفة .

(٢) مابين الهلالين بيتان من الشعر في الأصل ، من التفاهة بحيث لا يحتاجان الى أن يترجما نظماً .

فهو لابد موجود في ذاكرة أهل قريته والنواحي المجاورة . وهذا التصور ببلبني وملآني رغبة حارة في أن أعرف كل حياة وكرامات مواطننا الاسباني الشهير دون كيخوته دلامنتشا ، نور الفروسية المنتشافية ومرآتها ، وأول من امتهن حرفة الأسلحة الجواله في أيام عصرنا العصيبة ، وأول من أخذ على عاتقه مهمة رد الاهانات وإغاثة الأياامي وحماية الأنسات ، أولئك اللواتي يغدن بسياطهن على أفراسهن المزركشة عبر الجبال والأدوية حاملات عبه بكارتهن بغير اكتراث ، فلو أن فارساً خسيساً أو شريراً مسلحاً أو مارداً جباراً لم يكرههن على البغاء ، لوجد من هؤلاء الأنسات ، في الأزمنة الخالية ، من تذهب بعد ثمانين عاماً الى القبر لم تنم خلالها ليلة واحدة تحت سقف بيتها ، تذهب الى القبر وهي عذراء كأمها التي ولدتها ولهذا أقول إن صاحبنا دون كيخوته ، من هذه الناحية ومن نواح أخرى ، خليك باطراء دائم يبقى ذكره أبداً وأنا أيضاً خليك بألا أحرم من هذا الإطراء نفسه ، من أجل ماتحملته من مشقة وبذلته من جهد مشاير للعثور على خاتمة هذه القصة . بيد أنني أعلم جيداً أنه لولا معاونة السماء والحظ والبخت لي في هذا ، لبقي العالم محروماً من المتعة التي يمكن أن يتذوقها خلال ساعتين تقريباً من يحرص على قراءتها . وها أنذا كيف اكتشفتها ،

كنت ذات يوم في درب القناة في طليطلة ، فشاهدت صبياً أتى تاجر أقمشة حريرية ليبيعه كراسات قديمة . وأنا شديد الوله بالقراءة ، وحتى بقراءة قصاصات الورق التي يقذف بها في الشارع ، فدفعني هذا الميل الطبيعي الى تناول احدى الكراسات التي كان الصبي يعرضها للبيع ، فوجدتها مكتوبة بحروف عربية ، ولما كنت لا أعرف قراءتها وإن استطعت تمييز ما هي ، ففكرت فيما إذا كنت أستطيع العثور على عربي^(١) متنصر أصبح من الأعاجم^(٢) (= الأسبان) يمكن أن يقرأها لي ولم أجد مشقة في العثور على هذا الترجمان ، لأنني لو بحثت عن مترجم من لغة أقدس وأقدم لأمكنني العثور عليه أيضاً ، وأخيراً ساق لي القدر مترجماً أعربت له عن رغبتني وناولته الكراسة بين يديه ، ففتحتها في الوسط ، ولم يكده يقرأ منها بضعة أسطر حتى استغرق في الضحك . فسألته السبب في هذا الضحك فقال إنه يضحك من حاشية وضعت على هامش هذا الكتاب ، فالتمست منه أن يقول لي مافيه ، فقال وهو لا يزال يضحك :

(١) عربي متنصر ، morisco ، وهو المسلم الذي بقي في دار الحرب بعد جلاء المسلمين ، ثم تنصر بالقوة القاهرة للسلطان المسيحي .

(٢) أصبح من الأعاجم = aljamiado ، وهي من الكلمة aljamina = الأعجمية ، وكان العرب في اسبانيا يطلقون ذلك على اللغة الاسبانية ، والكلمة اليوم تطلق على كتب المتنصرة الذين ألفوا كتبهم باللغة الاسبانية ، ولكن كتبها بحروف عربية .

- هذا هو المكتوب في الهامش : « دلثنيا دل توبوسو هذه ، التي يرد ذكرها كثيراً في هذه القصة ، يقال إنها تملك ، لتلميح الخنازير ، أحسن يد في إقليم المنتشا كله » فلما سمعته يقول « دلثنيا دل توبوسو » بقيت حيران مدهوشاً ، إذ تصورت في التو أن هذه الأوراق تتضمن تاريخ دون كيخوته . وتحت تأثير هذه الفكرة حششته على قراءة العنوان ، فقام هذا العربي المنتصر يترجم من العربية الى الاسبانية قائلاً إن العنوان معناه هكذا : « تاريخ دون كيخوته دلامنتشا ، تأليف سيدي حامد بن الأيلي^(١) ، المؤرخ العربي » . فتدبرت بالكثير من الحذر حتى أخفى ما أحسست به من غبطة لما أن قرع سمعي عنوان الكتاب . فانتزعته من بين يدي بائع الحرير ، واشترت من الغلام كل هذه الكراسات القديمة بنصف ريال . ولو كان من الفطنة بحيث يحزر رغبتني فيها ، لكان في وسعه أن يرجو منها ثمناً أكثر من ستة ريالات .

وسرعان ما ابتعدت ومعني العربي المنتصر ، واقتدته الى رواق الكاتدرائية ودعوته الى أن يترجم هذه الكراسات كلها الى الاسبانية ، أو على الأقل ما يتعلق منها بدون كيخوته دون أن يضيف أو ينقص شيئاً ، ونقدته مقدماً الثمن الذي اقتضاه ، وكان هذا الثمن عبارة عن خمسين رطلاً من الزبيب وأربع كيلات من الدقيق ، ووعدني بترجمتها بأسرع وأمن ما يستطيع . لكن لهفتي لاستنجاز العمل وحرصني ألا تفلت هذه اللقطة النفسية من يدي ، جعلتاني أقتاد هذا العربي المنتصر الى بيتي ، فأتيت ترجمة هذا التاريخ كله على النحو الذي أوردناه هنا ، واستغرق في هذه الترجمة ستة أسابيع أو يزيد قليلاً .

في الكراسة الأولى صورت معركة دون كيخوته مع البشكونشي تصويراً طبيعياً ، وكلاهما في الموقف الذي تركتهما عليه القصة : السيفان مشهوران . وأحدهما مغطى بلأتمته المروعة ، والآخر بوسادته . وكان بغل البشكونشي يلفت النظر فيدرك في الحال أنه دابة للكرء من مسافة^(٢) واسعة . وعند قدمي البشكونشي بطاقة ورد فيها : « دون سنشودي أثبيتيا » ، ولا

(١) في النص cide hamete benengeli ولا صعوبة في الكلمتين الأوليين : « سيدي حامد » وإنما في الكلمة الأخير benengeli وخير تفسير لها ما قاله المستشرق خوسيه أنطونيو كوند وأورده كلمثين في شرحه وهو أن الكلمة معناها « ابن الأيل » وهي ترجمة عربية لاسم ثرفانتس نفسه إذ cervantes من ciervo = أيل ، وعل ، ولابد أن يكون ثرفانتس قد تعلم بفتح كلمات عربية أثناء إقامته في مدينة الجزائر أسيراً طوال خمس سنوات ، أما تفسير ليوبولدو أجيالات أي ينجواس (في « السفر التذكاري لميندث اي بلايو » ، ج ٢ ص ٢١) وهو أن هذا الاسم إنما أخذ من « برنجاني » نسبة الى الباذنجاني ، وأصله العربي إذن هو « باذنجان » ، وأن هذا يتصل بالنكتة التي تقال بتلقيب أهل طليطلة بـ « البرنجانيين » كما ذكر ثرفانتس نفسه ذلك في الفصل ٢٧ من القسم الثاني من « دون كيخوته » - نقول إن هذا التفسير متكلف مبتذل لا مبرر له .

(٢) في النص حرفياً : من مسافة مرمى القوس .

شك أن هذا هو اسمه ، وعند حوافر روئيناته بطاقة أخرى فيها : «دون كيخوته» ، وقد رسم روئيناته رسماً رائعاً : طويلاً مشدوداً ، ضامراً نحيلاً ، ذا قردودة بارزة وجسم مسلول ، وكل هذا شاهد صادق على مناسبة اسم روئيناته له وانطباقه عليه كل الانطباق . وبالقرب منه وقف سنشو پنثا ممسكاً حماره بخطامه ، وعند قدمه ورد في بطاقة أخرى : «سنشو ثنكاس»^(١) . وقد جاءه هذا الاسم ، كما يدل الرسم ، من كونه عظيم البطن قصير القامة دقيق الساقين منفرج القدمين . ولابد أن يكون هذا هو الأصل يسمى بالواحد ، والأخرى بالآخر .

وثمة تفاصيل أخرى يمكن ملاحظتها ، لكنها ليست ذات شأن يذكر ولا تضيف شيئاً الى صدق هذه القصة ، ولا قصة رديئة مادامت صادقة . والاعتراض الذي يمكن أن يوجه من حيث صدق قصتنا هذه هو أن مؤلفها من العرب ، والكذب شائع جداً بينهم . لكن عداوتهم الشديدة لنا تجعلنا بالأحرى نتهمه بأنه قصر في قول الحق ، لأنه بالغ وتجاوز الحد . هذا رأيي : لأنه حين يستطيع بل يجب عليه أن يطنب في الثناء على هذا الفارس الجواد ، نراه يكاد يخفيه عمداً وهذا أمر ينطوي على سوء عمل وسوء نية معاً ، لأن المؤرخ يجب أن يكون أميناً صادقاً لا يلتفت لفت هوى أو عصبية ولا يحيد به الغرض أو الخوف ، الحقد أو الرضا عن طريق الحق ، والحق أمه التاريخ ، والتاريخ منافع الزمان ومستودع الأعمال الانسانية وشاهد الماضي ، ومثال الحاضر ، والمندرج بالمستقبل . وفي تاريخنا هذا سيجد القارئ كل ما يمكن أن يقدمه أشوق التواريخ ، وإذا كان ينقصه شيء حسن ، فاعتقادي أنا أن الغلطة في ذلك ليست غلطة الموضوع ، بل غلطة هذا المؤلف الكلب^(٢) وبالجملة ، فإن القسم الثاني ، وفقاً للترجمة ، يبدأ هكذا :

كان منظر السيوف المسلولين المشهورين في أيدي المحاربين البطليين الغاضبين منظر من يهدد السماء والأرض والهاوية ، يشهد بهذا تصميمها وسيماؤها . وأول من بادر بالنزال كان البشكونشي الغضبي المزاج ، فضرب ضربة غاضبة عنيفة كانت كافية وحدها لإنهاء هذه المعركة الرهيبة وسائر مغامرات صاحبنا الفارس ، لولا أن السيف التوى في يده وهو يهوي به عليه . لكن طالعه السعيد الذي ادخره لأعمال أعظم شاء أن يلوي سيف خصمه . فعلى الرغم من أنه ضربه على كتفه الأيسر ، فإنه لم يكن له من أثر إلا أن ينزع سلاحه في هذا الجانب حاملاً مع ما انتزعه نصف البصلة ونصف الأذن ، ووقع كل هذا على الأرض محدثاً ضجة مروعة .

(١) المعنى الحرفي لكلمة zancas هو : قوائم بنات الماء (أرجل أبي قردان وما أشبهه) .

(٢) يشير ثرفاتس هنا الى الشتيمة التي كان يتبادلها المسلمون والنصارى في أسبانيا في تلك العهود .

يا لله! من ذا يستطيع الآن أن يصف بهدوء ما استولي على قلب صاحبنا المنتشاي من غضب شديد ، وقد شاهد ما جرى له! لا نستطيع أن نقول أكثر من أنه اعتدل من جديد في ركابه وأمسك سيفه بيديه وانقض على البشكونشي وأهوى على وسادته وأم رأسه ، حتى إن البشكونشي بدأ ينزف من أنفه وفمه وأذنيه ، على الرغم مما تدرع به وكأن جبلاً انقض عليه ، وبدأ يتهاوى من البغل الى أسفله ، وكاد أن يسقط على الأرض لولا أنه أمسك بذراعيه عنق البغل . ولكن قدميه زلّ عن الركاب وسرعان ما انبسط ذراعه ، وروع البغل من هذه الضربة المخيفة فانطلق يركض في السهل وبعد وثبات ثلاث أو أربع ألقى براكبه على الأرض .

ووقف دون كيخوته يتأمله رابط الجأش ، ولم يكذب يراه يسقط حتى نزل من فرسه وعدا قليلاً ووضع سن السيف بين عينيه وصاح فيه أن يستسلم وإلا حرّ بالسيف رأسه ، وكان البشكونشي من الذمول بحيث لم يقو على النطق بكلمة واحدة ، وكان أمره مقضياً ، لأن الغضب أعمى دون كيخوته ، لولا أن هرعت سيدات العربة وكن قد شاهدن المعركة حتى ذلك الوقت دون اهتمام ، ورحن يستعطفن دون كيخوته ليتفضل بالإبقاء على حياة حامل سلاحهن . فأجابهن دون كيخوته بجد واستعلاء قائلاً :

- بكل تأكيد ياسيداتي الجميلات ، أود أن ألبى رجاء كن ، ولكن بشرط الترتيب التالي ، وهو أن يعدني هذا الفارس بالذهاب الى قرية توبوسو وأن يمثل بالنيابة عني أمام دلثنيا العديمة النظير ، لتتصرف في أمره كما تشاء .

فوعده ما طلب وهن مرتجفات جازعات ، دون أن يستفهمن عن معنى طلبه ، بل دون أن يستئنئن من تكون دلثنيا هذه ، أعني وعده أن ينفذ حامل سلاحهن بالدقة والتمام كل ما أمر به دون كيخوته .

فقال دون كيخوته : « بحق هذه الكلمات ، لن أمسه بأذى بعد ، وإن كان في الواقع يستحق الكثير » .

الفصل العاشر

في الحوار الشائق الذي جرى بين دون كيخوته
وسنشو پنثا حامل سلاحه

كان سنشو پنثا قد نهض بعد أن ساء إليه خدم الراهبين ، ووقف يشهد المعركة الناهضة بين سيده دون كيخوته والآخر ، وهو يدعو الله أن يتم النصر لسيده حتى يكسب من ورائه جزيرة من الجزر ينصبه حاكماً عليها حسبما وعده عدة صادقة صريحة . فلما رأى المعركة قد انتهت ورأى سيده يهم بالركوب على روثيناته ، هرع ليمسك له الركاب ، لكن قبل أن يدعه يركب جثا على ركبته أمامه وتناول يده وقبلها وقال :

- فليفضل سيدي ومولاي دون كيخوته ويهني حكم الجزيرة التي كسبها في هذه المعركة الهائلة . فمهما يكن من اتساع هذه الجزيرة فإني آنس في نفسي القدرة على حكمها ولا أقل في هذا أبداً عن أي شخص مارس حكم الجزائر في هذا العالم .
فأجابه دون كيخوته قائلاً :

- انتبه يا أخي سنشو ، فهذه المغامرة وما يشبهها ليست مغامرة جزائر ، بل حملات في الطرق العامة ، لا يكسب المرء من ورائها إلا أن يخرج منها مكسور الرأس أو مقطوع الأذن ، لكن صبراً فستعرضنا مغامرات أخرى أستطيع عن طريقها أن أنصبك لا حاكماً فحسب ، بل خيراً من هذا .

فنهض سنشو وقضاه حق الشكر على إنعامه ، وبعد أن عاد قبل دون كيخوته وزرده ، أعانه على ركوب روثيناته ، ثم قفز على حماره ، وراح يتبع سيده وهو يركض بسرعة ، دون أن يودع سيدات العرب ، حتى دخل غابة كانت قريبة من هناك .

وتبعه سنشو على دابته وهي تكدف ، ولكن روثيناته كانت وافرة النشاط حتى إنه رأى نفسه في المؤخرة فصاح يدعو سيده للإنتظار والتحمل . فجذب دون كيخوته عنان فرسه وتوقف إلى أن لحق به حامل سلاحه البطيء . فقال له هذا :

- سيدي! يبدو لي من الصواب أن نلجأ الى إحدى الكنائس ، لأن أولئك الذين قاتلتهم قد أصابهم من سوء الحال ماقد يجعل أمرهم يرفع الى «الأخوة المقدسة»^(١) فتمسك بمخنفينا ، ولو حدث هذا ، لنزفنا العرق والدماء قبل أن يقدر لنا الخروج من السجن .
- اخرس! ، بهذا أجابه دون كيخوته . قل لي إذن أين رأيت أو قرأت أن فارساً جوالاً قد قدم للمحاكمة ، مهما ارتكب من جرائم قتل ؟

فأجاب سندشو قائلاً : أنا لا أدري شيئاً في مسائل «الختل»^(٢) ، ولم أحاوله في أحد من الناس طول عمري . لكنني أعلم حق العلم أن الذين يتقاتلون في وسط البراري يوكل أمرهم إلى «الأخوة المقدسة» ، ولا شأن لي بهذا أبداً .

فقال دون كيخوته : يا صديقي لا تهتم! وسأخلصك ، لو اقتضى الأمر ، من بين أيدي بني فلسطين ، بالأحرى من بين أيدي «الأخوة المقدسة» . لكن قل لي بربك هل شاهدت على وجه الأرض فارساً أشجع وأقوى مني ؟ وهل قرأت في التواريخ أنه يوجد من هو أجراً مني في الهجوم ، وأشد عزمًا مني في الدفاع ، وأمهر في تسديد الضربات ، وأسرع في جندلة الخصم ؟

- الحق أني لم أقرأ أي تاريخ ، بهذا أجاب سندشو ، لأنني لا أعرف القراءة ولا الكتابة . لكنني أستطيع أن أراهن أني لم أخدم في حياتي سيدياً أشد جسارة من جنابكم ، وأسأل الله ألا يجعل جزاء هذه الجسارة ماقلت . أما ماألتمسه من مولاي الآن فهو أن يضمّد جرحه لأن الدم يسيل غزيراً من هذه الأذن . وعندي في الخرج بعض الشاش والمهرم الأبيض .
فأجاب دون كيخوته قائلاً :

- كل هذا كان سيكون بغير فائدة ، لو أنني كنت تذكرت أن أحضر زجاجة من بلسم فييرابراس ، إذ كانت تكفي قطرة منه لتوفر علينا الوقت والأدوية . فسأله سندشو : أية زجاجة وأي بلسم هذا ؟

فأجابه دون كيخوته : هذا بلسم أعرف طريقة تحضيره عن ظهر قلب ، بفضل لا يخاف المرء الموت من أي جرح . ولهذا فإذا حضرته وأعطيتك لك لتحتفظ به ، فخير شيء تفعله إذا

(١) الأخوة المقدسة santa hermandad سلطة لها محاكمها وهرطتها ، وتختص باقتناء آثار المجرمين ومعايبتهم . وكان في اسبانيا نوعان منها : «الأخوة القديمة» في طليطلة ، «والأخوة الجديدة العامة» وقد أنشأها الملوك الكاثوليك (فرديناند وإيزابلا) سنة ١٤٧٦ لتعقب ومعاينة الجرائم التي ترتكب في الأماكن القفرة .

(٢) كذا سمع سندشو كلمة «قتل» ، وفي الأصل «التبس عليه اللفظ homicidio باللفظ omecitto ، والأول بمعنى قتل إنسان ، والثاني اختلاف الشرائع في تأويله» فإن كلمتين يقول أن كليهما بمعنى واحد ، بينما كالديرون يرى أنها بمعنى «حقد ، بغس ، فاستملنا نحن كلمة «ختل» للدلالة على المعنى العام المقصود ولتكون قريبة من أحداث الالتباس بينها وبين «قتل» .

وجدتهم قد شقوني الى نصفين في معركة من المعارك - وهو أمر كثيراً جداً مايقع لنا - هو أن تلتقط بعناية الجزء من جسمي الذي وقع على الأرض ، ثم بكل احتياط ، وقبل أن يتجمد الدم ، على النصف الآخر الذي بقي على السرج ، على أن تحرص كل الحرص على أن تحكم وضعه وتعشيقه في النصف الآخر ، ثم تعطيني جرعتين فقط من البلسم ، هنالك تراني أصح وأنضر من التفاحة .

فقال سنشو : إذا كان الأمر كذلك ، فأني متنازل منذ الآن عن حكومة الجزيرة الموعودة ولاأريد ثمناً لخدماتي الجليلة العديدة إلا أن يتفضل مولاي فيعطيني طريقة تحضير هذا الشراب العجيب . لأنني أتخيل أن الأوقية منه في أي مكان تساوي على الأقل ريالين ، وهذا كل ماأحتاج إليه لأقضي حياتي هذه في راحة ورفاهية . لكن بقي أن أعرف ماإذا كانت طريقة تحضيره تكلف كثيراً .

فأجابه دون كيخوته : بأقل من ثلاثة ريالات يمكن عمل ثلاثة أكياس^(١) .

فصاح سنشو : يا لله! وماذا ينتظر مولاي لتحضيره وتعليمي كيفية ذلك؟

فأجاب دون كيخوته : صبراً ياعزيزي! فسأعلمك أسراراً مدهشة أكبر من ذلك ، وأتحفك بنعم سوابغ ، لكن لنضمد الآن أذني ، لأنها تؤلمني أكثر مماأود .

فأخرج سنشو من الخرج شاشاً ومرهماً . لكن حين تبين لدون كيخوته أن خوذته قد كسرت كاد أن يفقد صوابه . فوضع يده على سيفه ورفع عينيه للسماء وصاح :

- أقسم بخالق الأشياء كلها ، وبحق الأنجيل الأربعة المقدسة ، بنصها الكامل^(٢) ، أن أعيش عيشة شبيهة بعيشة مركزيز منتوا الكبير ، لما أن أقسم بالانتقام لموت ابن أخيه قالدوثينوس ، وذلك بالأكل خبزاً على مائدة ، ولا يقرب إمرأته^(٣) ، ويمتنع من الأشياء الأخرى ، التي وإن كنت لا أذكرها الآن فأني أضمنها قسمي هذا ، حتى أنتقم انتقاماً كاملاً ممن أهانني هذه الاهانة .

فلما سمعه سنشو ، قال : لينتبه مولاي السيد دون كيخوته الى أنه إذا كان الفارس المقهور قد نفذ الأمر الذي تلقاه بالمشول أمام السيدة دلثنيا دل توبوسو ، فإنه يكون أوفى

(١) كيل azumbre ، مكيال للسوائل يسع ٢ لتر و١٦ ميليلتر .

(٢) بنصها الكامل ، كان القسم على الأنجيل يتم بوضع اليد عليها . لكن حينما لا تكون في متناول اليد جرت العادة بأن يتم القسم شفاهاً مع الإشارة الى نصها الكامل ، فتضاف تلك العبارة : « حيث توجد مكتوبة بنصها الأوسع » . الأصل في هذه العبارة هو أن القسم كان يجري في المجامع الدينية والجامعات الخ على ورقتين أو أربع أطارها مزوق تزويقاً جميلاً ، وكل منها تتضمن الأربع أو الخمس آيات الأولى من أحد الأنجيل .

(٣) يرى مارين أن هذه الجزئية غير مأخوذة من رومانة مركزيز منتوا ، بل من « رومانة السيد » (رقم ٦) .



الفصل العاشر : دون كيخوته مع رفيقه سنشو پنشا
يتحاوران في الطريق

بعهده وصار بري، الساحة ، ولا يستحق أدنى عقاب إلا إذا ارتكب جرماً آخر .
فقال دون كيخوته : تكلمت فأصبت شاكلة الحق لهذا أفسخ يميني فيما يتصل
بالانتقام من الجاني ، لكنني أستأنفه وأكرره وأؤكد من جديد فيما يتصل بالعيشة التي
ذكرتها ، حتى أستولي بالقوة من أحد الفرسان على خوذة جيدة جميلة كهذه . ولا تحسبن
ياسنشو أن أتكلم دون أن أعني ما أقول ، لأنني في هذا لست بغير قرين ، إذ هذا ما وقع
تماماً فيما يتعلق بخوذة ممبرينو التي كلفت سكريبنته^(١) ثمناً فادحاً .

فأجابه سنشو : إقذف بها الى الشيطان ، يامولاي ، هذه الأيمان التي تضر بالصحة بقدر
ما يضطرب لها الضمير . وإلا فقل لي بريك ماذا نحن فاعلون لوتصادف أن تمضي عدة أيام
دون أن نلتقي برجل مسلح على رأسه خوذة ؟ هل تنفذ هذا القسم رغم ما يجر إليه من متاعب
ومضايقات مثل النوم بكامل الملابس وعدم المبيت في مكان آهل وآلاف من ألوان الزهد
والتقشف الأخرى حسبها ورد في قسم هذا العجوز المجنون ، مركيز منتوا الذي يريد مولاي
الآن أن يؤيده وينفذه ؟ وليكن في علمك أنه لا يمر في هذه الدروب رجال مسلحون ، بل
بغالون وسائقو عربات ، وهؤلاء لا يلبسون خوذات ، بل ولم يسمعو باسمها طوال حياتهم .

فقال دون كيخوته : أنت في هذا مخدوع ، فلن تمضي ساعتان على السير في هذه
الدروب المتقاطعة حتى تجد من الرجال المسلحين أكثر ممن قدموا الى قلعة البراق^(٢) لسبي
أنجليكا الجميلة .

فأجابه سنشو : على رسلك ، وليكن الأمر هكذا . ولعل الله يجري الأمور على ما
نهوى ، ويأتي الوقت الذي أظفر فيه بهذه الجزيرة التي كلفتني غالباً ، ولو مُتَّ من الفرح
فقال دون كيخوته : قلت لك ياسنشو لا تعذب نفسك بالتفكير في هذا الأمر . فحتى لو
لم نجد جزراً ، فعندنا مملكة الدينمارك أو مملكة سويراديا^(٣) وكلتاها تناسبك مناسبة
الخاتم للإصبع ، خصوصاً وهي على أرض صلبة ثابتة فتكون لك أنسب . لكن لندع كل شيء
لأوانه ، وانظر في هذا الخرج لعل فيه طعاماً ، حتى نستطيع بعد ذلك أن نتابع السير سعياً
وراء قصر يمكن أن ننام فيه هذه الليلة ونحضر البلمسم الذي حدثك عنه ، لأنني أقسم بالله أن
أذني تؤلمني كثيراً .

(١) راجع « أورلندو الغاضب » ف ١٨ . ولكن دون كيخوته يخلط هنا ، فليس سكريبنته هو الذي أخذ خوذة ممبرينو ، بل دردنيل دي
الموتته .

(٢) البراق « abracan » قصر صخري ورد ذكره في « أورلندو العاشق » تأليف بويردو ، وقد احتشد عليه أكثر من مليوني من الجنود في
مساحة قدرها أربعمان فرسخ ، وذلك لسبي أنجليكا الجميلة .

(٣) مملكة خيالية ورد ذكرها في قصة « أماديس الغالي » .

فقال سنشو : عندي هنا بصلة وقليل من الجبن ، وشوايا خبز قديمة ، وهذا ليس طعاماً يليق بفارس شجاع مثل مولاي .

فأجابه دون كيخوته : كم تسيء فهم الأمور ! اعلم إذن ياسنشو أن مجد الفرسان الجواله في كونهم لا يأكلون طوال شهر كامل ، وإذا أكلوا طعموا من أي شيء في متناول أيديهم . ولن يساورك في هذا أدنى شك لو أنك كنت قرأت من القصص بقدر ما قرأت . فبرغم وفرة ما قرأت منها لم أجد فيها أدنى ذكر لأكل الفرسان الجواله ، اللهم إلا عرضاً وفي مآدب حافلة تقام لهم ، أما سائر الوقت فيعيشون من الهواء على الطوى . لكن يجب ألا تفهم من هذا أنهم كانوا يقضون عمرهم دون طعام ولا إشباع لسائر الحاجيات الضرورية ، لأنهم كانوا بشراً مثلنا ، بل لأنهم كانوا يمضون معظم حياتهم في القفار والغابات ، وبغير طباخ طبعاً ، فإن وجباتهم العادية كانت تتألف من طعام خشن مثل الذي تقدمه لي الآن . ولهذا لا تحزن يا صديقي سنشو ، من أمر فيه ما يجلب لي السرور ، ولا تحاول أن تجدد العالم ولا أن تحول الفروسية الجواله عن طباعها .

فقال سنشو : أستمحك عذراً ، إذ لا أعرف القراءة ولا الكتابة ، كما قلت لمولاي ، ولهذا لا أعرف قواعد مهنة الفروسية . ولكن من الآن فصاعداً سأزود الخرج بكل أنواع الشمار الجافة من أجل سيدي الفارس ، أما لي أنا ، ولست فارساً ، فسأزوده بأشياء من ذوات الأجنحة أكثر دسماً .

فعاد دون كيخوته يقول : لأقول إنه يتحتم على الفرسان الجواله ألا يأكلوا إلا الشمار التي تحدثت عنها ، وإنما أقول إن مآكلهم المعتادة من هذه الشمار وبعض الأعشاب التي يصادفونها في طريقهم وسط الحقول والبراري ، وهذه الأعشاب يعرفونها ، وأنا أيضاً أعرفها وأميزها مثلهم تماماً .

فأجاب سنشو : هذه ميزة كبيرة أن يستطيع المرء تمييز هذه الأعشاب ، لأنني أتخيل أننا سنحتاج ذات يوم إلى الانتفاع بهذا التمييز

ثم أخرج من الخرج ما قال عنه إن فيه ، وراحا يأكلان معاً بهدوء وجميل صحبة . لكنهم سرعان ما أتموا أكلتهم هذه الجافة الهزيلة ، لرغبتهم في أن يجدوا مكاناً للمبيت تلك الليلة . وركبا دابتهما وأسرعاً للوصول إلى مكان مأهول قبل أن يوافي المساء . لكن غابت الشمس وغاب معها أملهما في أن يجدا ما يطلبان ، قرب بعض أكواخ رعاة الماعز ، فقررا قضاء الليل هناك . وبقدر ما تحزن سنشو على عدم المبيت في منزل ، اغتبط سيده للنوم في الهواء الطلق إذ في كل مرة يقع له شيء من هذا كان يبدو له أنه ظفر بوثيقة تثبت مقامه في طريقة الفروسية الجواله .

الفصل الحادي عشر

في المغامرة التي جرت بين دون كيخوته ورعاة الماعز

استقبل بطلنا من رعاة الماعز بالترحاب . ولما أن هيا سنشو لروثينانته وحماره مبيتهم قدر المستطاع ، استروح واكتشف ، بواسطة الدخان الذي انبعث ، شرائح من لحم الماعز تُسلق في قدر على النار . فود لو استطاع أن يعرف في الحال ما إذا كانت ناضجة حتى يصبها من القدر في كرشه ، غير أن الرعاة أعفوه من مؤونة ذلك ، بأن استخرجوها هم من النار ثم فرشوا على الأرض أنطاعاً من جلد الضأن وهياوا مائدتهم الريفية بنشاط واهتمام ، ودعوا الضيفين الغريبين الى مشاركتهم في الطعام وسط مظاهر الحفاوة وطيب خاطر . وأقعى ستة منهم ، كانوا في الزريبة ، حول الانطاع بعد أن التمسوا من دون كيخوته ، بتحيات فطرية ، أن يتفضل بالجلوس على مدود من الخشب قلبوه ليستخدمه كرسياً . وجلس دون كيخوته ، وبقي سنشو واقفاً ليصب له الشراب في كأس لم تكن من البلور ، بل من القرن . فلما رآه سيده واقفاً قال له :

- لكي ترى ، يا سنشو ، ما تنطوي عليه الفروسية الجواله من خير ، وأن أولئك الذين يشاركون فيها على أي نحو هم دائماً موضع التجلة والتكريم في كل الدنيا ، أريد أن تجلس هنا الى جانبي بصحبة هذه الزمرة الطيبة ، وتصبح أنت وأنا سواء ، مع أنني سيدك ومولاك الطبيعي ، وأن تأكل من صُخفتي وتشرب من كأسِي ، وإذ يمكن أن يقال عن الفروسية الجواله ما يقال عن الحب من أنه يسوي بين الناس جميعاً .

- أستغفر الله! بهذا أجاب سنشو . لكنني أستطيع أن أقول لمولاي إنه مادمت أظفر بأكلة جيدة ، فأنا قانع ، واقفاً وحدي ، كأني جالس مع إمبراطور جلوس الند للند ، بل هذا عندي أفضل . بل إذا كان لي أن أصارح بالحقيقة كلها لقلت إنني أفضل أن أكل زاويتي ، بغير ضغط ولا مراسم ، حتى لو كان بصلة على كسرة خبز ، على أن أكل ديوكاً رومية سمينه

على موائد الآخرين حيث اضطر الى المضغ بهدوء والشرب جرعة صغيرة بجرعة والمسح في كل لحظة ، وحيث لا أستطيع أن أسعل ولا أن أعطس حينما أريد ، ولا أستطيع لنفسي أي شيء مما تبيحه الوحدة والحرية . وإذن فهذه اللقنات التكريرية التي يريد مولاي أن يغدقها عليّ بوصفي عضواً في الفروسية الجواله ، أستعطفه من فضله ومنه أن يحيلها الى أشياء أخرى أجدي لي وأنفع ، فهذا التكرير ، وإن شرفني قبوله ، أنا متنازل عنه من هذه الساعة حتى قيام الساعة .

فقال دون كيخوته ، ورغم هذا كله يجب أن تجلس ، لأن من تواضع رفعه الله .
ثم أمسك به من ذراعه وأجلسه بالقوة الى جواره .

ولم يفهم رعاة الماعز شيئاً من هذه الرطانة التي تبادلها الفارس الجوال مع حامل سلاحه ، ولم يفعلوا أكثر من أنهم صمتوا وأكلوا ونظروا الى ضيفهم وهما يلتهمان بشهية ولطف قطعاً كبيرة بقدر قبضات اليد . ولما انتهى أكل اللحم ، بسطوا على مفارش من الجلد كمية وافرة من ثمار البلوط الحلوة ، ووضعوا في الوسط قطعة من الجبن قاسية كأنها صنعت من الملاط ، وطوال هذا الوقت لم يكن القرن متبطلاً ، بل كان يدور عليهم بسرعة ، مرة مليئاً وأخرى فارغاً كأنه قادوس في ترس ساقية ذات قواديس ، حتى فرغت إحدى الخابيتين اللتين كانتا ظاهرتين هناك .

وبعد أن أشبع دون كيخوته بطنه حتى الامتلاء ، أخذ قبضة من ثمار البلوط في كفه وراح يتأملها بعناية وأنشأ يقول ،

- ما أسعد العصر وما أهنا القرون التي أطلق عليها الأوائل اسم العصر الذهبي ، لا لأن هذا المعدن ، الغالي القيمة في عصرنا الحديدي هذا ، كان من السهل الحصول عليه في ذلك العهد المحفوظ ، بل لأن الذين عاشوا فيه كانوا يجهلون هذين اللفظين ، « لك » و « لي » ففي ذلك العصر المقدس كانت الأشياء كلها ملكاً مشاعاً للجميع . ولم يكن الذين يريدون الحصول على قوتهم العادي بحاجة الى جهد أكثر من أن يمدوا أكفهم ويقتطفوا غذاءهم من أغصان أشجار البلوط السامقة وهي تدعوهم بكل ترحاب الى مأدبة ثمارها العذبة الناضجة . وكانت العيون الصافية والأنهار السريعة تقدم لهم مياهاً دافئة رائقة حلوة ، وفي شقوق الصخور وأجواف الأشجار ، كان النحل المثابر يقيم جمهورياته ، ويقدم لليد التي تمتد إليه المحصول الوفير الذي جمعه من مجهوده اللذيذ ، دون أن ينتظر جزاء ولا شكورا . وأشجار الفلين الضخمة كانت تتعري بنفسها ، فضلاً وكرماً منها ، عن لحاءاتها التي راح الناس يغطون بها أكوأخهم المرفوعة على أعمدة خشنة ليتحصنوا بها من قسوة

الإقليم فحسب . وحديدة المحراث الحادة لم تكن قد جرّوت بعد على أن تشق وتمزق أو أحد ، وفي كل ناحية من نواحي صدرها الخصب الفسيح ، كل ما يغذي ويشبع ويلذ أولادها الذين كانت تحملهم آنذاك . وكانت الراعيات البسيطات المرحات يغدّن من واد الى واد ومن رابية الى رابية ، عاريات الرؤوس معقوصات الشعور ، لا يستر أجسامهن إلا ما يكفي لستر ماشاء الحياء ويشاء أبدأ أن يستره ، ولم تكن زيناتهن من نوع ما يستخدم اليوم ، حيث يزوّق الحريري المعذب ، بكل أنواع العذاب ، وينمّق بواسطة أرجوان صور ، بل كانت أوراقاً معشقة من الأرقطيون والبلابل ، كانت تبديهن على نحو من الفخامة والزينة لعله لا يقل عما عليه سيدات القصور اليوم ببدائعهم الغريبة المغرية التي أوحى بها إليهن حب استطلاعهن الفارغ . هنالك كانت خلجات النفس العاشقة تتبدى بلطافة وبساطة كما أحسسن بها ، دون أن يلجأن في سبيل إظهارها الى الحيل الكلامية والمداورات اللفظية المعسولة . ولم يكن ثم خداع ولا رياء ولا مدهانة تمتزج بالصراحة ونقاء الضمير . وكانت العدالة وحدها صاحبة الكلمة دون أن يأتي لتعكير صفائها صوت المحسوبة أو المنفعة الذي يخنقها اليوم ويعذبها . ولم يكن ناموس الهوى قد سيطر على نفوس القضاة ، إذ لم يكن ثم أشخاص أو أشياء للتقاضي عليها أو بينها . وكانت الفتيات يغدّن في صبرة البراءة والعفاف ، كما قلت آنفاً ، دون مرشد أو حارس ، ودون خوف من أن تذلهن السنة وقحة أو نوايا خبيثة ، فإن سقطن سقطن بمحض إرادتهن . أما الآن في هذه العصور اللعينة فليس منهن واحدة يماًمن ومنجاة ، حتى لو حبست وأخفيت في تيه شبيه بتيه^(١) أقربطش إذ من أضيّق الشقوق يدخل الإغراء والغزل ، ومع الهواء يدخل طاعون الحب ، فتولى مبادئ الخير كلها فراراً . فلدرء هذه الآفة التي ازداد شرها على تطاول الأيام أنشئت طريقة الفرسان الجواله لحماية الفتيات ووقاية الأيامي ومساعدة اليتامي وإغاثة الملهوفين . وأنا من أعضاء هذه الطريقة ، يأخوتي الرعاية ، وإنني لأشكر لكم جميل لقائكم لي ولحامل سلاحي ، فلئن كان القانون الطبيعي يقضي على جميع ساكني المعمورة بمعاونة الفرسان الجواله ، فإنه واجب عليّ وقد رأيت حسن ضيافتكم وكريم معاملتكم دون أن تكونوا عالمين بهذا القانون ، أن أرد جميلكم بمثله قدر المستطاع .

وهذه الخطبة الطويلة (التي كان يستطيع إعفاءهم منها) قد ألقاها فارسنا هذا لأن ثمار

(١) تيه أقربطش : أقامه ديدالوس ، كما تقول الاساطير اليونانية ، لحبس مينوتوروس وكان مارداً نصفه بشر ونصفه ثور .

البلوط التي قدمت إليه قد أعادت في نفسه ذكرى العصر الذهبي وحركت قريحته لتوجيه هذا الخطاب الجميل الى رعاة الماعز الذين استمعوا اليه مدهوشين دون أن ينبسوا بكلمة . وبقي سنشو صامتاً هو الآخر ، لكنه كان يلتهم ثماراً طيبة من ثمار البلوط ويكرر التردد على خابية أخرى كانت معلقة بشجرة فلين ليظل النبيذ بارداً .

وكانت خطبة دون كيخوته أطول من العشاء ، فلما فرغ منها قال له أحد الرعاة ،
- لكي يستطيع مولاي الفارس الجوال أن يقول عن حق أوفى إننا أكرمناه قدر ما استطعنا ، نود أن نزيده لذة وحبوراً ، بأن نجعل أحد رفاقنا يغني ، ولن يتأخر حضوره إلينا . إنه فتى مفرط الذكاء ولهان الفؤاد ، وهو فوق هذا كله يعرف القراءة والكتابة ، ويتقن العزف على الربابة^(١) ، بما لا زيادة بعده لمستزيد .

ولم يكد الراعي يتم عبارته حتى سمع صوت الربابة ، ثم ظهر من كان يعزف عليها ، وكان فتى في الثانية والعشرين وضيء الطلعة سبط القوام . سأله رفاقه هل تعشى ؟ فأجاب : نعم . فقال له من دلّ عليه ؟

- تستطيع إذن يا أنطونيو أن تشنّف آذاننا بالغناء حتى يرى هذا السيد ، ضيفنا الليلة ، إن في الجبال والغابات قوماً يحسنون الموسيقى . لقد ذكرنا له مهارتك ، ونود أن تظهرها أمامه حتى لا يظن بنا الكذب . فاجلس اذن ، من فضلك ، وغنا أنشودة غرامك التي نظمها عمك المستفيد^(٢) وقد سرّ بها أهل القرية .

فأجاب الفتى ، بكل سرورا

ودون أن ينتظر مزيداً من الالتماس ، جلس على جذع سنديانية وهى الربابة ، ثم راح يغني بلطف زائد ، هذه الأغنية :

يااليا! أنا أعلم أنك تعبديني وإن لم تفصحي ، ولا بعينيك ، لساني الحب الصامتين . ولأنني أعلم أنك فهمتني ، أيقنت أن : تعشقينني ، لأن الحب الذائع لا يمكن أن يظل شقياً ، كم من مرة يااليا جعلتني أعتقد حقاً أن روحك من البرنز وأن صدرك الناصع يضم قلباً من الصخر .

لكن من خلال صدق رفضك وعدلك أطلعتني الرجاء على جانب من غلالته .
فإن كان الحب أدباً ، فما أبديته منه يجعلني أعتقد أن خاتمة آمالي ستكون كما أتخيلها . ولو كانت الوساطة قادرة على أن تجعل القلب يرق ، فما بذلته من أجلك يقوي

(١) الكلمة الاسبانية rabel أصلها عربي هو : رباب ، ربابة .

(٢) المستفيد : صاحب الفائدة في الأمور الدينية ، وهو لقب ديني .

عندي الأمل . فلو انتهيت قليلاً لشاهدت أكثر من مرة ، أني تزينت يوم الاثنين بما شرفني يوم الأحد ، ولما كان الحب والزينة يسلكان نفس السبيل ، أردت دائماً أن أبدو في عينيك لطيفاً .

هجرت الرقص من أجلك ، وما بي حاجة الى تذكيرك بالموسيقى التي سمعتها ، عندما المساء يأتي أو يصيح الديك .

ولست أحصي مدائحي في جمالك ، تلك المدائح التي برغم صدقها قد أوقعت بيني وبين بعض صواحبك .

قالت لي تريزا دل بروكال ذات يوم إنني بالغت في إطرانك ، « يحسب أنه يعشق حورية الجنة وهي شبيهة أبي زنة^(١) فبفضل الحلي العديدة والشعور المستعارة والتجملات الزائفة تخدع حتى الحب نفسه » - فكذبتها ، فغضبت ، فتطوع ابن عمها للدفاع ، وتحذاني وكان ما كان مما تعرفينه .

لست أحبك حتى الجنون ، ولا أتمسح على أعتابك ، لتصبحي خليلتي ، لأن نيتي أنزه . للكنيسة حبال هي خيوط من حرير ، فضعي رقبتك في معنقة النير ، وسترين كيف أضع أنا رقبتني كذلك .

فإن رفضت ، فإني أقسم هنا بحق القديسين ، ألا أخرج من هذه الجبال إلا لأسلك طريق الرهنة الكبوشية » .

وهنا أمسك الراعي عن الغناء . وعلى الرغم من أن دون كيخوته توصل إليه أن يواصل الغناء ، لم يشأ سنشو پنشا بذلك ، لأنه كان يفضل النوم على سماع الأغاني . ولهذا قال لسيده :

- يمكن مولاي أن يهيئ لنفسه مرقد هذه الليلة ، لأن العمل الذي يمارسه هؤلاء القوم الأخيار لا يسمح لهم بقضاء الليل وهم ساهرون يغنون . فأجابه دون كيخوته قائلاً : « إنني أفهم حالك ياسنشو ، وأدرك جيداً أن زيارتك لخابية النبيذ تقتضي بعدها مزيداً من النوم لا من الموسيقى . فقال سنشو : الحمد لله ! لم يتأفف أحد من هذا !

(١) أبو زنة ، كنية القرد .

فقال دون كيخوته : لا أنكر هذا ، ولك أن تهنيء نفسك كما تهوى ، لكن الأنسب لأهل
صناعتي أن يسهروا لا أن يناموا . غير أنه يحسن بك ياسنشو أن تضمد أذني مرة أخرى ،
لأنها تؤلمني أكثر مما يجب .
فامتثل سنشو للأمر : غير أن أحد الرعاة قال لدون كيخوته حينما رأى الجرح ألا
يهتم ، وسيستخدم له علاجاً يشفى في الحال . ثم قطف بعض أوراق إكليل الجبل وكان وفيراً
في هذه المنطقة ، ومضغها ومزجها بقليل من الملح ولصق هذه اللصقة على أذنه وربطها
جيداً ، وأكد له أنه لم يعد في حاجة الى طبيب آخر . وكان حقاً ما قال .

الفصل الثاني عشر

فيما رواه أحد الرعاة لمن كانوا مع دون كيخوته

وفي هذه الأثناء أقبل فتى آخر من أولئك الذين كانوا يحضرون الزاد من الضيعة ، وقال :

- اخواني ، هل تعلمون مايجري في القرية ؟
- وكيف نستطيع أن نعرف ذلك ؟ - هكذا أجابه أحدهم .
فأردف الفتى يقول :

- إذن اعلموا أنه قد مات هذا الصباح ذلك التلميذ الراعي خريسوستمو ، ويتهامس القوم أنه مات من فرط حبه لتلك الشيطانة التي تدعى مرثيلا بنت جيرمو الغني التي تتجول في السهول المعشبة مرتدية ثياب الرعاة .

فقاطعه أحد الرعاة قائلاً : من أجل مرثيلا ، هكذا تقول ؟

- نعم من أجلها ، هكذا أقول لك ، وأعجب من هذا أنه أمر في وصيته أن يدفن وسط البراري ، كأنه مراكشي ، وفي موضع عند الصخرة التي يفيض منها ينبوع الفلين ، إذ يروى أنه رآها لأول مرة في ذلك المكان . كما أوصى بعدة أشياء أخرى ينصح القسس بعدم تنفيذها وإلا كانت شراً مستطيراً لأنها تنم عن وثنية . لكن صديقه الحميم أمبروزيو ، وهو تلميذ آخر تزياً بزي الرعاة مثله ، رد عليهم قائلاً بوجوب تنفيذ كل ماأوصى به خريسوستمو دون نقص شيء ، فأثار هذا الخلاف ضجة في القرية . ولكن يجب على كل حال ، هكذا قيل ، أن ينفذ ماأراد أمبروزيو وسائر الرعاة أصدقائه . وغداً سيحضر الناس في احتفال مهيب لدفنه في الموضع الذي أخبرتكم به . ورأيت أن ذلك سيكون خليقاً بالمشاهدة ، وأنا عن نفسي ما كنت أتخلف عن الذهاب للتمتع بهذا المشهد ، لولا أنني في حاجة الى العودة الى بلدي غداً .

- وسنفعل نحن أيضاً كذلك ، بهذا أجب الرعاة ، وسنقترع على من يبقى لحراسة الماعز .

- لك الحق يا پدرو ، قال أحدهم ، لكن لا حاجة الى هذا الجهد ، لأنني سأبقى هنا من أجلكم جميعاً ، ولا أعتقد هذا فضلاً مني أو خلواً من حب الاستطلاع ، وكل ما في الأمر أن الشوكة التي غرزت في قدمي منذ أيام لا تدعني أخطو خطوة .

- ولا يقلل هذا من فضلك علينا فيه ، بهذا أجب پدرو .

هنالك التمس دون كيخوته من پدرو أن يقصّ عليه نبأ هذا الميت وتلك الراعية . فأجابه پدرو إن كل مايعرفه هو أن هذا الميت كان ابن نبيل غني جداً يسكن قرية من قرى هذا الجبل ، وأنه قضى عدة سنوات يدرس في سلمنقة ، عاد بعدها الى بلده ، وذاع عنه أنه عالم راسخ كثير القراءة في الكتب . وكان يقال إنه كان يتقن خصوصاً العلم بالنجوم وكل مايجري هناك في السماء من فعل الشمس والقمر ، لأنه كان يتنبأ لنا بـ«خسوف» الشمس والقمر .

فقاطعه دون كيخوته قائلاً : «خسوف» يا صديقي لا «خسوف» ، هكذا يسمى الاستتار الوقتي الذي يقع لهذين النيرين العظيمين . - ولكن پدرو الذي لم يحفل بهذه الهنات واصل قصته قائلاً :

- وكان يتنبأ أيضاً فيخبر هل يكون العام عام خصبٍ أو «كحت» .

فقاطعه دون كيخوته مرة أخرى : تريد أن تقول «قحط» يا عزيزي .

فاستأنف پدرو حديثه قائلاً : كحت أو قحط كله واحد . وأقول إذن إن أهله وأصدقائه أثروا مما كان يقوله ، على الأقل أولئك الذين كانوا يثقون به ويتبعون نصائحه . فكان يقول لهم : «هذه السنة ابدروا شعيراً لا قمحاً ، هذه السنة الأخرى يمكن أن تبذروا حمصاً ، لا شعيراً ، في السنة القادمة يكثر الزيت ، وفي السنوات الثلاث التالية عليها لن تحصل قطرة منه» .

- هذا العلم يسمى علم النجوم («اسطرولوجيا») ، قال دون كيخوته .

- لست أعرف ما اسمه ، أجب پدرو ، لكنني أعرف أنه كان يعرف هذا كله وأشياء أخرى كثيرة . وبالجمل ، لم يكن قد مضى على عودته من سلمنقة أشهر عديدة حينما استيقظ ذات صباح مرتدياً ثوب راعٍ معه عصاه وعليه صدريته الجلدية ، تاركاً ثيابه الفضفاضة التي كان يلبسها بوصفه عالماً . وشاركه في هذه الفعلة في الوقت نفسه صديقه الحميم أمبروزيو الذي كان رفيقه في الدراسة ، فلبس ثوب الراعي . وقد فاتني أن أذكر أن خريسوستمو الراحل كان مشهوراً في نظم الأغاني ، حتى إنه كان يؤلف الأناشيد التي تترتل

في ليالي عيد ميلاد السيد (المسيح) ، والمسرحيات^(١) التي يمثلها في « عيد الله » الفتيان في قريننا ، وكان الناس جميعاً يقولون إنها رائعة الجمال . وفجأة رأى أهل القرية هذين الطالبين في زي الرعاة فاستولت عليهم الدهشة ولم يقدر أحد منهم أن يحزر لماذا تحولوا هذا التحول العجيب . وفي ذلك الحين توفي والد خريسوستمو ، فصار وارثاً لتركة عظيمة منها العقار ومنها المنقول ، فضلاً عن رؤوس من الماشية السمينية والدقيقة كثيرة العدد وكمية وافرة من الفضة نقداً ، وكان هذا الشاب هو الوارث الوحيد لهذا المال كله ، والحق أنه كان يستحق ذلك ، لأنه كان رفيقاً جواداً محسناً يصاحب الكرام ، وتفيض من وجهه علائم الخير والبركة . وأخيراً تبين أن هذا التحول في الملبس لم يكن إلا يجري في قفار هذه الجبال وراء تلك الراعية ماريثيلا التي ذكرها رفيقنا منذ قليل ، وكان قد عشقها المرحوم خريسوستمو المسكين . وأود أن أقص عليكم الآن نبأ هذه المخلوقة ، لتعرفوا أمرها ، ولعلكم ، أو بغير لعلكم ، لم تسمعوها بمثل هذا في عمركم كله ، حتى لو طال ليبلغ عمر « مثنى صالح » .

- قل ، « متوشالغ » ، هكذا قاطعه دون كيخوته بعد أن لم يقو على احتمال تحريفات الراعي .

- صالح أو شالغ ، المسافة ليست كبيرة ، هكذا أجابه يدرو . وإذا استمر مولاي في سلخ كل ألفاظي فلن ننتهي قبل عام

- عفواً ياسيدي ، هكذا قال دون كيخوته ، إن المسافة أكبر مما تظن ، لكن استمر في روايتك ، ولن أقطعك بعد .

فقال الراعي : قلت إذن ياسيد نفسي ، إنه كان في قريننا مزارع أغنى من والد خريسوستمو ، يدعى جيرمو ، أعطاه الله فوق ثروته العريضة ، بنتاً ماتت أمها وهي تلدها . وكانت الأم أخلق النسوة بالاحترام في كل الناحية . ويخيل الي أنني أراها الآن بمجياها الذي كان نصفه من الشمس والآخر من القمر ، وامتازت برعايتها لشئون بيتها وصادقتها للفقراء ، حتى إنني أعتقد أنها اليوم بروحها تنعم بالحضرة الالهية . ومات زوجها جيرمو كمدأ وحزناً على موت المرأة الكريمة ، تاركاً ابنته ، ماريثيلا ، في طراوة السن وفي وفرة من

(١) في النص autos ، ويطلق على أنواع مختلفة من التمثيل المسرحي منذ فجر الأدب الاسباني ، وكان بعضها ذا طابع ديني ، والآخر دنيوي . وكانت تسمى في العصور الوسطى أيضاً باسم « الأسرار » misterios أو « الأخلاقيات » moralidades ، خصوصاً إذ كان الموضوع دينياً ، وفي القرن ١٧ كانت « المسرحيات المقدسة » autos sacramentales ، ومن أبرز من كتبوا في هذا النوع كالدورن ، الشاعر المسرحي العظيم ، إذ ألف روايات ذوات فصل واحد ، فيها أشخاص رمزيون ، تتركز موضوعاتها حول عقيدة الأفخارستيا (ذكرى العشاء الرباني ، وهو مرسوم تحول الخمر الى دم المسيح والخبز الى جسده) .

الغني لكفالة أحد أعمامها (أو أخوالها) وكان قسيساً مستفيداً في الاقليم . ونمت سن الفتاة ونما جمالها الذي ذكرنا كثيراً بأمها لأنها ورثت عنها منه الكثير ، حتى حسب الناس أن البنيت ستفوق أمها ذات يوم . وكان الأمر كذلك حقاً ، إذ لم تناهز الرابعة عشرة الى الخامسة عشرة حتى كان كل من يراها لا يستطيع إلا أن يحمد الله على أن خلقها جميلة كل هذا الجمال ، وكم أولع بها بعض من رأوها ، حتى جنوا بها جنوناً . وصانها عمها عن العيون في خلوة واعتكاف ، ولكن صيت جمالها ذاع حتى إن شباب الناحية بل وشباب الأصقاع النائية من ذوي الحسب الناصع قد ألحوا والحفوا في سؤال العم للاقتران بها . ولكن العم كان رجلاً مستقيماً ديناً طيباً ، لم يشأ أن يرغمها على قبول أحد وإن كان يود أن يعجل بزواجها بمجرد بلوغها سن الزواج ، دون أن يحفل بالمنفعة التي تعود عليه من الوصاية عليها وعلى أموالها طالما لم تتزوج . وقسماً بالله هذا ما كان يتردد في ندوات القرية إطراءً للقسيس الصالح . وأود أن تعلم يا سيدي الجوال أن الناس في هذه القرى الصغيرة يتحدثون عن كل شيء ويتعرضون الى كل شيء ، وتستطيع أن تستيقن تماماً ، كما أيقنت أنا ، أنه لا بد أن يكون القسيس صالحاً الى درجة خارقة للعادة حتى يضطر أهل رعيته الى التحدث عنه بخير ، خصوصاً في القرى .

فصاح دون كيخوته ، هذا حق فعلاً ، لكن استرسل ، أرجوك لأن القصة جميلة ، وأنت ترويها يا پدرو أيها الرجل الطيب ، بلطف زائد .

فأجابه پدرو ، لطف مولاي هو الذي يهمني فلا يحرمني منه - وأنت تعلم كذلك أن العم أفضى الى ابنة أخيه بكل العروض التي تقدمت للاقتران بها ، مشيداً بمناقب كل متقدم ، داعياً إليها الى التسجيل باختيار زوج على هواها . ولم يكن لها من جواب إلا أن تقول إنها لا تريد الزواج ، وإنها من فناء السن بحيث لا تقوى على احتمال أعباء البيت .

وكانت هذه الأعداء ، المقبولة في نظر العم ، كافية ليكف عن اللحاح عليها ، منتظراً أن ترتفع عن سن الحداثة وأن تعرف كيف تختار رفيق العمر حسب ذوقها . وكان يقول ، وحقاً ما كان يقول ، « يجب ألا يلزم الآباء أبناءهم رغماً عنهم » ، - لكن مرثيلاً المستهزئة بالخطاب تبدو ذات يوم في زي الرعاة ، دون أن يتوقع أحد ، وها هي ذى ، رغم محاولات عمها وأهل بلدها إقناعها بالعدول عن خطتها ، ترحل الى المراعي بصحبة فتيات القرية ، ترعى قطيعها بنفسها ، ولم تكد تظهر للناس ويسطع نور جمالها على الملأ حتى هرع ما لا يحصى من الشباب الأغنياء النبلاء أو المزارعين ، يلبسون ملابس الرعاة ويسعون لنيل مرضاتها خلال البراري ، ومن بين هؤلاء كان المرحوم الذي كان يقال إنه لم يكن يعشقها ،

بل كان يعبدها ، ولا يحسبن أحد أن اتخاذا هذه الحياة الحرة المنطلقة قد أحدث ، ولو في الظاهر ، أمراً يتنافى مع عفافها ، بل على العكس ، صانت شرفها بكل حرص وعناية حتى إن أحداً ممن راح يخدمها ويسعى لنيل رضاها لم يستطع ولن يستطيع أن يباهي بأنها تركت له أدنى أمل في إرضاء أمانيه ، وعلى الرغم من أنها لم تكن تتحاشى صحبة الرعاة ولا أحاديثهم وتعاملهم خبير معاملة ، فإن من يعزم منهم على الكشف عن نواياها لها ، وإن كانت نوايا عادلة طاهرة طهر الزواج ، تطرده بعيداً عنها كما يقذف اللهب من بارودة ذات فتيل . حتى إنها بهذا المزاج وهذا النحو من السلوك قد أحدثت من الضرر في الاقليم أكثر مما يحدثه طاعون ينتشر ، لأن جمالها وعدوبتها يجذبان قلوب من يرونها ، فيحتفلون بخدمتها وحبها ، وعما قليل يجرحهم عدم اكتراثها وقسوة فؤادها الى اليأس ، فلا يملكون إلا أن ينعتوها بالقسوة ونكران الجميل ، ويلقبوها بألقاب مشابهة تصور جيداً طباعها . ولو بقيت هنا بضعة أيام أخرى ، لسمعت يا سيدي هذه الجبال وهذه الأودية تردد شكوى المحبين المطرودين الذين يقتفون آثارها وبالقرب من هذه الأكواخ مكان يضم قرابة أربعة وعشرين من شجر الفيقس ، ليس منها إلا وعلى لحائه الأملس قد نقش اسم مرثيلا ، وأحياناً ينقش تاج فوق الاسم ، وكأن عاشقها يريد أن يقول إنها تستحق بل تحمل تاج الجمال . هنا يزفر راع ، وهناك ينوح آخر ، في هذه الناحية تسمع أناشيد الغرام ، وفي تلك مقطوعات الحزن واليأس . وهذا عاشق يمضي الليل طوله جالساً تحت سنديانة أو عند صخرة ، والشمس تلتقاه في الصباح غارقاً في أفكاره ، دون أن يكون قد غمض له جفن بليل بالدموع . وهذا عاشق آخر يظل ، في وهج الهاجرة ، ممدوداً على التراب الممتد ييث شكواه للسماء الرحيمة . ومن هذا وذاك ومنهم جميعاً تسخر مرثيلا الجميلة وعليهم تتعالى ، ونحن الذين نعرفها ، نود أن نرى الى أين ستفضي بها كبرياؤها ومن هو الخاطب السعيد الذي سيقدر له أن يظفر بهذا المزاج الوحشي وينال هذا الجمال المنقطع النظير . ولما كان كل ماقلته هو الحق عين الحق ، فيخيل إليّ أن ما رواه رفيقنا ذاك عن موت خريسوستمو يجب أن يكون حقاً كذلك . لهذا أنصحك ياسيدي ألا تتخلف عن حضور دفنه ، فهذا أمر يستحق أن يشاهد ، لأن لخريسوستمو أصدقاء ، وليس بيننا وبين المكان الذي أمر بأن يدفن فيه إلا مسافة نصف فرسخ .

فأجابه دون كيخوته : سأنظر في الأمر بعناية ، وأشكر لك ما تحتته لي من متعة بحكايتك هذه القصة الشائقة .

فقال الراعي : أوه! إنني أجهل أكثر من نصف المغامرات التي وقعت لعشاق مرثيلا .

لكن قد يتصادف أن نلتقي في طريقنا غداً راعياً يقص علينا باقي القصة . أما الآن فيحسن بك أن تذهب للنوم في مكان مسقوف ، لأن الهواء الطلق يمكن أن يضر بجرحك ، وإن كان الدواء الذي وضع من شأنه ألا يثير مخاوف من هذه الناحية .

أما سنشو پنثا ، الذي جعل ثرثرة الراعي دبر أذنه ، فقد حث سيده على الذهاب للنوم في كوخ پدرو . ففعل ، لكن ليقضي بقية الليل في ذكر حبيبته السيدة دلثنيا ، اقتداء بما فعله عشاق مرثيلا . أما سنشو فهياً لنفسه مرقدأ على القش ، بين روئيناتته وحماره ، ونام ، لا كعاشق مهجور ، ولكن كرجل امتلأ كرشه واحمر ظهره من الضرب .

الفصل الثالث عشر

في تنمة قصة الراعية مرثيلا، وحوادث أخرى

ولم يكد الفجر يبدأ في الظهور في طنف المشرق ، كما يقول الشعراء ، حتى استيقظ خمسة من رعاة الماعز ونادوا دون كيخوته وسألوه هل لا يزال عاقد النية على الذهاب لمشاهدة دفن خريسوستمو ، وقالوا إنهم على استعداد لمرافقته . ولم يكن دون كيخوته ليود غير هذا ، فنهض وأمر سنشو بوضع السرج والبرذعة على دابتهما ، فامتل سنشو بكل نشاط ، وسرعان ما بدأت القافلة المسير .

وما سارت ربع فرسخ حتى رأوا عند تقاطع الطريق ستة أو سبعة من الرعاة قادمين ناحيتهم ولا بسين سترات من الجلد الأسود ، وعلى رؤوسهم أكاليل من السرو والدفلى ، وفي يد كل منهم عصا قوية من شرابة الراعي . وفي إثرهم سيدان فاضلان راكبان على فرسين ، مزودان أفضل الزاد ، يصحبهما ثلاثة من الخدم مترجلون . فلما التقى الجمعان تبادلوا التحية بكل أدب وتساءلا عن قصدهما ، فعرف كلاهما أنهن ذاهبون جميعاً لتشجيع الجنازة . وقال أحد الراكبين لصاحبه :

- يخيّل إلي ، يا سيد فيثلدو ، أننا لن نأسف أبداً على التأخير الذي سيحدثه لنا منظر هذا الاحتفال الذي سيكون رائعاً ، إن صح مايقوله هؤلاء الناس الأخيار من أخبار غريبة سواء عن الراعي الراحل وعن الراعية القتلة .

فأجاب فيثلدو ، وهذا ما أحسبه أيضاً ، وأنا على استعداد لتأخير رحلتي أربعة أيام لا يوماً واحداً ، حتى أشهده .

هنالك سأل دون كيخوته عما لديهما من أنباء مرثيلا وخريسوستمو ، فقال أحد هذين المسافرين إنهما التقيا هذا الصباح بأولئك الرعاة ، فلما رأياهم في هذا الزي الحزين سألاه سبب في ذهابهم بهذا الزي . فقص عليهما أحدهم نبأ جمال راعية تدعى مرثيلا وغريب أطوارها ، وكثرة

عشاقها الذين خطبوا وسعوا الى كسب رضاها ، وموت خريسوستمو هذا الذي الى شهود جنازته هم ذاهبون . وبالجمل ، فقد أعاد على مسامحه ما سبق أن رواه پدرولدون كيخوته .

ولما فرغ هذا الحديث بدأ حديث آخر ، ذلك أن الراكب المدعو فيقلدو سأل دون كيخوته عن الدافع له الى السفر مسلحاً على هذا النحو ، والدنيا في سلام والهدوء يخيم على البلاد . فأجابه دون كيخوته قائلاً :

- إن المهنة التي أمارسها والنذور التي عاهدت عليها لا تسمح لي بالسير على نحو آخر . إذ الراحة والطعام الفاخر والملاهي إنما اخترعت للمخثئين من رجال القصور ، أما المتاعب والسهر والسلاح فلأولئك الذين يسميهم الناس «الفرسان الجواله» ، وأنا واحد من هؤلاء وإن كنت أدناهم منزلة وأقلهم استحقاقاً .

وما سمعوا جوابه هذا حتى ظنوا جميعاً أنه مجنون . لكن ليتأكدوا من الأمر وليروا الى أي مدى يذهب جنونه ، عاد فيقلدو الهجوم ، فسأله ما معنى الفرسان الجواله .

فأجاب دون كيخوته :

- أولم تقرأوا يا سادة أخبار إنجلترا وتاريخها ، حيث تروى مغامرات الملك آرثر الشهيرة الذي نسميه في لغتنا الاسبانية باسم أرتوس ، وما يقال عنه في السنّة القديمة المروية في مملكة بريطانيا العظمى كلها من أنه لم يمّت أبداً ، وإنما تحول بفعل السحر ، الى غراب ، وأنه سيأتي ذات يوم بعد مرور أزمان فيسترد تاجه وصولجانه . وهذا هو السبب في أنه منذ ذلك العهد حتى اليوم لا يستطيع أحد أن يثبت أن إنجليزياً واحداً قتل غراباً^(١) ؟ نعم في عهد هذا الملك الطيب أنشئت طريقة الفرسان الشهيرة هذه المسماة «المائدة المستديرة»^(٢) ، وجرت الوقائع الغرامية بين دون لانسلوت صاحب البحيرة وبين الملكة جينيفيرا^(٣) ، وهي غراميات لعبت فيها كنتانيونا السيدة الجليلة دور كاتمة السر

(١) ليس هذا الكلام من اختراع خيال ثرفانتس ، بل كان اعتقاداً شائعاً في ذلك العصر كما يدل على ذلك مارواه تيخادا وجريجوريو مديرو في قصائد نشرت في «أزهار الأشعار» flores de poetas ilustres التي جمعها يدرو اسبينورا ونشرها سنة ١٦٠٥ ، وقد أشار إليها ثرفانتس في موضع آخر في قصة «هزيسلس وسجموندا» (ج١ ف ١٨) . ومن ناحية أخرى يلاحظ أنه توجد أوامر قديمة في اقليم ويلز تحرم قتل الغربان ، نظراً لغائدها في قتل الحشرات المؤذية .

(٢) طريقة فروسية «المائدة المستديرة» أنشأها الملك آرثر . وكان أعضاؤها أربعة وعشرين فارساً يرأسهم الملك آرثر . وكان يسمح للأجانب بالانخراط فيها ، فأنخرط فيها بعض أكفاء فرنسا مثل رولان .

(٣) جينيفيرا Guinevere وفي الاسبانية Ginebra ، زوجة الملك آرثر في الأساطير التي قدور حوله . وتسمى على أنحاء عدة في الرومانشات القديمة ، فبعد جورفروا من موثموث تدعى جوانهامارا Guanhamam ، وكانت من أسرة رومانية نبيلة ، ونشأت في بيت كادور ، دون كورنويل ، وفي Bruni تأليف ليامون تدعى ونهافر Wenhaver وقريبة لكادور الكورنولي . وفي «آرثر ومرلان» (القرن ١٣) تدعى جفتر Gvenour ابنة ليودجران ، ملك كاروهيز . وتغنى بها الشاعر تنيسون في قصيدته «جينيفيرا» (سنة ١٨٥٩) .

والرسولة ، ولها نظمت هذه الرومانثة المشهورة التي تتردد كثيراً في وطننا أسبانيا :

ليس في الكون فارس حيط بالغيد والحشم
مثل لنصل حينما من بريتاني قد قدم

مع التطور الرقيق العذب في غرامياته ومغامراته العنيفة . ومنذ ذلك التاريخ وهذه الطريقة للفروسية تنتقل من يد الى يد ، وتنمو وتنتشر في شتى أصقاع الدنيا . ففي أحضانها نشأ وترعرع وذاع صيت الشجاع أماديس الغالي بفضل مغامراته ، هو وأبناؤه جميعاً وأحفاده حتى الجيل الخامس ، ثم الشجاع فليكسمارته الهركاني ، وذلك الآخر الذي لن يبالغ المرء مهما أطنب في مديحه ونعني به تيرانته الأبيض ، وأخيراً وفي عصرنا هذا تقريباً ، رأينا وسمعنا وعرفنا الفارس الذي لا يقهر دون بليناس الرومي . هذا ياسيدي معنى أن يكون المرء فارساً جوالاً ، وتلك هي طريقة الفرسان التي حدثتك عنها ، وإليها انتسبت وإن كنت محملاً بالخطايا ، مؤمناً بكل ما آمن به أولئك الفرسان الذين أتيت على ذكرهم ، ومن أجل هذا أسعى في هذه القفار الموحشة ، باحثاً عن المغامرات ، عاقداً العزم على المخاطرة بذراعي وحياتي في أخطر ما عسى أن يلقيني فيه المصير ، مادام في سبيل إغاثة الملهوفين وإسعاف المحتاجين .

ولم يكونوا في حاجة الى المزيد ليقنوا أن دون كيخوته مختلط العقل مألوس ، أو ليعرفوا نوع الجنون الذي استولى عليه ، فغلبهم من الدهشة ما يغلب على كل من يلتقي به لأول مرة ، وكان فيقلدو حاد الذكاء لطيف المزاج ، وقد شاء أن ينفي عن نفسه وصاحبه الملل خلال ماتبقى من الطريق المؤدي الى الرابية التي سيتم فيها الدفن ، فراح يهيج له الفرصة ليتابع خواطره الشاذة ، فقال :

– يبدو لي يامولاي أنك انتسبت الى طريقة الفروسية من أقسى الطرق في الدنيا وإذا صدق ظني يخيل اليّ أن قاعدة السلوك عند الإخوان الكرتوزيين^(١) ليست ضيقة الى هذا الحد .
– أن تكون هذه الطريقة شبيهة بها في القسوة والتضييق ، هذا ممكن . بهذا أجاب دون كيخوته ، أما أن تكون لها نفس الأهمية للعالم ، فهذا ما أكاد أقطع بأنه مشكوك فيه فإن

(١) الإخوان الكرتوزيون cartijos طريقة رهبانية أسسها القديس برونو سنة ١٠٨٤ في إقليم الدوفيني في الجنوب الشرقي لفرنسا . وكان القديس هوج ، أسقف جرينويل ، هو الذي أقام القديس برونو في مكان موحش بالقرب من قرية سان بيبير دي شارتريز . ومن هنا اسم الطريقة نسبة الى شارتريز (كرتوزيا) ، إذ فيها يقيم المرشد العام للطريقة ، وتقع على ٢٢ كم شمال جرينويل . وفيها دير وسط البرية في داخل واد ضيق مغطى بالغابات والمراعي والصخور المستعصية . وهي طريقة رهبانية شديدة القسوة عنيفة المجاهدات ، إذ تأمر بالصوم والصمت المتواصلين والزهد الكامل في اللحم ، والانحباس في الدير باستمرار . والرهبان ينامون على القش ويحلقون رؤوسهم حلقاً كاملاً ، ولباسهم رداء من الصوف الأبيض وزنار من الجلد الأبيض أو من الكتان .

أردت الحق ، فإن الجندي الذي ينفذ ما يأمر به القائد لا يقل فعله عن فعل القائد الذي أمر . أعني أن الرهبان يطلبون من السماء خير الأرض ، وهم هادئون وادعون مستريحون ، أما نحن الجنود والفرسان فإننا نضع موضع التنفيذ الفعلي ما يضعونه هم موضع الدعاء والصلاة ، فنحقق هذا الخير بقوة سواعدنا وحدّ سيوفنا ، لافي مأمن من إهانات الدنيا ، بل مكشوفين معرضين لقيظ الشمس الشديد في الصيف ، والثلج القارس في الشتاء . فنحن إذن وزراء الله على الأرض والأدوات التي يمارس بواسطتها عدالته . ولما كانت شئون الحرب وما يتصل بها لا تنجز إلا بالعمل المتواصل والعرق والدم ، فإن أولئك الذين يمارسونها يقومون بعمل أعظم - هذا لا ريب فيه - من أولئك الذين يقتصرون على دعوة الله في هدوء وأمان - كي يغيث المحتاجين . ولا أعني بهذا (فما أبعد هذا عن فكري) أن حال الفارس الجوال لها من القداسة ما لحال الراهب الديراني ، وإنما أريد أن أستنتج من المتاعب وألوان التقشف التي أحتملها أنها أقسى وأشق وأبأس وأكثر تعرضاً للجوع والعطش والتعري والهوام . ولا شك في أن الفرسان الجوال في العصور الماضية قد احتملوا كثيراً من الآلام في مجرى حياتهم ، وإذا كان البعض منهم قد وصلوا ، بفضل قوة سواعدهم ، إلى مراتب الأباطرة ، فأيم الله لقد كلفهم هذا ثمناً غالياً دفعوه عرقاً ودماءً ، ولو أن الذين بلغوا هذه المراتب العليا كانوا بغير سحرة وحكماء يقومون على حمايتهم ، لبقوا في يأس من آمالهم وقنوط من أمانهم .

فأجاب المسافر ، وهذا أيضاً رأيي بلا ريب . لكن الأمر الذي يزعجني - إلى جانب أمور أخرى عديدة لست أذكرها - من ناحية الفرسان الجوال هو أنهم إذا سنحت لهم الفرصة لمواجهة مغامرة عظيمة حافلة بالمخاطر على حياتهم ، لا يتذكرون أبداً في هذه اللحظة الحرجة أن يسلموا أمرهم إلى الله كما هو واجب كل مسيحي ورع في مثل هذا الخطر . على العكس ، هم يسلمون أمرهم إلى سيدهم المعشوقات بحرارة وعبادة كأنهم عندهم الله . وهذا فيما يبدو لي ضرب من الوثنية .

فقال دون كيخوته ، ليس ثم من سبيل آخر ، والفارس الذي يفعل غير هذا يقع في أسوأ حال . فقد جرى العرف والعادة في الفروسية الجوال أن الفارس الجوال - وهو في حضرة السيدة في اللحظة التي يغامر فيها مغامرة حربية كبرى - يتجه إليها بعينه في عشق ، وكأنه يطلب منها بنظرته أن تكون في عونه إبان الخطر المحدق به ، وحتى لو لم يسمعه أحد فإنه ملزم بأن يهمس بضع كلمات بين أسنانه حتى يسلم إليها أمره من كل قلبه . وعندنا في قصص الفروسية شواهد عديدة على ما أقول . لكن يجب ألا نعتقد رغم ذلك أن الفرسان يمتنعون من إسلام نفوسهم لله ، إذ سيجدون الوقت والفرصة لذلك أثناء العمل .

فأجابه المسافر : بقي عندي مع هذا كله شك يساورني . فكثيراً ما قرأت أنه يقع أن يتبادل فارسان جوالان الشتائم ، ومن كلمة إلى كلمة من الطرفين يستطير الغضب ويدور كلاهما بفروسه ليتخذ مسافة كافية ، وفي الحال يصطدمان دون سابق إنذار والعنان مرخي ويسلم كلاهما أمره إلى سيدته في وسط الحلبة . وما يحدث عادة في مثل هذه الالتحامات هو أن يسقط أحدهما من على ظهر فروسه وقد نفذ رمح عدوه في بدنه من الجنين ، بينما الآخر ينزل إلى الأرض ، اللهم إلا إذا استمسك بالعرف . فكيف يتسنى للميت أن يكون له من الوقت ما يسمح له بإسلام أمره إلى الله ، في خلال عملية تتم بهذه السرعة ؟ أوليس من الأفضل ، بدلاً من الكلمات التي ينطق بها في الحلبة وهو يهب نفسه لسيدته ، أن يعمل ما يجب عليه بوصفه مسيحياً تقياً ؟ خصوصاً ويخيل الي - عن نفسي - أنه ليس لدى الفرسان الجوالين سيدات لهن يهبون أنفسهم ، إذ ليسوا جميعاً عشاقاً .

فصاح دون كيخوته : هذا غير ممكن ، فمن المستحيل وجود فارس جوال بغير سيدة ، فمن طبيعتهم جميعاً أن يكونوا عشاقاً كما أن من طبيعة السماء أن يكون فيها نجوم ، ومن المؤكد أنك لم تر أبداً توارىخ فيها فارس جوال بغير غراميات ، إذ مجرد كونه بغير غراميات يجعله غير أهل لأن يعد فارساً بالمعنى القانوني ، بل سيعد نغلاً ، وسيقال إنه دخل في قلعة النظام ، لا من بابها الواسع الكبير ، بل متسلقاً الأسوار ، شأنه شأن اللص والصعلوك .

فاستأنف المسافر حديثه قائلاً : لكن يبدو لي ، إن صدقت ذاكرتي ، أنني قرأت أن دون جلاور ، أخا الشجاع أماديس الغالي ، لم تكن له سيدة معروفة ، يمكنه أن يستصرخها إبان المخاطر ، ورغم ذلك كان يعد فارساً شجاعاً نابه الذكر .

فأجابه دون كيخوته ، إن السنونو لا يصنع الربيع ، على أنني أعلم من مصدر وثيق أن هذا الفارس كان عاشقاً في السر . فضلاً عن أن ولعه الشديد بالاعجاب بكل من يستلطفها كان مزاجاً طبيعياً فيه ولا سبيل له إلى دفعه وكبحه ، لكن من المحقق تماماً أنه لم يكن يملك عليه أفكاره ويأسر لبه غير سيدة واحدة ، كان يسلم نفسه إليها مرات ومرات ، لكن في خبايا صدره ، لأنه كان يباهي بأنه عاشق شديد التكتم .

فعاد المسافر يقول : إذا كان من طبيعة الفارس الجوال أن يكون عاشقاً ، فيمكن الظن أن سيادتك لم تخالف عن هذه القاعدة اللازمة لمهنتك . فإن كان سيادتك لا يباهي بأن يكون من التكتم كما كان دون جلاور ، فإني أرجو رجاء حاراً ، باسم زملائي هؤلاء وباسمي ، أن تخبرنا باسم سيدتك وبلدها ولقبها ومفاتها . ومما يسعدها من غير شك أن يعرف الناس جميعاً أنه يحبها ويخدمها فارس من طراز سيادتك .

فزفر دون كيخوته لدى سماعه هذا زفرة حارة وقال :

- لا أستطيع أن أؤكد ما إذا كانت عدوتي الحلوة تريد أو تخشى أن يعلم الناس أنني خادمها ، لكنني أستطيع أن أقول ، استجابة للالتماس الموجه الي بكل هذا الأدب ، إن اسمها « دُلشنيا » ، وبلدها : « توبوسو » ، إحدى قرى سهل المنتشا ، ولقبها : « أميرة » على الأقل ، لأنها ملكتي وسيدتي ، ومفاتها : فوق مفاتن البشر ، إذ فيها تتحقق وتجتمع كل الصفات السحرية للجمال كما يصفها الشعراء في معشوقاتهم . شعرها جدائل من الذهب ، وجبينها جنات عليين ، وحواجبها أقواس قزح ، وعيونها شمس ، وخدودها ورود ، وشفاها من المرجان ، وأسنانها لؤلؤ منضود ، وجيدها من الالبستر ، وصدرها من المرمز ، وأكفها من العاج ، وبياضها كالثلوج ، وما يحجبه الحياء عن عيون الناس أتخيله شيئاً لا يدرك قدره إلا الفحص العادل الدقيق ، لكنه يتجاوز كل تشبيه .

فقال فيثلدو ، ونريد أيضاً أن نعرف أصلها وفصلها ونسبها .

فأجاب دون كيخوته : إنها ليست من سلالة كورتيس أو كايوس أو شيبون في روما القديمة ، ولا من سلالة كولونا وأورسيني في روما الحديثة ، ولا مونكادا وريكسين في قطالونية ، أو ريبا ونيانوفا في بلنسة ، أو بالافوكس ونثا وروكابرتي وكوريا ولونا وألاغون وأوربا وفوث وجوريه في أرغون ، ولا ثردا ومنريكة ومندوثا وقزمان في قشتالة ، أو ألكاسترو وباليا ومنيسيس في البرتغال ، وإنما هي من أن تكون توبوسو دلامنتشا ، وهي أسرة إن تكن حديثة فإن في وسعها أن تكون مبدأ خصباً لأشهر الأسر في القرون المقبلة . ولا يعترض على هذا أحد اللهم إلا إذا استوفى في الشروط التي سجلها ثرفينو في أسفل المسلحة التذكارية لأسلحة رولان^(١) :

لا يجرؤن متهور فيمسئها كيلا يواجهه غاضباً رولانا

فقال المسافر : أسرتي وإن كانت من سلالة كاتشوبين في لاريديو^(٢) ، لا أجرؤ على مقارنتها بأسرة توبوسو دلامنتشا . بيد أنني ، والحق يقال ، لم يبلغ مسامعي هذا الاسم ولا هذا اللقب حتى الآن .

(١) نذكره باسمه في صورته الفرنسية . بدلاً من الاسبانية أورلندو ، لأنه فرنسي الأصل . وثوفينو هو ابن ملك اسكتلندة ، أطلق سراحه رولان ، فوفاء له واعترافاً بجميله صنع منها مسلحة (مجموعة أسلحة) تذكارية (راجع « أورلند الغاضب » ، النشيد رقم ٢٤) .
(٢) لاريديو ، مدينة في اسبانيا ومقاطعة ، تقع على مسافة ٣٧ كم في الجنوب الشرقي من سانتندو ، لها مرفأ على المحيط الأطلسي .
ولفظ « كاتشوبين » لقب كان يطلقه الشعب على الاسباني الذي يهاجر الى أمريكا ، وأصبح التعبير : « كاتشوبين من لاريديو » معلا أطلقه الناس ، قبل ثرفانتس ، على أولئك المهاجرين الأغنياء .

فأجاب دون كيخوته : واعجباً كيف لم يبلغ مسامعك !
 وكان سائر الجماعة يصغي الى حديثهما باهتمام شديد ، حتى إن الرعاة أدركوا ما في عقل صاحبنا دون كيخوته من اختلاط و خيال وسنشو بنشا وحده الذي تخيل أن كل ما قاله مولاه هو الحق كل الحق ، وذلك لأنه كان يعرف من هو ، وقد عرفه منذ نعومة أظفاره . فإن حاك في صدره شيء من الشك وبدا له الأمر عسير الاعتقاد ، فلم يكن ذلك إلا اختراع دلثيا دل توبوسو الفاتنة ، لأنه ، وقد كان يقيم قريباً من هذه القرية ، قرية توبوسو ، لم يسمع أبداً بهذا الاسم ولا بتلك الأميرة .

وكانت القافلة في سيرها حينما أبصروا قرابة عشرين راعياً يلبسون جميعاً سترات طويلة من الصوف الأسود وعليهم أكاليل وهم ينحدرون في أخدود مشقوق بين جبليين عاليين . وقد تبينوا هذه الأكاليل ، بعضها من الزرنب (شجر الموت) ، والآخر من السرو الحزين . وكان ستة منهم يحملون محفة غطيت بآلاف الأزهار والأغصان الخضفر . فلما شاهدهم أحد رعاة الماعز صاح :

- هؤلاء القادمون يحملون جثمان خروستمو ، وعند حضيفض هذا الجبل أوصى بأن يدفن .

لهذا أسرعوا في المسير ، ووصلت القافلة كلها في اللحظة التي وضع فيها الآخرون المحفة على الأرض ، وأقبل أربعة منهم يحفرون القبر بخوازيق حادة عند أصل صخرة صيخودة .

ورحب كلا الفريقين بالآخر . وبعد تبادل التحيات أنشأ دون كيخوته ومن معه يتأملون المحفة وقد رقد عليها جثمان في زي راع ، وعليه أزهار غطته كله ، وهو يبدو في سن الثلاثين . ورغم الموت بدا عليه أنه كان إبان الحياة ذا قوام ممشوق ووجه وسيم . ومن حوله وعلى المحفة وضعت بعض الكتب وأوراق عديدة مفتوحة أو مطوية . واعتصم الجميع بالصمت : أولئك الذين كانوا يتأملون ، والذين كانوا يحفرون وسائر الحاضرين . وأخيراً قال أحد الذين حملوه لصاحبه :

- انظر يا أمبروزيو ما إذا كان هذا هو الموضع الذي أشار به خروستمو ، مادمت تريد أن تنفذ ما أمر به في وصيته بهذا فيره .

فأجاب أمبروزيو : نعم هناك ، لأن صديقي المسكين طالما قص عليّ هناك قصته الحزينة . فهناك . كما قال لي ، أبصر للمرة الأولى هذه الدعوة اللود للجنس البشري ، وهناك صرّح لها للمرة الأولى بحبه العفيف بقدر ما هو عفيف ، حتى اضطرت أن ينهي مأساة

حياته البائسة هذه النهاية المروعة ، وهناك أراد أن يوضع في حضن نسيان دائم ، تذكراً لهذه الأحزان كلها .

ثم اتجه صوب دون كيخوته والمسافرين واستمر يقول :
أيها السادة! هذا الجثمان الذي تنظرون اليه بعيون حانية كان مستودعاً لروح أودعت فيها السماء شطراً عظيماً من أثمن مواهبها . هذا جثمان خروستمو : نسيج وحده في الذكاء والأدب ، بعيد المدى في اللطف والنبيل ، منقطع النظر في الصداقة ، جواد جم الإفضال بغير حساب ، جاد في غير كلفة ، طلق المحيا في غير تفاهة ولا خساسة ، وبالجملة هو الأول في كل ما يسمى باسم الخير ، وليس له ثان في كل ما يسمى باسم الشقاء . كان محباً وكان مكروهاً ، وكان يعبد وكان يلاقى بالازدراء . لقد شاء أن يروض دابة متوحشة وأن يستنضج الحنان من مرمر صلب ، وأن يسبق وفد الريح ، وأن يسمع في الصحراء ، وقد خدم نكران الجميل ، وما كان جزاؤه إلا أن يكون فريسة للموت وهو في منتصف طريق الحياة التي قضت عليها راعية أراد أن يجعلها تحيا أبداً في ذكرى الناس . ولو احتاج الأمر الى دليل فهذه أوراق تشهد بصدق ما أقول ، لولا أنه أمرني أن أسلمها للنار بمجرد أن أسلم جثمانه للتراب .

فقال فيلندو ، لكنك بهذا يا سيدي تعاملها معاملة أسوأ وأقسى من صاحبها نفسه . وليس من العدل ولا مما يقتضيه العقل أن تنفذ حرفياً إرادة من يأمر بأشياء خارجة عن كل عقل . وماذا كان سيفعل أوغسطس لوأنه وافق على تنفيذ ما أمر به شاعر منتوا^(١) الإلهي في وصيته ؟ وإذن ياسيد أمبروزيو ، يكفيك أن تسلم جثمان صديقك الى التراب ، ولكن لا تسلم أعماله الى النسيان . وما أمر به وهو محقق لإهانتته ، لا تنفذه كأنك أداة عمياء . بل بالعكس ، برّدك الحياة الى مؤلفاته ، تردها أيضاً الى قسوة مراثيلا حتى تكون في المستقبل عظة للناس ، فيتجنبوا الوقوع في هوى كهذه . ونحن نعلم جميعاً ، نحن المحيطين بك الآن ، قصة غراميات صاحبك وبأسه ، ونعلم مدى إعزازك له ، وسبب موته وما أوصى به وهو ينهي حياته ، ومن هذه القصة الأليمة نستطيع أن نستنتج كم كان عظيماً حب خروستمو وقسوة مراثيلا وإيمان صداقتك ، وما هي النهاية المحتومة التي تنتظر أولئك الذين يسحرهم الحب فيندفعون بغير وازع في طريق الضلال والهلاك . ومساء أمس حينما سمعنا بموت خروستمو علمنا أن دفنه لابد أن يتم في هذا المكان فقررنا بدافع الرحمة وحب

(١) شاعر منتوا هو فرجيليوس (فرجيل) . ومن المعلوم أن فرجيليوس أوصى ، وهو على فراش الموت ، بإحراق أثره الخالد «الابنيادة» بحجة أنه لم يدرغ من تنقيحها ، بيد أن وصيه وصديقيه توكا وفارويو لم ينفذا وصيته ، وأيدهما القيصر أوغسطس في هذا .

الاستطلاع أن ندع خط سيرنا المستقيم لنشاهد بأعيننا ما أثر فينا أشد التأثير مجرد سماعه . وجزاءً وفاقاً لهذه الرحمة وللرغبة التي تحدونا الى علاج هذه المأساة ما أمكننا ، فإننا نرجوكم ، يا أمبرواز الكيس ، أو أنا على الأقل أرجوكم أن تعدل عن إحراق هذه الأوراق وتعطيني بعضاً منها .

ودون أن ينتظر جواب الراعي ، مد فيقلدو يده وأخذ بضع أوراق كانت أقرب إليه . فلما رآه أمبروزيو يفعل هكذا ، قال :

- يحملني الأدب على الرضا ، ياسيدي ، بأن تحتفظ بما أخذت . لكن رجاءك أن أعدل عن إلقاء الباقي في النار ، رجاء في غير مطمع .

وكان فيقلدو متحرراً الى استطلاع أمر هذه الأوراق ، فأسرع بفتح واحدة منها وقرأ عنوانها فوجده : « نشيد اليأس » . فلما سمعه أمبروزيو قال :

- هذه هي الورقة الأخيرة التي خطتها براعة الفقيد التعس . وحتى ترى ياسيدي فداحة مصابه ، اقرأها بصوت مسموع ، وفي الوقت متسع حتى نفرغ من حفر قبره . فقال فيقلدو : سأفعل ما أمرت ، عن طيب خاطر .

ولما كانت هذه أيضاً رغبة المحيطين به فقد تحلقوا حوله ، وراح يقرأ بصوت رنان :

الفصل الرابع عشر

في أشعار الراعي الفقيده اليائسة، وحوادث أخرى مفاجئة

نشيد خروسستمو

أردت لظلمك يا قاسية
ذيوماً يُردد للغاشية
سأجعل وحيي من الهاوية
ليملأ صدري لظى حامية
ويصبح صوتي صدى الداهية
يمزق قلبي وأحشائي
يتقاسي فعالك يا جانيه

أعيري إذن أذنًا واعيه
لنقمة نفس بها راضية
من العمق تصدر كاللاغية
وإن أسخطتك ، فما شائيه

أين زئير الأسد وعواء الذئب الضاري
وفحيح الأفعى الرهيبه وصراخ الوحش
ونعيب الغراب نذير الشوم وضوضاء الريح
وهي تهز الأمواج ، وخوار الثور المغلوب

ونواح اليمامة المترملة ونعيب البوم المشنوم
وعويل زبانية الجحيم - لتصحب شكاة نفسي
وتؤلف نغمأ يهز المشاعر كلها ، لأن العذاب
الذي يمزقني في حاجة الى آلات جديدة ليُروى
« لا رمال أبينا التاجه ولا زيتون
بيتيس الشهير بسامعة أصداء هذه الضوضاء العجيبة
بل على ذروة الصخر وفي أعماق الهاوية
ويلسان ميت وكلمات حية
ستنتشر آلامي القاتلة
أو في الأودية المظلمة وعلى الشيطان القاحلة
أو الأماكن التي لم يبلغها قط ضوء الشمس
أو بين الهوام السامة التي تتغذى بطمى النيل .
وبينما تتردد في القفار الموحشة أصداء خرساء
لشرها وقسوتها العديمة النظير ،
ميزني القدر البائس فجعلها تذيع في أنحاء المعمورة
« الاحتقار يقتل ، والاتهام الزائف أو الصادق
يقضي على الصبر ، والغيرة تقتل بقسوة أشد
والفراق الطويل يعكر صفو الحياة
والفزع من النسيان لا يقاومه رجاء في حظ أسعد ،
ففي كل هذا يتبدى الموت لا مفر منه
لكني أنا - وتلك أعجوبة الأعاجيب - أحيأ
غيران ، غائباً ، مزدري ، واثقاً من الشكوك التي تقتلني
وفي النسيان الذي يتقد فيه نار وجدته وبين ألوان العذاب
لا يبلغ نظري ظل الرجاء ، ومن فرط يأسى لا أهفو إليها
بل على العكس : لأظل غارقاً في شكاتي
أقسمت بهجرها أبداً
« هل من سبيل لرجاء وخوفٍ معاً ؟
وهل هذا من الخير ، بينما أسباب الخوف أبرز وأشد يقينا ؟

وهل لو تبدت الغيرة يجب عليّ إغماض عيني
 بينما لا أملك إلا أن أراها
 من خلال آلاف الجروح النافذة في أعماق روحي ؟
 ومن ذا الذي لا يفتح الأبواب واسعة أمام سوء الظن والخوف
 حينما يرى عدم الاكتراث ماثلاً ، وظنونه استحالت حقائق ملموسة
 يدركها بيقين مرير ، والحقيقة المجردة مقنعة بنقاب الأكاذيب ؟
 إيه أيتها الغيرة ، أي طاغية مملكة الحب
 هلمي قيدي هاتين اليدين بالأغلال الحديدية
 وأنت أيها الاحتقار ، هات جبل العذاب
 لكن الألم ، واحسرتاه ، يخنق ذكراك بانتصار غليظ .
 « وأخيراً أموت ، ولا رجاء لي في التوفيق ،
 إن في الحياة أو الممات ، وسأظل ثابتاً على رأيي
 سأقول إن دواعي الحب حميدة ، وإن أكثر النفوس حرية
 أهدها لسلطان الحب عبودية
 وسأقول إن من كانت دائماً عدوتي روحها جميلة جمال جسمها
 وعدم اكتراثها ناشئ عن خطأي ، والحب
 يحافظ على السلام في دولته بالآلام التي يصيبنا بها
 وهذه الفكرة وأحبولة قاسية كلتاها تسرع بالخاتمة المحتومة
 التي يقتادني إليها احتقارك ، لهذا أقدم للرياح جسمي وروحي
 دون إكليل غار أو سعف للأمجاد المقبلة
 « وأنت يامن تظهرين بأفعالك التي لا مبرر لها
 ما يحملني على أن أسلك نفس المسلك مع الحياة التعبة التي أبغضها ،
 مادام الجرح العميق في قلبي يقدم إليك براهين ساطعة
 على السرور الذي يشعر به وهو يستقبل ضربات ظلمك
 إذا شاء الحظ السعيد أن تعترفني بأني جدير أن يعكّر موتي
 صفو سماء عينيك ، فلا تفعلي من هذا شيئاً
 بالعكس ، ليكن ضحكك في الساعة الأليمة دليلاً
 على أن نهايتي عيد عندك . لكن من السذاجة أن أقدم إليك

هذه النصيحة ، وأنا أعلم أنك تفخرين بأن تبلغ حياتي
نهايتها بهذه السرعة .
« ليأت إذن ، مادام الوقت أزف ، طنطالس بعطش
وسيسفوس بثقل صخرته الهائل ، ليأت برومثيوس
بحداته ، ولا يقفن أكسيون عجلته ، ولا الأخوات
عملهن الدائم . لينقلوا جميعاً الى قلبي
عذابهم القاتل ، وليرتلوا بصوت خفيض مراثي حزينة
(إن كان يجب لمثله شيء منها) لهذا البدن الذي سيحرم
من كفن ، وليجاوبهم حارس النار ذو الثلاثة رؤوس
وأشباح ومردة آخرون لا يحصون بألحان أليمة ،
إذ يخيل الى أنه ليس ثمة احتفال أوفق من هذا
في جنازة رجل مات شهيد الغرام
« أي نشيد اليأس لا تنفجر نوحاً وأنت تغادر
صحبتني الحزينة . بل حذار ، حتى في القبر ، أن تظهر حزنك
لأن السبب في تأليفك يزيد سعادته بشقائي » .

والذين استمعوا الى إنشاد هذا الشعر وجدوه رائعاً . بيد أن فيقلدو لاحظ أنه لا يتفق
مع مارواه الناس من تواضع مرثيلا وفضائلها . وذلك أن خروسستمو شكوا الغيرة وسوء الظن
والسهو ، وهذه أمور تضع من قدر صاحبتة وشهرتها الناصعة . لكن أمبرزيو ، وهو الذي سبر
أغوار أفكار صاحبه ، أجابه في الحال ،

- اعلم يا سيدي ، حتى يتضح لك هذا الشك ، أنه في الوقت الذي كتب فيه هذا البائس
ذلك الشعر الذي قرأته لنا ، كان بعيداً عن مرثيلا ، إذ هجرها قصداً حتى يجرب عسى أن
يؤثر فيه البعد والفراق أثرهما المعتاد . ولما كان العاشق النائي لا يدعه شك إلا طارده ولا
خوف إلا حاصره ، فكذلك خروسستمو : احتمل عذاباً حقيقياً من غيره موهومة . وهكذا
تظل شهرة فضيلة مرثيلا سليمة من كل أذى ، ولن يستطيع الجسد ، رغم اتصافها بالقسوة
والصلف والاستكبار ، أن يأخذ عليها أو يكتشف فيها أدنى شائبة .

- هذا حق ، بهذا أجاب فيقلدو .

ولما أراد قراءة صفحة أخرى من بين الأوراق التي أنقذها من النار ، منعه من ذلك منظر

عجيب تبدى لناظريه فجأة ، أو هكذا خيل إليه . فعلى الصخرة التي حفر قبر خروستمو أسفلها تبدت الرائحة مرثيلاً جميلة جمالاً يفوق شهرتها . والذين لم يكونوا قد أبصروها بعد تطلّعوا إليها في صمت الإعجاب ، وأولئك الذين اعتادوا رؤيتها لم يكونوا أقل دهشة . ولم يكد أمبروزيو يبصرها حتى صاح بنفس مغيظة :

- هل أتيت صدفة ، أيتها الباسليق^(١) الشاردة في هذه الجبال ، لترى ما إذا كان حضورك سيسيل الدماء من جراح البانس الذي حرّمته قسوتك من الحياة ؟ هل أتيت لتغتبطي وتفخري بما اجتريحه مزاجك الغريب من مظالم ؟ أو لترى من علياء هذه الرابية وكأنك نيرون قاسٍ آخر ، حريق عاصمته روما ، أو لتركلي بقدميك هذه الجيفة البائسة ، كما ركلت ابنة طرقيونيوس العاقبة جثة أبيها ؟ أنبئنا سريعاً ماذا أتى بك وما تريد من منا ، لأنك تعلمين أن إرادة خروستمو كانت دائماً طوع أمرك إبان حياته ، لهذا سأعمل بعد مماته بحيث تكون إرادات من يسمون أصدقاءه مطوعة درج يدريك .

فأجابت مرثيلاً :

- لم آت ، يا أمبروزيو ، لشيء مما ذكرت . بل أتيت لأدافع عن نفسي ولأبين خطأ أولئك الذين يتهمونني بآلامهم ويموت خروستمو . لذا أتوسل إليكم جميعاً معشر الحاضرين أن تعيروني أسماعكم . والحقيقة لا تحتاج في إثباتها للأذكاء ، إلى وقت طويل أو كلام كثير .

« تقولون إن السماء خلقتني جميلة جمالاً يحملكم على حبي ولا تملكون له دفعاً . وفي مقابل حبكم لي تقولون وتزعمون أنني ملزمة بأن أبادلكم حباً بحب . وإني لأعترف حقاً ، بما أودع الله في من عقل طبيعي ، أن كل جميل محبوب . لكنني لأفهم أن يكون المحبوب لأنه جميل ملزماً ، بسبب أنه محبوب ، أن يحب من يحبه ، خصوصاً وقد يقع أن يكون من أحب الجميل امرئاً قبيحاً . ولما كان القبيح خليقاً بالكراهية ، فليس من حقه أن يقول : إني أحبك لأنك جميلة ، إذن يجب عليك أن تحبيني وإن كنت دميماً . لكن لنفترض أن الجمال متساوٍ لدى الطرفين ، بيد أن هذا ليس سبباً يوجب أن تكون الرغبات متساوية ، إذ لا ينشأ الحب من كل جمال أياً كان : فمن الجمال مايلذ الأعين دون أن تنقاد له الإرادة . ولو كان كل جمال يؤثر ويستحوذ على القلوب لاختلطت الإرادات في العالم وتصادمت دون أن تعلم ما تأخذ وما تدع ، إذ لما كانت الأشخاص الجميلة لا متناهية ،

(١) حية ورد ذكرها في الأساطير يقال إنها تقتل بنظراتها . ومن أسمائها العربية الملكة والمكحلة والأصلة والنالطر .

فستكون الرغبات أيضاً لامتناهية . والحب الصادق ، كما سمعت ، لا يتجزأ : وهو بالرضا ، لا بالقهر . فإن كان الأمر هكذا ، فيما أعتقد ، فلماذا تريد أن يستسلم قلبي للقهر ، لا لشيء ، إلا لأنك تقول إنك تحبيني ؟ لكن أنبني : لو أن السماء خلقتني دميمة لا جميلة ، هل يكون من العدل أن أشكو منك إذا لم تحبني ؟ كذلك يجب عليك أن تلحظ أن جمالي لا يدلني في اختياري ، بل وهبني السماء إياه بفضل منها دون رجاء مني ولا اختيار . وكما أن الحية لا تستحق أن تلام على السم الذي تحمله في فيها ، وإن كان يقتل ، لأن الطبيعة هي التي زودتها به ، كذلك أنا لا أستحق الملامة لأنني خلقت جميلة فالجمال في المرأة الشريفة كالنار البعيدة ، والسيف غير المتحرك ، لا الأولى تحرق ، ولا الثاني يجرح من لا يقترب منهما . والشرف والفضيلة زينة النفس ، بغيرها يمكن ، لكن لا يجب ، أن يبدو الجسم جميلاً . فإذا كان الشرف من المزايا التي تزين النفس والجسم ، فلماذا يجب على المرأة التي تعشق لمفاتها أن تفقد الشرف لتستجيب لرغبات الرجل الذي يحاول ، ابتغاء اللذة وحدها ، أن يسلبها إياه بكل الوسائل ؟ لقد ولدت حرة ، ولكي أستطيع أن أحيا حرة اخترت وحدة البراري : فأشجار هذه الجبال صحابتي الأدنون ، والمياه الصافية في هذه الجداول هي مراياي ، وإلى الأشجار والجداول أفشى بخواطري وجمالي . أنا نار بعيدة ، وسيف ليس في متناول أحد . وأولئك الذين جعلهم منظري عشاقاً ، بددت أوهامهم بكلماتي ، وإذا كانت الرغبات لا تتغذى إلا بالأمل ، وأنا لم أثبت الأمل أبداً في نفس خروستمو أو نفس غيره ، لهذا يمكن أن يقال إن عناده لا قساوتي هو الذي سبب موته . ولو اعترض أحد وقال إن رغباته كانت شريفة ، ولهذا كان يجب علي أن ألبسها ، فإني أجيب قائلة إنه حين كشف لي ، في هذا الموضع الذي تحفرون عنده اليوم قبره ، عن شرف نوابه ، قلت له إن نيتي أنا أن أعيش في وحدة دائمة وأن تكون الأرض وحدها هي التي تملك رفات جمالي سليماً ، وإنه لو أراد ، رغم هذه النصيحة التي يجب أن تبدد أوهامه ، أن يصير على تحدي اليأس والإبحار ضد الريح ، فهل من عجب أن يغرق في لجة خليج الحمافة ؟ لو كنت خدعته ، لكنت كذبت نفسي ، ولو أرضيته لحُنت قراري ونقضت عزمي . لكنه أصر ، رغم تبديد وهمه ، واستيأس دون أن يكون مكروهاً . فانظر الآن هل من العدل أن أتهم بتعذيبه ؟ لو كنت خدعته ، فليشكني ، ولو كنت أخلفت وعداً ، لكان عليه أن ييأس ، ولو كنت دعوته ، لكان له أن يثق ، ولو كنت تلقيته بالقبول ، لكان له أن يزهو ، لكن هل يحق له أن يدعوني قاسية وقاتلة وأنا لم أخدعه ولم أدعه ولم أختره ؟ إن السماء لم تشأ حتى الآن أن أحب قضاء وقدرأ ، ومن الخطأ اعتقاد أنني سأحب طوعاً واختياراً . وليكن هذا إنذاراً عاماً

لكل أولئك الذين يسعون للظفر بحبي تحقيقاً لأهوانهم ، ولتعلموا منذ الآن أنه إذا مات أحد من أجلي ، فلن يكون موته بسبب الغيرة أو الاحتقار ، لأن من لا تحب أحداً لا يمكن أن تثير الغيرة في أحد ، وتبديد الأوهام في أذهان الناس ليس معناه احتقارهم . إن من يدعني بأسليقاً ووحشاً ، لبيتعد عني كشيء كرهه خطر ، ومن يسمني جاحدة ، فلا يخدمني ، أو غريبة شاذة ، فلا يحاول أبداً أن يتعرف الي ، أو قاسية ، فليكف عن ملاحقتي . فهذه الباسليق ، وهذا الوحش ، وهذه الجاحدة ، القاسية ، الغريبة الشاذة ، لا تريد أن تعرف هؤلاء ولأن تتبعهم أو تخدمهم بأية حال . وإذا كان الجزع وشدة الشهوة قد أفضيا بخروستمو الى الهلاك ، فهل الذنب في هذا ذنب شرف سلوكي واحتياطي ؟ وإذا كنت أحافظ على فضيلتي بين هذه الأشجار في البراري الموحشة ، فلماذا يريد مني أن أفقدها ، ذلك الذي يريد مني الاحتفاظ بها بين الناس ؟ عندي كما تعلمون مال ، ولا أطمع في مال الآخرين ، ومركزي يجعلني حرة ، ولا أود أن أصبح عبدة . أنا لا أحب ولا أكره أحداً ، ولا يستطيع أحد أن يقول إنني أخدع هذا أو أتملق ذاك ، أو إنني أسخر من الواحد والأطف الآخر . ويكفي لإرضاء لذاتي صحة شريفة للراعيات في هذه القرى وعنايتي بعنزاتي . إن هذه الجبال تؤلف وحدها ملكوت أمالي ، وإذا تجاوزتها فلكي تتأمل جمال السماء تحدها الروح في هذا المقام الأول والأخير .

وما أتمت هذه الكلمات حتى عادت «الراعية» أدراجها دون أن تنتظر جواباً واختفت في أعماق غابة تغطي الجبل مخلفة في جميع سامعها إعجاباً بذكائها وجمالها معاً . وبدا على بعض من رمتهم بسهام أشعة عينيها الجميلتين أنهم يرغبون في اقتفاء إثرها ، دون أن يحفلوا بما أذرت أضرابهم به . لكن لم يكد دون كيخوته يتوجس نيتهم هذه حتى بدت له الفرصة سانحة لإبراز فروسيته ، بأن يهبط لنجدة الأوانس اللواتي يستصرخن . فأمسك مقبض مهنده بيمينه وصاح بصوت جهوري مفهوم :

« لا يفكرن أحد ، مهما يكن شأنه ، في ملاحقة مرثيلا الجميلة ، حتى لا يثير ثائرتي ويلحقه غضبي ، لقد أثبتت ، ببراھين ناصعة قاصعة ، أنها بريئة تقريباً أو تماماً من موت خروستمو ، وبيئت كيف أنها بعيدة عن النزول عند أمانني عشاقها . فبدلاً من ملاحقتها ومطاردتها ، من العدل احترامها وتقديرها من جانب النفوس الشريفة التي تعمر هذا العالم ، إذ هي من غير شك المرأة الوحيدة التي تقضي حياتها بنية طيبة .

وسواء أكان لتهديد دون كيخوته أثره ، أم أنهم استجابوا لدعوة أمبروزيو إياهم أن يؤدوا واجبهم كاملاً نحو صديقه ، لم يخط واحد من الرعاة خطوة حتى كان القبر قد حفر

وأحرقت أوراق خروستمو ووسدوا جثمانه في التراب : وتم هذا كله والدموع تنهمر من
عيون جميع الحاضرين . وغطى القبر بصخرة عاتية انتظار الفراغ من نحت شاهد قال
أمبروزيو إنه يريد أن ينقش عليه هذه الأبيات :

هنا عاشق راقد في الثرى رعى المَعَزَ حتى رماه الهوى
فأصمى ، لقسوة معشوقة بها الحب سيطر ثم استوى

ثم نثروا على القبر آلاف الأزهار والرياحين والأغصان ، وودع الرعاة جميعاً صديقهم
أمبروزيو بعد أن واسوه في هذه الفاجعة . وفعل فيثلدو ورفيقه مثلما فعلوا ، واستأذن دون
كيخوته من ضيوفه والمسافرين اللذين دعوا للسكر معهما الى إشبيلية حيث تكثر
المنامرات ، كما قال ، إذ يوجد في كل زاوية من كل درب أكثر مما في سائر الدنيا .
فشكر لهما دون كيوخوته نصيحتهما وفضلهما واستعدادهما لإسداء الخدمة إليه ، قبل أن
يطهر جميع هذه الجبال من قطاع الطريق الذين يقال إنهم يملأونها .
فلما رأى منه المسافرين هذا العزم الوطيد لم يشاء أن يزيداه إلحاحاً ، بل ودعاه ثم
تابعا المسير ولديهما من الحديث زاد لا ينفذ ، الحديث عن قصة مرثيلا وخروستمو ،
وعن جنون دون كيوخوته . أما هذا فقد قرر أن يمضي سعيّاً وراء الراعية مرثيلا وأن يعرض
عليها خدماته . لكن الأمور لم تسر على ما تخيل ، كما سيرى القارئ فيما يتلو من هذه
القصة الحقيقية التي ينتهي قسمها الثاني هنا .

الفصل الخامس عشر

في المغامرة الأليمة التي غامر بها دون كيخوته
حينما لقي بعض الينجواسيين الأشرار

روى الحكيم سيدي حامد بن الأيلي أن دون كيخوته لم يكذب يودع ضيوفه والحاضرين دفن خروستمو حتى دخل الغابة ، يتبعه حامل سلاحه ، حيث رأى الراعية مرثيلاً تغيب عن الأنظار . وبعد أن جاس خلالها هنا وهناك خلال ساعتين باحثاً عنها في كل مكان دون أن يعثر عليها ، وصل وصاحبه إلى مرج مغطى بالعشب النضير ، في خلاله ينساب جدول عذب رقيق ، فأغراما جمال المكان على قضاء ساعة القيلولة هناك ، لأن وهج القيق في الظهيرة بدأ ينتشر وبعنف . فترجلاً وتركوا روئيناتهما والحمار يرعيان على هواهما العشب الغزير في المرج النضير ، ثم هجما على الخرج ، ودون تكليف ، وفي هدوء وطيب صحبة أخذ المولى وخادمه في أكل ما وجداه .

ولم يحفل سنشو بوضع الشكال في روئيناتهما ، لأنه عرفه فرساً هادئاً طيباً قليل الميل إلى الخطيئة الجنسية ، فلو قدمت إليه كل أفراس مراعي قرطبة لما أثرن في نفسه إغراء . لكن شاء الحظ ، والشيطان أيضاً وهو لا ينام باستمرار ، أنه كانت ترعى في هذا الوادي ساعتئذ رعة من الأفراس الإناث الجليقيات يسرح بهن بغالون ينجواسيون^(١) كان من عاداتهم القيلولة مع دوابهم في الأماكن التي يوجد فيها العشب والماء ، فكان الموضع الذي تلبث فيه دون كيخوته مناسباً لهم كل المناسبة . هنالك أحس روئيناتهما فجأة بالرغبة في مغازلة الأفراس السيدات ، فلم يكذب يستروح وجودهم حتى خرج عن سيره المعتاد ومألوفه وراح يخب بدل دون أن يستأذن أصحابه ابتغاء أن يبلغ منهم ما يريد . لكن الأفراس الإناث كن في حاجة إلى الرعي أكثر من أي شيء آخر ، فاستقبلنه بالرفس والعض حتى مزقن أحزمة

(١) جليقية : مقاطعة في شمال غرب إسبانيا تحد غرباً وشمالاً بالمحيط الأطلسي ، وجنوباً بالبرتغال ، وشرقاً بمقاطعة قشتالة القديمة (سموره وليون وأشتوريا) عاصمتها شنت ياقوب ، ومساحتها ٨٧٠، ٩٣٧ هكتار . - ينجواس : قرية في مقاطعة شقوبية .

السرج وتركه عارياً فوق العشب . ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل كان ماهو أدهى : فإن البغالين وقد رأوا روثينانته يريد أن يهاجم أفراسهم ، أسرعوا بهراويلهم وانهاالواعليه ضرباً حتى تركوه مرضوض العظام فوق الجدالة .

وفي تلك الأثناء شاهد دون كيخوته وسنشو ماحل بروثينانته فأسرعا إليه يلهثان ، وقال دون كيخوته لحامل سلاحه :

– يخيّل إلي ، يا صاحبي سنشو ، أن هؤلاء القوم ليسوا فرساناً ، بل رعاغاً سفلة أخساء . لهذا تستطيع ، وأنت مطمئن الضمير ، أن تساعدني على الانتقام العادل للإهانة التي ألحقوها بروثينانته أمام أعيننا .

فأجاب سنشو : أي إنتقام تريد منا أن نقوم به ، وهم أكثر من عشرين ، ونحن اثنان فحسب ، أو بالأحرى واحد ونصف ؟

فرد عليه دون كيخوته قائلاً : أنا بمائة!

ودون أن يطيل الكلام ، أمسك بسيفه وانقض على الينجواسيين . وفعل سنشو مثلهما فعل مقتدياً بمولاه .

وفي الهجمة الأولى ضرب دون كيخوته أحد البغالين بسيفه ضربة شقت صدريته الجلدية وقطعة كبيرة من الكتف . ولما كان الينجواسيون عديدين وقد شاهدوا مهاجميهم اثنين فقط لجأوا إلى هراويلهم فحاصروا كليهما في داخلهم وأهواوا عليهما بعصيتهم فوق بطونهم بهمة هائلة . وفي الجولة الثانية جندلوا سنشو على التراب ، ولم يكن دون كيخوته أسعد حظاً من صاحبه ، ورغم شجاعته ومهارته ، وشاء الحظ أن يسقط عند أقدام روثينانته الذي لم يكن قد نهض من كبوته بعد . فكان منظرأ يدل أوضح دلالة على الدور الذي يمكن أن تؤديه الهراوة في أيد غاضبة خشنة . ولما شاهد الينجواسيون آثار فعلتهم السيئة أسرعوا وحملوا دوابهم وارتحلوا عجلين ، تاركين المغامرين الاثنين في أسوأ حالٍ .

وكان أول من أفاق منهما سنشو ، فوجد نفسه الى جوار مولاه فقال له بصوت شاك حزين :

– مولاي دون كيخوته! أواه ، مولاي دون كيخوته!

فأجابه دون كيخوته بلهجة شاكية حزينة مثل لهجة سنشو : ماذا تريد يا أخي سنشو ؟

فأجاب سنشو بنثا : أود ، إن أمكن ، أن تتفضل عليّ بجرعة من شراب « الشرير بلاس »^(١)

إن كان معك منه ، فلعله مفيد في علاج الكسر في العظام كما هو ناجع في علاج الجراح .

(١) هنا تلاعب لفظي ، ورد في النص feo blas (= الشرير بلاس) ، وكان الصواب أن يقول fierabras (= فيرابراس) ، ولكن سنشو الجاهل لم يحسن النطق بها

فأجاب دون كيخوته ، آه لو كان معي ها هنا نحن في أمس الحاجة إليه لكنني أقسم لك يا سنشو بنتا ، بشرف الفروسية الجواله ، أنه لن يمضي يومان - اللهم إلا إذا قرر القدر أمراً آخر - قبل أن أحصل على هذا البلسم في يدي ، وإلا شلت يداي!

فقال سنشو ، يومان! إذن ماذا يظن مولاي بكم يوم نستعيد استعمال أقدامنا ؟

فأجاب الفارس المحطم دون كيخوته ، أما عن نفسي ، فلا أدري كم من الأيام يستغرق هذا الأمر! لكنني أعلم أن الذنب في هذه المصيبة ذنبي أنا وحدي ، إذ يجب علي ألا أشهر سيفي في وجه ناس لم يُسلّحوا فرساناً . وقد سمح إله المعارك بأن أجازي هذا الجزء القاسي لأنني خالفت قوانين الفروسية . ولهذا ، يا سنشو بنتا ، يحسن بي أن أنبهك إلى أمر يهمنا جميعاً ، وهو أنك إذا رأيت أمثال هؤلاء الرعايع يهينوننا ، فلا تنتظر حتى أشهر سيفي لعقابهم ، فهذا أمر لن أفعله عوض - ، بل أمسك أنت بالسيف وعاقبهم كما يحلو لك ، فإن هب لنجدتهم والدفاع عنهم فرسان ، هنالك أعرف كيف أدافع عنك وأطردهم شر طردة ، لأنك قد رأيت من قبل ، بآلاف من التجارب والشواهد ، إلى أي مدى تمتد قوة وشجاعة هذا الساعد الذي لا يقهر .

ذلك أن هذا النبيل المسكين قد احتفظ بكثير من الكبرياء والمباهاة منذ انتصاره على البشكوني الشجاع! لكن سنشو لم يستصوب رأي مولاه ، حتى إنه لم يستطع إلا أن يجيبه على هذا النحو ،

- مولاي ! أنا رجل مسالم هادئ رقيق ، وأستطيع احتمال كل أنواع الإهانات ، لأن لدي امرأة وأولاداً علي إطعامهم وتربيتهم . ولهذا ليتلق مولاي مني هذه النصيحة ، ولا أقول الأمر ، وهي أنني لن أمسك بالسيف أبداً ، لا في وجه أحد الرعايع ولا أحد الفرسان ، وأنني من الآن حتى يوم الحساب سأغترف جميع الإهانات التي لحقتني أو ستلحق بي في المستقبل ، سواء أتت أو تأتي أو يجب أن تأتي من أشخاص عليا أو سفلة ، أغنياء أو فقراء ، نبلاء أو غفلة ، دون استثناء أية طبقة أو جنس .

فما سمع سيده قوله حتى أجاب ،

- وددت لو كان نَفْسي يسمح لي بالكلام بهدوء ، ووددت أن يهدأ قليلاً الألم الذي أشعر به من هذا الضلع المكسور ، حتى أجعلك تفهم ، يا بنتا ، كم أنت مخطئ فيما تقول . أيها الخاطئ الذي لا يرجع عن غيئه لو أن رياح الحظ - وهي معاكسة حتى الآن - استدارت وواتت وأشرعة أمانينا حتى نلقى مراسينا دون عواصف في مرفأ واحدة من الجزر التي وعدتك بها ، ماذا يحدث لك لو أردت أن أوليك حاكماً عليها بعد أن أغزوها ؟ ستحول بيني

وبين ذلك ، لأنك لن تكون فارساً ولا تريد أن تكونه ، وليست لديك شجاعة ولا كرامة لتنتقم من الإهانات وتدافع عن ولايتك ؛ إذ يجب أن تعرف أن نفوس السكان الأصليين ، في المقاطعات أو الممالك التي تفتح حديثاً ، ليست من الهدوء والطاعة للسيد الجديد بحيث لا يخشى المرء تألبهم عليه والمغامرة بأمر الحكم . لهذا يجب على المالك الجديد أن يكون له رجاحة عقل ليحسن سياسة الأمور ، وشجاعة ليتخذ في كل حال أهبة للهجوم أو الدفاع .

فأجاب سنشو ؛ في الحالة الأخيرة التي وقعت لنا كنت أود أن يكون لدى ذلك العقل وتلك الشجاعة للذان تتحدث عنهما . لكنني أقسم لك قسم رجل فقير أنني في هذه الساعة أحوج إلى المراهم مني إلى المواعظ . فليحاول مولاي أن ينهض ، ولنساعد بعد هذا روئيناتته على النهوض وإن كان لا يستحقه لأنه هو السبب الأصلي في هذا المطر المنهمر من الضربات . وأنا لم أعتقد أبداً أن روئيناتته يفعل شيئاً كهذا ، لأنني كنت أظنه عفيفاً مسالماً مثلي أنا . وعلى كل حال فقد صدق من قال ؛ لا بد من الزمن لمعرفة الناس على حقيقتهم ، ولا شيء مؤكد في هذه الدنيا . ومن كان يصدق أنه بعد الضربات القوية التي كالهها مولاي بسيفه لهذا الشارد البائس ، ستأتي وراءها بسرعة تلك العاصفة الهائلة من ضربات الهراوي التي انقضت على أكتافنا ؟

فقال دون كيخوته ، على أن أكتافك ياسنشو صنعت لمثل هذه الأمطار ، فما بالك بأكتافي أنا التي ربيت في لفائف من التيل الهولندي الرقيق ! إنها ستألم وتستشعر أوجاع هذه المغامرة البائسة زماناً أطول . ولولا أنني أتخيل ، ماذا أقول ! بل أوقن أن أمثال هذه المضايقات من لوازم مهنة السلاح الضرورية ، لكنك تركت نفسي أموت في هذا المكان حنقاً وعاراً .

فأجابه حامل السلاح ؛

- مولاي ! مادامت هذه المحن من ثمار الفروسية ، فهل تستطيع أن تقول لي هل تأتي طوال العام ، أو في مواسم معلومات ، مثل المحاصيل ؟ إذ يلوح لي أننا إذا جئنا محصولين من هذا النوع ، فلن يكون في مقدورنا أبداً أن نجني المحصول الثالث ، اللهم إلا إذا أعاننا الله برحمته الواسعة .

فقال دون كيخوته ؛

- اعلم إذن يا صديقي سنشو أن حياة الفرسان الجواله عرضة لآلاف الأخطار والمصائب ، وأعلم أيضاً أنهم معرضون كذلك أن يصبحوا ملوكاً وأباطرة ، كما دلت التجربة عند كثير من الفرسان الذين أعرف تواريخهم بالدقة ، ولو سمحت لي أوجاعي لاستطعت الآن أن أقص

عليك طرفاً منها عن فرسان ارتفعوا بقوة سواعدهم إلى عروش الملك . وهؤلاء الفرسان أنفسهم قد بلوا النكبات وغرقوا في المصائب . فالشجاع أماديس الغالي وقع في قبضة عدوه اللدود ألا وهو الساحر أرخلانوس ، ومن المسلم به أن أرخلانوس بعد أن أخذ أماديس أسيراً ، ضربه أكثر من مائتي ضربة بالسوط ، أعني بسيور لجام فرسه بعد أن صلبه على عمود قائم في بهو قصره^(١) . بل هناك مؤلف سري ، ولكنه ثقة ، يروي أن فارس فيبوس ، لما أن أمسك به في مصيدة نشبت في رجليه بأحد القصور ، وقع في سرداب عميق وقدماه ويداها موثقتان ، وهنالك جرّعه دواءً من ماء الثلج والرمل أشرف به على الهلاك . ولولا أن أنقذه حكيم صديق حميم له لقضي على هذا الفارس المسكين . كذلك أنا لا ضير عليّ من معاناة أمثال هذه المحن التي مر بها هؤلاء الأشخاص النبلاء ، إذ قدّر عليهم أن يحتملوا من المهانات ما هو أشد نكالاً مما عايناه منذ قليل . وأريد أن تعلم ، يا سنشو ، أن الجراح التي تحدثها الآلات التي توجد صدفة في اليد ، لا تلحق بالمرء إهانة ، فهذا مكتوب صراحة في قانون المبارزة ، حيث ورد : « لو أن إسكافياً ضرب آخر بما في يده ، وإن كان ما في يده من خشب ، فلن يقال إن من أصابته الضربة قد نُسئ بالعصا » . وإثماً قلت لك هذا حتى لا تظن أننا وقد شعبنا ضرباً قد أصابتنا إهانة ، لأن الأسلحة التي كانت مع هؤلاء الناس وخنقونا بها ، لم تكن إلا أوتادهم ، ولا ذكر أبداً أن أحداً منهم كان يحمل سيفاً أو خنجرأ أو نصلاً .

فأجاب سنشو : لم يتركوا لي من الوقت ما يسمح بالتطلع إليهم ، لأتي لم أكد أمسك بسيوفي^(٢) حتى نغزوا كتفي بعصيتهم على نحو جعلني لأرى شيئاً ولا أقدر على المشي ، ثم جندلوني في هذا الموضع الذي لأزال راقداً فيه . وما يؤلمني حقاً ليس هو التفكير فيما إذا كانت ضربات الأوتاد جرت على إهانة أو لم تجر ، وإثماً هو الوجد الذي خلّفته هذه الضربات التي ستظل منقوشة في ذاكرتي كما هي في أكتافي .

فقال دون كيخوته : ورغم هذا فعليّ أن أذكرك ، يا أخي پنشا ، أنه لاحقاً إلا ويمحوه الزمان ، ولا وجع إلا ويشفيه الموت .

فأجاب پنشا : ما هذا ؟ أي شر أعظم من ذلك الذي ينتظر الزمان لمحوه والموت لشفائه ! لو أن مصابنا اليوم كان مما يشفيه زوج من المراهم ، لهان الخطب ، لكنني بدأت أعتقد أنّ جميع اللبختات الموجودة في مستشفى لا تكفي لمجرّد أن نستطيع النهوض على أقدامنا .

(١) وقع أماديس مرتين في قبضة أرخلانوس ، في الأولى سحره ، وفي الثانية سجنه في سرداب وتركه فريسة للجوع والعطش . لكن ليس في القصة ما يدل على أنه ضربه بالسوط .

(٢) في النص « miltazona » ، « وتيونا » هو في الأصل أحد سيّفي السيد القمبيطور ، والآخر كان يسمّى colinda .

فقال دون كيخوته : دع هذا ياسنشو ، واستخرج من الشدة قوة ، وسأفعل أنا كذلك ولننظر كيف حال روئيناته ، اذ يلوح لي أن هذا الحيوان المسكين قد أصابه من هذه المحنة شرٌ غير قليل .

فأجاب سنشو : ليس في هذا ما يدعو للدهشة ، لأنه هو الآخر فارسٌ جوالٌ بل الذي يدهشني هو أن حماري خرج منها سليماً معافى لم يُمسّ له ضلع بينما خرجنا نحن بغير ضلوع^١

فقال دون كيخوته : في الشدائد يترك البخت دائماً باباً مفتوحاً للخروج منها . أنا أقول هذا لأن هذه الدابة الطيبة يمكن أن تحل محل روئيناته فتحملني من هنا الى قصر من القصور تضمّد فيه جراحي . خصوصاً وأنا لأرى هذه الركوبة مما يشين ، لأنّي أذكر مما قرأت أن ذلك العجوز الطيب سلينو ، الذي تولّى تربية إله السرور ، لذّ له أن يركب حماراً جميلاً داخل المدينة ذات الأبواب المائة^(١) .

فأجاب سنشو : كان لابد راكباً كالخيال كما يقول مولاي . لكن فارق كبير بين أن يغدو راكباً هكذا ، ساقاً هنا وساقاً في الناحية الأخرى ، وبين أن يحزم حزماً على الدابة كزكية الدقيق .

فردّ عليه دون كيخوته وعليه سيماء الجد : إن الجراح التي يتلقاها المرء في المعارك تزيد شرفاً ولا تسلبه . فلا ترد على بعد هذا يا صديقي پنثا ، بل انهض ما استطعت كما قلت لك ، واركب حمارك على النحو الذي يحلو لك ، ولنرحل من هنا قبل أن يفاجئنا الليل في هذه القفار الموحشة .

فأجابه سنشو : لكنني سمعت من مولاي مرّات كثيرة أنه كثيراً ما يقع للفرسان الجوّالة أن يبيتوا في القفار يلتحفون السماء والنجوم ، بل يلذّ لهم ذلك .

فقال دون كيخوته : هذا يحدث اذا لم يكن لهم مندوحة عنه ، أو إذا كانوا عشاقاً . ولقد أصبت فيما قلت ، لأن من الفرسان من يلزمون صخرة ، معرضين للشمس والظل وتقلّبات الجو خلال سنتين كاملتين دون علم عشيقته . ومن هؤلاء أماديس حينما تسمّى باسم «نور الظلام» ، وأقام على «الصخرة الجرداء» ، وبقي هناك لأدري كم من الزمان ، ثماني سنين أو ثمانية أشهر ، لأذكر العدد بالضبط ، لكن يكفي أن تعرف أنه قضى مدة

(١) لاحظ كلمنتين أن ثرقاتس خلط هنا بين مدينة طيبة اليونانية ، وطن باخوس إله الخمر والسرور ، وبين طيبة المصرية التي كانت ذات مائة باب . والذي أوقعه في هذا الغلط هو خوان دي ميّتا في كتابه «الثلاثمائة أغنية» (أشبيلية سنة ١٤٩٦) ، وهو قصيدة رمزية خيالية تدور حول الحياة الانسانية ، مؤلفة من مئتان عدتها ٢٩٧ يضاف إليها ثلاثة أخرى . وقد أتمه سنة ١٤٤٤ .

يستغفر فيها ذنبه بسبب سوء استقبال عاشقته أوريانة له . لكن لندع هذا ياسنشو ، ولنفرغ قبل أن تقع محنة للحمار كما وقع لروثينانته .

فقال سنشو : أي شيطان مرید إذن !

ثم زفر ثلاثين زفرة وستين آهة ، ولعن مائة وعشرين لعنة الحظ الذي أتى به الى هناك ، وأخيراً نهض واقفاً ، لكنه وقف قبل أن تستقيم قامته ، وبقي منحنيّاً كالقوس دون أن يقدر على الإعتدال . وكان عليه وهو في هذا الوضع الأليم أن يلحق بالحمار ويضع عليه البردعة ، بعد أن انطلق شيئاً من الإنطلاق لما ظفر به من حرية في ذلك اليوم .

ثم أنهض روثينانته ، ولو كان لهذا الفرس لسان يشكو به لقاوم السيد والخادم معاً . وأخيراً هياً مركباً لدون كيخوته على الحمار ، وربط روثينانته بمؤخرته ، واقتاد دابته بالرسن ، وسار في الطريق من الناحية التي ظن أنها تفضي الى الطريق الرئيسي . وبالفعل شاء القدر المواتي أن يبلغ الطريق العام بعد وقت قصير ، وأبصر فيه فندقاً كان بالرغم منه قصراً كما شاء دون كيخوته ، كان من رأي سنشو أنه فندق ، ومن رأى دون كيخوته أنه قصر ، واحتدم النزاع طويلاً ، ولمّا ينته حينما بلغا باب هذا المنزل ، ودخل سنشو بكل قائلته دون مزيد من الاستفهام عن حقيقة أمره .

الفصل السادس عشر

فيما وقع للنبييل العبقري (دون كيخوته)
في الفندق الذي حسبه قصراً

رأى صاحب الفندق دون كيخوته مطروحاً على الحمار فسأل سنشو ماذا وقع لهذا الرجل . فأجاب سنشو أن الأمر هين ، ذلك أنه انحدر من أعلى صخرة الى أسفل فحدثت في ضلوعه رضوض . وكان لصاحب الفندق زوجة - على عكس زوجات أصحاب هذه المهنة - تميل بطبعها الى إساءة الإحسان وتعطف على مصائب الجيران . لهذا هرعت لتضميد دون كيخوته واستعانت بهذا بابنة لها فتاة وضينة الطلعة . - وكان في الفندق خادمة أشتورية^(١) ، عريضة الوجه ، سطيحة القفا ، فطساء الأنف ، عوراء في عين ، غير سليمة العين الأخرى . ولكن حسن قوامها عوض عن معايب وجهها ، لم يزد طولها من قدميها حتى رأسها عن سبعة أشبار ، وكانت أكتافها ، التي أبهظت كاهلها وأحتت ظهرها شيئاً ما ، تحملها على أن تعخفض عيونها الى الأرض أكثر مما كانت تود . - أقبلت هذه الخادمة الطيبة تساعد ابنة صاحب الفندق في تهينة فراش خشن لدون كيخوته في غرفة حقيرة يبدو من ظواهر الحال أنها كانت تستعمل مخزناً للتبن سنين طويلة . وكان يسكن في الغرفة نفسها بغال لم يكن سريره يبعد كثيراً عن سرير صاحبنا دون كيخوته ، وعلى الرغم من أن سرير هذا الجلف كان مؤلفاً من براذع بغاله وأغطيته ، فقد كان أفضل مائه مرة من سرير صاحبنا الفارس ، إذا لم يكن هذا إلا أربعة ألواح خشنة موضوعة على دكتين غير مستويتين ، ثم مرتبة رقيقة جداً حتى كانت أشبه بملاءة سرير ، مملوءة ببروزات خشنة لو مستها المرء لحسبها حصي إذ لم يبصر ، من بعض ثقوبها ، أنها عمائت^(٢) من الصوف ، ثم غطاءين من جلد

(١) اشتوريش ، حوز ، وإمارة قديمة في شمال إسبانيا ، تشمل اليوم مقاطعة أوفيبيدو ، وتحد بالمحيط الأطلسي شمالاً وبمقاطعات لوجو وليون وبلنشيا وسانتندر ، مساحتها ٧٦٦٨ كم^٢ ، وأشهرها بلادها أوفيبيدو ، عاصمة الاقليم ، ثم خيخون .

(٢) جمع عميئة ، وهي القطعة من الصوف الملفوف مستديراً ليجعل في اليد فيغزل .

الجاموس ، وملاءة كان من الممكن أن يعد المرء خيوطها واحداً واحداً دون أن يترك منها خيطاً . وعلى هذه المنبذة الغليظة انطرح دون كيخوته ، وسرعان ما جاءت صاحبة المنزل وبنيتها ومسحاه بالمرهم من رأسه حتى أخمص قدميه ، على ضوء مصباح حملته مارييتورنس ، الخادمة الأشتورية . وفي هذه العملية شاهدت صاحبة النزل مواضع سوداء زرقاء مرضوضة فقالت إن مواقع له يبدو أنه ضربات وليس سقوطاً .

فقال سنشو : لا لم تكن ضربات ، ولكن الصخرة التي سقط منها كانت ذات نتوءات حادة كثيرة تركت هذه الآثار .

ثم أردف قائلاً : إذا تفضلت ابق على بعض المشق ، فقد يحتاجها أحد الناس لتضميد جراحه ، إذ الواقع أن في ضلوعي وجعاً .

فسألت صاحبة الفندق : وأنت أيضاً وقعت ؟

فأجاب سنشو بنثا : كلا ولكن الخوف والرعدة اللذين استوليا عليّ حينما رأيت سيدي يقع جعلاً جسمي يتألم ألماً يبدو منه كأني ضربت مائة ضربة بالعصا . فقالت البنث : هذا جائز ، فلقد حصل لي مرّات عدة أن حلمت أنّي وقعت من أعلى برج ولم أصل الى الأرض أبداً ، وحينما استيقظت ، كنت منهوكة القوى محطمة كأني وقعت فعلاً .

فقال سنشو بنثا : هذا ماحدث بالضبط ياأنسة! ودون أن أكون حالماً ، وأكثر يقظة مما أنا الآن ، وجدت على جسمي من الكدح والجحش^(١) مثلما على بدن مولاي دون كيخوته .

فقالت مارييتورنس الأشتورية : مااسم هذا الفارس ؟

فأجاب سنشو : اسمه دون كيخوته دلامنتشا ، وهو فارس جوال ، ومن أشجع وأعظم من شوهد على ظهر الأرض منذ زمان طويل .

فسألت الخادمة اللطيفة : ومن هو الفارس الجوال ؟

فأجاب سنشو : ماذا ؟ هل أنت جديدة على الدنيا بحيث لا تعرفين من الفارس الجوال ؟ اذن فلتعلمي ، يا أختي ، أن الفارس الجوال شيء يمكن في لحظة واحدة أن يضرب أو يصبح امبراطوراً ، فاليوم يكون أبأس الناس وأشدّهم جوعاً ، وغداً يملك ثلاثة أو أربعة تيجان يتعطّف بها على حامل سلاحه .

(١) الكدح والجحش ، أثر السقطة والانسحاج .

فقال صاحب الفندق : إذا كان الأمر كذلك ، وأنت حامل سلاح هذا الفارس النبيل ، فلماذا لا تملك إمارة^(١) على الأقل ؟

فأجاب سنشو : لم يأن الأوان بعداً لأننا لم نخرج للبحث عن مغامرات إلا منذ شهر^(٢) ، وحتى الآن لم نصادف مغامرة جديدة بهذا الاسم . وقد يقع للمرء أحياناً أن يبحث عن شيء فيجد شيئاً آخر . لكن ليشف مولاي دون كيخوته من هذا الجرح ، أو السقوط ولتزل عني أوجاعي ، وأنا لا أبادل بأمالي أعظم لقب في اسبانيا

وكان دون كيخوته ينصت لهذا الحديث كله باهتمام بالغ وهو راقد على فراشه . وهنالك نهض ما استطاع وأخذ بيد صاحبة الفندق وقال :

- أيتها السيدة! صدقيني أنك تستطيعين أن تعدي نفسك سعيدة لأنك استقبلت شخصي في قصرك ، شخصي الذي لا أودّ إطرأه ، لأن مادح نفسه واضع لها ، لكن حامل سلاح سيئبك عن حقيقتي . إنما أود أن أقول لك إنني سأنقش الى الأبد في ذاكرتي الخدمة التي أسديتها إليّ ، وسأعترف لك بجميلها مدى الحياة وبودي لو لم أكن أسيراً لقوانين الحب ، وعبداً لعيون هذه الجاحدة الجميلة التي أذكرها بين أسناني إذ لكنت عيون هذه الأنسة الفاتنة مطلقة التصرف في حرّيتي .

فأطرقت صاحبة الفندق وابنتها وماريتورنس الطيبة خجلاً من كلمات الفارس الجوال . ولم يفهم منها شيئاً وكأنه يتكلم اليونانية . ولكنهن قدرن أنه إنما أراد شكرهن وتدليلهن ، ولكنهن لم يتعودن مثل هذه اللهجة فنظرن اليه ونظرت كل منهن الى الأخرى ، وبدا لهن دون كيخوته رجلاً بخلاف سائر الناس . ولما أن شكرن له كلماته اللطيفة عن الفندق ، تركته ، وراحت ماريورتورنس لتضميد سنشو ، ولم يكن أقل حاجة الى العلاج من مولاه .

وكان البغال قد اتفق مع ماريورتورنس على أن يقضيا ليلة مريحة معاً . إذ وعدته أن تأتي اليه بعد أن يأوى النزلاء إلى فرشهم وينام أصحاب الفندق ، وتحقق له كل ما يطلب إليها من ملذّات . ويقال عن هذه الخادمة أنها لم تعد أبداً وعداً من هذا النوع دون إنجازه ، حتى لو كان الوعد في قاع غابة ودون شهود! لأنها كانت تتباهى بأن في عروقتها يجري دم نبلاء ، ولم تر مما يحط من شأنها أن تكون خادمة في فندق ، وتقول أن تقلّبات الحداث وبلايا الزمان هي التي ألقت بها في هذا الحال . وكان سرير دون كيخوته ، ذلك السرير الخشن الضيق الهزيل الغادر ، هو أول الأسرة في وسط هذا العنبر الذي تنحدر من ثقب سقفه أضواء النجوم . بالقرب منه هيا سنشو

(١) في النص : كوتية - أي مقالة كونت .

(٢) هذا تمويه عليها ، لأنهما لم يخرجوا إلا منذ ثلاثة أيام فحسب .

فراشه ، ولم يكن فراشه إلا حصيرة من القش وغطاء أشبه بالوبر^(١) منه بالصوف . وتلا هذين السريرين سرير البغال ، وكان مؤلفاً من البراذع والسروج التي كانت على خير بغلين عنده ، وكان معه إثنا عشر بغلاً كلها سميئة شديدة الألواح ذات رونق ، لأنه كان من أصحاب البغال الأغنياء أريبيلو^(٢) ، كما يقول مؤلف هذه القصة الذي يشير الى هذا البغال إشاره خاصة لأنه كان يعرفه معرفة وثيقة ، بل يؤكد البعض أنه كان يمت إليه بصلة القرابة^(٣) . وقد كان سيدي حامد بن الأيلي مؤرخاً واسع الإطلاع شديد الاستقصاء والتدقيق في كل شيء ، والشاهد على هذا ما رواه حتى الآن ، فإنه على الرغم من تفاهته وضآلته لم يشأ أن يغفل منه شيئاً . وعلى المؤرخين الجادين الذين يرون أعمال أبطالهم على نحو موجز قصير أن يضربوا على قلبه لأن إيجازهم لا يكاد ذوقه يبلغ شفافنا ، ويتركون في المحبرة - إهمالاً أو جهلاً أو خبثاً - خير ما في الأمر . وحيثما ألف مرة مؤلف « تابلانة دي ريكاموتته »^(٤) ، ومؤلف الكتاب الذي يروي أعمال كوند دي تومياس^(٥) فقد وصفا كل شيء بمنتهى الدقة^(٥) .

وأقول أن البغال بعد أن تفقد حال دوابه وأعطاه العلوقة الثانية من الشعر ، تمدد على براذعه وسروجه ، وأنشأ ينتظر مقدم ماري تونرس ذات المواعيد الدقيقة . أما سنشوشا فقد دهن جيداً واستعد للنوم ، ولكنه لم يستطع ، رغم ما بذل ، أن ينام لأن آلام ضلوعه حالت بينه وبين ذلك . أما دون كيخوته فقد جعلته أوجاعه مفتوح العينين كالأرناب . وكان النزول كله غارقاً في الصمت ، ولم يكن فيه من النور إلا نور مصباح يتقد معلقاً تحت عقد الباب الخارجي . وهذا الهدوء الشامل ، والخواطر التي تغذيها في نفس فارسنا هذا ذكرى الحوادث التي تجري في كل صفحة من صفحات الكتب التي كانت السبب في بلائه ، قد بعثت في خياله جنوناً من أغرب أنواع الجنون التي يمكن الإنسان أن يتخيلها وهو في تمام وعيه . إذ قد خيل إليه أنه أتى قصرأ شهيراً ، لأن جميع الفنادق التي أوى إليها كانت في نظره قصوراً شامخة ، وأن ابنة صاحب الفندق هي ابنة صاحب القصر وقد قهرها لطفه فاشتعلت غراماً به ، وأنها قررت أن تزوره هذه الليلة بنفسها دون أن يعلم أهلها ، تزوره

(١) في النص : « أشبه بخز أنجو (مقاطعة في فرنسا ، وولد منه بالصوف » . وكان أنجو تنتج خزاً غليظاً .
(٢) arevalo مدينة في مقاطعة أبلة على بعد ٧٥ كم شمال شرقي أبلة ، عند تلاقي نهري أريبيلو وأداخا ، ولها كنائس جميلة ، يقال أن إحداها من عهد الامبراطور قسطنطين .
(٣) كان معظم البغالين في اسبانيا إما من اللينجوشيين أو من العرب المتنصرة ، ولما كان المؤلف عربياً متصرفاً وهو سيدي حامد بن الأيلي ، بحسب ما يزعم ثرفانتس ، فليس بمستبعد إذن أن تكون ثمة قرابة .
(٤) يشير ثرفانتس هنا الى « أخبار الفرسان النبلاء » تابلانة دي ريكاموتته وخولفه ، ابن الكونت أسون » ، طبعة سنة ١٥١٣ (راجع ميندث بلايو « أصول القصة » ج ١ ص CLXXXIV) . أما كوند دي تومياس لشخص ثانوي في « تاريخ أنريكة بن أوليفا ، ملك أورشليم وامبراطور القسطنطينية » (اشيالية سنة ١٤٩٨) .
(٥) كل هذا تهكم من ثرفانتس .

في مخدعه . وقد اعتقد أن هذه الأوهام التي ابتدعها ، حقائق واقعية ، فأنشأ يضطرب ويحزن وهو يفكر في الخطر الداهم الذي يتهدد بكارثة . لكنه عزم في قرارة نفسه ألا يخون سيده دلثنيا دل توبوسو ، حتى لو كانت الزائرة هي الملكة جنثيا في نفسها تصحبها وصيفتها كنتنيونا .

وكان يهيم في بيدا ، هذه التهاويل لما أن حانت الساعة (المشنومة بالنسبة إليه) التي تأتي فيها الأشتورية . وها هي ذي قد أقبلت بقميصها عارية القدمين معقودة الشعر بشبكة من قماش القطن ، وهي تتسلل على أطراف قدميها في العنبر الذي كان النزلاء الثلاثة يرقدون فيه ، تريد أن تبلغ صاحبها البقال . ولم تكد تجتاز وصيد الباب حتى أحس بها دون كيخوته ، فنهض جالساً على سريره ، رغم تضميداته وأوجاع ضلوعه ، ومد ذراعيه لاستقبال فتاة أحلامه الرائعة . وأقبلت الأشتورية جامعة أطرافها حابسة أنفاسها ويدها إلى أمام تتلمسان حبيبتها ، فوقعت بين ذراعي دون كيخوته فأمسك بها بقبضة قوية وجذبها إليه دون أن تجرؤ على التفوه بكلمة ، ثم أجلسها على سريره . وتحسّس قميصها - وكان من الخيش - فبدأ له من أفخر الديباج ، وكانت في ذراعيها أسورة مؤلفة من خرز زجاجي فبدت له كاللؤلؤ الشرقي المنضود ، وكان شعرها يضرب إلى لون الوبر وطبيعته فحسبه غدائر من أنفاس ذهب بلاد العرب ، يفوق بريقه لمعان الشمس ، أما أنفاسها - ولم تكن رائحتها إلا من رائحة سلطة الثوم ذات التوابل والخل المصنّة من الأمس - فقد حسبها تنشر شذى طيب الريح عبهريّ النسيم . وبالجملّة فقد رسمها في خياله بالمحاسن والمفاتن التي كانت لتلك الأميرة التي قرأ في كتبه أنها جاءت لزيارة الفارس الجريح إبان الليل ، وقد غلبها الوجد واستولى عليها الغرام . لكن هكذا كان ضلال هذا النبيل المسكين الذي لم يستطع أن يبدد أوهامه شيء ، لا ملمسها ولا نفسها ولا تلك الأمور الأخرى التي تميّز هذه الفتاة البائسة ، مما كان من شأنه أن يثير استقراغ أحشاء أي إنسان غير هذا البقال . بل بالعكس ، حسب دون كيخوته أن يحضن بين ذراعيه إلهة حبّه ، فضمّها بحرارة وهو يقول لها بصوت يفيض عذوبةً وحناناً .

- بودي لو استطعت ، أيتها السيدة الجليلة الفاتنة ، أن أجازي هذه النعمة السابغة التي أنعمت بها عليّ برؤية جمالك الفائق . لكنّ الحظ ، الذي ماقتي يضطهد الأخيار ، قد شاء أن يقذف بي في هذا السرير حيث أرقد الآن محطماً منهوكاً ، فلو شاءت إرادتي أن تكون كفاء إرادتك لما استطاعت . يضاف إلى هذه الإستحالة أخرى أشد منها ألا وهي العهد الذي قطعته على نفسي قبل المنقطعة النظير دلثنيا دل توبوسو ، فهي وحدها سيدة أفكار وفتاة أحلامي . ولو لم تقم هذه العقبات ، لما كنت من الغفلة والبلاهة بحيث أدع هذه الفرصة السعيدة تمرّ وقد أتاحها فضلك العميم!

وكانت مارييتورنس في أشد الجزع من ضمّ دون كيخوته لها بهذه الشدة ، وبذلت كل جهد مستطاع للتخلص منه ، دون أن تعير كلماته أدنى اهتمام وانتباه . وكان البغال الساذج - وقد أبقتة شهواته الخبيثة ساهراً - قد سمع هو الآخر وقع دخول حوريتيه^(١) لما أن اجتازت عتبة الباب . فأرهدف اذنه لاستماع كل ماقاله دون كيخوته . ودبّ في نفسه ديبب الغيرة لأن الأشتورية لم تف بوعدها واستبدلت به رجلاً آخر ، فنهض واقترب من سرير دون كيخوته ، وراقب هادئ الجأش ليرى الى أي شيء تفضي هذه الكلمات التي لم يفهمها . لكنه حينما رأى الفتاة المسكينة تجاهد للتخلص ، بينما دون كيخوته يحاول الاحتفاظ بها ، تضايق من الأمر ، ورفع ذراعه على كل طوله وأهوى على الفارس الهائم بضربة عنيفة بجمع يده فأصابت فكّيه حتى جرى الدم مدراراً من فمه . ولم يكتف بهذا ، بل وثب على صدره وضربه بقدميه ضرباً أسرع من الركض شمله من أعلى الى أسفل . ولم يحتمل السرير ثقل البغال لأن السرير كان ضعيفاً في تركيبه خرعاً في قوائمه ، فاندك وهوى على الأرض . فاستيقظ صاحب الفندق على قرقة السرير ، وخيل اليه أن مارييتورنس تتعارك ، لأنها لم تجب حين دعاها بأعلى صوته . وتحت تأثير هذا الظن نهض وأشعل قنديلاً^(٢) ، وتقدّم الى الناحية التي صدرت عنها الضوضاء . وأحسّت الخادمة بسيدها قادماً ، وهي تعرف شراسة خلقه ، فاضطربت وارتعدت فرائصها وراحت تلوذ بسرير سنشو پنثا وكان لايزال يخطّ في نومه . ورقدت عليه وتكوّرت مثل كبة الغزل . ودخل صاحب الفندق وهو يصيح :

- أين أنت يا عاهرة ؟ فليس من شك أن هذه الأعيك .

وفي هذه اللحظة استيقظ سنشو ، ولما أحس بهذه الكتلة على بطنه حسب أنه في كابوس ، فراح يكيل اللكمات يمّنة ويسرى ، وكان أكثرها من نصيب مارييتورنس ، فلم تطق هذه آلامها وفقدت مع صبرها حيائها فجازت سنشو بمثل ما أعطاه ، بقسوة أيقظته من رقادها . فلما تنبه سنشو الى ماوقع له ، دون أن يعرف ممن ولمّ نهض مااستطاع واشتبك مع مارييتورنس في معركة من ألطف ماشهده الناس . وفي تلك الأثناء شاهد البغال على ضوء القنديل ماأصاب سيده ، فتخلّى عن دون كيخوته وراح ينجدها . وفعل صاحب الفندق فعلته ، لكن لغرض آخر ، لأنه أراد أن يعاقب الأشتورية ، معتقداً أنها السبب الوحيد في قيام هذه الملحمة الشيطانية . وكما اعتاد الناس أن يقولوا : « الكلب^(٣) للقط ، والقط للفأر ، والفأر

(١) في النص Coima وهي كلمة جرمانية الأصل معناها الحرفي ، خلية ، فاجرة ، يسيرة الوصال .

(٢) في الاسباني Candil العربية .

(٣) الكلب للقط ، أضفناها لزيادة الإيضاح .

للحبل ، والحبل للعصا » - كذلك راح البغال يضرب سنشو ، وسنشو يضرب البنت ، والبنت تضرب سنشو ، وصاحب الفندق يضرب البنت ، وكان كل من الأربعة يزاوّل عمله هذا بكل ارتياح ونشاط حتى أنهم لم يفرغوا منه لحظة . وألطف مافي الأمر أن قنديل صاحب الفندق انطفأ فشملمهم الظلام فجأة ، فانطلقت الضربات واللكمات خبط عشواء في الظلمات بلا رحمة هنا وهناك ، حتى لم تدع أيديهم حينما امتدت لحماً سليماً ولاقطعة من قميص .

وتصادف أن كان يبيت في هذه الليلة في الفندق قوّاس من أولئك الذين يطلق عليهم اسم « الأخوة المقدسة القديمة في طليطلة »^(١) ، لم يكّد يسمع جلبة المعركة حتى أمسك بسوطه الأسود وصندوقه الصفيح الذي يحتوي على ألقابه . ثمّ دخل متحمساً في العنبر الذي كانت المعركة تجري فيه وصاح :

- قفوا باسم العدالة قفوا باسم « الأخوة المقدسة »!

وكان أول من لقيه هو دون كيخوته المسكين ، وكان لا يزال راقداً على حطام سريره ، متمدداً وفمه في الهواء وهو في حالة إغماء . فأمسك القوّاس بلحيته وظلّ يصيح : « الحكم للعدالة ! » لكنّه أحسّ أن من أمسك به لم يبدّ حراكاً أبداً ، فظنّ أنه قُتل ، وأن الآخرين هم القتلة . وبتأثير هذا الاعتقاد ، علا صراخه وهو يقول :

- أغلقوا باب الفندق ، وحاذروا أن يهرب أحد!

فأحدثت هذه الصرخة فزعاً في المحاربين ، فتركوا المعركة وهي لاتزال سجالاً في اللحظة التي صاح فيها القوّاس صيحته . وانسحب صاحب الفندق الى غرفته ، والخادمة الى مغاراتها ، والبغال الى براءذه المكدسة . أمّا المسكينان دون كيخوته وسنشو فهما وحدهما اللذان لم يستطيعا التحرك من مكانيهما . وأخيراً خلى القوّاس عن لحيه دون كيخوته ، وخرج لإحضار نور ثمّ يعود للقبض على المجرمين ، لكنّه لم يجد شرارة واحدة ، لأن صاحب الفندق أطفأ مصباح البوابة عمداً حين عاد أدراجه . فاضطر القوّاس أن يستعين بالمدخنة ، حتى وجد الوسيلة لإشعال ذبالة أخرى بعد عناء شديد ووقت ضائع طويل .

(١) كانت هذه الشرطة في طليطلة ولبيرة وليوداربال . وكانت تتألف من فرسان ونبلاء . ومهمتها مطاردة اللصوص والمياريين الذي يسطعون الطرق على المسافرين في الجبال والدروب العامة ، وينهبون الأموال والعقار ، وكان لهذه الشرطة امتيازات كبيرة صدق عليها سان فرندو سنة ١٢٢٠ . وكانوا يحكمون في الخلافات والجرائم ، ولهم الحق بالحكم بالإعدام رمياً بالقوس . وكانت جماعات اللصوص والمياريين قد انتشرت في جبال طليطلة ، وفلاربال (ثيودا ريال فيما بعد) ولبيرة ، ويسمّون golhines . فلحماية الأرواح والأموال من جرائمهم واغتيالاتهم ألف أصحاب المصالح إخوة فيما بينهم أفلحت في القضاء على أولئك المجرمين ، فصدق على قيامها الملك ، وسبّحت بالمقدسة لقداة الأغراض التي يسمون لتحقيقها .

الفصل السابع عشر

في تلاوة أخبار الأمور التي وقعت للشجاع دون كيخوته وحامل
سلاحه الطيب سنشو بنثا، في الفندق الذي حسبته - تسوء حظه - قصراً

وفي تلك الأثناء كان دون كيخوته قد أفاق من إغمائه ، فراح يدعو حامل سلاحه بلهجة
حزينة شاكية شبيهة بتلك التي دعاه بها في اليوم السابق حينما كان مطروحاً في وادي
الأوتاد^(١) ،

- صديقي سنشو ، هل أنت نائم ؟ هل أنت نائم ؟ ياسنشو الصديق ؟
فأجاب سنشو ، وهو ممتليء يأساً وغيظاً ،

أي نوم تريد مني أن أنامه ، إذا كانت زبائية الجحيم كلها قد انقضت عليّ هذه الليلة ؟
فقال دون كيخوته :

- في وسعك أن تظن الأمر كذلك لأنه إما أنني لأعرف إلا قليلاً ، أو هذا القصر
مسحور ، ويجب أن تعلم... لكن قبل أن أتكلّم أريد منك أن تقسم لي بأن ماسأقوله سيظل
سراً إلى مابعد وفاتي .

فأجاب سنشو :

نعم أقسم .

فقال دون كيخوته : إني أطلب منك هذا القسم لأنني أكره الإساءة إلى شرف أي
شخص .

فعاد سنشو يقول : مادمت أقول لك إني أقسم ، وإني سأكتم السر حتى نهاية عمرك
على أنني أرجو من الله أن يهيئ لي البوح به غداً

فقال دون كيخوته : هل أسأت اليك يا سنشو إلى حد أن تتمنى موتي سريعاً هكذا ؟

(١) هي الأوتاد التي ضرب بها دون كيخوته وسنشو حينما اشتبكا مع الينجواسيين . على أن هناك رومانة قديمة تبدأ بهذا المطلع :
« خلال وادي الأوتاد مر « السيد » الكريم ، وعن شماله ترك قرية قسطنطينية » .

فأجاب سنشو : لا ، ليس من أجل هذا ، بل لأنني لأحب كتمان الأسرار كثيراً ، لأنني أخاف عليها إن طال كتمانها أن تتعفن في أحشائي !
فقال دون كيخوته : لسبب أو لآخر ، سأثق بلطفك وأدبك ! فلتعلم إذن أنه وقعت لي في هذه الليلة مغامرة من أغرب المغامرات التي أفر بها ، ولأقص عليك الأمر بأوجز ما يمكن ، أقول أنه منذ لحظات شاهدت ابنة سيد هذا القصر قادمة نحوي ، وهي أفتن وألطف فتاة توجد على شطر عظيم من الأرض . وماذا أقول عن مفاتنها ومحاسن ذكائها ، وغير ذلك من سحر خفي لا أريد أن أفصح عنه بل أدعه يمر دون مساس به حتى أصون عهدي لسيدتي دلثنيا دل توبوسو ! وإنما أود أن أقول لك فقط أن السماء حسدني على النعيم الغامر الذي أرسله الحظ إلي ، أو - وهذا أقرب إلى اليقين - لعل هذا القصر كما قلت لك مسحور ، لهذا فإنه في اللحظة التي كنت أجادبها أعذب وأرق وأحر حديث ، انقضت علي كفة لم أرها ، كف مارد رهيب ، فضربني بقبضته على فكي ضربة قاضية لايزالان ينزفان الدم بسببها . ثم نسأ وأوهطني^(١) حتى جعلني في حال أسوأ من حال الأمس لما أن أماننا البغالون الإهانة التي تعرفها جيداً ، بسبب نزاء روثيناته . ومن هذا أستنتج أن كنز جمال هذه الفتاة يقوم على حراسته عربي مسحور ، وأنه ليس لي .

- ولا لي أيضاً - بهذا أجاب سنشو . ، لأن أكثر من أربعائة عربي قد دبغوا جلدي على نحو جعل طحن الأمس بالعصي والأوتاد يبدو بالنسبة إليه^(٢) تدليلاً عذباً رقيقاً لكن قل لي ياسيدي كيف نسميها جميلة ونادرة تلك المغامرة التي تركتنا على هذه الحال ؟ على أن الأذى الذي أصاب سيادتكم لم يكن كبيراً ، لأنك قد حملت بين ذراعيك تلك الفاتنة المنقطعة النظر . أمّا أنا ، فماذا لقيت يا إلهي غير أبشع اللكمات التي تلقيتها طوال حياتي ؟ بالشقائي وشقاء أمي التي ولدتني ! لست فارساً جوالاً ولا أحسب أنني سأكونه ، ورغم ذلك فإن النصيب الأوفر من المصائب يكون نصيبي !
فسأله دون كيخوته : وأنت أيضاً ضربت ؟

فقال سنشو : ماذا قلت لك إذن ! إن الضرب أوجع أيضاً أهلي !
فقال دون كيخوته : لا بأس يا صديقي ، فسأعد لك حالاً البلسم الثمين الذي سيشفيها في غمضة عين !

وفي تلك الأثناء كان قوأس الأخوة المقدسة قد أشعل القنديل وجاء لرؤية من حسبه

(١) نسأه : ضربه بالعصا . أوهطه : صرعه صرعة لايقوم منها .

(٢) في النص tortas y pan pintado « كعكاً وخبزاً ملوناً » ، وهذا كناية عن أنه لطيف رقيق .

ميتاً . فلمّا رآه سنشو داخلًا لابساً قميصاً وعاصباً رأسه بمنديل وفي يده قنديل ، ووجهه مكفهر كريحه ، سأل مولاہ :

- مولاي! أولا يكون هذا القادم هو العربي المسحور وقد أقبل ليتم تعذيبنا ، إن كان لا يزال فينا بعد بقية ؟

فقال دون كيخوته : كلاًّ إنّه لا يمكن أن يكون العربي ، لأنّ المسحورين لا يدعون أحداً يراهم .

فقال سنشو : إذا لم يدعوا أحداً يراهم ، فهم يدعونه يشعرون بهم ، وإلاّ فليسألوا أكتافي!

فقال دون كيخوته ، وأكتافي أيضاً تشهد بذلك ، لكن هذا ليس دليلاً كافياً للاعتقاد أن من نراه الآن هو العربي المسحور .

فاقترب القواس ، ولمّا شاهدهما في حديث هادئ ، وقف مشدوهاً . نعم ، إن دون كيخوته كان لا يزال فاغراً فاه ، لا يستطيع حراكاً من شدة الضربات وبسبب الضمادات . وجاءه القواس وقال له :

- إيه ، كيف حالك يا رجل ؟

فقال دون كيخوته ، لو كنت مكانك ، لتكلّمت بلهجة أكثر أدباً . أو هل من عادة أهل هذه البلاد مخاطبة الفرسان الجوّالة بهذه اللهجة ، أيها الجلف الأرعن ؟

فلمّا رأى القواس أن هذا الرجل البائس قد أهانه على هذا النحو ، لم يطبق غطرسه ، ورفع القنديل ثم رمى به وبكل ما فيه من زيت على رأس دون كيخوته فشجّه ، وهرب مخلفاً وراءه ظلاماً دامساً .

فقال سنشو پنثا : لا شك يا مولاي في أنّه هو العربي المسحور ، إنه يحتفظ بالكنز لغيرنا ، أمّا نحن فيحتفظ لنا بالكلمات والضرب بالقنديل .

فقال دون كيخوته : لا بد أن الأمر هكذا . لكن يجب ألاّ نحفل بشيء من هذا السحر ، ولأنّ غضب له ونغناظ : لأن هذه الكائنات خفيّة خيالية ، فمن العبث التفكير في الإنتقام منها . انهض يا سنشو ، إذا استطعت ، واستدع قائد هذه القلعة واطلب إليه أن يحضر إليّ شيئاً من الزيت والنبيذ والملح وحصا اللبّان ، لتركيّب البلسم الشافي . والحق أنّي في مسيس الحاجة اليه الآن ، لأنّي أنزف دماً غزيراً من جراء الجرح الذي أصابني به هذا الشبح .

فنهض سنشو وهو يتألّم من عظامه المرضوضة ، وتحسّس طريقه الى صاحب الفندق

فالتقى بالقوأس في الطريق وكان واقفاً بالباب ، قلقاً يود لو يعرف ماجرى لعدوه الجريح وقال له :

- سيدي ، أيّاً من كنت ، تفضل وأحسن علينا واعطنا شيئاً من حصا اللبّان والزيت والنبيد والملح ، لأننا في حاجة إليها لتضميد فارس من أفضل الفرسان الجوّالة على هذه الأرض ، وهو راقد الآن في هذا السرير طريح جرح بالغ أصابه به العربيّ المسحور الساكن في هذا الفندق .
فلما سمع القوأس هذه الكلمات الغريبة ، ظنّ سنشو رجلاً خولط في عقله ، لكن الفجر كان قد انبلج ، فراح يفتح باب الفندق ، ونادى صاحب الفندق ليخبره بما يريده هذا الأبله . فزود صاحب الفندق سنشو بكل مااحتاج إليه ، وحمله سنشو بسرعة الى دون كيخوته ، وكان هذا مطرقاً يحمل رأسه بين كفيه ، متألماً من الوجع الذي أصابته به الضربة بالقنديل ، إذ أحدثت في جبهته ورمين كبيرين ، وهذا كل ما فعلته ، لأن ماضنه دماً لم يكن إلا زيت القنديل ممزوجاً بالعرق الذي أراقته على جبينه مخاوف العاصفة الماضية .

وأخيراً أخذ عقاقيره وخلطها وأنصجها على النار زمناً كافياً إلى أن بدا له أنها بلغت درجة النضج . ثم طلب قارورة يصب فيها هذا الشراب ، فلما لم يجدوا في الفندق كله ، قرر أن يضعها في كوز^(١) من الصفيح ، تكرم به عليه صاحب الفندق . ثم قرأ على الكوز أكثر من ثمانين مرة آيات «أبانا الذي...» ومثلها من صلاة «سلام لك يا مريم» وصلاة «سلام لك أيتها الملكة ، يأم الرحمة» . وكان يتلو كل كلمة برسم علامة الصليب ابتغاء التبريك . وحضر هذه الطقوس سنشو وصاحب الفندق والقوأس ، لأن البقال قد عاد إلى بفاله ، يُعنى بها في هدوء . ولما تمّ هذا أراد دون كيخوته أن يجرب مفعول هذا البلسم الذي حسبه ناجعاً رائعاً . فشرب مما بقي في آنية الطبخ بعد أن ملأ الكوز ، وكان أكثر من نصف الثمن^(٢) . ولم يكد يفرغ من شرابه حتى بدأ يتقايأ على نحو أفرغ كلّ ما في جوفه^(٣) ، وأجرت آلام القوي عرقاً غزيراً ، فطلب أن يغطى في فراشه جيداً ويترك وحيداً . فأجابوه الى سؤله ، ونام نوماً هادئاً أكثر من ثلاث ساعات شعر بعدها حين استيقظ أن بدنه استراح وأنه شفي من كسوره حتى ظن أنه أصبح سليماً معافى ، مما جعله يظن في الحال أنه وجد طريقة تحضير بلسم فيربراس ، وأنه يستطيع بمثل هذا الدواء أن يواجه أية مغامرة أو معركة أو خصومة مهما تكن خطورتها ، دون خوف ولا وجل . ووجد سنشو أن راحة مولاه معجزة أتت بها هذا

(١) الكلمة الاسبانية Aicuzu عربية الأصل ، على أنها خضعت في الاسبانية للإناء الذي يوضع فيه الزيت للاستعمال اليومي .

(٢) azumbre ١ مكيال سمته ٢ ليتر و١٦ مليتر .

(٣) سبب القوي هو الملح المغلي ، فهو كاف وحده لإحداث هذا القوي ، خصوصاً إذا كان شديد التركيز .

الدواء العجيب ، فتوسّل إليه أن يسمح له بتناول ما بقي في انية الطبخ ، ولم يكن جرعة قليلة . فسمح له دون كيخوته ، وإذا بسنشو يمسك الإناء من عروتيه بكل سذاجة وغبطة وصبّ منه في حلقه كمية تعادل ماتجرّعه منه موله . لكن معدة سنشو المسكين لم تكن من الرقة كمعدة سيده ، ولهذا فإنه قبل أن يتقايأ انتابته نوبة من العرق البارد والغيان والضيق واحتباس الأنفاس حتّى ظن فعلاً أن ساعته الأخيرة قد حانت . وفي هذه الشدة لعن الشراب والوغد الذي جعله يتناوله . فلما شاهده دون كيخوته على هذه الحال قال :

- أنا أعتقد ياسنشو أن هذا البلاء جاءك من كونك لم تُسلّح فارساً ، لأنني أحسب أن هذا الشراب لا يفيد من ليسوا فرساناً .

فأجابه سنشو قائلاً : ألا لعنة الله عليّ وعلى آلي وما دام سيادتك تعلم ذلك من قبل ، فلماذا إذن سمحت لي بتناوله ؟

وفي تلك الأثناء كان الشراب قد أحدث مفعوله ، وبدأ حامل السلاح المسكين يستفرغ من كلا طرفيه بسرعة واستمرار جعلاً الحصيرة التي رقد عليها وغطاء الخيش الذي غطّى به نفسه غير صالحين للاستعمال أبداً . ولكنّه بذل من الجهود وتحمل من التقلّصات ما جعله يعتقد هو وسائر الحاضرين أنّه سيقتضى فيها نجه . وظلت هذه العاصفة وبقي هذا الخطر طوال ساعتين ، بعدهما لم يشعر بالراحة التي أحسّ بها موله ، بل أصبح منهوك القوى محطماً لا يكاد يمسك نفسه . أمّا دون كيخوته فقد أحس أنّه برأ وتعافى كما قلنا ، فأراد أن ينهض في الحال سعياً وراء مغامرات جديدة إذ بدا له أن كل الوقت الذي أضاعه في هذا المكان إنما أضاعه على العالم وعلى البائسين الملهوفين الذين ينتظرون نجده ، خصوصاً وقد انضاف الى هذه الفكرة الملازمة اعتقاده من الآن فصاعداً في قوه بلسمه . فاندفع يُسرج بنفسه فرسه روئيناتته ، ويضع البرذعة على حمار سنشو ، ثم أعان سنشو على ركوب حماره ، بعد أن أعانه على اللبس . ثم امتطى صهوة جواده وتقدّم ناحية فناء الفندق والتقط حربة كانت هناك يستخدمها رمحاً .

وأنشأ جميع من في الفندق ، وقد جاوز عددهم العشرين ، يتطلّعون اليه ، كذلك رنت إليه صاحبة الفندق ، وظلّ هو يحدّق فيها ، وهو يزفر بين الحين والحين زفرة تخرج من أعماق أحشائه ، لكنهم كانوا يعتقدون أن الوجد هو مصدر هذه الزفرات ، خصوصاً أولئك الذين شاهدوه بالأمس يدهن بالمراهم .

فلما استقرا على ظهري دابتيهما توقف دون كيخوته لدى الباب ونادى صاحب الفندق وقال له بصوت حادّ جداً :

- سيدي صاحب القصر! ما أعظم النعم التي نلتها في هذا القصر وأكثرها! وإني لمدين لك ديناً سأذكره بالإمتنان طوال أيام حياتي . وإذا كنت أعترف بها وأريد أن أجازيك عنها بالإنتقام لك من متعجرف أهانك أية إهانة ، فلتعلم أن مهنتي ليست إلا إغاثة الضعفاء ، والإنتصاف لمن أهينوا ، وعقاب الأشرار . فتصفح ذاكرتك ، وإن وجدت فيها شيئاً من هذا النوع توصيني به ، فما عليك إلا أن تخبرني ، وأنا أعدك ، بحق نظام الفروسية الذي تلقيته ، أن تكون راضياً خالصاً .

فأجابه صاحب الفندق بنفس اللهجة الحادة الجادة :

- سيدي الفارس! لست في حاجة الى أن تستقم لي سيادتك من أية إهانة ، لأنه إذا أهانني أحد عرفت تماماً كيف أنتقم لنفسي بنفسي . وكل ماأنا في حاجة إليه هو أن تتفضل سيادتك فتدفع أجر نفقاتك الليلة الماضية في الفندق ، وكذلك ثمن التبن والشعير اللذين قدما للدابتين وثمان السريرين والعشاء .

فصاح دون كيخوته : ما هذا ؟ ... أهذا فندق ؟

فأجاب صاحب الفندق : نعم ، وفندق طيب السمعة جداً .

فقال دون كيخوته : إذن كنت على ضلال! فالواقع أنني كنت أحسب أنه قصر ، قصر من نوع غير ردي . لكن مادام هذا فندقاً وليس قصرأ ، فخير ماتفعله الآن هو أن تتنازل عن دفع الأجرة ، ذلك أنني لا أستطيع أن أخالف عن قاعدة الفرسان الجواله التي تقضي - وهذا أمر أعلمه تمام العلم ، ولم أقرأ ما يخالفه حتى الآن - بأن الفارس الجوال لا يدفع أبداً ثمناً لمبيتة وطعامه ولا أية نفقة في الفندق ، لأن الناس ملزمون - عن حق وامتياز خاص بالفرسان - أن يحسنوا استقبالهم ويستضيفونهم أينما حلوا وحيثما نزلوا ، جزاءً وفاقاً عن المشقة البالغة التي يبذلونها بحثاً عن المغامرات في الليل والنهار ، في الشتاء والصيف ، راكبين أو مترجلين ، عطشى جائعين ، في القيقظ والقر ، معرضين لكل شدائد السماء ومتاعب الأرض .

فأجاب صاحب الفندق : وما شأنني أنا بهذا كله! ادفع ما عليك ، قضي الأمر ، ودع القصص والفروسية ، فلا شأن لي إلا بعملتي وقبض أجرتي .

فقال دون كيخوته : أنت فندقي حماراً!

ثم همز روئيناته بشدة وشهر حربته وخرج من الفندق دون أن يتعقبه أحد ، ودون أن ينظر ما إذا كان حامل سلاحه يتبعه ، ومضى مسافة في الخلاء . فلمّا شاهده صاحب الفندق راحلاً دون أن يدفع ، راح يطالب سنشو پنشا بما عليه ، فأجابه بأنه مادام مولاه لم يرد أن

يدفع فهو أيضاً لا يريد أن يدفع ، ومادام حامل سلاح فارس جوال فيجب أن يتمتع بنفس الإمتياز الذي لمولاه فلا يدفع أجراً عن أية نفقة الفنادق والخانات . وعبثاً زمجر صاحب الفندق وأرعد وأبرق وهذذه إذا لم يدفع أن يلقي منه ما يوجهه . فقد أقسم سنشو بقانون الفروسية الذي تلقاه سيده أنه لن يدفع مرابطياً واحداً حتى لو كلفه ذلك فقدان حياته ، لأنه لا يريد أن يكون سبباً في ضياع هذا العرف القديم الممتاز السائد بين الفرسان الجواله ، ولا يريد أبداً أن يشكوه حملة سلاح الفرسان في المستقبل ويلوموه على انتهاك هذا الامتياز العادل .

وشاء سوء طالع سنشو المسكين أن يكون من بين نزلاء الفندق أربعة تجار صوف من شقوبية ، وثلاثة خردواتية^(١) من قرطبة ، وتاجران جوالان من سوق اشبيلية وكلهم من أهل المرح والملح والمجون . أقبل هؤلاء ، كأنهم مدفوعون بروح واحدة ، أقبلوا على سنشو وأنزلوه من حماره ، وأسرع أحدهم فأتى بملاءة سرير صاحب الفندق وغطوه بها . لكنهم حين رفعوا أبصارهم تبينوا أن السقف قليل الارتفاع فلا يصلح لفعلتهم ، فقرروا الخروج إلى الفناء الذي لم يكن له من سقف غير السماء ، وهناك مددوا سنشو على الملاءة ، وبدأوا يطبرونه في الهواء ، ويلعبون به كما يلعب بالكلب في الأعياد^(٢) .

وكانت صرخات هذا المرتجع المسكين شديدة شدة ، بلغت مسامع سيده ، فتوقف ينصت ، واعتقد لأول وهلة أنه بإزاء مغامرة جديدة ، لكنه سرعان ما تبين أنها صرخات حامل سلاحه ، فعاد أدراجه راكضاً بأسرع ما يستطيع فرسه ، فوجد الفندق مغلقاً فاستدار من حوله عساه يجد مدخلاً . لكنه لم يكذ يبلع جدران الفناء - ولم تكن عالية - حتى رأى العملية الأليمة التي تجري لحامل سلاحه ، رآه يصعد وينزل في الهواء ، بخفة ولطف لولا الغضب لجعلاه ينطلق ضاحكاً . فحاول أن يتسلق السور بفرسه ، لكنه كان محطماً مرتبك المفاصل إلى حد أنه لم يستطيع حتى النزول من فرسه . فلم يكن أمامه إلا أن يسب ويلعن - من أعلى

(١) في النص الحرلي ، « باعة إبر من يوترو قوطبة » - وإن كان رودريجت مارين يفهم من nguzeros صناع الأبر ومن يشتغل عندهم . اعتماداً على مقاله يدرو دي مدينه في كلامه عن قرطبة (في كتابه « عظمة اسبانيا وأهم ما فيها » ، ج ٢ ، ف ٢٤ ، طبع في قلعة هنارس سنة ١٥٩٠) إن أجود الأبر المصنوعة في اسبانيا وأوفرها إنتاجاً هي تلك المصنوعة في قرطبة . - أما سوق اشبيلية فكان ينفذ بأنواع العروض ، وكانت لأهلها سمعة عالية بالفتوة والشجاعة . وكان باعة الإبر في قرطبة مشهورين أيضاً بأنهم من أسفل وأحط العناصر في اسبانيا .

(٢) كان من عادة العابثين في المرافق (الكرنفالات) أن يلعبوا بالكلاب ، وكانت منتشرة عند الرومان في أنام سويتون . ونجد ذكر تلك العادة لدى الكتاب الاسبان قبل كالدرون ، عند ماتيو اليمان « قزمان الفارابي » ج ١ ، ف ٣١ (١) وعند بيغنته اسبينييل « ماركوس دي أوبريجون » ، الرواية ١ ، الراحة ٥ ، ثم النهاية ٣ ، الراحة ١٠ .

دائماً جاحدين ، وكانت الضرورة فرصة تخلق من المرء لصاً ، والحاضر ينسي المستقبل ، فإن خينس وقد خلا من عرفان الجميل بقدر ما خلا من النوايا الطيبة ، قرّر أن يسرق حمار سنشو پنشا ، غير مكترث لروثيناته إذ بدا له غير صالح للبيع ولا للرهن . كان سنشو نائماً ، وسرق خينس منه حماره ، وقبل بزوغ النهار كان قد ابتعد الى حيث لا يُدرك .
وانبلج الفجر باعثاً في الأرض الحبور وفي نفس سنشو پنشا الحزن . فإنه لما لم يجد حماره أنشأ في العويل على نحوٍ لم يُرَ أشدّ منه إيلاماً وحزناً ، حتّى أنّ دون كيخوته استيقظ على دويّ عويله وسمعه وهو يقول :

— أي ولد أحشائي ، يا من ولدت في بيتي وكنت لعبة أولادي ، ومصدر السرور لزوجتي ، والحسد لدى جيراني ، يامن كنت تخفيفاً لأعبائي ، وأخيراً كنت مورد غذاء لنصف شخصي ، فبسته وعشرين مرابطياً تكسبها في اليوم كنت تكفل نصف نفقاتي !
فلما شاهد دون كيخوته سنشو يشكو وعرف السبب ، واساء بخير ماله من أسباب المواساة ووعد بصك تحويل لإعطائه ثلاثة حمير من خمسة خلفها وراءه في زريته . وبهذا الوعد سرّي عن سنشو ، وجفّت دموعه ، وهدأت زفرائه ، وشكر لمولاه ما أولاه من نعمة .
وكان دون كيخوته قد انتعشت الآمال في قلبه لما أن نفذ في هذه الجبال فبدت له مواطن صالحة للمغامرات التي ينشدها ، فراح يستعيد في ذاكرته تلك الأحداث الرائعة التي وقعت في مثل هذه الأماكن الموحشة الوعرة للفرسان الجوّالة ، واستغرقت هذه الخواطر وملاّت نفسه حتّى نسي كل ماعداها . أمّا سنشو فمذ أن اعتقد أنّه يسير في مكان أمين لم يكن يشغل باله غير شيء واحد هو أن يرضي معدته ببقايا ما غنمه من قساوسة الجنّازة .
فمضى خلف سيده ، حاملاً كل ما أمكن البرذون^(١) حملة ، منتزعا الطعام من الكيس ليضع منه في كرشه ولذّ له هذا النوع من السير بحيث لم يكن ليدفع فلساً من أجل أية مغامرة أخرى . وفي هذه اللحظة رفع عينيه فشاهد مولاه وقد توقّف محاولاً أن يرفع بطرف رمحه حزمة على الأرض ، فأسرع لمساعدته ووصل في اللحظة التي رفع فيها دون كيخوته على طرف رمحه وسادة وحقيبة مربوطتين معاً ، وكلتاها ممزقة متعفنة . وكانت من الثقل بحيث اضطر سنشو لأخذهما بيديه ، وأمره مولاه بأن ينظر ما في الحقيبة . فهرع سنشو لتنفيذ

(١) في هذا الفصل أضاف ثرينتس حادث سرقة الحمار ، وكذلك في الفصلين التاليين . ولكنّه ظل في الطبعة الأولى يتحدث بعد هذا الحادث عن الحمار وكأنّه لا يزال في حوزة سنشو . وفي الطبعة الثانية أصلح هذا الإهمال ، لكنه لم يصلحه بدقة فبقي في كثير من المواضع - كما في هذا الموضع الآن - مما تولّد عنه خلط كان ثرينتس أول من سخر منه ، كما سخر في القسم الثاني من دون كيخوته (الفصل الرابع) .

سهوة فرسه - ويطلق الشتائم في وجه أولئك الذين يعيثون بسنشو ، على نحو لا نستطيع ايراده هنا . وعلى الرغم من كل هذه الشتائم واللعنات فإن هؤلاء العابثين لم يتوقفوا عن عملهم ولا ضحكاتهم ، كما أن سنشو المتطايير لم يكف عن عويله وصراخه ، مهدداً حيناً متوسلاً حيناً آخر .

لكن عبثاً فلم يفقههم شيء عن عملهم هذا العابث ، حتى بلغ التعب بهم مبلغه فتركوه من فرط الجهد والملل . ثم أتوه بحماره وأركبوه عليه وغطّوه بمعطفه . ولما رآته مارييتورنس منهوكة على هذه الحال ، رقت له وحسبت أنها تعينه بجرة من الماء فراحت لملء جرة ماء من البئر حتى يكون الماء بارداً . فأخذ سنشو الجرة وقربها من شفّتيه ، لكنه توقف عند صيحات مولاه وهو يقول له :

- سنشو يابني ، لاتشرب من هذا الماء ، يابني ، لاتشرب منه ، وإلا قتلك . انظرا هذا البلسم المقدس معي - وأراه كوز الشراب - ، بقطرتين منه تشربهما تصبح سليماً معافى من غير شك .

فأدار سنشو عينيه بانزواء لدى سماعه هذه الكلمات وقال بصوت عالٍ :
- هل نسي مولاي أنني لست فارساً ، ويريد مني أن أتقايأ القليل من الأحشاء الذي بقي لي من مساء أمس ؟ احتفظ بشرابك وبكل العفاريث ، واتركني وشأني !
قال هذه الكلمات وبدأ يشرب من الجرة ، لكنه لما أدرك من الجرعة الأولى أنه ماء ، لم يشأ الاستمرار ، والتمس من مارييتورس أن تحضر له خمراً ، فأجابته الى سؤاله بارتياح بالغ ، ودفعت ثمن الخمر من مالها الخاص ، إذ يقال عنها أنها على الرغم من الحال التي انحدرت إليها فقد كانت لاتزال تحتفظ بظل بعيد من الفضيلة .

فلما فرغ سنشو من شرايه نخس حماره وفتح له باب الفندق على مصراعيه ، فخرج يطفر من الفرحة لأنه لم يدفع شيئاً وأفلح في تنفيذ نيّته وقراره ، وإن كان ذلك قد تم على حساب رهنه المعهود ، أعني على حساب أكتافه . صحيح أن صاحب الفندق احتفظ بخرجه في مقابل دفع حقه ، لكن سنشو قد هرب في حال من الاضطراب جعلته لا يتبين أنه فقد شيئاً ولم يكد صاحب الفندق يراه خارجاً حتى أراد أن يسدّ عليه الباب ، ولكن العابثين (الذين عبثوا بسنشو) منعوه من ذلك ، ذلك أن هؤلاء كانوا جماعة لاتقيم وزن لدون كيخوته حتى لو كان - فعلاً - واحداً من فرسان المائدة المستديرة الجوّالة .



الفصل السابع عشر : سنشو پڻا يُطَيَّر في الهواء ، ودون كيخوته
يشاهده في هذه المحنة من فوق سور الفندق الذي حسبه قصراً

الفصل الثامن عشر

وفيه تروى المحادثة التي جرت بين سنشو بنتا ومولاه
دون كيخوته، وحوادث أخرى جديدة بالذكر

لحق سنشو بمولاه ، محطماً منهوك القوى على نحو لا يكاد يقدر معه على رفس دابته .
فلما شاهده دون كيخوته على هذه الحال قال له :
— الآن أعتقد ، يا سنشو ، أن هذا القصر ، أو هذا الفندق إن شئت ،
مسحور من غير شك . وإلا فهؤلاء الذين عبثوا بك كل هذا العبث المنكر ماذا يمكن أن
يكونوا ، إلا أشباحاً وجناً من العالم الآخر ؟ والذي يؤكد لي هذا المعنى هو أنني بينما كنت
أشاهد فصول مأساتك الحزينة هذه من فوق الجدران ، استحال عليّ أن أتسلق الأسوار أو
أقتحمها أو حتى أن أنزل من فرسي . فلا شك أنهم وثقوني بسحرهم ، لأنني أقسم لك بشرف
رجل مثلي ، أنني لو استطعت تسلق السور أو النزول من الفرس لكنت انتقمتم لك من أولئك
الأشرار الأوغاد انتقاماً ما كان لهم أن ينسوه أبداً وينسوا سوء ما فعلوا ، حتى لو كان الأمر
اضطرني - من أجل عقابهم - أن أخالف قوانين الفروسية التي لا تسمح ، كما قلت لك من
قبل مراراً وتكراراً ، بأن يعتدي فارس على من ليس بفارس ، اللهم إلا في حالة الدفاع عن
النفس وحالة الضرورة القصوى .
فأجاب سنشو :

— سواء عليّ أكنت فارساً أم غير فارس ، فإنني لو استطعت لكنت انتقمتم لنفسني
بنفسي ، لكن المصيبة أنني لم أستطع . ورغم ذلك فإنني أقسم يميناً مغلظة أن هؤلاء الناس
الذين تسلّوا على حسابي لم يكونوا أشباحاً ولا أناساً مسحورين ، كما تقول سيادتكم ، بل
كانوا أناساً حقيقيين من لحم ودم مثلنا تماماً . وأنا أوقن بهذا جيداً لأنني سمعتهم ينادي
بعضهم بعضاً حينما كانوا يطيرونني ، ولكل منهم اسمه : فأحدهما يدعى پدرو مرتينت ،
والآخر تينوريو فرنندث ، وسمعت أن صاحب الفندق يدعى خوان بالوميكه الأعسر . وإذن

يا مولاي إذا كنت لم تستطع قفز السور ولا حتى وضع قدمك على الأرض ، فمرّد هذا الى شيء آخر غير السحر ، أما عن نفسي ، فإن ما أتبيّنه من كل هذا هو أن هذه المغامرات ستفضي بنا في ختام المطاف الى نكبات لن نَمِيز بعدها أين قدمنا اليمنى .
وخيراً من هذا كله وأعقل ، بحسب ما يراه عقلي الضعيف ، أن نعود الى بلدنا الآن والوقت وقت الحصاد ، وأن نعنّى بشؤوننا ، بدلاً من أن ننتقل من «سكة لمكة»^(١) ومن الشرق للغرب ، كما يقولون .

فقال دون كيخوته : ما أجهلك بشؤون الفروسية الجوّالة ياسنشوا صه واصبر وسيأتي يوم ترى فيه بعينيك ما في ممارسة هذه المهنة من نبل وعظمة وإلا فقل أي سرور وأية نشوة أعظم في الدنيا من نشوة الإلتصار وقهر العدو ؟ لاشيء من غير شك .
فأجاب سنشو : هذا جائز ، وإن كنت لا أعلم عنه شيئاً ، لكن كل ما أعرفه هو أنّه منذ أصبحنا فرساناً جاللين ، أو مولاي على الأقل (لأنّي لا استحق أن أحسب في عداد هؤلاء الأشراف) ، لم نظفر بأي انتصار ، اللهم إلا ضد البشكوني ، وحتى هذه المغامرة لم تخرج منها سيادتك إلا بعد أن فقدت نصف أذن ونصف خوذة . ومنذ ذلك الحين لم نلق إلا لكلمات وضرباً بالأوتاد ولكلمات ، وفوق هذا كلّ تلقيت فضل التطويح بي في الهواء من جانب أناس مسحورين لأستطيع الانتقام منهم حتى أعرف إلى أي مدى تذهب ، كما تقول سيادتك ، لذة قهر الأعداء .

فقال دون كيخوته : هذا ما يؤلمني ، وما أحسبه يؤلمك أيضاً . لكن على رسلك! فسأعمل على أن يكون في يدي سيف مصنوع بحيلة تجعل من يحمله في مأمن من كل أنواع السحر . ومن يدري! لعلّي أن يهبني الحظ السيف الذي كان يحمله أماديس حينما كان يسمى «فارس السيف المتقد»^(٢) ، وكان من أحسن الشفار التي حملها فارس في هذا العالم ، فإلى جانب المزية التي ذكرتها ، كان يقطع كالموس ولا تقاومه أية درع أو سلاح .
فعاد حامل السيف يقول : من حسن حظّي أنّه حتى لو ظفرت بهذه النعمة فوق في يديك مثل هذا السيف ، فإنه لا يمكن أن يفيد إلا الفرسان المسلحين فرساناً ، مثله مثل البلسم ، أما حملة السلاح ، فليموتوا^(٣) كمداً .

(١) هكذا أيضاً في النص الاسباني de Ceca en meca « وسكة » اسم اطلق على مسجد قرطبة ، وكان المسلمون الذين يتنوّون الحج يذهبون أولاً الى سكة ومن ثمّ يتوجهون الى مكة فأصبح مثلاً في اللغة الاسبانية بمعنى : يذهب من هنا الى هناك .

(٢) هنا يشير دون كيخوته الى أماديس الرمي ، الملقب « فارس السيف المتقد » ، كما أشرنا الى هذا من قبل في حواشي الفصل الأول .

(٣) العبارة الاسبانية هنا que se los papeen duelos تنظر في العامية عندنا : يبرهوا ، يروحوا في داهية .

فقال دون كيخوته : لا تخشَ هذا ياسنشو ، وربنا يسلم !
هكذا كان يجري الحديث بين كيخوته وحامل سلاحه حينما أبصر دون كيخوته على
الدرب الذي يسلكانه سحابة تراب كثيفة تتجه صوبهم . فلما أبصرها اتجه الى سنشو وقال :
- هذا ياسنشو هو اليوم الذي اذخره الحظ لي لأبلغ مناي ، أقول هذا هو اليوم الذي لا بد
أن تظهر فيه قوة ساعدي أعظم منها في أي يوم آخر ، وأن أنجز فيه من الأفعال الجريئة
ماسيظل مسجلاً في سجل الشهرة وموضوعاً لإعجاب الجميع فيما يستقبل من القرون . أو لا
ترى ياسنشو هذه الزوبعة من التراب ؟ اعلم إذن أن الذي أثارها جحفل لجب يزحف من هذه
الناحية ، ويتألف من أمم شتى لا تحصي ولا تعد .
فقال سنشو : على هذا الحساب ، لا بد أن يكون ثمة جحفلان ، إذ في الناحية الأخرى
ترتفع زوبعة أخرى .

فالتفت دون كيخوته بلهفة ، ولما شاهد صدق ما قال سنشو شعر بلذة بالغة ، لأنه توهم
في الحال أن ثمة جيشين سيلتحمان في معركة وسط هذا السهل الممتد . ذلك أن خياله كان
في كل ساعة وكل لحظة مليئاً بالمعارك وأطياف السحر والمغامرات والغراميات والوان
التحدي والمنازلات التي ترويها كتب الفروسية الجوّالة ، ولم يكن يفعل أو يقول أو يفكر في
شيء دون أن يتجه إلى أمثال هذه التهاويل والأوهام .

وكان الذي أثار هاتين الزوبعتين من التراب قطيعان هائلان من الضأن يسيران على
نفس الدرب من موضعين مختلفين ، لكنهما كانا محجوبين بحيث لا يمكن تمييزهما إلا
حين اقترباهما . وكان دون كيخوته يؤكّد ويلح في تأكيد أنهما جيشان على نحو جعل
سنشو يعتقد أنهما كذلك حتى قال :

- وماذا نحن فاعلون إذن يامولاي!

فقال دون كيخوته : ماذا نحن فاعلون ؟ سنعين المحتاجين ونغيث المُستضعفين . ويجب
أن تعلم ياسنشو أن هذا الجيش المواجه لنا بقيادة علي الفيتاش^(١) حاكم جزيرة سرنديب ،
والجيش الآخر القادم وراءنا هو جيش عدوّ ملك القرمانتيين^(٢) المدعو پينثا پولين المشمّر
الذراع ، وكان يطلق عليه هذا الاسم لأنه يدخل المعارك وهو مشمّر ذراعه حتى كتفه .

(١) لي الاسپاني All fanfaron ، أي على المدعي المتفاخر كذباً وزهواً . وقد رُكّب لرفانتس هذا الاسم المضحك من الكلمتين علي faniron + (فيئاش جفاف) . وفي - هذا ذكرى للحروب بين الاتراك المسلمين وبين النصارى ، خصوصاً المعارك البحرية التي
اشترك في إحداها - وهي اللهانتة - مؤلف دون كيخوته ، أي لرفانتس نفسه .

(٢) garantes وهم شعب في وسط افريقيا ، فيما يذكر بعض الشراح!

فسأله سنشو : ولماذا يحترب هذان السيدان هكذا ؟
فأجابه دون كيخوته : هما يحتربان لأن على الفيتاش هذا رجل كافر غضوب وقع في
غرام بنت پنتاپولين وهي فتاة رائعة الجمال راقية الآداب . هي نصرانية ، وأبوها لا يريد أن
يزفها الى ملك كافر ، إلا إذا تخلّى عن شريعة نبيّه واعتنق شريعة حبيبته (١) .
فقال سنشو : وحقّ لحيتي أقسم أن پنتاپولين على حق وسأهب لنصرته بقدر ما
أستطيع .

فقال دون كيخوته : لن تفعل إلا الواجب ، لأنه ليس من الضروري ولا المطلوب أن
تكون مسلحاً فارساً كيما تشارك في مثل هذه المعارك .
فقال سنشو : أفهم هذا جيداً . ولكن أين نضع هذا الحمار ، حتّى نضمن الحصول عليه
بعد انتهاء المعركة ؟ لأن الدخول في حومة الوغى على ظهر هذه الدابة أمر اعتقد أنه لم يُرَ
من قبل .

فأجاب دون كيخوته : هذا صحيح ، لكن كل ما تستطيع أن تفعله به هو أن تتركه
يسرح كما يشاء ، وسواء ضاع أو وجدناه ، إذ بعد النصر سيكون أمامنا العديد من الخيول
نختار منها ما نشاء ، حتّى إن روئيتاته نفسه في خطر أن يستبدل به آخر . لكن اسكت
وانظر وأعرنني كل سمعك . فساذكر لك وأصف أشهر الفرسان القادمين في كلا الجيشين ،
ولكي تراهم وتميّزهم بسهولة لنذهب الى تلك الربوة فمنها نستطيع أن نتبين كلاً منهم
جيداً .

وتركا الطريق وصعدا مرتفعاً صغيراً منه كان يمكن رؤية القطيعين ، اللذين ظلّهما دون
كيخوته جيشين ، بكل وضوح ، لولا أن غيوم الغبار التي ثارت تحت أقدامهما حجبت
المنظر عنهما حجبتاً تاماً . ولكن دون كيخوته كان يرى بخیاله ما لا يستطيع أن يراه بعينه
وليس بموجود ، فبدأ يقول بصوت عال :

هذا الفارس الذي تراه هناك بأسلحته الذهبية ، ويحمل على ترسه البيضاوي أسداً متوجاً
يجشو عند قدمي فتاة ، هو الشجاع لوركلكو ، سيد جسر الفضة . وذلك الآخر صاحب
الأسلحة ذات الأزهار الذهبية ، ويحمل على ترسه البيضاوي ثلاثة تيجان من الفضة على
مسطح ذي لون أزرق سماوي ، هو الرهيب ميكوكولمبو ، الدوق العظيم في كيروسية .
والثالث ذو الأطراف الهائلة الذي عن يمينه هو الجسور دائماً برندبربران دي بولنشه السيد

(١) في النص الاسباني عبارة أملاها التعصب الإجرامي والقاري، سيفرب قطعاً صفحاً عن هذه الروح الوضيعة التي سيطرت على الكتاب
الاسبان ، خصوصاً في ذلك العصر .

المطلق على البلاد العربية الثلاثة^(١) ، وقد تدرّج بجلد الأفعى ، واتخذ باباً ترساً له ، ويقال أن هذا الباب من بين أبواب المعبد الذي حطّمه شمشون حينما انتقم من بني فلسطين أعدائه فقتلهم وقتل نفسه . لكن أدرك عينيك من هذه الناحية ، ترّ على رأس الجيش الآخر ، الظافر دائماً غير المقهور أبداً تيمونل القرقشوني ، أمير بشكاييا الجديدة ، وقد غطى بأسلحة موشاة بالأزرق السماوي والأخضر والأبيض والأصفر ، ويحمل على ترسه رسم قط ذهبي على مسطح أسدي ، وهذه الأحرف الأربعة مواء^(٢) ، وبها تبدأ اسم سيدته ، ابنة دوق «الفينيقيين في الغرب» . وذلك الآخر الذي يثقل كاهل تلك الفرس الجواد ، وأسلحته بيض كالثلج ، وليس على ترسه شارة ، هو فارس ناشي ، فرنسي الأهل ، يدعى پيير پاپان^(٣) سيّد بارونيات أوتريقة . وذلك الثالث الذي يهزم بمهمازيه بطن ذلك الحمار الوحشي السريع المخطّط ويحمل أسلحة موشاة بكؤوس زرقاء ، هو دوق نربيا القوي ، اسبرطيلردودلي بوسكه (صاحب الخميّة) ، وشارته المرسومه على ترسه حقل من الهليون مع هذه العبارة بالاسبانية Rastre mi Suerte (اتبع مصيري) .

وعلى هذا النحو استمر دون كيخوته يسرد أسماء كثير من الفرسان تخيل أنه يراهم في عداد الجيشين ، وهو يهيب ، بغير تردّد ، لكل منهم ماشاء له خياله الخصب من أسلحة وألوان وشارات . ودون أن يتوقّف لحظة قال متابعاً ،

– وهذه الأسراب التي تراها في مواجهتنا تتألف من أمم شتى لا تحصى ، منهم قوم يشربون من ماء النهر العذب الذائع الصيت : اكسنثوس^(٤) ، وقوم من أهل الجبل يطأون حقول مسيليه^(٥) ، وقوم يغربلون ذهب بلاد العرب السعيدة الدقيق ، وقوم ينعمون بالشواطئ الموثقة لنهر ثرمودون الصافي ، وقوم يستنزفون ، بشتى الطرق ، نهر پكتولس^(٦) الذهبي ، وهناك النوميديّون ذوو الإيمان المززع ، والفرس المشهورون بمهارتهم في رمي القوس ، – والپارثيون والميديّون الذين يحاربون وهم يولون الأدبار ، – والعرب ، أصحاب

(١) وهي : البلاد العربية السعيدة (اليمن) ، والبلاد العربية الفاحلة (نجد) والبلاد العربية المتحجرة (بادية الحجاز) .

(٢) تقليد صوت القط ، ميو ، تهكماً بالسيدة والفارس .

(٣) كان يسمّى بهذا الاسم شخص أهدب يبيع أوراق اللعب في اشبيلية ، بشارع الثعبان .

(٤) نهر في طروادة بآسيا الصغرى ، ويرى هوميروس أنه هو بعينه نهر اسكماندر ولكن الناس سموه اسكماندر ، والآلهة سموه اسكنثوس .

(٥) مسيله Massylu ، القسم الداخلي من مراکش قرب جبل الأطلس ، ويقول كليمتين إن المسييليين كانوا شعباً من أفريقية أطلق اسمهم على هذه الحقول .

(٦) نهر شير في لوديا ينبع على جبل طمولس ويصب في هرمس ، وكان ميداس يستحم في هذا النهر ، لما أن كان يحيل كل ما يمسه إلى ذهب ، ولهذا تحوّل النهر إلى نهر يقذف رمالاً ذهبية ، ولهذا سمي باسم خروسرواس (نهر الذهب) .

الخيام المتنقلة ، - والأشقوزيون وهم قساة القلوب بيض البشرة ، والأحباش وهم يعلّقون حلقات في شفاههم ، وأخيراً ثمة مائة أمة أخرى أرى وجوههم وأتعرفها لكن أسماءهم ندت عن ذاكرتي . وفي الجيش الآخر هاهم ولاء الذين يروون من الفيض البلّوري لنهر بتيس^(١) ، وعليهم تيجان من أغصان الزيتون ، - والذين يغسلون ويصقلون وجوههم بمياه التاجه الذهبية الدائمة الجريان ، - والذين ينعمون بالمياه ذات الخصب في نهر خنيل المقدّس ، - والذين يطأون الحقول الطريفية^(٢) ذات المراعي الخصبة ، - والذين يمرحون في مروج شريش الناعمة كعلّيين ، - وأهل المنتشا المتوجّون بالسنابل الشقراء ، - والذين يلبسون الحديد وهم من سلالة قديمة يجري في عروقها دم القوط ، - والذين يستحمّون في نهر البسورجا الشهير برقة تيّاره ، والذين يرعون قطعاناً كثيرة في المراعي الفسيحة التي يضمّها نهر جواديانا الكثير التعاريج ، المشهور بنبعه المجهول ، - والذين يقشعرون من البرد في الرياح الصافرة في أودية البرانش ، أو تحت الثلوج التي تغطّي قمة الأبنين ، وأخيراً هناك سائر الأمم المتعدّدة التي تضمّها أوربا بين جوانحها^(٣) .

يا لله! كم من مقاطعات وأمم ذكرها وأعطى كلاً منها - بمهارة تشير الاعجاب - خصائصها ، وهو مستغرق بكليته في الأمور التي قرأها في كتبه الكاذبة! وخلال هذا كله ظل سنشو ينثا معلقاً بكلماته دون أن ينبس بحرف واحد ، وكان بين الحين والحين يدير رأسه ليبصر ما إذا كان يرى فعلاً هؤلاء الفرسان والمردة الذين يسردهم مولاه . فلما لم ير أحداً قال :

- مولاي! وهبت نفسي للشيطان إن كان هناك إنسان أو مارد أو فارس من أولئك الذين ذكرتهم ، وعلى الأقل لا أبصر أنا واحداً منهم ، فلعل هذا أن يكون مجرد سحر ، مثل أشباح ليلة أمس .

فأجابه دون كيخوته : كيف تقول هذا ؟ أولاً تسمع صهيل الخيول ونفخ الأبواق وقرع الطبول ؟

(١) نهر في اسبانيا قديماً سمي بهذا الاسم ، واسمه الآن جوادا الكبير .
(٢) الحقول الطريفية : اسم أطلقه أهل بتيقا القديمة على حقول طريف ، وطريف ، كما ورد في «الروض المطار» : اسم بلد جزيرة طريف ، على البحر الشامى (البحر الأبيض المتوسط) في أول المجاز المسمى بالزقاق (= مضيق جبل طارق) ، ويتصل غربها ببحر الظلمة (= المحيط الأطلسي) ، وسميت طريف نسبة إلى مولى موسى بن نصير الذي بعثه سنة ٩١ هـ لبيد فتح الأندلس ، ومعه أربعمائة رجل ومائة فارس في أربعة مراكب فنزل بالخضراء التي هي معبر السفن ، وتسمى في العصر الاسلامي جزيرة طريف .
(٣) لعل هذا السرد الغريب لعدد من الأمم بعضها وجد فعلاً وبعضها خيالي ، إنما قصد به ترفاتس إلى السخرية من لوبه دي فيجا الذي أورد ثبناً طناناً شبيهاً بهذا في الكتاب الثالث من كتابه «أركاديا» ، هذا فضلاً عن إثارة للضحك من دعوى دون كيخوته أنه يشاهد هؤلاء مجتمعين معاً في معركة واحدة يراها بعينه في تلك اللحظة!

فقال سنشو : لا أسمع مطلقاً غير ثغاء خراف ونعاج متواصل!
وكان هذا حقاً كما قال سنشو ، لأن القطيعين كانا قد اقتربا بحيث يمكن سماع
أصواتها .

فقال دون كيخوته : إنه الخوف الذي استولى عليك هو الذي يجعلك ، ياسنشو ، ترى
وتسمع بعكس الواقع ، لأن من أثار هذا الانفعال البائس ، انفعال الخوف ، اضطراب
الحواس ، وإظهار الأشياء على غير حقيقتها . فإن كنت جزعاً كل الجزع ، فانسحب الى
ناحية ودعني وحدي : وسأهب بمفردي النصر للفريق الذي أنجده بساعدي!
وما قال هذه الكلمات حتى همز روئينانته وأشرع رمحه وانقض كالصاعقة من أعلى
الرابية .

فصاح فيه سنشو بصوت جهوري :
- على رسلك ياسيد دون كيخوته! أقسم بالله إنها أغنام وخراف تلك التي ستهاجمها .
ياله من جنون! ارجع اذن بحق أبي الذي ولدني . انظر اذن! ليس ثمة مارد ولا فارس ولا قط
ولا سلاح ولا تروس أنصاف أو كوامل ولا فراء مخطط بالأزرق ولا عفاريت . ماذا أنت
فاعل ، قل لي بحق ذنوبي عند الله!

ولم يكثر دون كيخوته لهذا كله ، بل راح يصيح بصوت عالٍ :
- هيا أيها الفرسان المحاربون تحت لواء الامبراطور الشجاع پنثابولين المشمر
الذراع . اتبعوني جميعاً ، وسترون كيف أتقم له بسهولة من خصمه علي الفياش صاحب
سرنديب .

وما نطق بهذه الكلمات حتى انقض بين النعاج وبدأ يطعنها بالرمح غاضباً هائجاً
متحمساً كأنه يضرب في الد أعدائه . فصاح فيه رعاة القطيع أن أمسك عن هذه الدواب
المسكينة . فلما رأوه لم يستمع لنصيحهم حلّوا مقاليعهم وراحوا يقذفونه على أذنيه بحصى
كبير في حجم قبضة اليد . لكن دون كيخوته لم يحفل بالحجارة التي انهالت عليه كالمطر ،
وظل يجري هنا وهناك وهو يقول :

- أين أنت إذن يا علي الفياش المتعجرف ؟ احضر إليّ فهي هو ذا فارس واحد يريد أن
يمتحن قوتك ، على انفراد ، وأن ينتزع منك حياتك عقاباً لك على ما تسببه للشجاع
پنثابولين غرّمته .

وفي هذه اللحظة أصابته حصاة نهريّة في جنبه مباشرة فدكت ضلعين من أضلاعه في
معدته . هنالك أحسّ بأنه مات أو جرح جرحاً بالغاً . وفي الحال تذكّر بلسمه فأخذ الكوز



ورفعه الى شفثيه وبدأ يصب هذا الشراب الثمين في جوفه . ولكن قبل أن يتم تجرع ما حاسبه ضرورياً كافياً ، جاءته رمية أخرى أصابت يده وكوزه حتى أطارت الكوز ودفعت إصبعين بشكل مروع ، وفي مرورها اقتلعت ثلاث أو أربع أسنان من فمه . وكانت الضريتان الأولى والثانية من الأحكام والقسوة بحيث اضطر الفارس المسكين أن يسقط من على فرسه . فأقبل عليه الرعاة ، وظنوه مقتولاً ، فأسرعوا بجمع قطعانهم وحملوا النعاج المقتولة على أكتافهم ، وكانت عدتها من ستة الى ثمانية ، وهرعوا هاربين .

وفي خلال هذا كله كان سنشو فوق الأعالي يتأمل حماقات سيده وينتزع شعر لحيته بجمع يديه وهو يلعن اللحظة التي أتاحت له أن يتعرف اليه . فلما رآه مجندلاً على التراب والرعاة يرحلون ، نزل من الرابية واقترب منه ووجده على أسوأ حال ، وإن لم يكن قد فقد الشعور . وقال له :

- ماذا إذن ياسيد دون كيخوته! ألم أطلب إليك أن تعود ؟ ألم أقل لك أنك إنما تهاجم قطعاناً من الضأن لا جيوشاً ؟

فأجابه دون كيخوته : آه! ويل لهذا اللص الساحر الحكيم عدوي ، الذي استطاع تبديل الأمور وإخفاءها! اعلم يا سنشو أن من السهل جداً على هؤلاء أن يخفوا ما يريدون ، وهذا اللعين الذي يطاردني ، لأنه رأي على وشك الظفر بإكليل المجد في هذه المعركة فدت في قلبه عقارب الحسد متي ، قد حول كتائب الجنود الى قطعان ضأن . وإلا فاعمل شيئاً يا سنشو ، أستحلفك بحياتي ، حتى يزول عنك الوهم وترى مصداق ما أقول ، وذلك أن تركب حمارك وتتبعهم دون أن تتظاهر بشيء ، وسترى أنهم حينما يبتعدون سيستعيدون شكلهم الطبيعي فلا يعودون نعاجاً بل أناساً تامين كاملين كما وصفتهم لك من قبل . لكن لاتذهب الآن ، فأنا في أمس الحاجة الى معونتك ، وخدماتك . اقترب وانظر كم ينقصني من اسنان ، إذ يخيّل إلي أنه لم يبق في فمي منها شيء .

فاقترب سنشو من سيده كل القرب حتى كاد أن يضع عينه في حلقه . وفي تلك اللحظة كان البلسم قد بدأ مفعوله في معدة دون كيخوته ، ففي البرهة التي راح فيها سنشو ينظر في حال فكيه أصاب دون كيخوته غشيان فقذف كل ما في جوفه في لحية حامل سلاحه الحاني عليه بشده تضارع قذيفة البندقية .

فصاح سنشو : يا قديسة مريم! ماذا وقع لي ؟ لاشك في أن هذا الخاطئ جرح جرحاً مميتاً لأنه بقي ، دماً من فمه .

لكنه لما أمعن النظر عرف من اللون والطعم والرائحة أنه لم يكن دماً ، بل كان بلسم

الكوز الذي حمله على الشرب منه . هنالك أصابته رغبة في القيء شديدة فاستفرغ كل أحشائه في وجه مولاه نفسه ، فأضحى كلاهما ذا منظر عجب!

وأسرع سنشو الى حمارة ليأخذ من الخرج مابه يجفف سيده ويضمّده ، لكنّه لم يجد الخرج ، فكاد يفقد صوابه . وراح يلعن نفسه آلاف اللعنات ، وقرّر في أعماق قلبه أن يهجر سيده ويعود الى بلده ، ولو أدى به ذلك الى فقد أجرته وآماله في حكم جزيرة ، وطالما وعد بها . ونهض دون كيخوته ممسكاً فكّيه بيده اليسرى ليمنع ما تبقى من أسنانه من السقوط ، وباليدين الأخرى أخذ بعنان روثينانته ولم يكن هذا قد تحرّك عن جانب سيده ، لأنّه كان فرساً خادماً مطيعاً مخلصاً . ثم مضى يفتش عن حامل سلاحه ، وكان هذا مطرقاً لإطراقة رجل حزين ، صدره يستند الى حمارة وخذّه في كفه . فلمّا شاهده على هذه الحال وعليه علائم الأسف العميق قال :

- اعلم يا سنشو أن المرء لا يفضل المرء إلا إذا فعل أكثر منه . وهذه العواصف التي اجتاحتنا إنّما هي علامات على أن الزمان سيستأنف بأخرة صفاءه ، وأمورنا ستتحسن ، فمن المحال دوام سوء الحال أو حسن الحال ، ومن هنا فلمّا كان سوء الحال مآل . فلا تحزن لما يصيبني من مصائب ، لأنك لا تشارك في شيء منها .

فأجاب سنشو : كيف لا أشارك ؟ وهل كان الذي يرثج على الملاءة بالأمس شخصاً آخر غير ابن أبي ؟ والخرج الذي فقدته اليوم وكان فيه كل حاجياتي هل كان لشخص آخر غيره ؟ فقال دون كيخوته : ماذا يا سنشو ، هل فقدت الخرج ؟ فأجاب سنشو : نعم فقدته .

فقال دون كيخوته : إذن ليس عندنا اليوم ما نأكله!

فأجاب سنشو : سيكون الأمر كذلك إذا لم توجد في هذه المروج النباتات التي تزعم سيادتك أنك تعرفها جيداً ، والتي يستعيب بها عند الحاجة أمثالك من الفرسان الجوّالة المنكودي الطالع .

فقال دون كيخوته : ومع هذا فقد كنت أفضل ، في الساعة التي نحن فيها الآن ، أن أظفر بربع من الخبز ورأسين من الرنجة - أفضلها على كل الحشائش التي وصفها ذيوسقوريدس ولو كانت بشرح الدكتور لاجونا^(١) . ورغم هذا ، اركب حمارك يا سنشو

(١) ترجم الدكتور أندريس دي لاجونا كتاب «الحشائش» لديوسقوريدس (المقاير المفردة) من اليونانية الى الإسبانية وشرحه بحواش واضحة وافية وزوّده برسوم لكثير من النباتات النادرة والغريبة . وقد طبع عدة مرّات قبل ظهور «دون كيخوته» . والطبعة الأولى في أنفوس سنة ١٥٥٥ . وقد درس الكتاب دراسة ممتازة وافية جداً صديقنا سيزار دوبلر ، ونشر في دراسته حتى الآن مجلّدان ضخمان .

وامش خلفي ، فالله الذي أنعم بكل شيء ، لن ينسانا ، خصوصاً ونحن نعمل في سبيله : وهو لا ينسى البعوض في الهواء ولا الدود في التراب ، ولا الضفادع الناشئة في الماء ، إنه رحيم يرسل نور الشمس لتضيء للأبرار والأشرار ، ويرسل الغيث فيهطل على العادل والظالم . فأجابه سنشو : إن شئت الحق ، أنت أصلح للوعظ والإرشاد منك لأن تكون فارساً جوالاً .

فقال دون كيخوته : ياسنشوا الفرسان الجواله يعرفون - ويجب أن يعرفوا - كل شيء ، ومنهم في العصور الماضية من كان يقف ليلقي موعظة أو خطبة في الطريق العام وكأنه إنما تخرج من جامعة باريس ، ومن هنا يقال إن السيف^(١) لا يثلم القلم والقلم لا يثلم السيف . فأجاب سنشو : ليكن الأمر كما يشاء مولاي . ولكن هيا بنا نبحث عن ميته لنا هذه الليلة ، وأرجو الله أن يكون في مكان ليس فيه تطيير ولا مطيرون ، ولا أشباح ولا أعراب مسحورون ، وإلا فالويل لنا كل الويل^(٢) .

فقال دون كيخوته : أطلب من الله ياولدي ، واقتدنا الى حيث أردت ، وأنا أريد هذه المرة أن أترك لك أمر اختيار بيتنا . لكن قبل هذا هات يدك وتعال تحسس بإصبعك كم فقدت من أضراس في هذه الناحية اليمنى من الفك الأعلى ، إذ هنا أشعر بالوجع الأشد .

فوضع سنشو يده في فمه وتحسس ، ثم قال :

- اعتدت أن يكون لك كم ضرر في هذه الناحية ؟

- أربعة ، بخلاف ضرر العقل ، وكلها كاملة سليمة .

- انتبه جيداً لما تقوله يامولاي!

- أقول إنه كان لي أربعة ، إن لم تكن خمسة ، فلم يُخلع لي ضرر واحد في حياتي ،

وأنا لم أخلع منها عن مرض ولاشبهه .

- إذن ، من هذه الناحية في الفك الأسفل لم يبق لدى مولاي غير ستين ونصف سن ،

وفي الفك الأعلى لم يبق لا نصف ولا شيء ، فكّله مجلوح كراحة اليد في الاستواء .

- واحسرتاه إذن ، هكذا صاح دون كيخوته وهو يسمع الأنباء السيئة التي يفضي بها

اليه حامل سلاحه ، ليتهم كانوا قد اقتلعوا ذراعي بدلاً من هذا ، بشرط ألا تكون الذراع

التي تحمل السيف . إذ يجب أن تعلم ياسنشوا أن الفم بلا أسنان كالطاحون بلا حجر ،

وعلى الإنسان أن يقدر السن أفضل بألف مرة من الماسة . ولكن هذه النكبات التي أصابتنا

(١) في النص : الرمح - ولكننا أثرتنا السيف لأنه أنسب في العربية . وهذا القول مثل سائر .

(٢) هنا مثل بالاسباني هذا معناه . وسيلاحظ القاريء أن سنشو سيكثر من ضرب الأمثال .

هي مما تتعرض له جميعاً معشر المنخرطين في هذا النظام القاسي ، نظام الفروسية الجوّالة .
 فاركب إذن ، يا صديقي ، وتقدّما ، وسأبعك بالسرعة التي تريدها .
 ففعل سنشو ما أمره به موله ، وسار في الناحية التي خيل اليه منها أنّه يضمن العثور
 على مبيت ، دون أن يبتعد عن الطريق العام ، وهو كثير الطروق عند هذا الموضع . وسارا
 هكذا الواحد في إثر الآخر ، خطوة بخطوة ، لأنّ وجع الفكّين لم يدعاً لدون كيخوته راحةً ولا
 رغبة في الإسراع . وأراد سنشو أن يسكن ألمه ويرفّه عنه برواية نوادر ، فروى له مانورده
 في الفصل التالي .

الفصل التاسع عشر

في الأسمار اللطيفة التي سامر بها سنشو مولاه
وما جرى لهذا مع جثة ميت وحوادث أخرى مثيرة

يختل إلي يامولاي أن التوائب التي أحقت بنا منذ أيام هي لابد عقاب عن الخطيئة التي ارتكبتها سيادتك ضد نظام الفروسية بتخلفك عن الوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسك وهو : ألا تأكل خبزاً على مائدة ، ولا تمزح مع الملكة وما يترتب على ذلك ، ثم قسمك أن تعمل على الاستيلاء على خوذة مالاندرينو ، أو كما يسمي هذا العربي ، لأنني لا أذكر اسمه تماماً .

فأجاب دون كيخوته : أنت على حق كل الحق يا سنشو ، لكن الصديق يقتضي أن أقول أن هذا الأمر قد نذ تماماً عن ذاكرتي . وتستطيع أن تتأكد أن ما وقع لك من حادثة التطبير إنما كان عقاباً لك على غلطتك في عدم تذكيري بذلك في الوقت المناسب . لكنني سأصلح خطيئتي ، إذ في نظام الفروسية يوجد ترتيب لكل شيء .
- ولكن ، هل أقسمت أنا على شيء ؟ بهذا أجاب سنشو .

- لا يهم أن تكون قد أقسمت على شيء ، هكذا قال دون كيخوته ، بل يكفي ألا تكون بمؤمن تام من تهمة الاشتراك (في الإثم) . وأياً ما كان الأمر - نعم أو لا - فالأحسن أن نتزود بالرخصة .

- إذا كان الأمر كذلك ، هكذا قال سنشو ، فليأخذ مولاي حذره حتى لا ينسى هذا القسم الجديد كما نسي الآخر ، لأن الاشباح يمكن أن تعاودها الرغبة في العبث بي مرة أخرى ، بل وبمولاي أيضاً إن رأوه سارداً في غيه .

وخلال هذه الأحاديث وأمثالها ، فاجأهم الليل في وسط الطريق دون أن يعرفوا أين وكيف يجدون المأوى . وشر مافي الأمر أنهما كانا يتضوران جوعاً ، إذ بضياح الخرج ضاع الزاد . ولتوكيد هذه المصيبة جرت لهما مغامرة يمكن أن تسمى ، حقاً وبغير احتيال ،

مغامرة . كان الليل قد وافى والظلام الدامس خيم ، ورغم ذلك تابعا المسير ، إذ اعتقد سنشو أنهما لن يسيرا فرسخاً أو فرسخين على الطريق العام حتى يجدا فندقاً . وبينما يسيران هكذا في الليل البهيم ، وحامل السلاح يتصور جوعاً ودون كيخوته قد أخذه نهم شديد ، شاهدا على الطريق الذي يسلكانه موكباً من الأنوار قادمًا ، شبيهاً بالنجوم المتحركة . فأغمي على سنشو حينما شاهده ، وأحس مولاه بالفرع ، فسحب أحدهما حماره بخطامه ، وسحب الآخر فرسه بلجامه ، وظلّا هادين ينظران باهتمام بالغ ماذا عسى هذا أن يكون . فأبصرا الأنوار مقبلة مباشرة ناحيتهم ، وكلما اقتربت بدت أكبر . فارتعدت فرائص سنشو لهذا المنظر ، وانتفض شعر دون كيخوته ، لكنه تشجع قليلاً وقال :

هذه من غير شك مغامرة كبيرة خطرة ، لا بد لي فيها ياسنشو أن أكشف عن كل شجاعتني وقوتي .

فأجاب سنشو : يا لشقائي! إن كانت هذه أيضاً مغامرة أشباح ، كما يبدو من مظهرها ، فأين أجد الأضلاع التي تكفيها ؟

فقال دون كيخوته : أيا كانت أشباحاً ، فلن أسمح لها أن تمسّ شعرة بل فتلة من ثيابك . وإذا كانت عبثت بك في المرة السالفة ، فالسبب في ذلك أتي لم أقو على تسلق جدران الفناء ، لكننا الآن في أرض سهلة منبسطة ، فيها أستطيع أن أعمل سيفي كما أشاء .

فأجاب سنشو : وإذا سحروك ونفخوك كما فعلوا في المرة السالفة ، فما يفيدك أن تكون في أرض سهلة أو غير سهلة ؟

فقال دون كيخوته : على كل حال أتوسل إليك ياسنشو أن تلملم شجاعتك ، وستريك التجربة شجاعتي .

فأجاب سنشو : نعم! سأتشجع إن شاء الله .

وانحرفا عن الطريق قليلاً وأنشأ يتأملان باهتمام ماذا عسى هذه الأنوار السائرة أن تكون . وسرعان ما شاهدا جمعا من الناس يلبسون قمصاناً بيضاً . وكان منظر قضى على ما بقي عند سنشو ينثا من شجاعة فراحت أسنانه تصطك كمن أصيب بحمى الربيع . وزاد الفرع والاصطكاك لما أن أبصرا بوضوح ماهنالك . لقد شاهدا عشرين رجلاً على الأقل متمصّين راكبين أفراساً ، ويحملون في أيديهم مشاعل ، وراءها نعيش مجلج بالسواد والحداد ، يتلوهم ستة فرسان يلبسون السواد حتى حوافر بغالهم ، إذ كان يبدو من هدوء سير هذه الدواب أنها ليست خيولاً . وكانت هذه الأشباح البيض تسير وهي ترطن بكلمات غير مفهومة بصوت شاكٍ خفيض .

هذه الرؤية الغريبة ، في مثل هذه الساعة وفي هذا الموضع القفر الموحش ، كانت كافية لإشاعة الرعب في قلب سنشو ، بل وفي قلب موله ، لكن بينما تبددت شجاعة سنشو ، وقع العكس لدون كيخوته إذ زوّر له خياله الجامح أنه بإزاء مغامرة من المغامرات التي وصفتها كتبه .

فقد خيل إليه بأن النعش محفة حُمل عليها فارس ميّت أو جريح جراحاً بالغة ، وأن الإنتقام له احتفظ به لدون كيخوته وحده . ودون أن يواصل التفكير تمكّن من متن فرسه وأشرع رمحه وبكل ثقة راح يقف في منتصف الطريق حيث لا بد أن يمرّ ذوو القمصان . ولم يكد يراهم قريبين حتى صاح بأعلى صوته :

– قفوا أيها الفرسان أو من تكونون ، وأخبروني من أنتم ومن أين أتيتم ، وإلى أين تذهبون ، وماذا تحملون على هذه المحفة . إذ يبدو من مظاهر الأحوال أن تكونوا ارتكبتم أو أصابتكم جناية . فمن المناسب إذن ومن الواجب أن أعرف جليّة الأمر ، إما لعقابكم على ما اجتريتم من إثم ، أو للإلتصاف لكم من إثم وقع عليكم .

فأجاب أحد المتقمّصين : نحن على حدّ عجلة ، والفندق بعيد ، فليس لدينا وقت لتقديم حساب عمّا تطلب ، ثم همز بغله وتقدّم . فغضب دون كيخوته لهذا الجواب أيما غضب ، فأمسك بالبغل من شكيمته وقال :

– قفوا وكونوا أكثر تادباً . وأجيبوا عمّا سألت عنه ، وإلاّ أعلنتها عليكم جميعاً حرباً شعواء .

وكان البغل هياباً ، فلما أحس بشدّة الشكيمة شبّ وانقلب على الأرض براكبه . وكان ثمة خادم راجل ، لما شاهد سيّده يقع راح يسبّ دون كيخوته . وكان هذا قد اتقد غيظاً ، فخفض رمحه ودون أن ينتظر حملّ على أحد اللابسين السواد فقذف به بعيداً يتدحرج على التراب صريع ضربة شديدة . ثم انقلب الى سائر الجماعة فهاجمهم بسرعة ومهارة وطرحهم الواحد تلو الآخر ، وكأثما نبئت أجنحة في روئياته هذه اللحظة ، إذ بدأ الفرس نشيطاً فخوراً .

وكان ذوو القمصان جميعاً قوماً عزلاً مسالمين ، لم يتلقوا الضربة الأولى حتى أطلقوا لسيقانهم الريح ومضوا يعدون هاربين بمشاعلهم خلال السهل الفسيح ، حتى كان منظرهم كمنظر مواكب المسافر وهي تجري في ليالي الكرنفال . أمّا المجتلون بالسواد فقد كانوا مغلّفين في سراويلهم الطويلة بحيث لم يقدرُوا على الحركة . فاستطاع دون كيخوته إذن أن ينسأهم ويطردهم جميعاً أمامه ، حتى صار فارس الميدان وحده بأرخص الأثمان ، ذلك أنهم

جميعاً حسبوه لارجلأ بل الشيطان نفسه جاء من الجحيم لينتظرهم في عرض الطريق ، لينترع منهم الميت الذي حملوه على النعش .

وكان سنشو يتأمل هذا كله معجباً بجسارة مولاه ، وقال في نفسه : « لاشك في أن مولاي شجاع وقوي كما يقول » . والى جوار من أسقطه البغل أول الأمركان ثمة مشعل متقدماً على الأرض . وعلى ضوءه أبصره دون كيخوته ، وتقدم إليه ووضع طرف حريته على حلقه وطلب منه أن يستسلم والآن قتله . فأجابه الطريق :

- لقد استسلمت ، لأنني لا أستطيع الحركة ، وأظن إحدى ساقي مكسورة . لكن إن كنت نبيلاً ومسيحياً فأني أتضرع الى سيادتك ألا تقتلني ، وإلا ارتكبت دنساً عظيماً ، لأنني حامل إجازة (ليسانسييه) وتلقيت الأوامر الدينية الأولى .

فقال دون كيخوته : وأي شيطان جاء بك الى هنا ، وأنت من رجال الكنيسة ؟

فأجاب الطريق : من ، يا سيدي ؟ - إنه سوء البخت .

فقال دون كيخوته : يهذك من هو أعظم ، إذا لم تجب في الحال على كل الأسئلة التي ألقيتها عليك .

فأجاب حامل الإجازة : ستنال سؤالك . وسيعمل مولاي أنني لست بعد إلا حامل بكالوريا وإن كنت قد قلت منذ قليل أنني ليسانسييه . اسمي ألونشو لوبث ، من ألقو بندس . وأنا قادم من مدينة بياسة^(١) ، بصحبة أحد عشر قسيساً هم أولئك الذين هربوا بالمشاعل . ونحن ذاهبون الى أشقوبية نشبع ميتاً يرقد مسجى في هذا النعش ، وهذا الميت هو نبيل توفي في بياسة ووضع مدة في المقبرة ، لكننا كما قلت لك نحمل عظامه الى أشقوبية حيث مقابر أسرته .

فسأله دون كيخوته : ومن قتله ؟

فأجاب حامل البكالوريا : الله ، بواسطة حمى خبيثة أرسلها إليه .

فقال دون كيخوته : في هذه الحالة قد أعفاني الله من مؤونة القيام بالانتقام له لو أن أحداً آخر هو الذي قتله . ولكن مادامت يد الله هي التي صرعه ، فليس أمامي إلا السكوت وثني الأكتاف ، ولو أن الله هو الذي صرعتني لما فعلت غير هذا ، لكنني أود أن أخبر فضيلتك أنني فارس

(١) بياسة : قال عنها صاحب « الروض المعمار » : « بالأندلس . بينها وبين جيان عشرون ميلاً وكل واحدة منهما تظهر من الأخرى . وبياسة على كدية من تراب ، مطلة على النهر الكبير المنحدر الى قرطبة ، وهي مدينة ذات أسوار وأسواق ومناجر ، وحولها زراعات ، ومستغلات الزعفران بها كثيرة » (ص ٥٧) . واسمها القديم Benin . على مسافة ٤٠ كم شمال شرقي جيان ، وبها كاتدرائية رائعة ، وكان بها جامعة أُنشئت سنة ١٥٢٣ وبقيت في أيدي المسلمين حتى سنة ١٢٢٧ م .

من المانتشا أدعى دون كيخوته ، ووظيفتي أن أذرع الدنيا لإصلاح الأضرار ورّد المظالم .
فقال حامل البكالوريا : لست أدري ماذا تعني بإصلاح الأضرار ، لأنني كنت مستقيماً
فجعلتني معوجاً ، وتركنتني بساق مكسورة لن تستقيم أبداً مدى الحياة ، والظلم الذي رددته
في هو أنك أوقعت بي ظلماً لن يرد أبداً ، وأعظم نائبة يمكن أن تحلّ بي هي أن ألقاك ساعياً
وراء المغامرات .

فأجابه دون كيخوته : لاتجري الأمور كلها على وتيرة واحدة ، المصيبة أتت ، ياسيدي
يا حامل البكالوريا يا ألونشو لوپث من كونكم كنتم تسيرون ليلاً مرتدين « كتنونات»^(١)
بيضاء وفي أيديكم مشاعل وترطنون بكلمات بين شفاكم وتندثرون بالحداد ، فكان
مظهركم مظهر أشباح وأناس من عالم آخر . ولهذا لم أقو عن التخلي عن القيام بواجبي في
مهاجمتكم ، وما كان لي أبداً أن أتخلي عنه حتى لو كنتم فعلاً - كما كنت أعتقد ولا زلت -
جيلاً من الجن فزوا من الجحيم .

فقال حامل البكالوريا : مادام سوء طالعي قد أراد هذا ، فإني أتوسل اليك ، ياسيدي
الفارس الجوال ، يا من ستحرمني طويلاً من الجولان ، أن تساعدني على التخلص من هذا
البغل فإن ساقني تحته وقعت بين السرج والركاب .

فقال دون كيخوته : يبدو إذن أنك كنت تتكلم للغد ؟ وأي شيطان جعلك تنتظر حتى
تقص عليّ همومك ؟

ثم نادى سنشو ينثا ليحضر . لكن هذا لم يحفل بالاسراع لأنه كان مشغولاً بسلب
ماعلى دابة حمل من زادر ثمين لهؤلاء القساوسة . لقد صنع سنشو من ثيابه كيساً حشاه
بكل ما استطاع حشوه به ، وحمله على حماره ، ثم عدا على نداء سيده ، وعاوناه على
استخراج حامل البكالوريا من تحت بغله . واستطاعا أن يركباه على البغل ، وأعدا اليه
المشعل وطلب إليه دون كيخوته أن يسلك السبيل التي اتخذها رفاقه ، وكلفه أن يسألهم
باسمه الصفيح عن إهانة لم يكن في وسعه الإمتناع عن إرتكابها . وقال له سنشو أيضاً :
- وربما أراد هؤلاء السادة أن يعرفوا من الشجاع الذي بدّد شملهم ، فأخبرهم أنه دون
كيخوته دلامنتشا الشهير ، الملقب بالفارس الحزين الطلعة .

ومضى حامل البكالوريا لطية . وهناك سأل دون كيخوته صاحبه سنشو لماذا لقبه بلقب
« الفارس الحزين الطلعة » في هذه اللحظة لا في غيرها .

(١) قميص يلبسه الكاهن أثناء خدمة القداس ، والكلمة نصرانية دخيلة ، وهي بالاسبانية soprobelleccs وبالفرنسية surplis .

فأجاب سنشو : سأقول لك : ذلك أتّي تأملتك على ضوء هذا المشعل الذي يحمله ذلك الأعرج المسكين ، فبدا لي سيادتك فعلاً على أقبح صورة رأيته منذ عدة سنوات ، ولا شك أن هذا مرجعه إما الى متاعب النضال والعراك ، أو الى فقدان أسنانك .

فقال دون كيخوته : لا ، ليس الأمر كذلك . لكن الحكيم الموكل بكتابة تاريخ مغامراتي سيستحسن أن أتخذ لقباً ذا دلالة خاصة ، كما فعل سائر الفرسان في العصور الماضية . فمنهم من كان لقبه : « فارس السيف المشبوب » ، ومن كان لقبه « فارس الفونقس » (العنقاء) ، أو « فارس العقاب » ، أو « فارس الموت » ، وبهذه الألقاب والشارات عُرِفوا في الدنيا كلها . ولهذا فإن الحكيم الذي ذكرته لك قد أودع في فكرك ولسانك هذا الاسم : « الفارس^(١) الحزين الطلعة » وهو الذي أرى أن أسمي به منذ الآن ، وحتى ينسجم عليّ هذا الاسم ، قرّرت أن يرسم على ترسي - بمجرد أن تسنح الفرصة - صورة وجه حزين كئيب .

فقال سنشو : لا داعي لإضاعة الوقت والمال في هذه الصورة . إذ يكفي مولاي أن يبرز طلعه وأن يحملق في وجوه من يتطلعون إليه ، وأنا زعيم بأنهم سيطلقون عليك في التواسم « الفارس الحزين الطلعة » ، دونما حاجة الى صورة أو ترس . وصدقتني أن ما أقوله الحق . وعلى سبيل المزاح أوكد لك أن الجوع وانعدام الأسنان قد جعلاً لك طلعة بانسة تغني بسهولة عن كل تصوير .

فتبسّم دون كيخوته ضاحكاً من قول حامل سلاحه ، ولكن ذلك لم يشنه عن عزمه على اتخاذ هذا الاسم ، وأن يرسم على ترسه هذا الاسم الذي أراد . ثم قال لسنشو :
- ألا تعلم أنني قد دمغت بالطرد والحرمان لأنني تطاولت بيدي على شيء مقدس ، بمقتضى هذا النص^(٢) : « من أغراه الشيطان... ألخ » وإن كنت أعلم جيداً أنني لم أتطاول بيدي ، بل بهذا الرمح . على أنني لم أقصد أبداً إهانة رجال دين أو أمور كنيسة ، لأنني

(١) هذا الاسم قد استماره ثريش من كتب الفروسية أيضاً . فقد كان لقب الأمير ديوكليانو الذي أصبح فيما بعد ملكاً . وكان ابناً للملك غرثون دلا لوبا والملكة ديوكليفا التي كانت من أمهر السحرة ، وقد تزوج ديوكليانو من حبيبته ليونيا . ومن هذا الزواج ولد لهما ولد اسمه فلوريمان دي جرثيا . وكان شاباً عاشقاً شجاعاً كأبيه . وقد نُبّه الى هذا رودريجت مارين في مقال نشره في « مضبلة الأكاديمية الملكية الأسبانية » ، السنة الثانية (سنة ١٩١٥) الكراسة ٢ ، وعاد وفصله في مقال له يكون الفصل ١٦ من تعليقاته في المجلد التاسع من نشرته الكبرى لدون كيخوته (ج ٩ ص ٢٣١ - ص ٢٣٥) . ومن القصة التي ترد فيها أخبار هذا الفارس توجد نسخة في المكتبة الأهلية بمدريد ، وأخرى في المتحف البريطاني بلندن .

(٢) هذا النص في قرار أصدره مجمع ترنت ، وتمامه : « من ضرب أحد رجال الدين يحرم ، ولا يغفر له إلا بأمر البابا . ومن أغراه الشيطان فارتكب جريمة أو انتهك حرمة بأن تطاول بيده على كاهن أو راهب ، فقد حُلّت عليه اللعنة » .

احترمهم وأعبدتهم شأن المسيحي الكاثوليكي المخلص ، بل قصدت أشباحاً من العالم الآخر . ولو كان الأمر كذلك ، لما كنت نسيت ما وقع للسيد روي دياث حينما حطم كرسي أحد الملوك ، أمام قداسة البابا ، فحرمه في التو لهذا السبب ، وهو أمر لم يمنع ردريجو دي فيفار العليبي من أن يتصرف في ذلك اليوم تصرف الفارس المخلص الشجاع^(١) . وكان حامل الإجازة في تلك الأثناء قد ابتعد ، فرغب دون كيخوته في أن يعرف ما إذا كانت الجثة الموضوعة في النعش من لحم أو عظام . لكن سنشو لم يوافق على ذلك أبداً وقال له :

- مولاي! لقد نهضت بهذه المغامرة الخطيرة بتكاليف أقل مما أنفقت في أية مغامرة سابقة رأيتك تقوم بها . وهؤلاء القوم - وإن هزموا ومزق شملهم - فيمكن أن يدركوا ويتنبهوا الى أن شخصاً واحداً قد جندلهم ، فيحملهم العار والحفيظة على أن يعودوا ليأخذوا بشأهم وينالوا منا ما يوجعنا . والحمار على استعداد ، والجبل قريب ، والجوع يلهمنا ، فليس أمامنا إلا أن ننسحب بأقدام خفاف ، وكما يقولون : فليذهب الميت الى القبر ، والحي الى الخمر .

ثم أخذ حماره من مقوده ، ورجا مولاه أن يتبعه ، ورأى هذا مافي كلام سنشو من عقل وحكمة ، فتبعه ولم يرد له جواباً .

وبعد أن سارا زمناً بين رابيتين ، وصلا وادياً فسيحاً نضراً ، فحط الركاب . وأراح سنشو حماره . ثم تمدد الخادم ومولاه على العشب الأخضر ، تحدهما شهية عارمة ، فأفطرا وتناولوا الغداء والعشاء كلها جملة واحدة ، وملاً بطنيهما كلها من اللحوم المقددة التي حرص السادة رجال الدين كهنة المرحوم أن يزودوا بها أكتاف البغل ، وهم قوم نادراً ما ينسون شؤون هذه الحياة الدنيا! لكن وقع لهما شرٌ آخر ، وجداء شرّ الشرور ، ذلك أنهم لم يكن لديهم نبيذ يشربونه ، بل ولا قطرة ماء يرويان بها الظمأ . فالتهبت أحشاهما من العطش . ولما رأى سنشو أن المرج الذي يرقدان عليه فيه عشب نضير وفير صغير ، قال مانرويه في الفصل التالي .

(١) بشير دون كيخوته في هذا المقام الى تلك الأشعار الواردة في « رومانثيرو السيد » والتي ورد فيها :
« في كنيسة القديس بطرس ، دخل دون رودريجو ، فشهد سبع كراسٍ لسبعة ملوك نصارى ، وأبصر كرسي ملك فرنسا بجانب كرسي الأب الأقدس (البابا) بينما كرسي سيده الملك أبعد منه . فأهوى على كرسي ملك فرنسا وقذفه بقدميه وكان الكرسي من الماع ، فاندحسر أربع قطع . ثم أخذ كرسي ملكه ورفع الى أعلى مكان... وما علم البابا في الأمر حتى أمر بحرمان السيد » .

الفصل العشرون

في المغامرة العجيبة التي قام بها الشجاع دون كيخوته
بأقل خطر تعرض له فارس شهير في أية مغامرة

« إن نضرة هذا العشب لشاهد لا يرد على وجود نهر أو ينبوع في هذه النواحي منه يرتوي . فمن الخير لنا إذن أن نتقدم قليلاً ، فسنجد قطعاً ما يطفى الغليل المخيف الذي يلح علينا ، وعذابه أشد نكراً من عذاب الجوع » .

ورافاه دون كيخوته على هذا الرأي ، فأمسك بعنان روثيناته واقتاد سنشو حماره من خطامه بعد أن وضع على ظهره بقايا العشاء . ثم استأنفا المسير صاعدين في المروج خبط عشواء ، لأن ظلام الليل قد حال دون رؤية الأشياء . وماساراً مائتي خطوة حتى قرع أسماعهما خرير صاخب كأنه خرير شلال يسقط من أعلى الصخر . فأحسنا لدى هذا الضجيج بغبطة لاتوصف ، وتوقفا ليصفيا الى مصدره ، فسمعا في الحال ضجيجاً آخر سكن غبطتهما وعطشهما معاً ، خصوصاً سنشو وهو الجبان بطبعه . ذلك أنهما سمعا ضربات خرساء شديدة ، تنهال على إيقاع وتصحبها قرقرة قيود وسلاسل حديدية ، كانت بالإضافة الى ضجيج السيل كافية لإشاعة الرعب في أي قلب آخر غير قلب دون كيخوته . وكان الليل ، كما قلنا ، دامس الظلام ، وقادتهما الصدفة الى أيكّة من الأشجار السامقة تحرك أوراقها الريح فتصدر عنها ضوضاء عذبة ومخيفة معاً - حتى إن الوحدة والمكان والظلام وخرير الماء وحفيف الأوراق - كل ذلك نشر الرعب والفرع . وازداد الأمر سوءاً لما أحسنا أن الضربات لا تزال تتوالى ، والريح تعصف ، والفجر تأخر في البروز حتى يعرفا على الأقل أين مكانهما .

لكن دون كيخوته بقلبه الجسور وثب على روثيناته والتأم ترسه وأشرع رمحه وصاح :
- يا صاحبي سنشوا! اعلم أن إرادة السماء شاءت لي أن أولد في العصر الحديدي هذا لكي أبعث فيه العصر الذهبي . من أجل الأخطار الرهيبة ، والأفعال المجيدة والمغامرات

الرائعة . نعم! أنا الذي عليه أن يبعث أبطال المائدة المستديرة الخمسة والعشرين ، وأكفاء فرنسا الاثني عشر وفرسان «الشهرة» التسعة ، أنا الذي سأجر ذبول النسيان - بأعمالى انخارقة - على بلاتير وفييوس وبلينيس وتابلان وأوليفان وتيران وأضرابهم وهذا الحشد الهائل من الفرسان الجوّالة المشهورين في القرون الماضية ، وسأتى في هذا القرن الذي أعيش فيه من الأعمال الحربية العظيمة الرائعة ما يغطى على أروع ماتباهى به الآخرون . تأمل جيداً ، أي حامل سلاحى المخلص الأمين ، تأمل ظلمات هذه الليلة وسكونها العميق ، وحفيف هذه الأشجار المختلط الأخرس ، وجلبة هذا الماء الذى جننا من أجله ويلوح وكأنه يتدافع من أعلى جبال القمر ، وأخيراً ذلك الضجيج المتواصل لضربات متوالية تمزق الأسماع . وكلها أمور يكفى واحد منها لأن يشيع الدهشة والخوف والهلح في روح إله الحرب ، المشتري ، نفسه ، فما بالك بمن لم يتعود هذه الأحداث! إن هذه الأشياء التى وصفتها لك كلها دوافع تحفزنى وتبعث شجاعتي ، وهذا قلبى يتوالب في صدري لشدة رغبتي في مواجهة هذه المغامرة ، وإن لاح من تباشيرها أنها عامرة بالأخطار . وإذن شدّ ياسنشو أحزمة روئينانته ، وابق في حفظ الله . وستتظرنى أنت هنا طوال ثلاثة أيام ، إن لم أعد بعدها إليك تستطيع أنت أن تعود الى قريتنا ، ومن هناك - حتى تعمل عملاً صالحاً وتخدمنى - تذهب الى توبوسو وتقول لدلثنيا ، سيدتى المنقطعة النظير ، أن أسيرها الفارس قد مات وهو يؤدى أعمالاً خالدة تجعله أهلاً لها .

فلما سمع سننشو سيده يتحدث على هذا النحو ، أنشأ يذرف أحزّ العبرات بحنان عميق ، وقال له ،

- لست أدري ، يا مولاي ، لماذا تريد أن تلقى بنفسك في مثل هذه المغامرة الحافلة بالأخطار . نحن الآن في الليل ولايرانا أحد ، ففي وسعنا إذن أن نغير طريقنا ونخلص من الخطر ، ولو أدى بنا ذلك الى عدم الشرب ثلاثة أيام متواليات . ومادام لايرانا أحد ، فلن يكون ثمة من ينعتنا بالجبن . هذا الى أنني كثيراً ما سمعت قسيس الناحية يعظ ويقول - ومولاي يعرف هذا القسيس جيداً - إن من يسع الى الخطر يهلك به . ولهذا فليس من صواب الرأي تحدى الله بالقاء النفس في هذه التهلكة التى لاخلص منها إلا بمعجزة . وكفاك معجزة بما حبته لك السماء أنك لم تطير كما طيرت أنا ، وأنتك ظفرت بنصر مؤزر - لم يصبك من وراءه أقل خدش - على كل هؤلاء الأعداء الذين كانوا يشيعون جثمان الفقيده . فإذا لم يستطع هذا كله أن يؤثّر في هذا القلب الذى قد من صخر ، فليزق على الأقل وهو يفكر في هذه الواقعة وهي أن مولاي لن يبتعد من هنا خطوة حتى أسلم روجى فزعاً لمن يطلبها . لقد

هجرت بلدي وتركت أهلي وأولادي لأتبع مولاي وأكون خادمه ، وأنا أعتقد أنني سأصبح خيراً مما كنت . لكن الطمع - كما يقولون - يمزق الجوالق^(١) ، فقد حطم أمالي ، إذ في الوقت الذي حسبت فيه أنني على وشك الظفر بتلك الجزيرة المنحوسة التي طالما وعدني بها مولاي ، هأنث ذا مقابل خدماتي تريد أن تتركني وحيداً في مكان ناء عن بني الإنسان . أواه! بحق الواحد الذي لاشريك له لا تكن قاسياً عليّ يا مولاي كل هذه القسوة . وإذا كان مولاي لا يريد أبداً العدول عن الخوض في هذه المغامرة ، فلينتظر على الأقل حتى الصباح ، إذ بحسب العلم الذي لفتنته حينما كنت راعياً لم يبق على بزوغ الفجر غير ثلاث ساعات ؛ ذلك أن فم الدب الأكبر فوق رأس الصليب ، بينما منتصف الليل يرتسم على خط الذراع اليسرى .

فأجاب دون كيخوته : لكن ياسنشو كيف قدرت أن تبصر هذا الخط أو تدرك أين الفم والرأس ، مع أن الليل مدلهم بحيث لا يستطيع المرء أن يميز نجماً واحداً . فقال سنشو : هذا صحيح ، لكن للخوف عيوناً نافذة ، ومادام يقال إنه يبصر ما تحت الأرض ، فكيف لا يبصر ما في السماء! على أنه من السهل أن يحزر المرء أن الصباح ليس ببعيد . فقال دون كيخوت : ليأت عمّا قليل أو عمّا أكثر ، ولكن لن يقال ، في هذه الساعة ولا في أي وقت ، أن دموعاً أو توسلات قد حالت بيني وبين القيام بواجبي بوصفي فارساً . فأرجوك إذن ياسنشو أن تلتزم الصمت . والله الذي ألهم قلبي الرغبة في مجابهة هذه المغامرة الهائلة الرهيبة ، سيعني بحفظي وبعزائك في أحزانك . وما عليك إلا أن تشد أحزمة روئيناته وأن تنتظر هاهنا ، وأعدك أن أعود بعد قليل ، ميتاً أو حيّاً .

فلما رأى سنشو رسوخ عزم مولاه وقلة تأثير النصيح فيه والدموع والتوسلات ، قرّر أن يستخدم الحيلة ويحمّله ما استطاع على انتظار طلوع النهار طوعاً أو كرهاً . ومن أجل هذا ، بينما كان يشد أحزمة روئيناته ، ودون أن يرى أو يظهر عليه شيء ، ربط حافري الفرس بخطام الحمار ، حتى إنه حينما أراد دون كيخوته المسير لم يستطع ، لأن الفرس لم يقدر على الحركة ، اللهم إلا وثباً وقفزاً . فلما شاهد سنشو شيئاً أن حيلته أفلحت قال : - مولاي! ها أنت ذا ترى أن السماء تأثرت بدموعي وتضرعاتي فأمرت ألا يستطيع روئيناته الحركة من هنا ، وإذا لجّ بك العناد وعذبت هذه الدابة المسكينه ، فمعنى ذلك أنك تريد أن تعاند القدر وتشك الإبرة!

(١) أي أن الجشع والرغبة في ملء الجوالق (الشوال) بأكبر مقدار ممكن يجعل الجوالق تتمزق . وهو مثل سيرد ذكره كثيراً .

فاستولى اليأس على دون كيخوته ، وكلّما همّ بفirse ازداد عسر تحريكه . لهذا قرّر أن ينتظر حتى يطلع النهار أو يوافق روّثيناته على المسير ، ولم يداخله أي ظن أن هذه المقاومة إنّما أتت من حيلة سنشو . وقال :

- مادام الأمر هكذا وروّثيناته لا يشاء التحرك ، فلأقنع بانتظار أول بسمات الفجر وإلاّ كنت بالأحرى راعياً في البكاء على طول تأخّره في البروغ .

فقال سنشو : ليس ما يدعو للبكاء : فسأروي لك قصصاً حتى يدركنا الصباح ، اللهم إلا إذا كنت تودّ النزول والنعاس قليلاً على العشب النضير ، كما هي عادة الفرسان الجوّالة حتى تكون أوفر استعداداً ونشاطاً وأنت تقوم بهذه المغامرة التي لا يشبهها شيء .

- ماذا تقول ؟ أنام ؟ أنزل من فرسي ؟ هل أنا إذن واحد من أولئك الفرسان الذين ينامون في ساعة الخطر ؟ نعم أنت يا من خلقت للنوم ، أو أفعل ما شئت ، أمّا أنا فسأعمل ما أراه الأفضل .

- لا تغضب ، يا مولاي ، فلم أقل هذا لإثارة حفيظتك .

ثمّ اقترب منه وأمسك بإحدى يديه مقدّم السرج وبالأخرى مؤخرته حتى التصق بفخذ سيده اليسرى دون أن يجرؤ على الابتعاد عنه قيد أنملة ، لأن خوفاً عظيماً استولى عليه من سدى وقع الضربات وهي تتوالى على التبادل .

هنالك طلب دون كيخوته من سنشو أن يقصّ عليه حكاية كما وعده .

فأجاب سنشو : عن طيب خاطر ، لو سمح لي الخوف بالكلام . على أنّي سأبذل جهدي لأروي قصة ، لو استطعت أن أتمّها دون أن أنسى منها شيئاً لكنت خير قصة . فلينتبه مولاي إذن ، فسأبدأ :

« كان يا مكان... الخير لكل الناس والشرّ للذي يسعى فيه... وأرجو أن تلاحظ يامولاي ، ما اعتاد الأقدمون أن يبدأوا به أسماهم ، فلم يكونوا يبدأون بأي شيء ، بل بحكمة لكاتو ، الوالي الروماني ، تقول : « الشرّ لمن يسعى فيه » ، وهي كلمة تطابق مقتضى الحال هنا ، إذ تدلّ مولاي على وجوب التزام الجانب الأمين ، دون البحث عن الشرّ في أيّة ناحية كان ، وتدعونا الى سلوك سبيل أخرى ، إذ لاشيء يرغمنّا على متابعة السير في هذه الطريق التي تزخر بالمخاوف » .

فقال دون كيخوته : تابع قصّتك يا سنشو ، أمّا الطريق التي نسلكها فدع أمرها لي وحدي .
فاستأنف سنشو قائلاً : « أقول إذن أنّه في ناحية من نواحي استرامدورا عاش راعي ماعز ، أي يحرس الماعز ، وهذا الراعي للضأن أو الماعز ، كما تروي قصّتنا هذه ، كان يدعى

لوط رويث ، ولوط رويث هذا كان يحب راعية تدعى تورلبا ، وهذه الراعية المدعوة تورلبا كانت بنت صاحب قطعان غني ، وصاحب القطعان الغني هذا...» .

فقاطعه دون كيخوته قائلاً ، إذا كنت ستروي قصتك على هذا النحو ياسنشو ، فتكرّر ما تريد أن تقوله مرتين ، فلن تنتهي في يومين . أروها ببساطة ومباشرة كرجل ذكي ، وإلا فاسكت ولا تُضف شيئاً .

فأجاب سنشو : كل القصص التي للأسمار تروى في قريتنا على النحو الذي أبديته ، ولا أستطيع أن أرويها بطريقة أخرى ، وليس من العدل أن يطالبني مولاي بابتكار طرق جديدة . فقال دون كيخوته ، أرو إذن كما يحلو لك ، ومادام الحظ يضطرتني الى الاستماع إليك ، فاستمر .

فقال سنشو : يا سيد نفسي! تعرف إذن ، كما قلت من قبل ، أن هذا الراعي كان عاشقاً للراعية تورلبا التي كانت فتاة بدينة منتفخة ، شرسة بل عليها سيما الرجال لأنه كان لها شارب ، حتى لأكاد أراها وأنا في موضعي هذا . فسأله دون كيخوته : هل عرفتها إذن ؟

فقال سنشو : كلاً لم أعرفها ، لكن الذي حكى لي الحكاية قال لي أنها صحيحة ومؤكدة الى درجة أنني لو حكيتها الى شخص آخر ، ففي وسعي أن أحلف وأؤكد أنني شاهدت بعيني كل ما وقع فيها من أحداث . والشاهد إذن أنه مع مرور الأيام ، كما يقال ، جاء الشيطان وهو لا يغفل أبداً ، ودائماً يدس أنفه في كل شيء لإفساده ، فدخل بينهما حتى أن حب الراعي للراعية إنقلب الى كراهية وحقد ، وألسنة السوء تقول أن السبب فيما وقع هو قدر من ألوان الغيرة التي سببتها له شيئاً بعد شيء ، حتى تجاوزت المزاح ، ومنذ ذلك الوقت اشتدت كراهية الراعي ولم يطق رؤية الراعية حتى أنه صمّم على هجرة الأوطان والذهاب الى حيث لاتقع عليه عينها أبداً . فلما شاهدت تورلبا انصرف لوب عنها اشتد غرامها أكثر من غرامه السابق بها .

فقال دون كيخوته : هذه طبيعة النساء : ينصرفن عنّن يحبّهن ، ويحببن من ينصرف عنهن . استمر .

فاستأنف سنشو : حدث إذن أن الراعي نفذ تصميمه ، فدفع ماعزه أمامه متجهاً في سهول استرمدورا للعبور الى مملكة البرتغال . فلما بلغ تورلبا نبأ هروبه ، سارت في إثره ، وتابعت من بعيد ، سائرة على قدميها وحذاؤها في يد ، وعكازة في اليد الأخرى ، وقد علّقت في عنقها خراجاً صغيراً يقال إنه يحتوي على قطعة من مرآة ونصف مشط وعلبة صغيرة فيها مسحوق

لتزيين الوجه . ولكن سواء أكانت تحمل هذه الأشياء أو لا تحملها - فهذا أمر لاؤدّ تحقيقه الآن - فالذي حدث هو أنّ الراعي قدم ومعه قطيعه ليعبر نهر الوادي الكبير في الوقت الذي زاد فيه فيضانه إلى حد أن أوشك على الخروج عن مجراه . ولم يكن في الناحية التي أتى منها لازورق ولا سفينة ولا ملاح ليعبر به وقطيعه من الماعز ، فأثار ذلك حفيظته لأنه أبصر تورلّبا في إثره وهي بسبيل أن تضايقه بعبراتها وصرخاتها . قتلت ذات اليمين وذات الشمال ، وفي النهاية أبصر صياداً بالقرب منه زورق صغير لا يتسع إلا عنزة واحدة ورجلاً . ورغم ذلك ناداه وقاوله ليعبر به إلى الشاطئ، الآخر هو والثلاثمائة عنزة التي معه . فاستقلّ الصياد زورقه وأخذ عنزة وعبر بها ، ثم عاد وعبر بثانية ، ثم عاد وعبر بثالثة ، ثم عاد وعبر برابعة... ولينتبه مولاي وليعدّ الماعز التي يعبر بها الصياد ، إذ لونست واحدة ، لأنتهت القصة دون أن يمكن إضافة كلمة واحدة ، واستأنف القصة ، وأقول أنّ الشاطئ في الجانب الآخر كان وعراً طينياً لزجاً ، حتى أن الصياد تأخّر كثيراً في الذهاب والعودة . ورغم ذلك عاد يأخذ عنزة أخرى ، ثم أخرى أيضاً . وهنا صاح دون كيخوته : افترض إذن أنه عبر بها كلّها ، ودع الذهاب والعودة على هذا النحو ، وإلا فلن تنتهي من العبور بها في أقل من عام .

فسأله سنشو : كم واحدة عبرت حتى الآن ؟

فأجابه دون كيخوته : ومن يدري !

فقال سنشو : لقد قلت لك انتبه واحسب جيداً وإلا فقد انتهت القصة وقضي الأمر ولا سبيل إلى إتمامها .

فقال دون كيخوته : وكيف كان ذلك ؟ هل من الضروري في قصّتك أن نعرف بالدقّة عدد العنزات التي عبرت ، فلو أخطأنا في واحدة لا نستطيع أن نقص شيئاً بعد ؟ فأجاب سنشو : كلاً ، أبدأ يا مولاي إذ في اللحظة التي سألت فيها مولاي عن عدد الماعز التي عبرت فأجبت بأنك لاتدري ، كل ما بقي لي أن أقول ذهب من ذاكرتي . وكان هذا الجزء أحسن وألذ ما في القصة .

فقال دون كيخوته : إذن القصة انتهت ؟

فأجاب سنشو : نعم كما انتهت حياة أمي .

فقال دون كيخوته : أوكد لك أنّك حكيت أعجب حكاية أو قصة أو أقصوصة تمكن أحد أن يؤلفها في الدنيا كلّها ، وأنّ طريقتك هذه في روايتها وختمها لم ولن يرى لها نظيراً أبداً . على أنه لم يكن لي أن انتظر من ذكائك الخارق أمراً آخر . ولم تأخذني الدهشة ؟ لعل هذه الضربات ، التي لم يهدأ لها صليل ، قد عصفت بمخّك ؟

فأجاب سنشو : كل هذا ممكن ، لكن فيما يتصل بقصتي ، أعرف أنها تنتهي عند هذا الحد ، أي حيث بدأ الخطأ في عذ العنزات التي عبرت .
فقال دون كيخوته : حسناً ، فلتنته حيث شئت . لكن لنرى الآن ما إذا كان روئينانته يستطيع النهوض .

وضربه بمهمازه وهو يقول هذه الكلمات ، وأخذ الفرس يتواثب دون أن يتحرك من مكانه إذ كان محكم الوثاق .

وفي هذه اللحظة حدث - إما بسبب طراوة الصباح وقد تنفّس ، وإما لأن سنشو كان قد أكل في العشيّة السابقة شيئاً مسهلاً ، وإما ، وهو الأكثر احتمالاً ، لأن الطبيعة فعلت مفعولها فيه ، - نقول حدث أن سنشو أحسّ بالرغبة في إنزال ثقل لاحيلة لأحد في رفعه عنه . لكن الخوف كان قد استولى على نفسه إلى حدّ أنّه لم يجرؤ على الابتعاد عن مولاه قيد أنملة . ومن ناحية أخرى كان من المستحيل عليه أن يؤجّل هذا الأمر . وفي هذه الحيرة احتال للأمر بأن سحب يده اليمنى التي أمسك بها خلف السرج ، وبكل هدوء انتزع الدبّوس الذي يمسك بلباسه ، فنزل عنه إلى قدميه وقبّده بالأصفاذ ، ثم رفع شطر قميصه والقى في الهواء بردفيه الثقيلين . فلما فرغ من هذا واعتقد أنّه أنجز الجانب الأهم من هذه المحنة القاسية ، برزت لديه مشكلة أعسر وأعقد : إذ خيّل إليه أنّه لن يستطيع البدء في انجاز مهمته دون أن تحدث ضوضاء ، وها هو ذا يصرّ أسنانه ويشني كتفيه ويمسك أنفاسه بكل مافي رتبه من قوّة . لكن على الرغم من كل هذه الاحتياطات خانه الحظ فأفلتت منه ضوضاء خفيفة ، تختلف كثيراً عن تلك التي أثارت خوفه ، وسمعها دون كيخوته فسأل في الحال :
- ما هذه الضوضاء ؟

فأجاب سنشو : لا أدري يا سيدي! لكن هذا لابدّ أمر جديد ، لأنّ الأحداث والمصائب لا تأتي أبداً وحدها!

ثمّ قام بمحاولة أخرى ، نجحت معه تماماً دون أن تحدث أدنى ضجّة . وبهذا استراح من هذا العبء الثقيل الذي ضايقه أشد الضيق . لكن أنف دون كيخوته لم يكن أقل حساسية من أذنه ، وكان سنشو لصقه كأنه محيط به ، فانبعثت بعض الأبخرة وصعدت إلى خط مستقيم إلى أنفه . فلما شمّها استعان بأصابعه لتكون في عون خياشيمه التي ضغط عليها بين الإبهام والسبابة وقال بصوت فيه خنّف :
- يبدو لي ياسنشو أنّك تشعر الآن بخوف شديد .

فأجاب سنشو : نعم! لكن ماذا يجعل مولاي يعتقد أن خوفه الآن أشد من ذي قبل ؟
فقال دون كيخوته : لأتلك تفوح منك رائحة أشد من ذي قبل ، وليست رائحة عنبر هذه!
فقال سنشو : هذا ممكن أيضاً لكنّ الذنب ليس ذنبي ، بل ذنب مولاي الذي قادني في
هذا الوقت غير الملائم الى هذه النواحي المهجورة .

فقال دون كيخوته دون أن يسحب أصابعه من أنفه :
- ابتعد بضع خطوات ، يا صديقي ، ومنذ الآن فصاعداً راع شخصي وما يجب عليك
نحوي ، وعدم الإحترام هذا إنّما نشأ من فرط ما تركت لك من الحرية معي .
فأجاب سنشو : أراهن أن مولاي يظن أنني فعلت بنفسه شيئاً كان يجب ألا أفعله أبداً .
فقال دون كيخوته : دع هذا ، دعه! فهذه أمور يحسن عدم إثارتها .

في هذه الأحاديث وأشبهاتها أمضى المولى والخادم بقية الليل . ولم يكد سنشو يرى
الفجر يبرز حتى حلّ وثاق روئيناته بكل هدوء . ولما شعر الفرس بالحرية عادت الشجاعة
اليه . وعلى الرغم من أنه لم يكن جموحاً بطبعه ، فقد بدأ يضرب بمقدم حوافره ، أما أن
ينحني فقد كان أمراً عنده عسيراً . فلما رأى دون كيخوته أن روئيناته بدأ يتحرك ، تفاءل
وأبصر في هذا إنذاراً بخوض هذه المغامرة الرهيبة!

وفي تلك الأثناء كان النهار قد أشرق وبانت الأشياء بوضوح . فرأى دون كيخوته نفسه
تحت خميلة من أشجار الكستناء الباسقة لها ظل كثيف ، أما صوت الضربات الذي لم ينقطع
أبداً فلم يستطع أن يتبين مصدره . لهذا لم يشأ الإنتظار وهمز روئيناته وودّع حامل سلاحه
مرة أخرى وأمره أن ينتظره في هذا المكان ثلاثة أيام على الأكثر - كما قال له في المرة
السابقة - بعدها إذا لم يعد فليوقن سنشو أن إرادة الله قد شاءت أن تذهب حياته في هذه
المغامرة الخطيرة . ثم ذكره بسفارته الى سيدته دلثنيا وماسيقوله لها ، وأضاف قائلاً
لسنشو ألا يشغل بمسألة دفع أجرته ، لأنه ، أي دون كيخوته ، قد ترك وصية قبل مغادرة
بلدته أوصى فيها بأن يدفع له أجره ومكافأته عن المدة التي خدمه فيها واستمر يقول :
- لكن لو شاءت إرادة السماء أن أخرج من هذا الخطر سليماً معافى ، فيمكنك أن
تحسب من المؤكد كل التأكيد أنك ستملك الجزيرة التي وعدتك بها .

فلما سمع سنشو عبارات مولاه الطيب الرقيقة المؤثرة ، راح يبكي وصمم على ألا يترك
سيده حتى ختام هذه المسألة تماماً . ومن هذه العبرات وهذه العزيمة النبيلة يستنتج المؤلف
هذه القصة أن سنشو ينثا لابد أن يكون من أصل نبيل ، أو على الأقل أنه مسيحي عريق في
المسيحية . فآثار حزنه رقة شعور مولاه ، لكن لا الى الحد الذي يكشف عن ضعف . كلاً ،

بل كتم مشاعره ما استطاع ، وسلك سبيله قُدماً صوب الجهة التي خيل إليه أن منها تنبعث
ضوضاء الماء والضربات .

وفي إثره مشى سنشو ، كعادته ، يقود حماره ، رفيقه الأبدى في السراء والضراء .
ولمّا سارا زمناً بين أشجار القسطل الكابية ، بلغا مرجاً صغيراً يمتد عند قرار رواب مرتفعة
يساقط منها شلال جميل يهدر بشدة . وعلى مستقر هذه الصخور بيوت حقيرة أشبه
بالخرائب منها بالمنازل ، وأدركا أن من وسطها تنبعث ضجة هذه الضربات المتواصلة
باستمرار . فزع روئيتانته من ضوضاء الضربات ومسقط الماء ، فهدأ دون كيخوته روعه
بالكلمات واللمسات ، ثم اقترب من هذه البيوت قليلاً قليلاً ، وبكل قلبه تضرّع الى سيدته
لتمنحه عنايتها في هذه المغامرة الرهيبة ، كما توسّل الى الله ألا ينساه . أمّا سنشو الذي
التزم جانب مولاه فقد مدّ رقبته ونظره تحت بطن روئيتانته - قدر ما في وسعه - ليرى جلية
الأمر فيما عمر نفسه بالشك والقلق زمناً طويلاً . وعلى هذا النحو خطوا مائة خطوة حتى
تبين لهما ، عند منعطف صخرة ، علّة هذه الضجة التي أشاعت في نفسيهما طوال الليل كلّ
مخاوف شديدة ، ولم يكن (إذا لم يشر هذا في نفسك ، أيها القارئ ، أسفاً ولا حقناً) ثمة
من سبب لها إلا ست مطارق طاحونة^(١) كانت ضرباتها المتبادلة تؤلف كل هذه الضوضاء .

فلمّا تبين دون كيخوته جلية الأمر اعتصم بالصمت ، وامتقع لونه وترنّح من أعلى رأسه
حتى أخمص قدميه . ونظر اليه سنشو فرأى رأسه مائلاً على صدره كمن تسربل بالعار
والخجل . ونظر دون كيخوته الى سنشو ، فأبصر خديه منتفخين وفمه مليئاً بالرغبة في
الضحك حتى ليكاد يخنق منها ، ولم يتماسك حزنه أمام تقطيع سنشو المضحكة ، فسلم
نفسه للإبتسام . ولم يكد سنشو يرى مولاه يفتر عن ابتسامته حتى انطلق في ضحك لجّ فيه
وأمعن حتى اضطر أن يمسك بأحشائه لنلا يموت من الضحك . وسكت عنه الضحك أربع
مرات ، واستأنف الضحك أربع مرات في عنف لا يقل عن عنف المرة الأولى فنثارت ثائرة دون
كيخوته خصوصاً حينما سمع سنشو يقلّده في نبراته وحركاته ويصيح : « اعلم ، أي صديق
سنشو ، أنني ولدت بإرادة السماء في عصرنا الحديدي هذا لأبعث العصر الذهبي : ولي أنا
الأخطار الرهيبة والأعمال الرائعة ، والمغامرات الفذة » ويستمر في تكرار هذه الكلمات التي
تفوّه بها مولاه حينما سمع ضجة ضربات المطرقة في المرة الأولى . فلمّا رأى دون كيخوته

(١) هذا النوع من الطواحين المسمّى baton عبارة عن ماكينة عادية تتألف من بعض مطارق خشبية كبيرة تحركها عجلة تتحرك بواسطة
الماء المنحدر ، وتستخدم في تنظيف الأقمشة وصقلها . وكان واسع الانتشار والاستعمال في إقليم المنتشا في إسبانيا في العصر
القديم (العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث) .

أن سنشو يسخر منه كل هذه السخرية ، تملكه من الغضب ماجعله يرفع مقبض رمحه ويهوي عليه بضربتين قاسيتين لو كانتا أصابتا الرأس كما أصابتا الكتفين ، لكان في حلّ من دفع راتب له إن لم يكن لورثته . فلما أدرك سنشو أن مزاجه قد جرّ عليه كل هذا الويل ، خشى أن يعاود سيده الجزاء فاستكان وتذلل وقال بلهجة المستغفر :

- ليهداً روح مولاي! وأيم الله لقد كنت أمزح .

فأجابه دون كيخوته : ولأنك تمزح أنا لأمزح . تعال أيها الهازل وأجبني ، هل تظن لو أنه كانت هذه المطارق مغامرة خطيرة لما كنت أبديت شجاعة في خوضها الى نهايتها ؟ وهل أنا الفارس ملزم بتمييز الأصوات وإدراك ما إذا كانت الضجة التي أسمعها آتية من مطارق أو من شيء آخر ؟ ألا يمكن - وهذا عين الحق - ألا أكون سمعتها ولا رأيته في حياتي ، كما سمعت أنت وشهدت أيها الجلف الشرير الذي ولد ونشأ في جوارها ؟ وإلا فأرني أن هذه المطارق الست قد تحولت الى ستة مرده ، ثم ادفعها إليّ الواحد بعد الآخر وأرجلها في أعلاها ، فلك أن تسخر مني ما وسعتك السخرية .

فأجابه سنشو : حسبنا هذا يامولاي ، وأنا أعترف أنني قد أطلقت العنان لنفسي أكثر مما يجب . لكن أخبرني وقد تصالحنا وعاد بيننا السلام ، ولعل الله أن ينخيك من كل المخاطر كما نخاك منها هذه المرة! - أخبرني أليس ثمة ما يضحك ويتندر به في هذا الخوف البالغ الذي استولى علينا ؟ أعني الذي استولى عليّ أنا ، لأنني أعلم أن مولاي لم يعرف اسم الخوف أبداً!

فقال دون كيخوته : لست أنكر أنه لم يكن فيما وقع لنا ما يدعو الى الضحك ، لكنني لا أظن أن فيه ما يتندر به لأن جميع الذين سيسمعونك ليس لديهم من الفطنة ما يجعلهم يفهمون الأمور على وجهها الصحيح .

فأجاب سنشو : أنت على الأقل عرفت كيف تستعمل مقبض الرمح على الوجه الصحيح ، لأنك استهدفت الرأس فأصبت الكتفين ، بفضل الله وبما أتيت من انحراف ناحية اليمين . لكن لاعلينا فكل شيء يضيع بالغسل كما يقال ، وكثيراً ما سمعت الناس يقولون : من أحبك أبكاك ، خصوصاً والسادة الكبار اعتادوا أن يصفعوا خدمهم بعد شتمهم . ولا أدري ماذا يعطونهم بعد ضربهم إياهم ، لكنني أتصور أن الفرسان الجوّالة يعطون بعد الضرب بالعصا جُزراً أو ممالك راسخة الدعائم .

فقال دون كيخوته : يمكن أن يتحول الحظ على نحوٍ يتحقّق معه كل ماتقول . فاصفح عما سلف وأنت رجل عاقل وتعلم جيداً أن الحركات الأولى التي تبدر من الإنسان ليست ملك يمينه ولكنني أريد أن أخبرك بشيء حتى تملك زمامك وتمتّع من التناول في الكلام معي : وذلك أنني لم

أقرأ في أي كتاب من كتب الفروسية - وهي لا تحصى - أن حامل سلاح قد ثرثر مع مولاه بهذه الجراءة كما تفعل أنت مع مولاك . والحق أن كلينا على خطأ ، أنت ، لأنك لا تحترمني كما يجب ، وأنا ، لأنني أتساهل في حقّي في الاحترام . فهذا جنجالين ، حامل سلاح أماديس الغالي ، الذي أصبح كونت الجزيرة الغابطة - يقال أنه لم يخاطب مولاه أبداً إلا وقبّعتة في يده ورأسه خفيض وجسمه منحني ، على عادة الترك . لكن ماذا تقول في جسد حامل سلاح دون جلاور ، فقد بلغ من التواضع حداً جعل اسمه لا يظهر في هذه القصة الحقيقية الطويلة إلا مرة واحدة ، وهذا دليل على قدرته العجيبة على الصمت ؟ فمن كل ما ذكرت عليك أن تستنتج ، أيّ سنشو ، أن احترام الخادم لمولاه أمر ضروري وكذلك احترام التابع الإقطاعي لسيد الإقطاع واحترام حامل السلاح للفارس . لهذا يجب علينا إذن أن نتعامل بمزيد من الاحترام دون تبسط ولا مغالاة في المزاح . وعلى كل حال فأني غضب غضبته عليك ، فالمغنية دائماً على الإبريق^(١) . والنعم والمكافأة التي وعدتك بها استمنح في ميعادها ، وإذا لم تأت كما وعدتك فإن أجرك لن يضيع .

فأجاب سنشو : كل ما يقوله مولاي عظيم ، لكنني أريد أن أعرف . إذا قدر ولم يئن ميعاد المكافأة أبداً . وكان لامناص من الاكتفاء بالأجر - كم كان يكسب في ذلك الزمان حامل سلاح فارس جوال ، وهل كان أجره مشاهرة ، أو مياومة كصبيان البنائين .

فقال دون كيخوته : أعتقد أن حملة السلاح في ذلك الزمان لم يكن لهم أجر معلوم ، بل حسب رغبة السيد الفارس ، وإذا كنت قد عيّنت لك أجراً في الوصية المختومة التي أودعتها في منزلي ، فذلك من أجل ما قد يقع . والحق أنني لا أعرف ماذا على الفروسية أن تفعل في هذه الأزمنة البائسة التي نعيش فيها ، ولا أريد أن تقلق روحي في العالم الآخر بسبب شيء ، تافه كهذا . ويجب أن تعلم ياسنشو أنه لا يوجد في الدنيا عمل أشق وأحفل بالأخطار من عمل المغامرين في الأخطار .

فأجابه سنشو : أعرف هذا جيّداً ، لأن مجرد ضجة مطارق الطاحون قد أشاعت الاضطراب والقلق في قلب جوال شجاع مثل مولاي . وكن مطمئناً تماماً لن أمزح في أمورك بعد ، بل سأجلك بوصفك سيدي ومولاي الطبيعي .

فقال دون كيخوته : هذه الحالة إذن ستعيش ، كما يقولون ، على وجه الأرض ، لأن احترام السادة يأتي في المرتبة التالية لاحترام الوالدين ، وكأنهم لهم نفس الحقوق ونفس المكانة .

(١) هذا مثل اسباني يقول «إذا وقع الحجر على الإبريق فويل للإبريق ، وإذا وقع الإبريق على الحجر ، فالويل أيضاً للإبريق» .

الفصل الحادي والعشرون

في المغامرة الرائعة والغنيمة الوافرة التي ظفر فيها بخوذة
ممبرينو، وفي أمور أخرى جرت لفارسنا الذي لا يُظهر

في تلك الأثناء بدأ المطر في السقوط ، فودّ سنشو الاحتماء منه بطواحين النسيج .
لكن دون كيخوته أحسّ لها بكراهية شديدة بسبب عبثها به ، فلم يشأ أبداً الموافقة على
دخولها . بل شدّ العنان فجأة ناحية اليمين ، ثم بلغا طريقاً شبيهاً بطريق الأس .
وعلى مسافة قليلة أبصر دون كيخوته رجلاً راكباً على فرس ، يحمل على رأسه شيئاً
يرفّ ويلمع كأنه من ذهب . ولم يكذب يراه حتّى التفت الى سنشو وقال :
- يخيل إليّ يا سنشو أنّه لا يوجد مثل بغير معنى حقيقي ، لأنّ الأمثال أقوال منتزعة
من التجربة نفسها ، وهي أمّ العلوم كلّها ، وخصوصاً المثل الذي يقول : إذا انغلق باب انفتح
آخر . فإذا كان الحظ قد أغلق بالأس باب المغامرة التي سعيها إليها ، فما هوذا يفتح على
مصراعيه باب مغامرة أحسن وأوثق . فإن لم أنجح هذه المرة في العثور على المدخل ،
فالغلطة ستكون غلطتي دون أن أجد وجهاً للإعتذار بجهلي بطواحين الأقمشة ، أو بظلام
الليل . وإنما أقول هذا لأنّي أرى - لو صدق حدسي - قادماً من هذه الناحية يلبس على
رأسه خوذة ممبرينو التي اقسمت من أجلها القسم الذي لم تنسه .
فأجاب سنشو : بحق الله يامولاي إلّا أخذت حذرک مما تقول ، ومما أنت فاعل ،
فلست أريد أن نكون بإزاء مطارق طواحين أخرى تطرقنا وتطحن عقولنا
فصاح دون كيخوته : يا لك من شيطان في إنسان! أي شبه بين الخوذة والمطارق ؟
فأجاب سنشو : لست أدري! لكن لو كان في وسعي الكلام كما اعتدت لأبديت
لمولاي من الأسباب ما يجعله يرى أنّه مخطئ ، فيما يقول .
فقال دون كيخوته : كيف أخطئ فيما أقول ، أيها الخائن المتحذلق المدقق ؟ قل لي : أولاً
ترى ذلك الفارس المقبل علينا ممطياً سهوة فرس أغبر أرقط ، وعلى رأسه خوذة من الذهب ؟

فأجاب سنشو : ماأراه وأتبيّنه ليس إلا رجلاً يركب حماراً رمادياً مثل حماري ، وعلى رأسه شيء يلمع .

فقال دون كيخوته : نعم هذا الشيء الذي يلمع هو خوذة ممبريو . فانتح جانباً ودعني ألاقه وحدي . وسترى كيف أتمّ هذه المغامرة دون أن أنبس بكلمة اقتصاداً للوقت ، وأستولي على هذه الخوذة التي طالما تمنيتها .

فقال سنشو : أما الانتحاء جانباً فهذا شأني ، لكنني أقول مرة أخرى لعل الله أن يجعله صعتراً لا مطارق .

فقال دون كيخوته : لقد أخبرتك ياأخي ألا تصمّ أذاني بهذه المطارق ، وحق... - ولا أزيد - وإلا طرقت روحك!

فصمت سنشو ، خوفاً من أن ينفذ دون كيخوته قسمه ، لأنه كان قد ضربه فأصماه وأدماه .

وها نحن أولاء نذكر لك نبأ هذه الخوذة وهذا الفرس والفارس التي رآها دون كيخوته ، كان في هذه النواحي بلدان متجاوران ، أحدهما كان من الصغر بحيث لم يكن فيه صيدلي ولاحلاق ، والآخر أكبر منه وفيه كلاهما . وكان حلاق البلد الأكبر يعمل أيضاً لأهل الأصغر فيفصد هذا ويحلق لحية ذاك . ولأداء هاتين المهمتين كان يذهب حاملاً صحن حلقة من النحاس^(١) الأصفر . وشاء القدر أن يفاجئه المطر في الطريق ، فلكي يحمي قبعته - وكانت جديدة من غير شك - وضع عليها صحن الحلقة وكان مصقولاً فكان يلمع من مسافة بعيدة . وكان يركب حماراً رمادياً ، كما قال سنشو ، ولهذا ظن دون كيخوته أنه أبصر فرساً أغبر أرقط وفارساً وخوذة من الذهب : لأن جميع مايلفت نظره كان يرتبه بسهولة وفقاً لهذيانه الفروسي وخواطره الشاردة .

فلما أبصر الفارس المسكين قادماً عن قرب ، لم يوجّه إليه كلمة بل انقض عليه بكل ما في وسع روئينانته من قدرة على الركض ، ورمحه مصوب ، وفي عزمه أن ينفذه فيه من جنب فيخرج من الجنب الآخر ، لكن في اللحظة التي أوشك فيها أن يبلغه صاح فيه دون كيخوته دون أن يهدى من اندفاع جريه :

- دافع عن نفسك ، أيها المخلوق الحقير ، أو سلّم اليّ عن طيب خاطر ماأستحقه بجدارة .

(١) الكلمة الإسبانية Azofar عربية هي ، الصفر (بضم فسكون) أي النحاس الأصفر .

وشاهد الحلاق - الذي لم يتوقع ولم يخطر بباله شيء من هذا كله - هذا الشبح ينقض عليه ، فلم يجد وسيلة للإحتماء من ضربة الرمح إلا أن يقع من فوق حماره ، ولم يكد يلمس الأرض حتى نهض أخف من الظبي وأطلق ساقيه للريح في السهل المنبسط بحيث لم يكن للريح نفسها أن تلحقه ، تاركاً صحن الحلاقة على الأرض - وكان هذا كل ما رغب فيه دون كيخوته ، فصاح قائلاً إن الوثني كان فطناً ، حاكى القنندس ، فإن القنندس إذا أطبق عليه الصيادون قطع بأسنانه ماتدله الغريزة على أنه موضوع طلبهم . ثم أمر سنشو بالتقاط الخوذة ، فأخذها هذا ووزنها في يده وقال :

- والله هذا الصحن جيد ، ويساوي ريالاً ثمانية^(١) مثل المرابطي .

ثم أعطاه لمولاه فوضعه على رأسه في الحال ، وقلبه على كل وجه ليتبين كيفية وضعه ، ولما لم يهتد الى ذلك صاح :

- لا بد أن يكون الكافر الذي صنعت هذه الخوذة الشهيرة لأول مرة وفق مقاسه كان ذا رأس كبير جداً ، وما هو أدهى من هذا هو أنه ينقصها نصفها .

فلما سمعه سنشو يسمي صحن الحلاقة خوذة لم يتمالك من الضحك الشديد ، لكنه تذكر غضبة سيده فأمسك وهو في نصف الضحك .

فقال دون كيخوته : مم تضحك يا سنشو ؟

فأجاب : أضحك مما عسى أن يكون كبر رأس هذا الكافر صاحب هذه الخوذة التي تشبه صحن حلاقة خذو القذّة بالقذّة .

فقال دون كيخوته : هل تدري ما أتصوره ؟ إنني لأتخيل أن هذه القطعة الفريدة ، هذه الخوذة المسحورة لا بد أن تكون قد وقعت ، بالصدفة الغريبة ، في يد من لا يعرف قيمتها ولا يقدرها حق قدرها ، فلما رآها من الذهب الخالص فكّر في صهر نصفها للإفادة من ثمنه ، دون أن يعلم ماذا يفعل ، فبقي النصف الآخر على هذه الصورة التي يجعله يشبه صحن حلاقة ، كما تقول . ومهما يكن من أمرها ، لكنني وأنا أعرفها لأهتم بما جرى لها ، بل سأصلح من أمرها عند أول حداد نلقاه في أول قرية نمر بها ، بحيث تصبح لاتقلّ أبداً عن الخوذة التي صنعها ربّ الحديد لرب المعارك^(٢) . والى أن يتم إصلاحها سأحملها على

(١) الريال الغماني rent de u ocho يساوي ثمانية ريالاً من الفضة ، أي ستة عشر ريالاً عادياً .

(٢) يقول رودريجت مارين في تعليقه هنا : « لا ذكر أن فولكانو صنع أسلحة للمريخ ، وإنما أعرف أن المريخ هو الذي صنع أسلحة لفولكانو ، أسلحة من أردا الأنواع ، بدخوله في علاقات وثيقة مع زوجته فينوس » . ولكن هذه الملاحظة ساخرة ، والحق أن فولكانو (إله الحديد) قد صنع أسلحة لأخيلوس وأينوس .

علاتها ، فإن شيئاً أفضل من لاشيء ، وعلى كل حال فستكون كافية لحماية من الحجارة .
فقال سنشو : نعم ، بشرط ألا ترمى الحجارة بمقلاع ، كما حدث في معركة الجيشين
لما أن كسروا ثناياك وحطّموا القارورة التي وضعت فيها ذلك الشراب المبارك الذي جعلني
أتقيأ كبدي .

فقال دون كيخوته : لست كاسف البال لضياعه ، لأنني أتذكر تركيبه جيداً كما تعلم
يا سنشو .

فقال سنشو : وأنا أيضاً أذكره جيداً ، لكن إذا ركبته أو تدوّقته مرّة أخرى في حياتي ،
فلتكن تلك نهاية عمري . على أنني لا أفكر أبداً بوضع نفسي موضع الحاجة اليه ، بل
بالعكس ، أرى أن أحتاط بكل قواي الحسية حتى لا أجرح ولا أجرح أحداً . أمّا أن أرتجح
مرّة أخرى ، فهذا أمر لا أدري عنه شيئاً ، لأنه من المصائب التي لا يقدر المرء أبداً على
تلافيتها ، وإذا وقعت فلا شيء أفضل من ثني الأكتاف وكنم الأنفاس وإغلاق العينين ، وأن
يترك المرء نفسه إلى حيث يرسلها البخت والعطاء .

فقال دون كيخوته عند سماعه هذه الكلمات : يالك من مسيحي خبيث ياسنشوا إنك لا
تنسى أبداً الإهانة التي ألحقت بك . لتعلم إذن أن من شيم القلب النبيل الكريم ألا يحفل أبداً
بهذه الصغائر . قل لي : بأي رجل تعرج ؟ وأي أضلاعك رضى ، وأي رأس محطّم استنقذته من
المعركة - حتى لاتنسى هذا المزاح الخفيف ؟ فحقيقة الأمر أنه لم يكن إلا مزاحاً وهزاءً . ولو
لم أفهم الأمر على هذا ، لكنت عدت الى هناك فأحدثت من التخريب والتدمير ما لم يفعله
اليونانيون انتقاماً لخطف هيلانة ، هيلانة التي لو وجدت في عصرنا هذا ، أو وجدت حبيبتى
دُلثنيا في عصرها ، لكان من المؤكّد تماماً أنّها لن تكون لها كل هذه الشهرة بالجمال .

وهنا زفر زفرة حارة أطلقها في الهواء حتى السحاب .

فقال سنشو : ليكن الأمر إذن لإضحاحهم مادام ليس في الإستطاعة إبكائهم . أمّا أنا
فأعرف جيداً ماذا كان للإبكاء وماذا كان للإضحاح ، ولن يذهب من ذاكرتي كما لن يذهب
من جلد أكتافي . ودعنا من هذا وقل لي ، إن تفضّلت يامولاي ، ماذا نحن فاعلون بهذا
الفرس الأشهب الأبقع الذي يبدو كأنه حمار رمادي والذي تركه مرتينو ذلك الذي جندلته ،
إذ يبدو من هيئته في الهرب أنه لاينوي العودة لأخذه . وبحق لحيتي إن هذا الفرس ليس
بالرديء .

فأجابه دون كيخوته : ليس من عادتي أبداً سلب من أزهّمهم ، وليس في عرف
الفروسية انتزاع الأفراس منهم وتركهم يسيرون على الأقدام ، اللهم إلا إذا كان المنتصر قد

فقد فرسه في المعركة ، هنالك يجوز له أن يأخذ فرس المهزوم ، لأنه غنيمة في حرب مشروعة . وإذن فاترك هذا الفرس أو الحمار أو ماشئت أن تطلق عليه من أسماء ، ياسنشو ، فإن صاحبه حين يرانا ابتعدنا من هاهنا ، سيعود لأخذه . فقال سنشو ، يعلم الله كم أودّ أخذه أنا ، أو على الأقل استبداله بحماري الذي لا يبدو لي فارهاً ، والحق أن قوانين الفروسية ضيقة ، مادامت لاتتسع حتى لإستبدال حمار بحمار . ولكنني أود أن أعرف ما إذا كنت أستطيع استبدال جهازه . فأجاب دون كيخوته : هذا أمر لست منه على بيّنة ، وفي حال الشك ، وإلى أن أحصل على معلومات أوفى ، أسمح بالبدل إذا كنت في حاجة قصوى إليه . فقال سنشو : قصوى جداً الى حد لو كان هذا الجهاز لشخصي أنا ، لمأ كانت حاجتي إليه أشد .

فلما ظفر بهذه الرخصة قام بعملية البدل^(١) mutatio capprum (كما يقول الطلاب) ، وزين حماره بالجهاز فتبدي رشيقياً أنيقاً . ولما فرغ من هذا ، أكلا من بقايا الغنيمة التي ظفرا بها من فوق بغل التساوسة وشربا من ماء الجدول الذي يغذي طواحين سبك الصوف ، دون أن يديرا وجهيهما ناحية الطواحين ، لشدة بغضهما لها بسبب ما أحدثته في نفوسهما من ذعر . وذهب الغضب مع الشهية ، بل ذهب سوء المزاج كذلك ، فامتطيا الفرس وبدأ المسير في غير اتجاه معلوم ، ابتغاء أن يكونا أقرب الى شيم الفرسان الشاردين ، مسلمين قيادتهما الى روئينانته ، الذي سارت وراءه إرادة سيده ، وتبعته إرادة الحمار وقد كان يسير دائماً أنى اقتاده الفرس . وعلى هذا النحو عادا الى الطريق العام فالتزماء حيثما اتفق دون هدف معلوم . وبينما كانا يسيران قدما هكذا ، قال سنشو لسيده :

- مولاي! هل تسمح لي بالتحدث قليلاً إليك ؟ منذ أن فرضت عليّ هذا الأمر القاسي بالصمت ، تعفن الكثير في جوفي ، وعندى الآن شيء على طرف لساني ، شيء واحد لأودّ أن يضيع هكذا سدى .

فأجابه دون كيخوته : قل لي ما هو ، وكن موجزاً في كلامك ، فالكلام إذا طال أمل . فأجاب سنشو : أقول إذن يا مولاي أنني بقيت طوال أيام أفكر فيما يجنيه المرء من قليل هزيل بالسعي وراء هذه المغامرات التي تنشدها في هذه الأنحاء القاحلة ومفارق الطرق :

(١) على عادة تربيّس من السخرية بالحدقة ، استخدم هنا هذه العبارة اللاتينية التي تدل على مرسم يجري في عيد القيامة (قيامته) السيد المسيح . وهو يوم تحتفل فيه الكنيسة الكاثوليكية كل عام بقيام المسيح من قبره في اليوم الثالث من صلبه) في هذا اليوم يستبدل الكرادلة والمطارنة في الكهنوت الروماني بقبعاتهم ومعاطفهم الجلدية أخرى من الحرير الأحمر الحقيقي .

فحيث لا يوجد أحد لمشاهدتها والعلم بها ، أيتاً كانت الأخطار التي يواجهها المرء والانتصارات التي يقوم بها ، فإن أعمالك الباهرة ستظل دفينّة في نسيان دائم ، رغم نوايا مولاي الطيبة ومزاياها الحقيقية . ولهذا يبدو لي - والرأي لمولاي - أن الأفضل أن نغدوا لخدمة امبراطور أو أمير عظيم ، يكون في حاجة الى القيام بحرب ، فيستطيع مولاي أن يكشف بخدمته عن مزايا ساعده وشدة أسره وفرط ذكائه ، حتّى إذا ما شاهد السيد الذي نكون في خدمته هذا كلّهُ ، كان لزاماً عليه أن يكافئنا ، كلاً بحسب فضله . وهناك أيضاً سنجد كتاباً يسجلون كتابّة أعمالك الخارقة يامولاي ، حتّى تظل ذكراها باقية أبداً . أمّا أعمالنا ، فلا أقول عنها شيئاً ، لأنّها يجب ألا تخرج عن حدود مجد السّوّاس ، ورغم ذلك ففي وسعي أن أقول إنه لو جرى العرف في الفروسية بتسجيل أعمال السّوّاس ، فإنّي أعتقد أن أعمالنا لن تبقى بين السطور .

فأجابه دون كيهوته : كلامك هذا ليس بالقبيح ياسنشوا لكن قبل بلوغ هذه المرحلة ، لابدّ أولاً من السعي في مناكب الأرض بحثاً عن المغامرات وكأنّهن محن ، حتّى يكسب المرء من وراء هذه الأعمال الرائعة اسماً وشهرة . فإذا مثل في حضرة ملك كبير سبقته شهرة أعماله ، وإذا جاوز أبواب المدينة تبعه الصبية وأحاطوا به صائحين : « هذا فارس الشمس^(١) » ، أو فارس الأفعوان^(٢) ، أو آية شارة أخرى عرف بها أنّه من ذوي الأفعال المجيدة . فيقولون : « هذا هو الذي قهر في معركة فردية المارد الهائل بروكابرونو ذا القوة العظيمة ، هذا الذي خلص من السحر مملوك^(٣) الفارس الكبير ، وكان مسحوراً من تسع سنوات تقريباً » . وهكذا تذاق أعمالنا من فم الى فم ، وبعد هذا تطرق مسامع السلطان هذه الضجّة التي يثيرها الصبيان والعامة كلّهم فيظهر من شرفة قصره الملكي . حتّى إذا أبصر الفارس وتعرّفه من لون سلاحه وشارة ترسه اندفع صائحاً رغباً عنه : « آه ! هيا يافرساني المقيمين في قصري ، انهضوا لاستقبال زهرة الفروسية ، فهاهوذا قادم ! » فيخرج الجميع لدى سماعهم هذا الأمر ، وينزل هو بنفسه حتّى منتصف درجات السّلم ، ويعانقه عناقاً حاراً ، ويقبله قبله السلام على وجنته^(٤) ، وسرعان ما يقتاده من يده الى جناح الملكة ، فيجدها

(١) في قصة « بلمرين دي أليفا » ، الفصل ٤٣ .

(٢) في قصة « اسبلنديان » ، الفصل ١٤٧ و١٤٨ .

(٣) يأخذ كلمنتين على ثرينتس أنه يستعمل التعبير : « المملوك الكبير » بينما المستعمل هو « التركي الكبير » (أي سلطان السلاطين) ، وأنه يجعل المملوك سلطان فارس ، مع أنّه حاكم مصر لافارس ، كما أنّه ليس لقب تشريف ، ثمّ يستدرك قائلاً إن المتكلم هنا مجنون ، فله من الحرّية أكثر من الشعراء والرّسامين !

(٤) راجع قصة : « أماديس الغالي » ، الفصل ١١٧ .

الفارس مع بنتها الأميرة التي لابد أن تكون من أكمل وأجمل الأوانس اللاني يوجدن - ونادراً ما يوجدن - على الشطر الأعظم من وجه البسيطة . ويحدث بعد هذا أن تقع عين الأميرة على الفارس ، وعين الفارس على الأميرة ، ويبدو كلاهما للآخر أقرب إلى الإله منه إلى الإنسان ، ودون أن يعرفها كيف ولماذا ، يظللان معقودين بعقدة الحب الوثيقة ، والقلب حزين لا يدرى كيف يخاطب القلب ليكشف عن عواطفه ومخاوفه . ومن ثم يقتاد الفارس إلى قاعة من قاعات القصر فاخرة الرياش ، فتخلع عنه أسلحته ، ويقدم له حساء فاخر ذو لون قرمزي يتدثر به ، فإن كان جميل الطلعة وهو شاكى السلاح ، فما أروعه بلباس الإحتفال! وإذا أقبل الليل تناول العشاء مع السلطان والسلطانة والأميرة ولا يرفع عينيه عن الأميرة دون أن يلحظه الحاضرون ، وهو في هذا جد ماهر . لأنها كما قلت ، أنسة شديدة الحياء قدوع ، فإذا فرغ العشاء شوهد قزم قمي قبيح يدخل من باب القاعة فجأة ، وفي إثره سيّدة فاتنة بين ماردین قدمت لإجراء مغامرة فريدة وصفها حكيم قديم ، الظافر فيها يكون أعظم فرسان العالم^(١) .

ثم يأمر السلطان جميع الحاضرين من فرسانه بالدخول في هذه المباراة ، فلا ينجح فيها أحد غير هذا الفارس الغريب ، فيتألق مجده ، ويبعث الرضا في نفس الأميرة ، فيبلغ بها السرور غايته إذا جوزيت عن وصفها أمانيتها في هذا المقام العالي . وخير مافي الأمر أن هذا السلطان أو الأمير أو من يكون - هو في حرب عنيفة ضد أمير آخر من أنداده ، فيلتبس منه الفارس ، ضيفه ، أن يأذن له بخدمته في هذه الحرب ، فيمنحه الإذن عن طيب خاطر ، ويقبل الفارس يديه بكل أدب واحترام جزاءً وفاقاً لهذه النعمة التي أسبغها عليه . وفي نفس الليلة يودع الأميرة . معشوقته ، يودعها من خلال سور الحديقة الذي يطل عليه مخدع الأميرة . وكأين من مرة جاذبها الحديث في هذا المكان ، وكان الوسيط بينهما وصيفة تكتّم سر الأميرة وتفضي إليها الأميرة بكل أسرارها^(٢) . يتنهد ، فينغمى على الأميرة ، فتأتي الوصيفة بماء ، وتأسف لإنبلاج الصباح لأنها لاتريد أن ينكشف أمرها ، حفاظاً على شرف سيّدتها . وأخيراً تستعيد الأميرة وعيها ، وتبسط من خلال السور الحديدي يديها البيضاءويتين إلى الفارس الذي ينقضّ عليهما لثماً ويغرقهما بدموعه ، ويتفقان على طريقة ليعرف بها كلاهما أنباء الآخر وما يقع له من محن أو نعم ، وترجوه الأميرة ألا يطول غيابها إلا أقل مدة ممكنة ، فيعدها بذلك مقسماً أغلظ الأيمان ، وبعد أن يقبل يديها من جديد ، ينتزع نفسه من حضرتها وفي نفسه من الحسرات ما يجعله ينذر عندها الحياة . ويعود إلى

(١) راجع قصة « أماديس الثاني » ، الفصل ٦٦ ، القسم الثاني الخ .

(٢) راجع قصة « أماديس الثاني » ، الفصل ١٦ ، « فارس الصليب » ، الفصل ١٤٤ .

مخدعه ، ويلقي بنفسه على السرير ، لكنه لا يستطيع النوم أسفاً على الرحيل . ويصحو مبكراً ، ويذهب ليودع السلطان والسلطانة والأميرة ، لكن الأولان ينبأانه بأن الأميرة منحرفة المزاج ولا تستطيع استقبال أحد . فيعتقد الفارس آنذ أن ذلك بسبب آلام الفراق ، فيفطر قلبه ، ولايعوزه إلا القليل ليكشف علناً عن آلامه . وتشهد الوصيفة كاتمة السر هذا المنظر ، وتلاحظ كل شيء ، وتغدو لتقصه على سيدتها التي تستمع إليها باكية وتقول لها إن من أشد ما يحزنها أنها لاتعلم من فارسها هذا ، وهل هو من سلالة الملوك أو ليس من أصلاهم . فتؤكّد لها الوصيفة أن هذا اللطف والأدب والشجاعة لا يمكن أن توجد إلا في أبناء الملوك والأشراف . وترضى الأميرة الحزينة بهذا العزاء ، وتحاول كتم حزنها حتى لا يظن بها أهلها الظنون ، وبعد يومين تظهر للناس . ولكن الفارس قد ارتحل ، ويشترك في الحرب ، ويحارب ويهزم عدو السلطان ويستولي على عدة مدن ، ويحرز جملة إنتصارات . ثم يعود الى البلاط ، ويرى سيده في الموضع الذي اتعده عادة ، ويتفق وإيّاها على طلب يدها من أبيها جزاء خدماته ، ولايرضى الملك به صهراً ، لأنه لايعرف من هو ، واختطافاً أو بطريقة أخرى تصبح الأميرة زوجة للفارس ، وينتهي الوالد بالرضى عن هذا الارتباط ويعده شرفاً عظيماً بعد أن يكتشف أن هذا الفارس هو ابن ملك شجاع في إحدى الممالك التي لاجود لها على المصوّرات الجغرافية . ويموت الوالد ، وترث الأميرة عرشه ، وهاهو ذا الفارس قد أصبح ملكاً^(١) . هنالك يكون أوان الإغداق على حامل سلاحه وعلى جميع من عاونوه على بلوغ هذه المكانة العليا . ويزوّج حامل سلاحه بإحدى وصيفات الأميرة ، ولاشك أنها ستكون كاتمة سرّ غرامهما ، وهي ابنة دوق من الطراز الأول .

فصاح سنشو : هذا هذا ما أريده ، وعلى بركة الله إني والله يكفيني هذا ، وسيجري كل شيء تماماً كما وصفت ، مادام مولاي سيسمى بلقب «الفارس الحزين الطلعة»^(٢)

فأجابه دون كيخوته : لا تشك في هذا أبداً فالفرسان الجوّالة قد مرّوا ويمرّون بنفس المراحل التي قصصتها عليك حتى يبلغوا مرتبة الملوك والأباطرة^(٣) فلم يبق إذن الآن إلا أن نبحت عن هو الملك المشغول بحرب عظيمة وله بنت جميلة ، سواء كان من ملوك النصراري أو ملوك الكفار . ولدينا متسع من الوقت للتفكير في هذا إذ لابدّ أولاً - كما قلت لك - من اكتساب الشهرة قبل المشول في البلاط . وثمة شيء آخر ينقصني : فلو فرض أننا عثرنا على

(١) راجع قصة «برنرد دل كاريو» ، الفصل ٣٨ ، و«بريماليون» ، الفصل ١٥٧ .

(٢) «تبرانت الأبيض» القسم الأول ، الفصل ٤٠ ، «فارس الصليب» ، الكتاب الأول الفصل ٦٥ .

ملك وحرب ومنت ، وأني اكتسبت شهرة تجاوزت بذكرها المحافل في الدنيا بأسرها ، فإني لأجد كيف يتيسر أن أجد نفسي من سلالة الملوك ، أو على الأقل ابن عم منحدر من ابن عم للإمبراطور . لأن الملك لن يسمح بتزويجي من ابنته قبل أن يتأكد بكل يقين ، من هذا النسب ، مهما يكن من قيمة أعماله الرائعة ، وهكذا أفقد ، بسبب عدم وجود هذا النسب الملكي ، ما اكتسبه ساعدي عن جدارة . نعم إني ابن نبيل ، ومن بيت معروف ، ولي أموال وعقار ، وكفء لإقتضاء خمسمائة درهم على سبيل التعويض^(١) . لكن قد يقع أن يرتب الحكيم الذي سيكتب تاريخ حياتي ويلقن نسبي ، بحيث أصبح حفيداً لحفيد الملك ، من الدرجة أو الجيل الخامس أو السادس . إذ يحسن بك ياسنشو أن تعلم أن ثمة نوعين من الأنساب والنبالات ، فبعضها ينحدر من الأمراء والملوك ، لكن الزمن يجور عليهم فينتهون إلى نقطة مدببة مثل هرم مقلوب ، والبعض الآخر ينحدرون من أصل وضيع ، ثم يرتفعون درجة فدرجة ، حتى يصبحوا سادة عظماً . وهكذا يكون بينهم هذا الفارق ، وهو أن بعضهم كانوا على غير ما هم عليه الآن ، وأن البعض الآخر هم على غير ما كانوا عليه ، ولما كان من الممكن أن أصبح واحداً من الفريق الأول ، حينما يتحقق أن أصلي عظيم مجيد ، فلا بد أن يرضى هذا الملك صهري المقبل ؛ وإلا فإن الأميرة لو أحبتني حباً مفرطاً ، لأتخذتني زوجاً لها وسيداً ، على الرغم من أبيها ولو عرف معرفة اليقين أنني ابن سقاء . وإذا لم يقع هذا أيضاً لكان عليّ أن اختطفها وأنقلها إلى حيث أشاء ، حتى يهدئ الزمن أو الموت من غضب أهلها .

فقال سنشو : هنا محلّ للقول بما يقول به بعض الدهماء : « لا تطلب بالرضا ما تستطيع أخذه بالقوة » . وإن كان أنسب منه أن يقال : « وثوب الأسوار ولا رجاء الأخيار »^(٢) . وأقول هذا لأنه إذا لم يشأ الملك ، صهره يامولاي ، أن يوافق على تزويجك بالأميرة ، فليس لديك إلا اختطافها ووضعها في مكان أمين . لكن أفة هذا الأمر هو أنه حتى يحين أن تضع الحرب أوزارها وتتمتع بالملك في هدوء ، يظل حامل سلاحك المسكين يحرق الأرم في انتظار النعم الموجودة ، اللهم إذا ارتحلت الوصيفة ، كاتمة السر التي ستصبح زوجته ، في إثر الأميرة ، وقضى حياته المسكينة معاً ، حتى يقدر الله أمراً آخر ، لأنني أعتقد أن مولاه يستطيع أن يهبها إياه في الحال زوجة له .

فقال دون كيخوته : لا مانع يمنع من هذا .

(١) تقضي قوانين الغوييرو خعجو التي سادت التشريع الأسباني من عهد القوط حتى القرن الثالث عشر « بتعويض » قدره ٥٠٠ سويلدوس seldos لكل نبيل تلحقه إهانة في شخصه أو في أمواله ، وكان السويلدو في قشتالة يساوي ٢٣ شيليزيمو من البسيطة .

(٢) معنى هذا المثل أنه إذا ارتكبت ذنباً أو جريمة فالهرب خير من الأمل في شفاعته الآخرين .

فأجاب سنشو : ما دام الأمر كذلك ، فليس أماننا إلا تسليم أمرنا الى الله وترك المقادير تجري في أعنتها .

فأجاب دون كيخوته : حقق الله أمني وأملك ياسنشو ، والويل لمن يرى في نفسه الويل .

فقال سنشو : على بركة الله إني مسيحي هرم ، ويكفيني أن أصبح كونت .
فقال دون كيخوته : بل هذا كثير ، وإذا لم تصبح كذلك ، فهذا لن يغير في الأمر شيئاً . فإني إذا أصبحت ملكاً ، استطعت منحك النبالة دون أن تدفع عنها أجراً أو تكسبها بخدماتك ، لأنني إذا جعلتك كونت ، أصبحت فارساً فجأة ، وسيضطرون ، رغم ما ستتناقله السنة السوء ، الى إعطائك إقطاعية رغم أنوفهم .

فقال سنشو : ماذا! هل يظنون أنني لن أقدر على الإحتفاظ بكرامة نقبي!

فقال مولاي : يقال «لنقي» ، لا نقبي!

فأجاب سنشو : ليكن كذلك! أقول أنني كفء له ، وأقسم بحياتي بأنني كنت مدة من الزمان حاجباً لفرقة دينية ، وكانت كسوة الحاجب مناسبة لي تماماً حتى قال الناس أنني أصلح أن أكون أمين صندوق الجماعة . فكيف سيكون الأمر حينما أضع رداء الدوق على ظهري ، وأتدثر بالذهب واللآلئ ، على هيئة كونت أجنبي! يخيّل إلي أن الناس سيتوافدون لرؤيتي من أقصى البقاع .

فقال دون كيخوته : لاشك في أنك ستكون ذا بهاء مونق ، لكن عليك حينئذ أن تلمع لحيتك مراراً ، لأنها غليظة قدرة شعناء ، فإن لم تعالجها بالموس مرة كل يومين على الأقل لتعرف الناس حقيقة أمرك من مدى قريب .

فقال سنشو : ما عليّ إلا كراء حلاق في منزلي ، بل لو اقتضى الأمر لجعلته يسير ورائي كحامل سلاح لسيد عظيم .

فسأله دون كيخوته : ومن أدراك أن السادة العظام يجرون حاملي سلاحهم وراءهم ؟
فأجاب سنشو : سأحكي لك . منذ سنوات أمضيت شهراً في البلاط . وهناك رأيت في النزهة سيداً قصيراً جداً ، ولكن كان الناس يقولون أنه طويل^(١) جداً . وكان يتبعه رجل يركب فرساً في كل نزواته ، حتى كان بمثابة ذيل له . فسألت لماذا لا يلحق هذا الرجل به ولماذا يظل دائماً وراءه . فأجابوني بأنه حامل سلاحه وأن من عادة العظماء أن يصحبوا في

(١) يلوح أن سنشو يشير هنا الى دون بيدور خيرون ، دوق أسيونة وكان قصير القامة ولكن طويل الباع بأعماله الباهرة . وقد ولد في ١٢/١٧ سنة ١٥٧٤ في مدينة أسيونة وتوفي سنة ١٦٢٤ . وأسيونة « من كور إستجة بالأندلس » ، (الروض الممطر ص ٢٢) .

أثرهم رجالاً من هذا النوع . ومن هنا عرفت هذا الأمر ، ولم أنس هذه الحادثة منذ ذلك الحين .

فقال دون كيخوته : أقول لك إنك على حق ، وأنتك تستطيع أن تجرّ وراءك حلاقك . والعادات لاتأتي كلها معاً ، بل تبتدع واحدة بعد الأخرى ، ومن الممكن أن تصبح أول كونت يتبعه حلاقه . على أن مهمة الحلاق أدخل في الائتمان والثقة من مهمة من يشد الركاب .

فقال سنشو : أمّا عن الحلاق ، فدعني وشأنه ، وعليك أنت بالعمل لتصبح ملكاً وتجعلني كونت .

فقال دون كيخوته : وهو كذلك .

ثم رفع عينيه فأبصر ماسنقص عليك نبأه في الفصل التالي .

الفصل الثاني والعشرون

في تحرير دون كيخوته طائفة من المساكين اقتيدوا
رغم أنفهم الى حيث لا يريدون

يروى سيدي حامد بن الأيل ، المؤلف العربي المنتشاي ، في هذه القصة الرائعة الهائلة المتواضعة العذبة الخيالية أنه بعد أن تناقل دون كيخوته الشهير الأحاديث التي أوردناها في نهاية الفصل الحادي والعشرون هو وسنشو بنتا ، رفع دون كيخوته دلا منتشا بصره فشاهد على الطريق التي يسلكها قرابة اثني عشر رجلاً قادمين على أرجلهم وقد سُلِكت رقابهم في سلسلة من الحديد طويلة كأنها حبات سبحة ، وفي أيديهم الأغلال . وكان يتبعهم راكباً على فرسين ورجلان آخران سائران ، وكان الراكبان يحملان بندقيتين ذات عجلتين ، وكان الراجلان يحملان حراباً وسيوفاً . فلما رأهم سنشو صاح :
- هذه سلسلة المحكوم عليهم بالأعمال الشاقة سخرة - من الملك ، يقتادون للمتجذيف في السفن .

فسأل دون كيخوته : سخرة ؟ كيف هذا ؟ وهل الملك يسخر أحداً ؟
فأجابه سنشو : لا أقول هذا ، بل أقول أنهم قوم حكم عليهم - بسبب الجرائم التي ارتكبوها - بأن يخدموا الملك سخرة في السفن .
فقال دون كيخوته : الخلاصة ، هل هؤلاء يذهبون بمحض إرادتهم أو قهراً عنهم ؟
فقال سنشو : قهراً عنهم طبعاً !
فقال مولاه : إذا كان الأمر كذلك ، فهنا مجال أداء رسالتي وهي أن أمنع القهر وأغيث الملهوفين .

فقال سنشو : انتبه الى أنّ العدالة ، وهي عينها الملك ، لا تتركب قهراً ولا إهانة نحو هؤلاء ، بل تعاقبهم على جرائم ارتكبوها .
وفي تلك الأثناء كانت سلسلة المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة قد اقتربت منهما

و دون كيخوته بكل احترام من الحراس أن ينيؤوه عن السبب أو الأسباب التي من اقتادوا هؤلاء المساكين . فأجابه أحد الحراس الراكبين قائلاً إن هؤلاء محكومون وسيخدمون الملك على الغرابات^(١) ، وليس عندي ما أقوله أكثر من ذلك ، وليس لك أنني أكثر من هذا .

أجابه دون كيخوته : ومع ذلك أود أن أعرف عن كل منهم السبب فيما حلّ به . أضاف إلى ذلك كلمات رقيقة أخرى لحثهم على أنبائه بما يؤدّ معرفته ، فقال حارس

معنا السجل الذي قيّد فيه جرائم كل من هؤلاء التعساء ، لكن ليس هذا وقت الوقوف وقراءة ما فيه . تقدّم أنت ، واسألهم هم أنفسهم ، وسيجيبون عليك إن شاءوا وهم راغبون ، لأنهم قوم يلذّ لهم أن يرتكبوا الجرائم وأن يقصّوها على الناس . بهذا الإذن الذي كان دون كيخوته سيأخذه لنفسه بنفسه لو لم يفتن له ، اقترب من ملّة وسأل أحدهم عن الخطايا التي أوقعته في هذه الحال . فأجابه أن السبب فيما هو فيه جب .

سأله دون كيخوته : لهذا السبب وحده ؟ لأنه إذا كان من يحبّون يحكم عليهم مال الشاقة ، لكان عليّ أن أكون من بينهم منذ زمن طويل ! قال المحكوم عليه : إنّ حتّي ليس من ذلك النوع الذي تظنّه ياسيدي . فإنّ حتّي كان من الغسيل مليئة بالملابس البيضاء ، وقد ضممتها بين ذراعي بشدّة بالغة فلو لم ها العدالة منّي لما كنت تخليت حتّي هذه الساعة عن عناقها . وقد قبض عليّ متلبساً ستي ، فلم يكن ثمّ مجال لاستجواب ، وأنجزت القضية بلهفة وعجل ، وداعبوا كتفي سوط ، وعليّ فوق هذا ثلاث سنوات^(٢) في الغرابات وقضي الأمر .

سأله دون كيخوته : وما معنى الغرابات ؟

بأجابه : معناها السفن .

وكان هذا المحكوم عليه فتى في الرابعة والعشرين من عمره ، وولد في يدراهيتا . يسأل دون كيخوته واحداً آخر نفس السؤال ، فلم يشأ الجواب ، إذ كان يمشي كاسفاً ن البال . فأجابه عنه الأول :

اب : والجمع غرابات وأغربة وغربان - سفينة كبيرة . راجع دوزي ، الملحق ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ .
الملبعة الأصلية tres precisos وفي الطبعة الثالثة أيضاً طبع خطأ هكذا tres precisos . والمقصود ثلاث سنوات في التجديف لسفن في عرض البحر ، وهذه السفن تسمّى gurnaps وهي كلمة عربية : غراب ، والجمع غرابات .

- هذا ياسيدي ذاهب الى الغرابات لأنه كناري ، أعني موسيقار ومغن .
فكرّر دون كيخوته : كيف! هل يُرسل الموسيقياريون والمغنون الى الغرابات ؟
فأجاب المحكوم عليه : نعم يا سيدي! فلا شيء في الدنيا أسوأ من الغناء في العذاب .
فقال دون كيخوته : ولكنني على العكس من هذا سمعت مثلاً يقول : في الغناء عزاء .
فقال المحكوم عليه : الأمر هنا على العكس ، من يغنّ مرةً يبكِ عمره .
فقال دون كيخوته : لا أفهم من هذا شيئاً!
لكن قال له أحد الحراس :

- سيدي الفارس! عند هؤلاء الناس الغناء في العذاب معناه الإعتراف بالتعذيب . فهذا المذنب قد عذب فاعترف بجريمته وهو أنه سارق ماشية ، وباعترافه حكم عليه بعقوبة التجديف ست سنوات ، الى جانب مائتي جلدة حملها على كتفيه . وهو يمشي دائماً حزيناً مسربلاً بالعار لأن سائر اللصوص ، أولئك الذين تركهم هناك والذين هاهنا معه ، يزدرونه ويسخرون منه ويسينون اليه لأنه اعترف بجريمته ولم يكن لديه من رباطة الجأش والشبات ما يجعله ينكرها ، إذ هم يقولون إن « كلاً » ليس فيها من الحروف أكثر مما في « نعم » ، وإثّه لحظ عظيم للمتّهم أن تكون حياته أو موته أمر يتوقّف على لسانه هو ، لا على لسان الشهود والأدلة ، وفي هذه المسألة أرى أن مايقولونه ليس خطأ كله .
فقال دون كيخوته : وهذا رأيي أيضاً .

ومضى الى الثالث فسأله نفس السؤال ، وسرعان ما لبّى بغير تردد وقال :
- أنا ذاهب لزيارة سيداتي الغرابات طوال خمس سنوات ، بسبب أنه ليس معي خمس دوقات^(١) .

فقال دون كيخوته : أنا مستعد لدفع عشرين عن طيب خاطر لإنقاذك من هذا الهم .
فقال المحكوم عليه : هذا شبيه بمن كيس نقوده عامر وهو في وسط الطريق يموت جوعاً لأنه لا يستطيع شراء مايلزمه . أقول هذا لأنه لو كانت عندي العشرون دوقّة التي يقدمها لي مولاي الآن ، في الوقت المناسب ، لكنت بللت قلم الكاتب وقدحت زناد المحامي العام ، بحيث كنت أكون اليوم في وسط ميدان « سوق الدواب » في طليطلة ، لا في هذا الطريق مقوداً كالكلب السلوقي . ولكنّ الله كبير ، والصبر طيّب... وكفى!
فانتقل دون كيخوته الى الرابع ، وكان رجلاً مهيب الطلعة ، له لحية طويلة بيضاء تغطّي

(١) الدوقة ducado عملة ذهبية ، كانت تساوي سبع بسمطات .



الفصل الثاني والعشرون : دون كيخوته والمحكوم عليهم
بالأشغال الشاقة

صدره كله . فلما سمعه يسأله عن سبب إدانته ، أنشأ يبكي دون أن يجيب بكلمة ، لكن المجرم الخامس أجاب عنه فقال :

– هذا الرجل الوقور سيمضي أربع سنوات في الغرابات ، بعد أن زفّ في الطرقات ممطياً سهوة جواده ومتدثراً بأفخر الثياب احتفاءً به .

فقال سنشو پنثا : معنى هذا فيما يبدو لي أنه اعترف علناً بجريمته .

فأجاب المحكوم عليه : هذا هذا والجريمة التي بسببها نال هذه العقوبة هو أنه كان سمسار أذان ، بل سمسار أجسام أيضاً ، أعني أن هذا السيد الفاضل كان قواداً^(١) ، وكان أيضاً يشغل بالسحر والشعوذة .

فقال دون كيخوته : أما السحر والشعوذة فلا شأن لي بهما ، أما أنه كان « قواداً » ، فهذا لا يستحق من أجله أن يذهب الى الغرابات ، اللهم إلا إذا كان من أجل أن يكون قائداً فيها ، لأن مهمة القواد ليست هيّنة ، بل تحتاج الى قوم مهرة كتومين للسر ، وهي مهمة لاغنى عنها في جمهورية حسنة التنظيم ، ولايستطيع ممارستها غير قوم كرام العنصر رفيعي التهذيب . بل أرى من الواجب تعيين مفتشين وممتحنين لأجل هذه المهمة شأنها شأن سائر المناصب ، وتحديد عدد الأعضاء العاملين فيها ، كما هي الحال تماماً بالنسبة الى سماسة التجارة . فهذه الطريقة يتلافى الكثير من المتاعب التي لا سبب لها غير أن عدداً أكثر من اللازم يشغلون بها ، ومعظمهم يعوزهم الأدب والذكاء ، أو مخئون وخدم حقراء ، وأغرار تعوزهم الحنكة والتجربة ، لايعرفون في المواقف الخطيرة – حيث لابد من التصميم – أقول : لايعرفون ماياخذون مما يدعون ولا يميزون يمينهم من شمالهم ويدعون الحساء يبرد بين اليد والفم . وبودّي أن أتابع هذا الحديث ، وأن أثبت لماذا يحسن التدقيق في اختيار الأشخاص الذين يمارسون في الدولة هذه المهمة الضرورية ، ولكن ليس هذا محلّه وأوانه . وسأتحدث في هذا ذات يوم الى من يملك التنفيذ . وحسبي اليوم أن أقول أن الألم ، الذي سببته لي رؤية هذا الوجه الوقور الذي امتحن امتحاناً غليظاً من أجل بضع رسائل غرام ، قد خفف منه إتهامه بالسحر . ولكنّي أعلم أنه ليس في الدنيا سحر ولا تعاويذ يمكن إرغام الإرادة أو تحويلها ، كما يظن بعض البسطاء . إن إرادتنا حرة لا سلطان للنباتات والتعاويذ السحرية عليها . وما يفعله بعض المخنثين البسطاء أو بعض الأشقياء الخبثاء ، ليس إلا أشربة ومركبات وسموماً حقيقية ، بها يحولون الناس مجانين موهمين الناس أنهم قادرون على جعلهم عاشقين ، مع أن من المستحيل إرغام الإرادة .

(١) الكلمة الإسبانية alcahuete عربية الأصل .

فقال الشيخ الطيب : هذا صحيح . والحق يا سيدي أنه لا شأن لي بالسحر ، أما القيادة في الحب فأمر لا أنكره ، ولكنني لا أعتقد أنني أصبت بالضرر في هذا أحداً . وكان كل قصدي أن يستمتع الناس جميعاً ، وأن يعيشوا في سلام ووثاق ، دون خصومات ولا هموم . لكن هذا المقصد الكريم لم يحمني من الذهاب الى حيث لن أعود ، فقد أثقلت كاهلي السنون وأشكو احتباس البول احتباساً لا أذوق معه طعم الراحة .

ولدى هذه الكلمات انطلق الرجل المسكين في البكاء ، حتى استدر شفقة سنشو الى حد حمله على أن ينتزع من جيبه قطعة من ذات الأربعة ريالات ويتصدق بها عليه . وتابع دون كيخوته تحقيقه فسأل التالي عن جريمته ، فأجابه بصوت لا يقل حرارة وانطلاقاً عن زميله الآخر :

- إني ها هنا لأنني أفرطت في المزاح مع ابنتي عمتي ، ومع ابنتي عم أخريين ليستا ابنتي عمتي . والخلاصة أننا مزحنا مزاحاً نشأ عنه زيادة نسل اختلط حتى صار من الصعب على واضع شجرة الأنساب أن يتيين جلية الأنساب . وأدانتني الأدلة والشهود ، وأعوزتني المحسوبة ، كما أعوزني المال ، وأوشكت أن تطيح برأسي ، وحكم عليّ بالعمل خمس سنوات في الغرابات . ولم أستطع استئناف الحكم ، وهذا جزاء جريمتي . ولكنني شاب ، والحياة طويلة ، وطالما امتدت كان ثمّ دواء لكل داء . فإن كان في وسعك ، ياسيدي الفارس ، أن تغيث هؤلاء المساكين ، فسيجازيك الله عنه في السماء خير الجزاء . وسنحرص على أن ندعو الله ونحن على الأرض كي يهبك من الصحة والعمر ما يستحقه شخصكم الكريم .

وكان هذا يلبس لباس الطلاب ، وقال أحد الحراس عنه أنه فصيح بليغ ، يتقن اللغة اللاتينية .

وخلف هؤلاء جميعاً أقبل فتى في الثلاثين أغر الطلعة ، لولا أنه حين ينظر كان يضع عينيه في الأخرى . وكان مقيداً على نحو مخالف الآخرين ، إذ كان في قدمه سلسلة طويلة دارت حول بدنه ، وفي عنقه طوقان شديدان أحدهما متصل بالسلسلة والآخر نوع من الأغلال يتدلى منه قضبان من الحديد يتحدران حتى خصره وينتهيان الى غل قيدت فيه يداه بأقفال كبيرة ، بحيث لم يكن يقدر على رفع يديه الى رأسه ، ولا إمالة رأسه الى يديه . فسأل دون كيخوته لماذا يحمل هذا الرجل من القيود أكثر مما يحمله الآخرون . فأجاب الحارس بأن ذلك لأنه ارتكب من الجرائم وحده أكثر مما ارتكب سائرهم مجتمعين ، وأنه وغد لنيم خبيث فاجر ، حتى أن تقييده على هذا النحو لا يبدو كافياً للإمساك به ، ولهذا يخشون دائماً أن يفر .

فقال دون كيخوته : لكن ما هي هذه الجرائم التي لم تستحق أكثر من عذاب الغرابات ؟
فأجاب الحارس : سيقضي فيها عشر سنوات ، وهذا شبيه بالموت المدني . ويكفي أن
تعلم أن هذا الرجل هو خينس دي پسموته^(١) الشهير ، ويطلق عليه البعض اسم خينسيودي
پرييا^(٢) .

فقال المحكوم عليه حينئذ : سيدي المندوب! على رسلك ولا داعي للتنازع بالألقاب .
أنا اسمي خينس ، لا خينسيوك وپسموته اسم اسرتي ، لا پرييا كما تقول ، وليفتش كلُّ
عن نفسه ، فسيرى .

فقال المندوب : اخفض صوتك ، أي سيدي اللص الفثاك ، إذا كنت لاتريد مني أن أغلق
فمك راضياً أو كارهاً ،

فأجاب المحكوم عليه : يبدو تماماً أن المرء يسير وفق مشيئة الله ، لكن سيأتي يوم
يعرف فيه الناس ما إذا كان اسمي خنسيو دي پرييا ، أو لا .

فقال الحارس : أفلا يسمونك كذلك يا كذاب ؟

فأجاب خينس : بلى! لكنني سأفعل بحيث لا يسموني بهذا الاسم ، أو فلأنتف لهيتي
كما أتكلّم بين أسناني . ياسيدي الفارس! إذا كان عندك ماتعطيه لنا فاعطه لنا تَوْأً واذهب
في حفظ الله ، لأن هذه الأسئلة عن حياة غيرك تضايق ، وإذا أردت أن تعرف شيئاً عني ،
فاعلم أنني خينس دي پسمونه ، الذي كتبت حياته بهذه الأصابع .

فقال المندوب : هذا صحيح ، فقد كتب حياته بنفسه على نحو ليس بعده زيادة
لمستزيد . لكنه ترك الكتاب رهناً في السجن من أجل مائتي ريال .

فقال خينس : وسأعمل على استرداده حتى لو رهن مقابل مائتي دوقة .

فقال دون كيخوته : هل هو جيّد الى هذا الحد ؟

فقال خينس : جيّد الى حد أنه يتحدث قصة « لثريودي طورمس^(٣) » وكل ما كتب في

(١) Cines se pasmonte .

(٢) Cinesillo de parapiti .

(٣) في سنة ١٥٥٤ طبع كتاب بعنوان « حياة لثريودي طورمس وما جرى له من السعود والأهوال » ثلاث طبعات في برغش والقلمة
وامبروس ، وطبعة برغش يظهر أنها هي الطبعة الأولى ، ولكن لم يذكر عليه اسم المؤلف ، وكذلك طبع بغير اسم المؤلف طوال القرن
السادس عشر ، حتى مستهل القرن السابع عشر حيث نسب الى ديجو هورتادوي مندوتا Diego Hurtado de mendoza ، بعد
هذا طبع دائماً مقروناً بهذا الاسم ، ولكن أثبت مورل فاتيو Morel - Fatto أنه ليس له ، - وعلى كل حال فهذه القصة تمتاز بالواقعية
ودقة الملاحظة ، وتجري على لسان بطلها ، وفيه سخرية من الوسط الاجتماعي الذي ينتسب اليه البطل ، ولهذا كان هذا الكتاب
نموذجاً لنوع أدبي يسمى « القصة الكارسكا » ، من أشهر أمثلته « حياة قزمان الفارابي » (سنة ١٥٩٩ - سنة ١٦٠٤) تأليف
ماتيو أليمان ، والبطل في هذه الروايات يتحدث عن نفسه فيروي قصة حياته على هيئة ترجمة ذاتية له ، وحياته عادية حالية م =

هذا الباب أو سيكتب . وكل ما أستطيع أن أقوله لمولاي هو أنه يروي حقائق ، ولكن حقائق لطيفة شائقة ، لا يمازجها أدنى كذب .

فسأله دون كيخوته : وما عنوان هذا الكتاب ؟

فأجاب : عنوانه « حياة خينس دي پسموته » .

فسأله دون كيخوته : وهل أرسلت إليه قبل هذه المرة ؟

فأجاب خينس : نعم ! لخدمة الله والملك أرسلت إليها في مرة سابقة وبقيت اربع سنوات ، وأعرف طعم الكعك والكرباج ، ولا آسف كثيراً على العود إليها مرة أخرى ، إذ سيكون لدي متسع من الوقت لإتمام كتابي ، إذ بقي كثير من الأشياء اللطيفة لأقصتها فيه ، وإن في غرابات اسبانيا من الفراغ أكثر مما أحتاج ، خصوصاً ولست في حاجة الى وقت طويل لإنجاز ما بقي عليّ إنجازه ، لأنني أعرفه عن ظهر قلب .

فقال له دون كيخوته : أنت ظريف خفيف الروح !

فأجاب خينس : وبائس ، لأن البؤس يلاحق الظرف .

فقال الحارس : بل يلاحق الأوغاد !

فأجابه پسموته : قلت لك ياسيدي المندوب على رسلك ! فإن أولئك السادة (رؤساءك)

لم يضعوا في يدك هذا الكرباج لتعذيب المساكين الموجودين هنا ، بل لإقتيادنا الى حيث أمر مولانا صاحب الجلالة . وإلا ، فوحياة... لكن كفى ! ذات يوم تذهب البقع التي ارتكبت في الفندق ، بالغسل . فلنسكت جميعاً ولننعم في سلام ولنحسن الكلام ، ولنسيز ، فكفى هذا الهراء .

فرفع المندوب سوطه لضرب پسموته جواباً عن تهديداته . لكن دون كيخوته وضع نفسه بينهما ورجاه ألا يضربه ، وقال أنه ليس من الغريب أن يكون المقيّد اليدين طلق اللسان . ثم وجه الكلام الى جميع المحكوم عليهم وقال :

- من كل ما قلتموه ، يا إخواني الأعزاء جدّاً ، يتبين لي بوضوح أنه على الرغم من عقابكم على ذنوبكم ، فإن العقاب الذي ينتظركم لن يلد لكم كثيراً ، وأنكم ذاهبون الى الغرابات رغم إرادتكم . ويتبين لي كذلك أن قلّة الشجاعة لدى أحدكم في التحقيق ، وعدم وجود المال لدى الثاني ، وفقدان المحسوبية عند الثالث ، وأخيراً خطأ القاضي أو هواه -

= المطامع والمطامح لي لمستقبل ، وإنما تسعى فقط للخلاص بنفسها من المواقف التي تطرأ عليها . لقد كان خادماً لدى كثير من الأسياد المختلفي المنازع ، فاستعرض أخلاقهم جميعاً بدقة ملاحظة وواقعية تامة ، وليس بين المواقف من اتصال وحدة البطل فيها جميعاً .

هذه هي أسباب ما أنتم فيه ، والعلة في أنكم لم تنالوا ما تستحقونه من إنصاف . وهذا كله يتبدى أمام ذاكرتي ليقول ويؤكد لي وجوب أن أظهر نحوكم ما من أجله أرسلتني السماء الى الدنيا ، وما من أجله انخرطت في سلك الفروسية وصرت عضواً فيها ، وبسببه نذرت أن أغيث الملهوفين والضعفاء الذين يضطهدهم الأقوياء . ولكن لما كنت أعرف أن من صفات الفطنة ألا يعمل المرء بالعنف ما يستطيع عمله باللين ، فإني أود رجاء السادة الحراس والسيد المندوب ليتفضلوا بحل وثاقتكم وترككم في سلام . وهناك آخرون يستطيعون خدمة الملك في ظروف أفضل ، وإنه وأيم الله لأمر فطيع شائن أن يستعبد المرء أولئك الذين خلقهم الله والطبيعة أحراراً . وأردف قائلاً : نعم ياسادتي الحراس! هؤلاء المساكين لم يرتكبوا بحقكم أية إهانة . فليذهب كلٌ بخطيئته : ففي السماء إله لا ينسى عقاب المسيء ولا مجازاة المحسن ، وليس من الخير أن يجعل أناس شرفاء من أنفسهم جلادين لغيرهم من الناس ، إذا لم يكن لهم هذا أدنى مصلحة . وأنا أرجوكم هذا الرجاء بكل هدوء ولطف ، حتى يكون لدي ما يدعوني لشكركم إذا أجبتكم سؤالي . فإن لم ترضوا عن طيب خاطر ، فهذا الرمح وهذا السيف كفيلا بقوة ساعدي أن يجعلاكم تذعنون بالقوة .

فأجاب المندوب : أوه ياله من مزاح لطيف! تمخض الجمل فولد فأراً أولاً يريدنا أن نطلق سراح المحكوم عليهم من الملك ، كأن لدينا القدرة على إطلاقهم ، أو لديه الحق في إصدار الأوامر لدينا بذلك! هيا إذن ياسيدي ، سر في طريقك ، وأصلح من الحوض الذي تحمله فوق رأسك ، ولا تبحث عن ثلاثة أقدام^(١) في القط .

فأجابه دون كيخوته : بل أنت القط والفار والمجرم والوغد!

وما قال حتى فعل ، فانقضَّ عليه بعنف واندفاع هائل حتى جندله على التراب جريحاً من ضربة رمح ، قبل أن يتمكن من الاحتياط لنفسه . ومن حسن الطالع أن الذي انقضَّ عليه دون كيخوته كان حامل البندقية . وظل سائر الحراس حيارى مُبلسين حينما شاهدوا هذا الهجوم غير المنتظر ، وسرعان ما أفاقوا من دهشتهم وأمسك الخيالة بسيوفهم والرجالة بحرايهم وهجموا جميعاً على دون كيخوته الذي انتظرهم برباطة جأش . وكانت ستكون محنة بالغة له لولا أن المحكوم عليهم ، وقد أبصروا هذه الفرصة السانحة لإنعتاقهم ، بذلوا كل ما في وسعهم لتحطيم السلسلة التي قيدوا فيها الواحد الى جانب الآخر . هنالك اختلط الحابل بالنابل ، حتى أن الحراس اضطربوا وحاروا بين الهجوم على دون كيخوته وبين

(١) هذا مثل يطلق لمن يسمى للمتعاقب . والصيغة الأولى والأشهر أن يقال : لا تبحث عن خمسة أقدام في القط . لأنه من المستحيل ذلك ، بينما البحث عن ثلاثة أسهل .

مطاردة المحكوم عليهم ، ولم يحسنوا عمل شيء . وأعان سنشو من جانبه خينس دي پسمونته ، فكان أول الهاربين ، فلما شعر بأن أصبح حرّاً وثب على المندوب المطروح على الأرض وانتزع منه سيفه وبندقيته وصوبها على الحراس جميعاً دون أن يطلق منها الرصاص حتى فرّ الحراس جميعاً من الميدان هاربين من بندقية پسمونته ومن الأحجار التي رماهم بها سائر المحكوم عليهم وقد فكّت عنهم أغلالهم .

وحزن سنشو لهذه المعركة الرائعة ، لأنه يعرف جيداً أن أولئك الهاربين من الحراس سيذهبون جميعاً ويعلنون النبأ « للأخوة المقدسة » التي تنفخ البوق بدورها لمطاردة المذنبين . وأفضى بهذه المخاوف لسيده ، ورجاه أن يبتعد سريعاً عن الطريق العام ويتوغل في داخل الجبل القريب .

فقال دون كيخوته ، هذا صواب ، ولكنني أعلم ما عليّ فعله أولاً .

ودعا جميع المحكوم عليهم وهم يعدون في كل اتجاه بعد أن مزقوا المندوب شر ممزق ، فتحلقوا حوله ليروا ماذا يريد منهم . فخطبهم قائلاً ،

— من شيم الكرام عرفان الجميل ، ومن أشد الخطايا إغضباً لله نكرانه . أقول هذا لأنكم شاهدتم بالتجربة البينة يا سادة ما أوليتكم من جميل ، في مقابلة أود ، أو هذه إرادتي ، أن تذهبوا جميعاً حاملين هذه السلسلة التي فككتكم منها ، وبلا أدنى إبطاء ، إلى مدينة توبوسو ، وهناك امثلوا أمام سيدتي دلثيا دل توبوسو ، وقولوا لها إن فارسها ، الفارس الحزين الطلعة ، يرسل إليها باحتراماته ، وارووا لها كلمة كلمة تفاصيل هذه المغامرة العظيمة حتى اللحظة التي حررتكم فيها كما كنتم تودون . وبعد هذا ، لكم أن تذهبوا حيث تشاؤون .

فقال خينس دي پسمونته نيابة عن زملائه ،

— إن ما يأمرنا به مولاي وسيدي الفارس المحرّر ، من المستحيل عمله ، من المستحيل كل الاستحالة ، لأننا لانستطيع أن نذهب جماعة على طول هذه الطريق المطروقة ، بل نذهب فرادى كلّ بنفسه محاولاً التستر في حشايا الأرض ، حتى لا يلتقي بواحد من رجال « الأخوة المقدسة » التي لاشك ستُرسل خير عيونها في أثرنا . وما يستطيع مولاي فعله ، وما يقتضي الإنصاف فعله ، هو تعديل هذه الخدمة وهذا الأمر بالمرور أمام تلك السيدة دلثيادل توبوسو إلى ترتيل عشرات من صلوات « الإيمان » و « سلام لك يا مريم » نرتلها باسمك . وهذه كفارة نستطيع على الأقل القيام بها ليلاً نهاراً ، أثناء الهرب وأثناء الراحة ، في الحرب والسلام . لكنّ الظن بأننا سنعود الآن إلى أرض مصر ، أعني أننا سنستأنف حمل القيود

ونذهب الى توبوسو . هو كالظن أن الآن ليل ، وإن كانت الساعة لاتزال العاشرة صباحاً
وطلب هذا الأمر الجنوني ، كطلب الكمثرى من شجر الدردار .

فقال دون كيخوته غاضباً : إذن فقسماً بالله ياابن القحبة ، ياخنسيو دي پريپو ، أو
كما يسمونك ، إلا ذهبت وحدك ، مطأطأ الرأس ، أنفك بين فخذيك ، والسلسلة كلها على
ظهرك .

وكان پسمونته رجلاً لا يحتمل المزاح بطبعه ، ولم يفهم أن مخ دون كيخوته طار منه
برج ، إذ فعل هذه الفعلة الهائلة وهي أن أطلق سراحهم ، فلما شاهده يعامله هذه المعاملة ،
غمز بعينيه لرفاقه فابتعدوا دفعة واحدة وأمطروا دون كيخوته بوابل من الحجارة حتى لم تكن
كفاه كافيتين ليقفي بالترس ما يقذفونه به . أما روثينانته المسكين فلم يحفل بالمهماز
وكأنه قد من برونز . وأقعى سنشو خلف حماره واحتفى به من سحائب الأحجار التي تهاوت
على كليهما .

ولم يستطع دون كيخوته الاحتماء جيداً فأصابه عدد وفير من القذائف في وسط بدنه
بشده جعلته يسقط على الأرض . فلما سقط هجم عليه الطالب فانتزع حوض الحلاقة من
رأسه وضربه به ثلاث أو أربع ضربات على كتفيه ، ثم ضرب به الأرض حتى كسره قطعاً
قطعاً . وأخذ هؤلاء الأوغاد من الفارس المسكين صدرية ذات كمين كان يلبسها على
سلاحه ، وكانوا على وشك أن ينتزعوا ماعليه حتى جواربه لولا أن حال دون ذلك سلاحه .
وانتزعوا من سنشو معطفه القصير وتركوه بقميصه . ثم اقتسموا فيما بينهم غنائم هذه
المعركة ، وفروا الى كل ناحية حريصين على تفادي «الأخوة المقدسة» التي يخافونها كل
الخوف أكثر من حرصهم على وضع السلسلة في رقابهم والمثول هكذا أمام السيدة دلثنيا دل
توبوسو . ولم يبق في الميدان إلا الحمار وروثينانته وسنشو ودون كيخوته ، الحمار مطرق
منفص الرأس ، يحرك أذنيه بين الحين والحين وكان وابل الحجارة لا يزال ينهمر ، وروثينانته
متمدد على طول جنب سيده ، لأن سحيفة^(١) من الحجارة جندلته هو الآخر ، وسنشو
بقميصه ، ترتعد فرائصة من مرور خاطر «الأخوة المقدسة» بنفسه ، وأخيراً دون كيخوته
وقيذ الجناح لما لقيه من جحود إحسان وكنود نعمة!

(١) السحيفة : المطر الشديد الواقع الكثير الصوب .

الفصل الثالث والعشرون

فيما جرى لدون كيخوته وهو في جبل الشارات
(سيراً مورينا)، مغامرة من أندر ما ترويه هذه القصة

ولمّا أبصر دون كيخوته نفسه على هذه الحال الأليمة قال لحامل سلاحه :
- أي سنشوا دائماً سمعت الناس يقولون : الإحسان الى الأشرار كرمي الماء في
البحار . ولو صدقت ماقلت لتجنّبت هذه المحنة ، ولكن ما وقع وقع ، فلنصبر ولننخذ منه
للمستقبل عبرة .

فأجابه سنشو : احتمال اتعاظك كاحتمال أن أكون مسلماً^(١) لكن ما دمت تقول أنك
لو صدقتني لكنت تجنّبت هذه المحنة ، فصدقتني الآن كيما تتجنّب محنة أشدّ هولاً ، لأنّي
أقول لك إنه لامحلّ للفروسية مع «الأخوة المقدّسة» ، فإنها لا تقسيم وزناً لجميع الفرسان
الجوّالة ولا بمرابطين ، واعلم أنّه يخيّل اليّ أن سهامها^(٢) الآن في أذني .

فقال دون كيخوته ، أنت بطبعك جبان ياسنشو . ولكن حتّى لا تقول عني إنني عنيد
أركب رأسي ولا أعمل أبداً بما تشير به ، فإنّي سأتابع ما تنصح به هذه المرّة ، وأحتمي من
هذا الهول الذي تفزع منه . لكن بشرط : وهو ألا نخبر أحداً من الناس ، في حياتي أو بعد
مماتي ، أنّي ابتعدت وانسحبت من هذا الخطر خوفاً ، إنما فعلت ذلك استجابة لتضرعاتك .
ولو قلت غير هذا لكنت كذبت ، وها أنذا أكذبك منذ الآن للمستقبل ، وللمستقبل منذ
الآن ، وأقرّر أنّك تكذب وتكون كاذباً في كل مرّة تقول فيها أو تفكر في شيء من هذا
القبيل .

ولا تجب عليّ بشيء ، فإنّ مجرد التفكير في تجنّب الخطر ، وهذا الخطر بالذات الذي
يخيّل اليّ فيه أنّي أيدي ظلام من الخوف ، يجعلني أرغب في البقاء هنا ، في انتظار ليس فقط

(١) في النص : « أن أكون تركياً » Como yo soy turco ، والتركي هنا بمعنى المسلم عامة . أي أن هذا مستحيل أن تتمتع بشيء .

(٢) كان هذا حق «الأخوة المقدّسة» إعدام المجرمين الملبّسين بجرمهم في مكان الجريمة بضربهم بالسهام .

هذه «الأخوة المقدسة» أو الجماعة التي تفزعك ، انتظارها بمفردي ، بل وأسباط بني إسرائيل والأخوة المكابيين السبعة ، والتوأمين كاستور ويوليكس ، وجميع الإخوة والأخوات وأخوة الأخوات في الدنيا بأسرها!

فأجاب سنشو :الانسحاب يا مولاي ليس معناه الهرب ، والانتظار ليس من الحكمة حينما يفوق الخطر الأمل ، وإن الحكمة تقتضي أن يدخر المرء نفسه اليوم لغدٍ وآلا يغامر بكل شيء في يوم واحد . واعلم أنه على الرغم من غباوتي وغلظ طبعي ، فإنّ عندي مايسمى باسم ضبط النفس . فلا تندم على استماعك نصحي إذن ، واركب روئيتانته إذا استطعت بنفسك ، وآلا عاونتك واتبعني ، لأنّ عقلي يقول لي إنّنا أحوج الآن الى أقدامنا متا الى أيدينا .

فامتطى دون كيخوته فرسه دون أن يردّ بكلمة . وأمامه سار سنشو راكباً حماره ، حتّى دخلا طريقاً في جبل سيّرا مورينا وكان بالقرب منه . وكان قصد سنشو أن يجتازوا هذه السلسلة من الجبال ، ليلبغا بيسو أو مدورّ الكمپو^(١) بعد الاختفاء مدة في هذا القفار فراراً من «الأخوة المقدسة» إذا مضت في آثارهم . وشجّعه على هذا الرأي أنّه تبين أن الزاد الذي كان يحمله الحمار أنقذ من نهب المحكوم عليهم ، وهذه معجزة حقاً ، لأنّ هؤلاء الناس فتشوا كل شيء وحملوا ما طاب لهم .

وفي هذه الليلة عينها بلغا قلب سيرامورينا^(٢) ، وبدأ لسنشو أنّ من الخير قضاء الليل ها هنا بل وقضاء بضعة أيّام ، على الأقل طالما كان لديهم مايكفي من الزاد . فاتخذوا مكانهما طوال الليل بين صخرتين وأيكة كثيفة من أشجار الفلين . ولكنّ القدر - شاء أن ينظّم كل شيء ، على هواه في نظر أولئك الذين لا يستضيؤون بنور الإيمان - شاء أن يفكر خنيس دي پسمونته ، هذا اللص الفاجر الذي أنقذه من الأغلال دون كيخوته بنبالته وحماقته ، أن يفكر بالإختباء في هذه الجبال مدفوعاً بعامل الخوف من «الأخوة المقدسة» خوفاً له مايبرزه . وشاء القدر أيضاً أن يقتاده الخوف والطالع الى الموضع نفسه الذي نزل فيه دون كيخوته وسنشو پنشا للذان سرعان ما تعرفهما وتركهما في سباتهما هادئين . ولمّا كان الأشرار

(١) بيسو Viso يقصد بها هنا بيسودل ماركيس Viso del Marques ، قرية صغيرة في إقليم المنتشا تخضع لقضاء Valdepenas وبالقرب من سانتا كروت دي موديله Santa cruz de Mudela . وباسم بيسو وستا كروت تسخى دون ألبرو = دي باثان لما أن اشترى هاتين القريتين من كارلوس الخامس (شارلكان) ، فأصبح يلقّب بلقب ماركيز دل بيسو ، وذلك سنة ١٥٢٩ ، وكانت قبل ذلك تابعتين لهيئة قلعة رباح Calatrava .

(٢) كلمة سيررا (التي عرّبت الى شارة) معناها اللغوي الأصلي «منشار» ثم أطلقت على سلاسل الجبال الممتدة في قلب الهضبة الاسبانية ولها أسنان مدبّبة كالمنشار .

دائماً جاحدين ، وكانت الضرورة فرصة تخلق من المرء لصاً ، والحاضر ينسي المستقبل ، فإن خينس وقد خلا من عرفان الجميل بقدر ما خلا من النوايا الطيبة ، قرّر أن يسرق حمار سنشو پنثا ، غير مكترث لروثينانتته إذ بدا له غير صالح للبيع ولا للرهن . كان سنشو نائماً ، وسرق خينس منه حمارة ، وقبل بزوغ النهار كان قد ابتعد الى حيث لا يُدرك .
وانبلج الفجر باعثاً في الأرض الحبور وفي نفس سنشو پنثا الحزن . فإنه لما لم يجد حمارة أنشأ في العويل على نحو لم يُرَ أشد منه إيلاماً وحزناً ، حتّى أنّ دون كيخوته استيقظ على دويّ عويله وسمعه وهو يقول :

— أي ولد أحشائي ، يا من ولدت في بيتي وكنت لعبة أولادي ، ومصدر السرور لزوجتي ، والحسد لدى جيراني ، يامن كنت تخفياً لأعبائي ، وأخيراً كنت مورد غذاء لنصف شخصي ، فمستة وعشرين مرابطياً تكسبها في اليوم كنت تكفل نصف نفقاتي !
فلما شاهد دون كيخوته سنشو يشكو وعرف السبب ، واساء بخير ماله من أسباب المواساة ووعد بصك تحويل لإعطائه ثلاثة حمير من خمسة خلفها وراءه في زريته . وبهذا الوعد سرّي عن سنشو ، وجفّت دموعه ، وهدأت زفرائه ، وشكر لمولاه ما أولاه من نعمة .
وكان دون كيخوته قد انتعشت الآمال في قلبه لما أن نفذ في هذه الجبال فبدت له مواطن صالحة للمغامرات التي ينشدها ، فراح يستعيد في ذاكرته تلك الأحداث الرائعة التي وقعت في مثل هذه الأماكن الموحشة الوعرة للفرسان الجوّالة ، واستغرقت هذه الخواطر وملاّت نفسه حتّى نسي كل ماعداها . أمّا سنشو فمذ أن اعتقد أنّه يسير في مكان أمين لم يكن يشغل باله غير شيء واحد هو أن يرضي معدته ببقايا ماغنمه من قساوسة الجنّازة . فمضى خلف سيده ، حاملاً كل ما أمكن البرذون^(١) حملة ، منتزعاً الطعام من الكيس ليضع منه في كرشه ولّد له هذا النوع من السير بحيث لم يكن ليدفع فلساً من أجل أية مغامرة أخرى . وفي هذه اللحظة رفع عينيه فشاهد مولاه وقد توقّف محاولاً أن يرفع بطرف رمحه حزمة على الأرض ، فأسرع لمساعدته ووصل في اللحظة التي رفع فيها دون كيخوته على طرف رمحه وسادة وحقيبة مربوطتين معاً ، وكلتاها ممزقة متعفنة . وكانت من الثقل بحيث اضطر سنشو لأخذهما بيديه ، وأمره مولاه بأن ينظر ما في الحقيبة . فهرع سنشو لتنفيذ

(١) في هذا الفصل أضاف ثرَبَتَس حدث سرقة الحمار ، وكذلك في الفصلين التاليين ، ولكنّه ظل في الطبعة الأولى يتحدث بحد هذا الحادث عن الحمار وكأنّه لا يزال في حوزة سنشو . وفي الطبعة الثانية أصلح هذا الإهمال . لكنه لم يصلحه بدقة فبقي في كثير من المواضع . كما لي هذا الموضع الآن - مما تولّد عنه خلط كان ثرَبَتَس أول من سخر منه ، كما سرّي في القسم الثاني من دون كيخوته (الفصل الرابع) .



الفصل الثالث والعشرون : دون كيخوته يحاول القيام بوثة جنونية
(عن جوستاف دوريه)

الأمر ، ورغم أنها كانت مغلقة بسلسلة وقفل فقد أمكنه رؤية مافيها من خلال الثقوب التي أحدثها البلى فيها . وهذه محتوياتها ، أربعة قمصان من النسيج الهولندي الرقيق ، وقطع قماش أخرى غريبة نظيفة ، كذلك وجد سنشو فيها كمية وفيرة من العملة (الأسكودو) الذهبية مربوطة في منديل ، فلم يكذب يراها حتى صاح :

- الحمد لله الذي بعث لنا بمغامرة ، فيها مكاسب!

واستمر في تفتيش الحقيقة ، فوجد كتيباً لطيفاً فيه مذكرات ، أنيق التجليد . فطلب منه دون كيخوته أن يعطيه هذا الكتاب ، أما النقود فبتركها لسنشو . فقبل هذا كفي موله شاكرأ له هذه المنحة ، وأفرغ مافي الحقيقة ووضع القماش في خراج الزاد . ولما شاهد دون كيخوته هذا كله قال :

- يبدو لي يا سنشو - ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك - أن أحد المسافرين الذين ضلوا الطريق كان يود اجتياز هذه الجبال ، ولكن بعض اللصوص فاجأوه في الطريق وقتلوه وجاءوا لقتله في هذا المكان القفر .

فأجابه سنشو : هذا غير ممكن ، لأن اللصوص لا يتركون هنا هذا المال .

فقال دون كيخوته : أصبت فيما قلت يا سنشو ، ولا أستطيع أن أحزر ماذا عسى هذا الأمر أن يكون . لكن انتظر ، ولننظر ما إذا كان في هذه الألواح إشارة يمكن منها أن نهتدي الى ما نريد معرفته .

وفتح الكتيب ، وكان أول ما وقع بصره عليه مكتوباً فيه على شكل مسودة ، وإن كان الخط جميلاً ، مقطوعة (سونيتو) قرأها بصوت عالٍ لسمع سنشو ، ورد فيها :

الحب : إما غبي	أو مستبدٌ غشومٌ
أو ما ألقى شديداً	لا تقتضيه جرومٌ
والناس والعقل يدري	الحب ربُّ رحيمٌ
فمن قضى بعذابٍ	يلدّ وهو أليمٌ ؟
إن قلت ياخوط : أنت!	كذبتُ ، فالخير خيمٌ
الخير ينبت خيراً	وما السماء ظلمٌ
لابد لي من حمام	والموت أمرٌ صريمٌ ^(١)
لابد من معجزات	لدفع ما لا تشيم ^(٢)

(١) أي : قاطع لا مفر منه .

(٢) أي : ما لا ندره ولا ندرك له سبباً .

فقال سننشو : هذه الأغنية لا تدلنا على شيء ، اللهم إلا إذا استطعنا بواسطة هذا « الخيط » أن نهتدي الى كل هذه المغامرة .
فقال دون كيخوته : أي « خيط » هنا ؟
فأجاب سننشو : يبدو لي أنّ مولاي قد ذكر لفظ « خيط » ؟
فقال دون كيخوته : لقد قلت « خوط »^(١) ، وهو من غير شك اسم المعشوقة التي يشكو منها مؤلف هذه المقطوعة . وأيم الله أنه شاعر لا بأس به ، وإن لم أكن أفهم في الشعر كثيراً .
فقال سننشو : وأكثر مما تظن . وسترى مصداق هذا حينما تحمل عني الى السيدة دلثنيادل تويوسو رسالة منظومة من أولها الى آخرها . ويجب أن تعلم ياسنشو أن جميع أو على الأقل معظم الفرسان الجوّالة في العصور الماضية كانوا من كبار الشعراء المطربين^(٢) ، أعني من كبار الشعراء وكبار الموسيقيين : لأن هاتين الملكتين ، أو هاتين العبقريتين كما تسميان ، لاغنى عنهما للعشاق الشاردين . ومن الحق أن نقول إن أشعار الفرسان القدماء كان فيها من القوة والجزالة أكثر مما فيها من الرقة والعدوية .
فقال سننشو : اقرأ شيئاً آخر ، فلعلك تجد ما ننشده .
فقلب سننشو الصفحة وقال :
- هذا نثر ، ويشبه أن يكون رسالة .
فسأل سننشو : هل هي خاصة بأعمال ؟
فأجاب دون كيخوته : من استهلالها يبدو لي أنّها رسالة غرامية .
فقال سننشو : من فضل مولاي أن يقرأ بصوت عال ، لأتي أحب هذه القصص الغرامية حبّاً جماً .

(١) الخوط : الغصن الناعم ويشبه به المرأة الهيفاء القد الناعمة . قال أبو نؤاس :

عليه خوط أسحلة لان متناه لمهتصره

وذلك في القصيدة التي مطلعها :

أيها المنتاب عن عفره لست من ليلي ولا سمره

راجع ديوانه (ص ٦٧ طبع مصر سنة ١٨٩٨ بإشراف إسكندر آصاف) .

وعليه : سقائيه مرات . والخوط : الغصن الناعم تشبه به المرأة . والأسحلة مفرد إسحل : شجر عظيم ينبت بأعالي نجد . والمهتصر : الذي يجذب الغصن ويحمّله . وقد وجدنا أن هذا اللفظ « خوط » هو خير تعريب لكلمة Fili الواردة في النص لأنه يسمح بهذا اللبس الذي وقع فيه سننشو ، إذ خلط بين Fili اسم المعشوقة وبين hilo بمعنى خيط .

(٢) الشعراء المطربون : trovadores وهو اسم يطلق في العصور الوسطى ، من القرن الحادي عشر حتى الخامس عشر ، على الشعراء . وخصوصاً - لتمييزهم من الزجالين Húglares . أولئك الذين يقرضون أصحاراً غرامية أو مدائح في سادة القصور والملوك دون أن يهدلوا من ورائها الى التكتّيب .

فقال دون كيخوته : بكل ارتياح . وقرأ بصوت عالٍ كما التمس منه سنشو ، فوجد ما يلي :

«وعودك الكاذبة وآلامي المحققة تقتادني الى مكان يصل منه الى أذنك نبأ موتي أولى من تعبير شكواي . لقد غدرت بي يا جاحدة من أجل رجل يملك أكثر مما أملك ولكته لا يساوي أكثر مني . فلو كانت الفضيلة تعدُّ ثروة لما حسدت غيري على سعادته ، ولما ذرفت الدموع على شقاوتي . وما صنعه جمالك حطمت أفعالك . فأحدهما جعلني أظنك ملكاً ، وبالأخر عرفت أنك امرأة . فقرتي عيناً بالسلام ، يامن أعلنت عليّ الحرب ، ولعلّ الله أن يستر خيانات زوجك ، حتى لا تندمي على ما اجترحته يداك ، وحتى لا أثار مما لم أعد أرغب فيه .»

فلما انتهى دون كيخوته من قراءة هذه الرسالة قال :

- إنها لا تخبرنا بشيء أكثر من المقطوعة ، اللهم إلا أن من كتبها عاشق مهجور . ثم تصفح الكتيب كله فوجد فيه أشعاراً أخرى ورسائل ، بعضها يمكن قراءته والآخر محو . لكنها لم تتضمن غير شكايات وزفرات وملامات ، ومسرات وآلام ، وعود بالوصل وإعراض ، وتمجيد للواحدة وتحزن على الأخرى . وبينما كان دون كيخوته يفتش في الألواح ، كان سنشو يفتش في الحقيبة غير تارك فيها ركناً لم يفتش فيه ، أو ثنية لم ينفذ الى دخالها أو خياطة لم يمزقها أو كبة من الصوف لم يحلها ، حتى لا يضيع شيء نتيجة الإهمال أو عدم الاعتناء ، وكذلك فعل بالوسادة ، وذلك لأن النقود الذهبية التي وجدها بعثت في نفسه الجشع ، وقد بلغت عدتها أكثر من مائة قطعة إذ على الرغم من أنه لم يجد غير هذه اللقطة ، فقد رأى فيها جزءاً كافياً عن الترخجات عن الملاءة ، والقيء الذي أحدثه شراب فيرابراس ، وضربات الهراوات ، ولكمات البغال وانتهاج الخرج وسرقة المعطف وكل ألوان الجوع والعطش والتعب التي قاساها في خدمة مولاه الكريم ، واعتقد أنه جُوزي عن هذا كله خير الجزء بهذا الكنز الذي عثر عليه .

ولكن الفارس ذا الوجه الحزين كان يرغب رغبة شديدة في معرفة من هو صاحب هذه الحقيقة ، مقدراً بالحدس من القصيدة والرسالة ، ومن النقود الذهبية والقمصان الرقيقة أن صاحبها لابد أن يكون عاشقاً من عليّة القوم ، اقتاده غدر صاحبه وإعراضها إلى نهاية بانسة يائسة . ولما لم يجد في هذا المكان القفر الموحش الوعر من يمكنه أن يستحدث منه خبراً ، لم يكن أمامه إلا أن يمضي في طريقه متخذاً السبيل التي يتخذها فرسه روثينانتة ، أي حيث تستطيع هذه الدابة المسكينّة أن تجد موطناً لحوافرها ، وفي ظنه أنه لابد ملاقي في

هذه الأدغال مغامرة غريبة . وبينما كان يسير مسترسلاً في هذه الخواطر ، أبصر فجأة . على قمة رابية في مواجهته - رجلاً يثب من صخرة الى صخرة ومن أكمة الى أخرى بخفة تشير الدهشة . وخيل إليه أن الرجل نصف عار ، ذو لحية سوداء كثة وشعر طويل أشعث ورأس عارٍ وقدمين حافيتين وساقين لا يسترهما شيء . وكان يلبس سروالاً من القطيفة الصفراء يغطي فخذه ، ولكنه ممزق بحيث يبدو منه اللحم في عدة مواضع . وعلى الرغم من أنه مرّ مرور البرق ، فقد رصد الفارس الحزين الوجه هذه التفاصيل كلها واستقرت في مخيلته . وودّ لو لحق به ، لكن لم يكن في وسع قوائمه روئيناته الهزيلة أن تلاحقه خلال هذه الصخور ، وهو فرس قصير الخطو بطبعه ، بارد المزاج ، وسرعان ما تراءى لدون كيخوته أن هذا الشخص لابد أن يكون صاحب الحقيقة ، فقرر قراره على مطاردته ولو كلفه الأمر أن يعدو في هذه الجبال طوال سنة كاملة . فأمر سنشو أن يسير من إحدى نواحي الرابية ، ويسير هو من الناحية الأخرى ، وبهذه المناورة كان يأمل أن يلحق بهذا الرجل الذي اختفى سريعاً .

فأجابه سنشو : لا يسعني تنفيذ ما تأمر به ، لأنني إذا تركت مولاي اتناهي الخوف وهجم عليّ الفزع بكل تهاويله ومخاوفه . وهذا الذي أقوله هو بمثابة دعوة لك بالآ تبعدني عنك قيد أنملة .

فقال الفارس ذو الوجه الحزين : موافق ، ويسرني أن تثق بشجاعتني كل هذه الثقة ولن أتخلّى عنك ولو تخلّت روحك عن بدنك . فتعال من ورائي ، خطوة فخطوة ، أو كما في وسلك ، ولتكن عينك مصباحين . وسنتجول في هذه الروابي عسانا نقع على هذا الرجل الذي لمحنه ، وهو لا يمكن أن يكون إلا صاحب هذه الحقيقة التي عثرنا عليها .

فقال سنشو : إن كان الأمر كذلك ، فمن الخير ألا نبحث عنه ، لأننا لو وجدناه وكان هو صاحب النقود الذهبية ، لكنت مضطراً الى ردّها اليه ، فالأفضل إذن أن أبقى محتفظاً بهذه العقيدة الساذجة ، دون القيام بمحاولات لاجدوى منها ، الى أن يكتشف المالك الحقيقي لهذه اللقطة دون أن نبذل جهداً واستطلاعاً في الكشف عنه . ولعلّ ذلك أن يكون بعد إنفاق هذه النقود ، هنالك يعطيني الملك من أداها إليه .

فأجاب دون كيخوته : أنت مخطئ ، في هذا ياسنشو . فمن مجرد أن يخيل إلينا أن صاحب النقود هو ذلك الذي أبصرناه ، فنحن ملزمون بالبحث عنه وردّها اليه ، فإن لم نبحث عنه فبمجرد الظن القوي أنه صاحبها يلبسنا الذنب نفسه كما لو كان حقاً صاحبها . وإذن فلا تتعب نفسك يا صديقي سنشو في البحث عنه ، لأنّ عثوري عليه يزيل عن كاهلي عبئاً ثقيلاً .

وما قال هذا حتى همز روئينائته ، وتبعه سنشو على قدميه يحمل حمل الحمار ، بفضل خينس دي پسموته . فلما كادا يتماان الدورة حول الجبل عثرا عند شاطئ جدول على جثة بغل بسرجه ولجامه ، وقد نهش نصفه الذئاب والغريان ، مما أيد ظنهما أن هذا الهارب هو صاحب الحقيبة والبغل . وبينما كانا يتأملانه سمعا صوت صفارة مثل صفارة الرعاة الذين ينادون قطعانهم ، وفجأة برز لهما عن يسار حشد هائل من الماعز ، من خلفها تبدى من أعلى الجبل المغاز الذي يحرسها ، وكان رجلاً طاعناً في السن . فناداه دون كيخوته بأعلى صوته وطلب منه الإنحدار بالقرب منها . وأجاب المغاز موافقاً وسألها مألذي أتى بهما الى هذا المكان الذي لا يطرقة غير حوافر المعز أو الذئاب وغيرها من الحيوان الوحشي . فأجابه سنشو داعياً إياه الى النزول وسيعرف حينئذ جلية الأمر . فنزل المغاز ولما اقترب من دون كيخوته قال :
- أراهن أنك كنت تتأمل البغل الأجير النافق في هذا الغور . صدقتني إذن إن قلت لك إنه هنا منذ ستة أشهر . ولكن قل لي هل عثرت هنا على صاحبه ؟

فأجابه دون كيخوته : لم نقابل أحداً ، بل وجدنا وسادة وحقيبة بالقرب من هنا . فقال المغاز : وأنا أيضاً عثرت بهذه الحقيبة ، ولكنني لم أشأ حملها ولا الإقتراب منها ، خشية وقوع أي أذى ، وحتى لا اتهم بأنني حصلت عليها سرقة ، لأن الشيطان خبيث ، يضع بين أرجل الإنسان مابه يتعثر ويقع دون أن يعلم كيف ولماذا .
فأجاب سنشو : وهذا أيضاً ماقلته ، فقد وجدتها ، لكنني لن أشأ الاقتراب منها . فتركته في مكانها كما كانت ، لأتي لا أريد أن أعلق الشخاشيخ^(١) في الكلاب .

فقال دون كيخوته : خبرني ، أيها الرجل الطيب ، هل تعرف من صاحب هذه الأشياء ؟ فقال المغاز : ما أستطيع أن أقوله أنه منذ قرابة ستة أشهر قدم الى أكواخ الرعاة - وتبعد ثلاثة فراسخ من هنا - شاب سبط القوام وضيء الطلعة ، ركباً ذلك البغل النافق هناك ، ومعه هذه الحقيبة التي قلت أنك عثرت عليها ولم تلمسها . وسألنا عن أشد هذا الجبل قفراً ووحشة ، وهذا حق لأنك إذا توغلت نصف فرسخ آخر فلعلك لاتجد مخرجاً أبداً ، ويدهشني أنك قدرت على الوصول الى هنا ، إذ لا يوجد طريق ولا شعب يؤدي الى هذا المكان . أقول إذن أنه ماكاد الفتى يسمع جوابنا حتى أدار ظهره وأتجه الى المكان الذي أشرنا إليه وتركنا في دهشة وعجب بجمال طلعه وسرعة سيره للنفوذ في أعماق الجبل . ومنذ ذلك الحين لم نره أبداً ، الى أن قطع الطريق بعد ذلك بعدة أيام على أحد الرعاة ، ودون أن ينطق بكلمة انهال

(١) في الأصل «no quiero perro con cencerro» «لا أريد كلباً بشخاشيخ» . - لأن الكلب ذا الشخاشيخ يفصح عن وجوده للصوم .

عليه باللكمات والرفسات . ثم انقضّ على الأتان الذي يحمل المؤونة ، وأخذ كل ما عليه من خبز وجبن ، ثم ولى هارباً وتوغّل في الجبل . فلمّا عرفنا هذه الحادثة ، قمّت أنا وبعض المغازين وبقينا نبحث عنه طوال يومين تقريباً في أعماق غابات الجبل فعثرنا عليه رابضاً تحت شجرة فلّين سامقة شديدة . فأقبل علينا هاشأً باشأً ، وثيابه مهلهلة ممزّقة ووجهه متغيّر لوتخته الشمس حتّى صعب علينا تعرّفه ، وكانت ملابسه - رغم تمزيقها - هي التي أكّدت لنا - بالذكري التي تركتها في نفوسنا - أنّه هو الذي نبحث عنه . وحيّانا بكل أدب ، وفي كلمات قصار ولكنها سديدة دعانا إلى ألا ندهش لحاله هذا وعيشه على هذا النحو ، فما ذلك إلا وفاء لنذر كفارة عن خطايا العديدة . فرجونا أن يدلّنا على اسمه ، لكننا لم نستطع أبداً حملته على ذلك . وقلنا له : إذا احتاج الى غذاء فما عليه إلا أن يدلّنا أين ثوابه به ، إذ يسرّنا أن نلبّي رغباته في هذا بكل ارتياح ودقة . وإن لم يشأ ذلك فليأت لطلب ذلك منا ، لأن يأخذه من الرعاة بالقوة . فشكرنا لشكر جزيلاً ما عرضنا عليه والتمس الصفح عمّا سلف منه ، ووعدنا أن يسأل غذائه إحساناً لله دون أن يؤذي أحداً . أمّا عن مسكنه فقال أن لا مسكن له إلّا ما يتصادف وجوده حين يغشاه الليل . وبعد تعاقب هذه الأسئلة وهذه الأجوبة أنشأ في البكاء بحنان ، وإن لم ننطلق معه بالبكاء نحن الذين كنّا نسمعه كنّا حجارة أو أشدّ قسوةً ويكفي أن ننظر كيف وجدناه في المرة الأولى وكيف نراه الآن ، إذ ، كما قلت لكما ، كان فتى رقيقاً وضيء الوجه يبيدي في أدب عبارته عن كريم معدنه ونباله أصلة ، حتّى أن جفوتنا وقسوتنا بدت جليّة واضحة ولطيفة بدا واضحاً حتّى من خلال ماظهره عليه من خشونة . وفجأة وبينما كان في وسط الحديث ، توقّف والتزم الصمت وسمرّ عينيه في الأرض مدة طويلة ، فأصابتنا الدهشة وانتابنا القلق ، منتظرين ماذا عسى أن تفضي إليه هذه الجذبة ونحن مشفقون عليه إذ كنّا نراه يفتح عينيه حيناً ويغلقها حيناً آخر ، وينظر الى الأرض دون إطراف ، ثم يقبض شفّتيه ويقلب حاجبيه ، فعرفنا في التو أنّه مصاب بلوثة جنون . وصدق ما حسبناه لأنّه نهض من الأرض فجأة غاضباً ثائراً ، وانقضّ بجميع قواه وغضبه على أقرب الناس اليه ، ولولا أننا انتزعناه من بين يديه لقتله بلكماته وعضّاته . وكان وهو يضربه يقول : « أي فرندو الخائن ! هنا ستدفع ثمن غدرك بي ، وهاتان اليدان ستنتزعان منك ذلك القلب الذي تسكن به كل الرذائل والدنائيات مجتمعة ، وعلى رأسها الخداع والخيانة » - وأضاف الى هذا عبارات أخرى كلها سباب في فرندو هذا قائلاً أن خائن غدار . وأخيراً وبعد جهد جهيد خلصنا رفيقنا من بين يديه ، ودون أن ينبس بكلمة هرب الفتى مسرعاً كل الإسراع ، واختفى بين الصخور والأدغال فاستحالت علينا مطاردته واللاحق به . فاستنتجنا من هذا أنّه مصاب بجنون ، وأن

شخصاً يدعى فرنندو قد فعل به فعله نكراء يدل على نكرها ما آل إليه من حال . وتأيد هذا كله في المرات التي قابلناه فيها ليسأل الرعاة شيئاً من الزاد ، أو ليأخذه منهم بالقوة ، إذ حينما تظهر عليه أعراض الجنون في نوباته يُعرض عما يقدمه إليه الرعاة عن طيب خاطر ولا يتقبل منه شيئاً ، وإنما يأخذ ما يريد باللكمات . ولكن إذا تاب إليه رشده سأل الإحسان لله بأدب جم ، فإن أعطي انطلق ينهج بالشكر ، وبالبكاء أيضاً . وتابع المعاز حديثه قائلاً : وأقول لكم ياسادتي أنني قررت أنا وأربعة رعاة - إثنان منهما يشتغلان عندي ، والآخران صديقان - أن نبحث عنه حتى نعرث عليه ، فإذا ظفرنا به اقتدناه - شاء أو أبى - إلى مدينة المدور التي تبعد ثمانية فراسخ من هنا ، وهناك نعمل على أن يحصل على الشفاء إن كانت علته قابلة للعلاج ، أو على الأقل نعرف من هو عندما يثوب إلى رشده ، ونعرف هل له أهل يمكن أن نخبرهم بما وقع له . وهذا أيها السيدان هو كل ما أستطيع أن أقوله عما سألتماني عنه ، وتأكدنا تماماً أن صاحب الأشياء التي وجدتماها هو بعينه الشخص الذي رأيتما يمر بسرعة وخفة تلتزمان وغريه » . ولقد أنبأه دون كيخوته فعلاً كيف شاهد الرجل وهو يعدو في ثنايا الجبل .

فانتاب دون كيخوته الدهشة مما سمع من كلام المعاز ، والرغبة الشديدة في أن يعرف من هو هذا المجنون البائس ، وصمم على تنفيذ ما يفكر فيه وهو البحث عنه في الجبل كله دون أن يترك زاوية أو فجوة أو غاراً بغير أن يفتش فيه عنه حتى يعثر عليه . لكن البحث رتب الأمور خيراً مما رجا ، إذ في هذه اللحظة نفسها تبدى - في مضيق من مضائق الجبل ينتهي إليهم - ذلك الفتى الذي يبحثون عنه . وأقبل يرطن بين شفثيه بكلمات لم يكن من الممكن سماعها ولو من قرب . وكان رداؤه كما وصفوه ، لكن حينما لاحظ دون كيخوته أن صدره ممزق يحملها على أكتافه كانت من جلد الغزال المعطر بالعنبر ، مما جعله يجزم بأن شخصاً يلبس ملابس من هذا النوع لا يمكن أن يكون من طبقة وضيعة . ولما اقترب الفتى منهم حيأهم بصوت مبوح سريع ، لكن بأدب جم . ورد عليه دون كيخوته بأحسن منها ، ثم نزل من على صهوة فرسه ، وراح يعانقه بحرارة ويضمه إلى صدره برهة وكأنه يعرفه منذ سنوات . أما الآخر - ويمكن أن نطلق عليه اسم (الأرث ذي الوجه القبيح) كما سمى دون كيخوته : « ذي الوجه الحزين » - فبعد أن رضي عن عناقه أبعد ووضعه كفيه على كتف دون كيخوته وراح يتأمل فيه كأنه يريد أن يعرفه ، وهو في دهشة أيضاً من رؤية وجه دون كيخوته ومظهره وسلاحه لاتقل عن دهشة هذا منه . وفي النهاية بدأ « الأرث » بالكلام بعد العناق ، فقال ماسنورده فيما يلي .

الفصل الرابع والعشرون

في تلاوة مغامرة السير مورينا

تحكي القصة أن دون كيخوته كان يقبل بكل مسامحة على ما كان يقوله « فارس الجبل » البائس وهو يتابع حديثه .

- الحق ياسادة ، أيّاً من كنتم لأنّي لأعرفكم ، أني أشكر لكم ما أبديتكم نحوي من مظاهر الأدب واللفظ ، وبودي لو أستطيع أن أرد عليكم بغير النية الطيبة ما أظهرتموه منها في حسن استقبالكم لي . لكنّ سوء طالعي لا يهيئ لي - من أجل الجواب عما يتقدم اليّ من خدمات - غير الأمانى الطيبة في الإعراف بالجميل .

فأجاب دون كيخوته : إن أمانى أن أخدمك ، لأنّي صمّمت على عدم الخروج من هذه الجبال حتّى أعتز عليك وأعرف منك ما إذا كانت المحنة التي تدل غرابة حياتك على أنّك مصاب بها يمكن أن يوجد لها دواء فأبذل في الحصول عليه كل ما أستطيع . أمّا إن كانت محنتك مما لا يرجى منها شفاء ، فإنّي أود على الأقل أن أعينك على احتمالها فأمزج زفراتي بزفرائك وعبراتي بعبرائك ؛ فمن العزاء عن الألم أن تجد من يشارك في الاحساس به . فإن كانت نواياي الطيبة تستحق الجزاء بشاهد من الأدب ، فإنّي أستحلفك بحق اللطف الذي أراه يرفّ فيك ، وبحق من تعشق أو خير من تحب ، أن تخبرني من أنت وما الدافع بك الى أن تعيش وتموت كالدواب في وسط هذه القفار التي تقيم فيها على خلاف حقيقة حالك ، كما يشهد بذلك مظهرك . وإنّي لأقسم - هكذا تابع دون كيخوته قوله - بطريقة الفرسان التي دخلت فيها ، وإن كنت بها غير جدير ، وبمهنة الفارس الجوّال ، بأنك إذا رضيت رغبتني في هذا لخدمتك بكل حماسة وإخلاص يقتضيانهما واجبي ؛ فإمّا أن أواسيك في محنتك بالخفيف منها إن كان لها دواء ، أو بإعانتك على البكاء عليها كما وعدتك .

ولمّا سمع فارس الغابة فارس الوجه الحزين يتحدّث على هذا النحو لم يفعل إلا أن ظل

يحدّق فيه ويفحصه ويتأمله من أعلى رأسه حتّى أخمص قدميه ، فلمّا فرغ من تأمله قال :
- إن كان معكم طعام فأعطوني إحساناً لله ، فإذا طعمت فعلت وقلت ما شئتم ، اعترافاً
بالنوايا الطيبة التي أظهرتموها .

وسرعان ما أخرج سنشومن الخرج والمغاز من السلة ما احتاجه «الأرث» لشبعه ،
فانقضّ على ما قدّمه إليه انقضاض الأبله المتبلّد ، وأخذ في القضم بنهم شديد لم تنتظر معه
اللحمة اللقمة ، بل كان يلتهم ولا يتلع ، وطالما كان يأكل ظل الباكون معتمسين بالصمت ،
ولمّا فرغ من طعامه أشار عليهم بالسير في أثره حتّى اقتادهم الى مرعى نضير كان قائماً
هناك عند منعطف لصخر . فلمّا بلغ هذا الموضع انطرح على العشب ، وفعل الآخرون مثله ،
دون أن ينطق أحد بكلمه ، الى أن تمكّن الفارس الأرث من جلسته ، فأنشأ يقول :

- إن شئتم ياسادة أن أروي لكم بعبارة موجزة هول مصائبي ، فعليكم أن تعدوني ألا
تقطعوا سلسلة قصّتي الحزينة بأي سؤال أو حركة ، فإن فعلتم توقفت توتاً ولم أتحذّث أبداً .
فأعادت هذه المقدمة في ذهن دون كيخوته ذكر القصة التي رواها له حامل سلاحه ،
والتي توقفت لعدم معرفه عدد المعز التي عبرت النهر . ولكن «الأرث» تابع حديثه قائلاً :
- إن كنت احتاط هذا الاحتياط فذلك لأنّي لا أرغب في التلبّث طويلاً عند قصة
مصائبي ، لأنّ إعادة ذكرها لن يفيد إلا في خلق غيرها ، فإن أقلّتم من الأسئلة كان فراغي
من روايتها أسرع ، بيد أنّي لن أغفل عن ذكر شيء ذي بال حتّى أرضي حبّ استطلاعكم
تمام الرضا .

فوعده دون كيخوته - باسم الجميع - بما طلب ، وبهذا التأكيد بدأ على هذا النحو ،
- اسمي كردنيو ، وبلدي من أهم بلاد هذا الأندلس^(١) ، وأسرّتي نبيلة ، وأهلي
أغنياء ، وشقائي كبير يبكي له أهلي وتشعر به أسرّتي ، دون أن يملكوا تخفيفه بشروتهم ،
لأن ثروة الرزق لا تغني كثيراً في علاج ما ترسله السماء من شقاء . وكان يسكن في ذلك
البلد ملاك من السماء ، وضع فيه «الحب» كل كمال ومجد كنت أطمح إليه ، كذلك كانت
لوسنده نبيلة غنيّة مثلي ، لكنّها كانت أسعد منّي وأقل إخلاصاً مما استحقّته عواطفني
الشريفة . لوسنده هذه أحببتها وعبدتها منذ نعومة أظفاري . وهي أيضاً كانت تحبّني بتلك
البراعة والبساطة التي يسمح بها فناء سنّها . وأدرك أهلونا ما بيننا من عواطف متبادلة ،
دون أسف ، إذ اعتقدوا أنّ هذه العواطف إذ امتدّت الى مابعد الطفولة فلن يكون لها من

(١) يقول «هذا الأندلس» de este Andaluçin - كما لاحظ كليمنطين لأنه يشير الى الأندلس الأسفل ، في مقابل الأندلس الأعلى الذي
يشمل مناطق غرناطة وقاين حيث الأرض جبلية مرتفعة .

خاتمة غير الزواج ، وهو أمر يبدو كأن مساواة كلينا في المنزل والثروة قد هيأه سلفاً . ونما الحب بيننا مع السن ، ورأى والد لوسنده أن الواجب والأدب تقتضي عليه بأن يحول بيني وبين بيته مؤتسماً في هذا بأهل تيسبه^(١) التي طاماً تغنى بها الشعراء . فلم يزدني هذا المنع إلا ضراماً وشوقاً على شوق ، لأن المنع فرض الصمت على شفاهنا ، لاعلى أقلامنا التي استطاعت خيراً من الألسنة ، أن تعبر لمن تريد له التعبير عما يختلج في النفس من لواعج ، إذ يحدث كثيراً أن تضطرب الإرادة القوية نفسها في حضرة المعشوق فتقلب أشد الألسنة ذلاقة عتياً بكيناً . يالله! كم من رسائل كتبت إليها وكم من جوابات تلقيت منها ، كلها نبل وكلها رقّة وكم من قصائد نظمته وأشعار غرامية أفضت فيها نفسي بمكنون عواطفها ورسمت مشبوب أمانيها ، وتحدثت الى ذكرياتها ، واستمتعت بمباهجها وأخيراً استولى عليّ القنوط وشعرت أن نفسي تحترق بلهب الشوق لرؤية لوسنده ، فقررت أن أعمل أنسب الأمور لبلوغ الجزء المأمول الذي أستحقّه عن غرامي ، أعني أن أطلب من أبيها الاقتران بها زوجة شرعية لي . فتقدّمت الى أبيها بهذا الطلب ، لكنه أجاب بأنه مع تقديره للرغبة في تشريفه بهذا الاقتران وتشرفي به ، فإن أبي لا يزال حياً فله إذن حق التقدم بهذا الطلب . لأنه إن لم يكن هذا الزواج برضا تام وعلى هوى من والدي ، فليست لوسنده من أولئك اللواتي يقترن ويقدمن أنفسهن زوجات سرّاً وقسراً . وبدا لي أنه على حق فيما يقول . فشكرت له كريم مشاعره ، وأملت أن أنال موافقة أبي بمجرد عرض الأمر عليه .

« وذهبت يحدوني هذا الأمل الى والدي أكشف له عن رغبتني هذه . لكن في اللحظة التي دخلت فيها غرفته ، وجدته يحمل في يده رسالة مفتوحة سلمها إليّ قبل أن أفوه بكلمة . وقال : يا كردنيو! سترى في هذه الرسالة أن الدوق ريكردو يرجو لك الخير » . والدوق ريكردو - كما يجب أن تعلموا يا سادة ١ - رجل من عظماء اسبانيا تقع ضياعه في أخصب بقاع هذا الأندلس^(٢) . فأخذت الرسالة وقرأتها فوجدتها مكتوبة بعبارات بدا لي أنا نفسي

(١) تسبه Tisbe : معشوقة بيرم Pyrame البابلي الذي اتحد وإياها في سهل بالقرب من بابل تحت شجرة توت . فوصلت تسبه أولاً . ثم طلت لها لبوة ففترت وخلفت وراءها نقابها فمزقته اللبوة وملأته دماً ، فشاهده بيرم لما وصل فاعتقد أنها قتلت . فاستولى عليه القنوط فقتل نفسه بسيفه . ثم عادت تسبه ورأت ما جرى لمشيقتها فانتحرت الى جواره . فاستحالت ثمار التوت سوداً ، بعد أن كانت حتى ذلك الحين بيضاء .

(٢) يشير كردنيو هنا الى دوقه أشونة ، وأشونة في الأندلس الأسفل . والأندلس الأعلى يمتد من أسبيلية الى غرناطة . ماراً بأرشدونة ، ويشمل مملكتي غرناطة وقابن القديمتين وإن كان الأب مورويو بلادة Murillo Velarde في كتابه « الجغرافيا التاريخية » ج ١ ص ١٤٨ (مدريد سنة ١٧٥٢) يقول عن الأندلس إنه يشمل أربع ممالك : غرناطة ، وأشبيلية ، وقروطة ، وقابن . وينقسم الى أندلس أعلى هو مملكة غرناطة ، وأندلس أسفل هو سائر الأندلس .



الفصل الرابع والعشرون : دون كيخوته في مجاهداته

أنه من المستحيل بعدها ألا يرضى والدي بما طلب منه فيها . ذلك أن الدوق رجاء أن يرسلني الى حيث يقيم قائلاً إنه يريد مني أن أكون - لامن حاشية ابنه الأكبر ، بل رفيقاً له ، وأنه سيتولى تعييني في منصب يليق بتقديره لي . فتولاني الصمت لدى قراءة هذه الرسالة ، خصوصاً وقد قال والدي : « في خلال يومين سترحل يا كاردنيو لإرادة الدوق ، وأحمد الله الذي فتح عليك بطريق ستصل به الى ماتستحقه » . والى هذه الكلمات أضاف النصائح التي يسديها والد لولده في مثل هذه المناسبة . وأزف موعد الرحيل ، وكنت قد تحدثت الى لوسنده في الليلة السابقة وقصصت عليها كل شيء ، وأنبت أنها كذلك ملتصقة منه أن يحفظ عهده لي مدة من الزمان ، ويؤجل اتخاذ قرار بشأن ابنته ، على الأقل حتى أعرف ماذا يريد ريكردو مني . فوعدني بذلك ، وأكدت لوسنده ما وعدت بأغلظ الأيمان ، وبنوبات من الإغماء . وأخيراً ذهبت الى حضرة الدوق ريكردو ، فاستقبلني استقبلاً حاراً أثار الحسد في نفوس رجاله ، إذ ظنوا أن ما أبداه نحوي من عطف سابغ سيكون في غير مصلحتهم . وكان أكثرهم اغتباطاً بقدمي ابنه الثاني المدعو دون فرندو ، وكان شاباً صافي الأديم محمود السمائل ، حرّ النفس ، أريحي الطباع ، سهل المحبة ، سرعان مارغب في صداقتي الى حد أطلق الألسنة بذكرها . أمّا الأكبر فكان يحبني من غير شك ، ويعاملني باحترام ، لكن دون أن يكون بيني وبينه من المودة والانطلاق مثلما كان بين دون فرندو وبينني . ولما كان السر بين الأصدقاء مرفوعاً ، والألفة التي كات بيني وبين دون فرندو قد أصبحت صداقة ، فقد أفضى اليّ بدخيلة نفسه ومكنون خواطره ، ومن بينها عاطفة غرامية كانت تسبّب له بعض الهم . ذلك أنه كان يحب فلاحه من أتباع أبيه ، وكان أهلها أغنياء جداً ، وكانت رائعة الجمال خفيفة الروح عاقلة الى حد أن عارفها لم يكونوا يدرون أي هذه الصفات أبرز من الأخرى ، فألهبت هذه السمائل المجتمعة في الفلاحة الجميلة مشاعر دون فرندو ، فقرّر أن يعاها على الاقتران بها حتى تكون له بعد أن أخفقت سائر الوسائل في الظفر بها . ولكي أكون أميناً على صداقتي وإيائه رأيت لزماً عليّ أن أسعى بكل ما أستطيع أن أجده من الحجج القاطعة والأمثلة السائرة ، أن أعدل به عن هذا القرار . لكن محاولاتي معه ذهبت سدى ، فقرّرت أن أبوح لأبيه بكل شيء ، وكان دون فرندو لودعياً فطناً فأحسن بما عزمت عليه ، إذ أدرك أن خادماً أميناً مثلي لا يمكن أن يتسّثر على شيء يشين الدوق ، مولاي . فأراد أن يصرفني ويخدعني فقال إنه لادواء أنجع لنسيان الجمال الذي استولى عليه - من البعد بضعة أشهر ، ومن أجل هذا رغب أن نسافر معاً الى أبي ، بحجة شراء خيول جيدة من بلدي حيث تربى أحسن الخيول في الدنيا . فلما سمعته يتكلم على هذا النحو ، دفعتني

العاطفة الى موافقته على هذا الرأي حتى لو كان رأياً فائلاً ، وعده أحكم رأي يمكن تصوّره ، ذلك أني رأيت في تنفيذه فرصة رائعة لرؤية حبيبتي لوسنده . وبدافع هذه الفكرة وتلك الرغبة رأفته على رأيه وأيدته فيما ذهب اليه ، ونصحته بالتنفيذ في الحال قائلاً أن البعد ، مهما تكن قوة العواطف ، ذو أثر بالغ لا ينكر . لكن . كما عرفت من بعد - لم يقترح عليّ دون فرنندو هذا الاقتراح إلا بعد أن غرّر بالفلاحة تحت ستار أنّه زوجها ، فراح يبحث عن فرصة للهرب قبل افتضاح أمره ، خشية غضب أبيه إن علم بخبيثته ، ولما كان الحب ، لدى كثير من الشبان ، غير جدير بهذا الاسم ، بل هو مجرد رغبة عابرة لا تستهدف غير اللذة ، فإذا تحققت هذه انطفأ ذاك ، وهو أمر لا يحدث للحب الصادق - فإن دون فرنندو لم يكذب ينال مراده من الفلاحة حتى هدأت شهواته وانطفأت شعلة عواطفه ، فإن كان تظاهر أولاً بالرغبة في البعد ليتجنّب أن يلتزم بشيء ، فإنّه قد أراد الآن أن يبتعد ليتجنّب التمسك بعنده ، وأذن له الدوق في الرحيل ، وكلفني بمصاحبته . فبلغنا مدينتنا ، واستقبله أبي بما يليق به مثل هذا الضيف الكريم ، ورأيت لوسنده ، وتولدت مشاعري من جديد وإن لم تكن ماتت ولاخمدت ، ولسوء حظّي أفضيت بها الى دون فرنندو ، لأنني رأيت أن شريعة صداقتنا تلزمني بالآ أحجب عنه أي سر . فرحت أثني على مفاتن لوسنده وجمالها وذكائها ، وأعلي من قدرها بحرارة ولدت في نفسه الرغبة الشديدة في رؤية شخص تحلى بكل هذه المفاتن . وشاء سوء الطالع أن أحقق رغبته ، فذات ليلة أريته إتياءها على ضوء شمعة ، من نافذة اعتدنا أن نتحدث عندها . فنسى كل ما رآه من جمال حتى ذلك الحين . فظل سادراً ساهماً مستغرقاً لا يحس ، وبالجملّة فقد اشتعل غراماً بها الى الحد الذي سترونه من خلال قصتي هذه البائسة . وشاء القدر - زيادة في إضرار غرامه الذي أخفاه عني ولم يبيح به إلا للسماء - أن يعثر ذات يوم على رسالة كتبها لي تدعوني الى خطبتها الى أبيها ، وكانت رسالة رقيقة مليئة بالحب والحياء لم يكذب يقرأها حتى قال لي أن في لوسنده وحدها اجتمعت كل مفاتن الروح والجمال التي توزعها سائر النساء . ومن الحق عليّ أن أعترف الآن بأنه على الرغم من إدراكي لصدق الأسباب التي جعلت دون فرنندو يشيد بلوسنده ، فقد بدأت أستشعر عدم الثقة فيه . والواقع أنّه كان يريد دائماً أن نتحدث عن لوسنده ، ويعود بالحديث اليها مهما تكلف في ذلك ومهما بعد الموضوع عنها . فأيقظ هذا كلّ في نفسي شائنة الغيرة ، لا لأنني كنت أخشى تغيير لوسنده عليّ أو خيانة منها ، ولكن مصيري جعلني أخشى ما هيأته لي هي . وحاول دون فرنندو دائماً أن يقرأ الرسائل التي كنت أبعث بها الى لوسنده ورسائلها هي إليّ ، بحجة أنّه كان معجباً ببراعة تعبيرنا عن عواطفنا .

« وحدث ذات يوم أن سألتني لوسنده أن أقرأ قصة فروسية كانت تعجبها كثيراً ، وهي قصة أماديس الغالي... » .

ولم يكد دون كيخوته يسمع اسم قصة الفروسية حتى صاح :
- لو أنبأتني يا سيدي في بدء حديثك أن صاحبة العصمة الأنسة لوسنده مولعة بكتب الفروسية ، لما كنت في حاجة الى منقبة أخرى لإقناعي بتقدير سمو عقلها ، وإلا فلو كان ينقصها الإعجاب بهذا النوع من الكتب اللذيذة الفاتنة لما كانت متحلية بكل تلك الشماثل التي وصفتها لنا ياسيدي . فعن نفسي لاحتاجة بك الى الإسراف في العبارات للإشادة بمفاتنها ومناقبها وذكائها ، بل كفاني أن أعرف الى أين يتجه ولعها ، لأقرّر أنها أجمل وأذكى امرأة في الدنيا . بيد أنني كنت أودّ منك ياسيدي أن ترسل اليها مع قصة « أماديس الغالي » ، قصة ذلك الرجل الطيب « دون روخيل اليوناني » ، فأنا على يقين من أن الأنسة لوسنده كانت تستمتع كثيراً بأبناء درنيدا وجرايا ، وأسما الراعي دارينل^(١) ، والقصائد الرعوية التي كان يتغنّى بها ويعزفها برقة ولطافة بالغة ، لكن سيأتي الوقت لتتدارك هذا الخطأ ، وذلك حينما تنفضل معي الى قريتنا : فهناك أستطيع أن أعطيك أكثر من ثلثمائة مجلد هي لذة نفسي ونعم حياتي ، وإن كنت أعتقد أنه لم يبق لديّ منها شيء ، بسبب مكر السحرة الأشرار وحسدهم . وليغفر لي سيدي إن كنت قد خالفت عهدنا له بالأنا نقاطع قصّته أبداً ، لكنني لم أكد أسمع كلاماً عن الفروسة والفرسان الجوّالة حتى استعصى عليّ أن أمنع نفسي من إضافة كلمة في الموضوع ، شأنني في ذلك شأن أشعة الشمس لا تملك تمتنع من نشر ضوئها وحرارتها أو القمر أن يبث رطوبته . فاعذرني إذن ، واستمر في حديثك وما أشوقه الآن .
وبينما كان دون كيخوته يلقي الخطبة التي أتينا على ذكرها ، مال كرديو برأسه على صدره حال من يحلم حلماً عميقاً . وعلى الرغم من أن دون كيخوته توصل اليه مرتين أن يستأنف قصّته ، لم يشأ أن يرفع رأسه ولا أن يجيب بكلمة . وأخيراً وبعد صمت طويل ، رفع رأسه وقال :

« لن أستطيع أن أزيل من ذهني ، ولن يزيل أحد من خاطري ، ومن يعتقد أو يفعل

(١) درنيدا وجرايا Darnida Curaya شخصيتان في قصة « دون روخيل اليوناني » وهي الجزء الثالث من رواية « دون فلوريسل النيقى » Don Floris de Niquea تأليف فلينانو دي سلفا Feliciano de Silva (١٤٩٢ - ١٥٥٨) الذي ولد في ليوندا رودريجو ، وعشق ابنه يهودي متنصر اسمها جرتيا Gracia فيع Gracia واقترب بها على رغم معارضة كل أسرته . وقد عبر عن غرامه هذا مع جرتيا فيه في كتاب « حلم فلينانو دي سلفا » ، وفيه تمثّل عظمة الحب » . وقد أضيف الى خاتمة قصة « أماديس اليوناني » ، وأشهر قصصه « فلستينا الغانية » Segunda Celestina وهي مليئة بالأشخاص المختلطين الذين صوّروهم بقوة وثبّكهم ، وكان أسلوبه مليئاً بالصنعة والبديع ، فسخر منه الكتاب المعاصرون ، وسخر منه ثريبتس في مستهل دون كيخوته كما أضرا الى هذا من قبل .

عكس هذا فهو قَدُمٌ ثقيل : هذا الأمر الذي لن أستطيع إزالته ولن يزيله أحد هو أن ذلك الخبيث المدعو السيد اليسابات^(١) كان يعاشر الملكة مدسما معاشرة الخلآن .

فصاح كيخوته قائلاً : وقد احتد غاضباً (في لهجة عنيفة على عادته) ،
كللاً وألف مرة كللاً هذا خبث ، بل نذالة بتعبير أدق ! إن الملكة مدسما كانت سيدة فاضلة نبيلة ، ولا يمكن الظن أن أميرة نبيلة جليلة كهذه تفكر في مخادنة رباطٍ فتوق^(٢) ! ومن يقل عكس هذا يكن كذاباً أشراً . وسأثبت هذا ، راجلاً أو راكباً ، مسلحاً أو أعزلاً ، نهراً أو ليلاً - لمن يشاء . وفي تلك الأثناء كان كردنيو يحدث فيه بكل انتباه ، إذ أصابت كردنيو لوعة جنون . فلم يكن في وسعه الاستمرار في قص قصته ، كما لم يكن في وسع دون كيخوته سماعه لشدة غصبة من إهانة مدسما . والغريب في الأمر أنه دافع عنها كما لو كانت ملكته الشرعية الحقيقية ، لأنه كان مليئاً بما في كتبه الملعونة . وكردنيو من ناحيته قد أصابته نوبة جنون لما أن سمع من يكذبه ويصفه بأنه نذل خبيث ومالئ هذا من نعوت مشابهة ، فأساء تقدير المزاح ، فأمسك بحصاة كبيرة وجدها عند قدميه ، وضرب بها صدر دون كيخوته ضربة شديدة جندلته على ظهره . ورأى سنشو پنثا ماحلٍ بمولاه فأنقض على المجنون بقبضة يده ، لكن المجنون استقبله بلكمة ألقت بسنشو على الأرض ، وعلا فوق بطنه ورض أضلاعه كما لذ له هواء . وأراد المغاز الذود عن سنشو فلقى نفس المصير ، وبعد أن طحن المجنون هؤلاء الثلاثة طحناً خلّى عنهم ومضى لسبيله بكل رباطة جأش وهدوء ، ودخل في خفايا أدغال الجبل . ثم نهض سنشو قد بلغ به الغضب مبلغه فهجم على المغاز قائلاً أنه هو السبب فيما وقع ، لأنه لم ينههما - هو وسيده - أن هذا الرجل تنتابه بين الفينة والفينة خبطات جنون ، إذ لو عرفا ذلك لاحتاطا للأمر . فأجاب المغاز قائلاً أنه نتههما إلى ذلك فعلاً ، فإن كان صاحبه لم يصغ إلى ما قال فليس الذنب ذنبه . فردّ عليه سنشو وعاد المغاز الجواب . وانتهى الرد والجواب بالتماسك بالذقون وتبادل اللكمات ، ولولا أن فصل دون كيخوته بينهما لمزق كلاهما الآخر إرباً إرباً وقال سنشو وهو يمسك بالمغاز ،

- دعني وإياه ياسيدي الفارس ذا الوجه الحزين ! فهذا من السفلة مثلي ، ولم يسَلَح فارساً ، وفي وسعي أن انتقم من الإهانة التي ألحقها بي كما أشاء ، وأن أصارعه يداً بيد كما يفعل الرجل الشريف .

(١) السيد اليسابات maestro Elisabat كان جراحاً في خدمة أماديس الغالي .

(٢) في الأصل الاسباني sacapotas ومعناها الأصلي : من يشد الفتق عند المصابين بالفتاق . وتطلق مجازاً وتحقيراً على الجراح الرديء .

فقال دون كيخوته ، هذا هذا! لكتني أعلم أن الذنب ليس ذنبه فيما وقع لنا .
وأعاد بينهما السلام بهذا الكلام . ثم عاود سؤال المغاز ما إذا كان من الممكن العثور
مرة أخرى على كردينو ، لأنه في أشد الشوق الى معرفة ختام قصته . فكرر له المغاز ماسبق
أن قال وهو أنه ليس يدري أين يقيم كردينو ، على أنه إذا فتش في هذه النواحي بدقة فهو
لابد ملاقيه إما عاقلاً وإما مجنوناً .

الفصل الخامس والعشرون

في غرائب الأمور التي وقعت لفارس المنتشا الشجاع في جبال
السيراً مورينا والنذر الذي قام به اقتداءً بالأدهم الجميل^(١)

فلما ودع دون كيخوته المغاز امتطى صهوة روثينانته وأمر سنشو بأن يتبعه ، فامتلأ
هذا للأمر ساخطاً راكباً حماره^(٢) . وتوغلا في أشد أجزاء الجبل وعورة . وكانت تحرق
سنشو رغبة ملحة في الحديث مع سيده أثناء المسير ، لكنه كان يود أن يكون سيده البادئ
حتى لا يخالف أوامره . فلما لم يستطع هذا الصمت الطويل احتمالاً قال :

مولاي دون كيخوته تفضل وقل لي على بركة الله وخلّ عني ، لأنني أود الرحيل من
ها هنا والعود إلى بيتي لأجد زوجتي وعيالي ، فمعهم على الأقل أستطيع الكلام والحديث
ما طاب لي الأمر . لأن السير مع مولاي خلال هذه القفار الموحشة ليل نهار دون أن أستطيع
أن أوجه إليك كلمة حينما أريد ، هذا معناه أن أقبر حياً . بل لو كان القدر قد شاء أن يتكلم
الحيوان الأعجم ، كما كانت الحال في أيام أيسوب^(٣) ، لكان الأمر أهون ، هنالك كنت أتكلم
مع حماري ، أو أي دابة في عرض الطريق ، فأحدثه عن كل ما يطرأ في ذهني ، وأحتمل
مصيبي بصبر وجلد . ولكنها مشقة بالغة لا قبل باحتمالها أن يسير المرء وراء المغامرات
طوال حياته دون أن يجد شيئاً غير اللكمات والرفسات وقذائف الحصى والتأرجح على
الملاءة . ومع هذا كله يجب أن يخلق المرء فمه دون أن يقوى على أن ينبس ببنت شفة
تعبيراً عما في نفسه ، وكان المرء أخرس .

فأجاب دون كيخوته : أنا أفهم ما تريد ياسنشو إنك تموت رغبة في أن أرفع الحظر

(١) الأدهم الجميل Beltoneros لقب أطلقه أحد الرهبان على أماديس الغالي ، خلال النذر الذي قام به على الصخرة الجرداء .

(٢) ينسى ثرؤنتس هنا أيضاً أن الحمار قد سرق ولم يعد مع سنشو .

(٣) يخطئ سنشو في النطق باسم هذا الشاعر صاحب الخرافات المشهورة فينطقه Cuisopet ، وصحته في النطق القديم Isopete ويكتب اليوم Esobu . ولاحظ أيضاً هنا أن المؤلف ينسى أن حمار سنشو قد سرق .

عن لسانك . إذن فهو مرفوعاً وتكلم بما شئت ، لكن بشرط ألا يمتد رفع الحظر هذا الى أطول من المدّة التي سنقضيه في هذه الجبال .

فقال سنشو ، موافق ، مادمت سأتكلم الآن ، وأما ماسياتي بعد فأمره في الغيب . ولإلتفاف بهذه الرخصة منذ الآن ، اسأل مولاي متى خطر له أن يأخذ جانب الملكة مركسيه هذه ، أو كما تسمى لأدري . أي شيطان جعلك تهتم بأن يكون ايلي^(١) الابداد خليلها أو غير خليلها أعتقد أنك لو كنت تركت هذه المسألة تمر - ولم يكن من شأنك الحكم فيها - لكان ذلك المجنون قد استمر في قص حكايته وكنت قد تجنبت أن يصيبك الحصى في بطنك وتجنبت أنا أكثر من عشر صفعات على وجهي ومثلها رفسات في بطني .

فأجاب دون كيخوته : «أويم الله ، يا سنشو ، لو عرفت كما أعرف أنا أية سيدة نبيلة محترمة كانت تلك الملكة مدسمه ، لكنت قلت أن صبري كان عظيماً لأنني لم أحطم ذلك الفم الذي خرجت منه هذه الكلمات الكافرة الفاجرة ، فمن الكفر الشديد أن يقول المرء أو يفكر أن ملكة تعيش عيشة الخيلة مع جراح . وحقيقة الأمر في هذه الحكاية هي أن السيد اليساباد الذي تكلم عنه المجنون كان رجلاً شديد الفطنة واسع الحيلة ، وكان للملكة حاكماً وطبيباً ، أما أن يتخيّل المرء أنها كانت خيلة ، فهذه وقاحة تستحق أشد العقاب . ولكي توافقني على أن كردنيو لم يكن يدري ماذا يقول ، فيجب أن تلاحظ أنه حينما كان يتحدث هكذا كانت قد غلبته اللوثة وانتابته النوبة .

فقال سنشو ، هذا هو ما أقوله تماماً ، ولهذا لم يكن لك أن تهتم مطلقاً بما يقوله هذا المجنون ، وعلى كل حال فلولا أن ساعدك حسن الطالع ، ولولا أن الحصى اتجهت الى البطن ولم تتخذ طريقها الى الرأس - لكان الأمر مما لا يحمد عقباه أبداً ، وكل هذا جزاءً وفاقاً لدفاعنا عن هذه السيدة الجميلة التي أخذ الله روحها وصارت تراباً وعفنًا

فأجاب دون كيخوته ، أي سنشو تأكد تماماً أن جنون كردنيو لا يشفع له أبداً . فكل فارس جوال واجب عليه أن يدافع عن شرف النساء ضد الحكماء وضد المجانين على السواء ، أيّاً كن هؤلاء النساء ، فما بالك إذا اتصل الأمر بالأميرات ذوات الحسب الرفيع ، كما هو شأن الملكة مدسمه التي أحمل لها إعجاباً بالغاً نظراً لصفاتها النادرة ، لأنها فضلاً عن جمالها الرائع الخارق ، فقد كانت ذات فطنة وصبر وشجاعة في المصائب العديدة التي حاقت بها . هنالك كان لها العون خير العون في نصائح السيد اليساباد وصحبته ، حتى

(١) يحرف سنشو هنا اسم الملكة ، مدسمه والطبيب اليساباد .

استطاعت احتمال آلامها بحزم وفطنة . ومن هنا نبتت لدى الجهلة ذوي النوايا الشريرة فكرة أنها كانت خليلته . لكنهم في هذا كاذبون ، ومن يخطر بباله مثل هذا الظن الأثيم فأولئك يكذبون مئات المرات .

فقال سنشو ، أنا لا أقول ذلك ولا يخطر ببالي ، فهذا شأنهم ، وما على المرء إلا أن يأكل من الخبز الذي صنعه بيده ، وسواء لديّ ناماً معاً أو لم ينام ، فإله هو الذي سيحاسبهما على ذلك . أما أنا فعن كرمي أصدر ، ولا أرى عن غيري شيئاً ، ولست ممن يطمعون في معرفة شؤون الآخرين ، ومن يستر ويدس في جيبه يحسن . وأكثر من هذا فقد ولدت عرياناً ولا زال عرياناً ، فلن أذكر شيئاً ولن أكسب شيئاً . فإن كانا أشد مما هما فماذا يعنيني ؟ كثيرون يحسبون أن ثمة شرائح ، لكن لا توجد خطاطيف لتعليقها . بيد أنه من ذا الذي يستطيع أن يصنع أبواباً للبراري ؟ وكما قالوا في حق الله !

فقال دون كيخوته : يالله ما هذه الترهات التي تسوقها ! وما الصلة بين مانحن عليه الآن ، وبين هذه الأمثال التي تلصم الواحد منها في الآخر ؟ بحياتك ياسنشو ألا سكت ، ولا تهتم منذ الآن فصاعداً إلا بهمز حمارك ، ولا تتدخل إلا فيما يعنيك . واعلم بكل حواسك الخمس أن كل ما فعلته وأفعله وما سأفعله إنما يتفق مع العقل ويطابق تماماً قوانين الفروسية التي أعرفها خيراً من جميع الفرسان الذين مارسوا هذه المهنة في الدنيا كلها .

فأجابه سنشو : مولاي ! أمن قواعد الفروسية السليمة أن نسير ضالين هكذا في هذه الجبال ، دون درب ولا طريق ، بحثاً عن مجنون قد يلذ له . إذا ما عثرنا عليه ، أن ينهي مابداً به ، ولا أعني قصته ، بل رأس مولاي وأضلاعي أنا ، حتى يحطم أوصالنا كلها ؟ فقال دون كيخوته : صد مرة أخرى أقول لك ياسنشو . واعلم أن ما يجزني إلى هذه الأماكن الموحشة ليس فقط الرغبة في أن أجد المجنون ، بل وأيضاً الرغبة في القيام بمغامرة تخلد اسمي وتذيع شهرتي في الدنيا بأسرها ، على نحو يكون فيه ختام الفضائل التي تجعل الفارس الجوال تاماً كاملاً .

فسأله سنشو : وهل تنطوي على خطر شديد هذه المغامرة ؟ فأجابه الفارس الحزين الطلعة : كلا وإن كان من الممكن أن ينقلب الحظ نحساً ، ولكن كل شيء ، يتوقف على مهارتك .

فقال سنشو : مهارتي أنا ؟

فأجاب دون كيخوته : نعم مهارتك ، لأنك إذا رجعت سريعاً من حيث أود أن أرسلك ، فسريعاً تنقضي متاعبي وسريعاً يبدأ مجدي . ولكن ليس من الانصاف أن أتركك قلقاً في

انتظار ما أودّ أن أفصي به . إني أودّ أن تعلم ، أي سنشو ، أن أماديس الغالي الشهير كان من أكمل الفرسان الجوّالة . ماذا أقول ؟ بل هو الوحيد ، الفريد ، الأول ، سيّد جميع الفرسان الجوّالة في عصره . ويؤسفني أن أقول هذا واعتذر لدون بليانيس ولأولئك الذين يقولون أنه كان كفنّاً له في بعض النواحي ، لأنهم مخطئون في هذا وأيم الله ! وأقول أيضاً أن الرسّام الذي يريد أن يكون شهيراً في فنه ، يحاول أن يقلّد اللوحات الأصلية لأكبر الفئتين الذين يعرفهم ، والقاعدة نفسها تسري على سائر المهن والحرف التي تفيد في إعلاء شأن الجمهوريات . وهذا أيضاً ما يجب أن يفعله وما يعمل فعله كل من يريد أن ينال الشهرة في الفطنة والصبر ، إنه يقلّد أولسيس الذي قدّم لنا هوميروس عن أعماله وشخصه نموذجاً حيّاً للرجل الفطن الصبور في المحن ، كما أن فرجيليوس أظهر لنا في شخص إنياس قيمة الولد البار وحكمة القائد الشجاع ، وقد صوراها لا كما كانا ، بل كما كان يجب أن يكونا ، حتّى يدعا للأجيال القادمة نموذجاً كاملاً لفضائلهما . وكذلك كان أماديس نجمة القطب وشمس الفرسان الجوّالة للعاشقين ، وعلينا نحن الذين انضوينا تحت لواء الفروسية والحب أن نحاكبه ونضرب على قلبه . ومادام الأمر كذلك ياسنشو ، فيبدو لي أن الفارس الذي يتقن محاكاته سيكون أقرب الفرسان إلى بلوغ الكمال في الفروسية . ومن بين الأمور التي أبرز فيها هذا الفارس تمام حكمته وشجاعته وثبات صبره وحبه مافعله حينما اعتزل الناس - لما هجرته سيّدته أورريانا - وأظهر التجرد على «الصخرة الجرداء» بعد أن غيّر اسمه إلى «جميل الظلمات» ، وهو اسم ملئ بالمعاني ويتلاءم مع الحياة الجديدة التي فرضها على نفسه^(١) . ومحاكاته في هذا الأمر أسهل عندي من قصم ظهور المردة وإطاحة رؤوس الأفاعي وتشيتيت شمل الجيوش وتحطيم الأساطيل وإفساد أعمال السحر ، وهذه الأماكن الموحشة أصلح ما يكون لتنفيذ هذا العزم ، لهذا لا أودّ أن أدع هذه الفرصة السانحة للظفر ببخلة من شعره - تفلت مني .

فسأله سنشو ، وماذا تريد سيادتك أن تفعل في هذا المكان المنقطع ؟
فأجابه دون كيخوته : أولم أقل لك أنّي أريد محاكاة أماديس وقد اصطنع اليأس والحمق والخبرة ، ليحاكي في الوقت نفسه دونرولاندو الشجاع حينما وجد على أشجار ينبوع آثاراً وعلامات تدلّ على أن أنجليكا الجميلة قد ارتكبت منكراً مع ميدورو مما أشاع فيه الحزن حتّى بلغ به الجنون وراح يقتلع الأشجار ويعكّر مياه الينابيع الصافية ويقتل الرعيان ويبيد

(١) راجع قصة أماديس الغالي ، الفصل ٢١ والفصل ٦٠ وما يليه .

القطعان ويحرق الضياع ويقلب المنازل ويجر فرسه ، وفعل مئات الآلاف من الحماقات والغرائب الجديرة بالذكر والتسجيل^(١) حقاً إني لا أريد أن أقلد رولدان أو أورلندو أو روتولاندو (وكان يحمل هذه الاسماء الثلاثة) تقليداً كاملاً في كل شيء ، وفي جميع ما ارتكب من حماقات أو ما فكر فيه وما ذكره منها . بل لعلي ساقنع بمحاكاة أماديس الذي لم يرتكب حماقات وشروراً ، بل اكتفى بالدموع ومظاهر اليأس وحصل بهذا على مجد لم يظفر بمثله إنسان .

فقال سنشو : يظهر لي أنا أن الفرسان الذين ارتكبوا هذه الأفاعيل قد استشارهم سبب لارتكابها ، وكان لديهم من الدواعي ما حملهم على فعل هذه الحماقات وألوان التعذيب . أما أنت يا مولاي ، فماذا يدفع بك الى أن تصطنع الجنون ؟ أية سيدة هجرتك ؟ وأية آثار وعلامات عثرت عليها تدل على أن السيدة دلثنيا دلثوبوسو قد ارتكبت منكراً مع مسلم أو نصراني ؟

فأجابه دون كيخوته : آه ، هذه هي المسألة ، وهذه هي النقطة الدقيقة في أمري . فأن يجنّ فارس جوال يكون ثمّ دواع للجنون ، فهذا أمر لا يدعو الى الفخر ولافضل فيه ، وإنما الفضل هو في أن تفقد العقل بخير داع ، وتجعل سيدتك تقول : إذا كان يفعل كل هذه الأفاعيل والأمر لا يزال على الجفاف ، فماذا عساه فاعلاً حين يصبح الأمر على الرزي ؟ ومن ناحية أخرى أليس هذا الغياب الطويل بيني وبين سيدتي وربتي دائماً دلثنيا دل ثوبوسوسباً كافياً ؟ وكما سمعت يقال للراعي أمبروسيو في ذلك اليوم : من يكن غائباً تتوال عليه الشرور ويخشها . ولهذا لا تضيق وقتك يا صديقي سنشو في نصحي بالعدول عن هذا التقليد النادر السعيد الذي لم ير مثله أحد . أنا مجنون ويجب أن أظل مجنوناً حتى تعود اليّ بجواب عن رسالة سأكلفك بحملها الى سيدتي دلثنيا . فإن كان الجواب حسبما يستحقه إيماني انقضى جنوني واعتزالي ، وإن كان على العكس ، أصبحت مجنوناً فعلاً وفقدت كل عاطفة . فأتماً كان الجواب الذي ستأتينني به فسأخرج من الحيرة والعذاب اللذين ستتركني فيهما ، وأنعم بالخير الذي تأتي به بفضل عقلي وتمام وعيي ، أو أفقد الشعور بالشر بفضل جنوني . لكن خبرني ياسنشو ، هل حافظت على خوذة ممبرينو ؟ لقد شاهدتك ترفعها بوضوح على متانة صنعها .

فأجاب سنشو عن هذا قائلاً :

(١) راجع Orlando Furriovso الأناشيد ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٠ وغيرها .

حيّ الله! أي مولاي الفارس الحزين الطلعة! إنني لا أحتمل ولا أصبر على بعض ماتقوله ياسيدي . إنه يخيّل الي في النهاية أن كل ماحدثتني عنه من مغامرات الفرسان وكسب الممالك والاستيلاء على الدول ومنح الجزر والجود بأفضال أخرى على نحو مايفعل الفرسان الجوّالة ، أقول إنّ كل هذا إن هو إلا ربح وكذب وحكايات فارغة . وإلاّ فمن ذا الذي يسمع مولاي يقول أنّ صحن الحلاقة الذي يستعمله الحلاق هو خوذة ممبرينو ، ولا يراه يرجع عن هذا الخطأ طوال عدّة أيام . ثمّ لايقول أنّ من يزعم هذا ويؤكّده لابدّ أن يكون قد فقد صوابه ؟ إن صحن الحلاقة هو معي في الخرج بعد أن تسطّح وتبجّج وقد حملته معي لأصلحه في البيت وأحلق لحيتي به إن شاء الله وسمح لي بالعودة الى زوجي وأولادي .

فقال دون كيخوته : انظر ياسنشوا أقسم بالله الذي أقسمت أنت به أن عقلك أضيق عقل كان لسائس في الدنيا . أمن الممكن أنه منذ الوقت الذي صحبتني فيه ولم تدرك أن جميع أمور الفرسان الجوّالة تبدو كأنها خيالات وتهاويل وأساطير وأنها تبدو كلّها مقلوبة ؟ السبب في ذلك ليس أنها كذلك في الواقع ، بل السبب هو أنه يضطرب حولنا دائماً شرذمة من السحرة تقلّب أمورنا وتقتطع منها وتفسدها وتجعل عاليها سافلها حسبما تدعوها الأهواء الى الإيذاء أو المعاونة . وهذا هو السبب في أنّ هذا الشيء الذي يبدو لك صحن حلاقة يبدو لي أنا خوذة ممبرينو ، ويبدو لشخص ثالث شيئاً آخر ثالثاً . ولقد كانت حيلة رائعة من جانب الحكيم الذي يعاوّني أن يوهم الناس كلهم أن خوذة ممبرينو بعينها هي صحن الحلاقة ، إذ هذه الخوذة ذات قيمة عظيمة جداً فلو أدركوها لطاردوني جميعاً للاستيلاء عليها منّي . ولكن لأنهم يرونها مجرد صحن حلاقة لذا لا يحفل أحد بانتزاعها مني . وأية ذلك ما فعله الرجل منذ حين : أراد كسرهما فاستعصت عليه فتركها على الأرض ولم يأخذها ، ولو عرف حقيقة أمرها لما تركها . فاحتفظ بها يا صديقي ، فلا حاجة بي اليها الآن ، بل عليّ التجردّ من كل هذه الأسلحة لأصبح عرياناً كما ولدت ، لأن في اعتزالي هذا أريد أن أكون أقرب الى محاكاة رولدان منّي الى محاكاة أماديس .

وهما في هذا الحديث إذ بلغا قاعدة جبل شاهق يبدو كصخرة عمودية الانحدار ويقوم وحده بين جبال عديدة تحيط به . وعلى سفحه يجري جدول رقيق حواليه مروج خضر رطيبة تسرّ العيون . وزاد من بهاء المنظر أشجار متناثرة هنا وهناك ، وأزهار بريّة . هذا المكان اختاره الفارس الحزين الطلعة ليعتزل فيه . فما عثم أن رآه حتّى صاح بصوت عالٍ كالمجنون :

« هذا وحق السماء المكان الذي ارتجيه واختاره لأنوح على المصير الذي أوقعتموني

أنتم فيه . هذا هو المكان الذي فيه ترفد عبراتي هذا الجدول ، وتهزّ زفرا تي العميقة المتصلة أوراق هذه الأشجار البرية ، آية وشهادة على الأحزان التي تمزّق قلبي الجريح . وأنت - أياً من كنته - أيتها الآلهات الريفية اللواتي تسكنين في هذه الأماكن الموحشة ، استمعن الى شكاة هذا العاشق المسكين الذي تضطرّه الغيبة الطويلة ودواع الغيرة الخيالية الى بث شكواه في هذا القفار من قسوة تلك الجميلة الجاحدة ، وإن كانت الأنموذج الأعلى لكل جمال إنساني . وأنتن أيتها النافات والدروادات^(١) اللاتي تسكنّ عادة في أعماق الجبال - لعل الساتورات الرشاقي الماجنين الذين يتعشقونكنّ عبثاً لا يقلقون راحتكن ، على أن تساعدنني على النواح على شقاً أو في القليل لاتمللن من سماع شكاتي أي دلثنيا دل توبوسوا يانهار ليالي ، ومجد آلامي ، ونجمة قطب أسفاري ، وسعد سعودي ، ألا ليت السماء تستجيب لكل دعواتك ، لو تفضّلت فنظرت الى ماأنا فيه والى أي حال أفضت بي غيبتك عني وكافأت إيماني الراسخ بخاتمة سعيدة! وأنت أيتها الأشجار المتوحدة التي ستشاركنيني منذ الآن وحدتي ، خبريني بحفيف أوراقك الرقيق أن وجودي هنا لا يضايقك! وأنت يا حامل سلاحي ، يارفيقي المخلص الرقيق في السراء والضراء ، أذكر جيداً ماستراني أفعله هنا حتى تنقله وتقصّه على تلك التي هي السبب الوحيد فيه .

وما قال هذه الكلمات الأخيرة حتى نزل من على صهوة فرسه روئينانته وأسرع فحلّ لجامها وسرجها ، وربت بخفة على مؤخرها براحة يده قائلاً ،

- خذ الحرّية ممن فقدوها أيها الجواد الممتاز بأعماله بقدر ماهو تعييس بحظه ، انطلق واسلك أي طريق شئت فقد كتب على جبهتك أنه ليس ثمة فرس يّعديلك خفة وقوة ، لا فرس استولفو^(٢) المجنّح ، ولا فرونتينو الشهير الذي كلف برادامانته ثمناً غالياً . فلما رأى سنشو هذا قال ،

- شكراً لمن أعفانا من مشقة خلع البرذعة عن الحمار ، وفي اعتقادي انه لن يخلو من مريت عليه ومادح له . ولو كان هاهنا لما سمحت بأن يخلع عنه البرذعة أحد . وإلا ، فما الفائدة ؟ إذ يكفي ذكر كلمات عاشق ويانس ، لأن صاحبه لم يكن لا عاشقاً ولا يانساً ، وصاحبه هذا هو أنا بمشيئة الله . والحق ، أي مولاي الفارس الحزين الطلعة ، إذا كانت مسألة رحيلي وجنونك جداً لاهزلاً ، فالأجدى أن نعيد السرج واللجام للفرس روئينانته ،

(١) هذه حوريات أو جنيات ، فأما النافات napens فكان يسكن في الأودية ، وأما الدروادات drindas فيسكن في الخمائل ، وأما الساتورات satiros فكانت أسطورية نصفها على هيئة إنسان ، والآخر على هيئة ممزي .

(٢) فرونتينو Frontino : فرس مشهور جداً في حكايات الفروسية ، وبرادامانته من أشخاص هذه الحكايات .

ليحل محل الحمار الذي فقدناه ، فهذا يوفر الوقت في الذهاب والإياب ، لأنني إذا سلكت الطريق على قدمي فلا أدري متى أصل ومتى أعود ، لأنني بطيء الخطى .
فأجاب دون كيخوته : أقول لك ياسنشو افعل ماتشاء ، وإن فكرتك هذه لاتبدو رديئة .
وأضيف الى هذا أنك سترحل في خلال ثلاثة أيام حتى ترى إبانها كل ما أعمله وأقوله من أجلها ، وتكرره على مسامعها .

فقال سنشو : وماذا عساي أن أرى أكثر مما رأيت ؟
فأجاب دون كيخوته : إن الأمر لم يتم فصولاً بعداً فعلي الآن أن أمزق ثيابي ، وأنشر سلاحي ، وأتقلب على هذه الصخور ، وأقوم بأمور أخرى مشابهة تثير إعجابك ودهشتك .
فقال سنشو : بحق الله الا احتاط مولاي إجراء هذه التقلبات ، وإلا وقعت على صخرة ، في وضع ما على نحو تتحطم به الآلة التي تقوم بهذه المجاهدة . أما رأيي أنا فهو أن مادام مولاي ييجاد هذه التقلبات ضرورية لامتز منها ، فليكتفي - مادام الأمر كله مصطنعاً وللهلزل - فليكتفي بالقيام بها في الماء ، أو على شيء وثير مثل القطن ، ودعني أنا أتكفل بالباقي ، ففي وسعي أن أقول للسيدة دولشنيا أن مولاي قد قام بهذه التقلبات على صخرة مدببة حادة أشد مضاًء من الماس .
فأجابه دون كيخوته : أشكر لك يا صديقي سنشو نواياك الطيبة ، ولكنني أريد منك أن تعلم أن كل هذه الأمور التي أقوم بها هنا ليست هزلاً ، بل هي الجد كله ، وإلا لكان في ذلك مخالفة لقواعد الفروسية التي تحرم علينا الكذب وإلا كان ذلك كفراً ، وعمل شيء مكان آخر هو بعينه نوعاً من الكذب . ولهذا يجب أن تكون تقلباتي حقيقية مخلصاً لتشوبها أي مغالطة أو تمويه . بل سيكون من الضروري أن تترك لي بعض خرق التضميد لجراحي ، فقد شاء الحظ العاثر أن نفقد البلسم .

فقال سنشو : لقد كان ضياع الحمار كارثة فقد أضعنا بضماده خرق التضميد وكل الزاد . وأتوسل الى مولاي أن لا يعيد ذكرى هذا الشراب اللعين ، إذ يكفيني سماع اسمه لتتقلب روحي وأحشائي . وأرجو أيضاً أن تحسب أن الأيام الثلاثة التي امهلتنها لأرى إبانها الحمامات التي سترتكبها - أقول أن تحسب أن هذه الأيام الثلاثة قد مضت فعلاً ، وأنا أقرر من ناحيتي أنها مرت وأنني شاهدت ما قمت به فعلاً خلالها ، وأصبح لها قوة الشيء المحكوم به . وسأقص على السيدة الأعاجيب . فاكذب الرسالة ودعني أذهب ، لأنني أرغب أشد الرغبة في العودة لإنقاذ مولاي من المطهر الذي سادعه فيه .

فقال دون كيخوته : تقول « مطهر » يا سنشو ؟ الأولى أن تسميه جحيماً ، بل أشد من الجحيم إن كانت ثمة ماهو أشد من الجحيم .

فأجاب سنشو : « من سقر^(١) لا مفر » كما سمعتهم يقولون .

فقال دون كيخوته : لا أفهم المقصود بـ « مفر » .

فأجاب سنشو : « مفر » معناه أن من يدخل النار لا يخرج منها أبداً ، وهذا سيكون على عكس ما يرمي اليه مولاي ، وإلا حفيت أقدامي إذا حملت المهماز لحت روئياتته . فدعني أذهب إلى توبوسو في حضرة السيدة دلنيا ، هنالك أروي لها من حماقات وجنون (وهما شيء واحد) مولاي - مافعل وما سيفعل بعد - ممّا يلين فؤادها فيصبح أطوع من القفاز حتى لو وجدته أقسى من جذع شجرة الفلين . وأعود بهذا الجواب المعسول طائراً في الهواء كالسحرة وأخلص مولاي من هذا المطهر ، الذي يبدو كالجحيم ، وإن لم يكن كذلك إذ هناك أمل في الخروج منه وهو أمر لا يتم - كما قلت - لأولئك الذين يدخلون الجحيم ، ولا أظن أن مولاي يقصد شيئاً آخر .

فقال الفارس الحزين الطلعة : نعم هذا هو الحق ، لكن ماذا نعمل لكتابة الرسالة ؟

فأضاف سنشو : وكذلك لكتابة وثيقة التنازل عن الحمير الصغار .

فقال دون كيخوته : سأضمن فيها كل شيء . وما دام ينقّصنا الورق ، فمن المناسب أن نكتبها - كما كان يفعل القدماء - على أوراق الشجر أو على ألواح من الشمع وإن كان العثور على الشمع ليس أسهل من العثور على الورق . أوه ! ولكن خطر بهالي الآن أين نكتبها وفي سجلّ متين : لنكتبها في دفتر المذكرات الذي ضاع من كردنيو . وعليك بعد ذلك أن تكلف من يكتبها على ورق بخط جميل في أول قرية تجد بها معلّم مدرسة ، أو إن لم تجد فأول كاهن تعثر عليه ، ولكن لاتفكر أبداً في أن يكتبها لك موثق عقود : فخط موثقي العقود مبهم لا يستطيع الشيطان نفسه أن يقرأه .

فسأله سنشو : والتوقيع ، ماذا نعمل فيه ؟

فأجابه دون كيخوته : إن أماديس لم يكن يوقع أبداً رسائله .

فقال سنشو : حسناً ، ولكن وثيقة التنازل لابد لها من توقيع . فإن جعلت كاتباً

ينقلها ، لقل أن التوقيع مزور وبذلك لا أحصل على الحمير .

فقال دون كيخوته : إن وثيقة التنازل ستكتب ويوقع عليها في دفتر المذكرات نفسه وإذا شاهدها ابنة أخي فلا تمنع أبداً في تنفيذ ماتنص عليه الوثيقة . أمّا رسالة الغرام فضع

(١) في النص Quien ha infierno nula es retencio والنقطة في هذه الجملة هي نطق سنشو الفاسد للكلمة اللاتينية redemptio (= خلاص) مما جعل دون كيخوته لا يفهم فهذه الجملة الأسبانية هي ترجمة للجملة اللاتينية Quia in inferno nulla est redemptio (= إذ لا خلاص من الجحيم) وهي جزء من ترنيمة كنيسة تقال في الصلوات على الموتى .

عليها التوقيع التالي : «المخلص لك حتى الممات : الفارس الحزين الطلعة» . ولايهم إذا كانت الرسالة بخط شخص آخر غيري ، لأن دلشينا- فيما أذكر - لا تعرف القراءة والكتابة ولم تر في حياتها رسالة واحدة . والواقع أن غرامياتي وغرامياتها كانت دائماً أفلاطونية لم تتجاوز أبداً النظرة البريئة ، وفي فترات متباعدة تماماً ، حتى أنني استطيع أن أقسم بكل ثقة واطمئنان أنه منذ اثنتي عشرة سنة ، وأنا أحبها أكثر من مقلّة هاتين العينين التي سيأكلهما يوماً دود الأرض . لم أرها غير أربع مرّات ، بل وفي هذه المرّات الأربع لعلّها لم تلاحظ أنني كنت أنظر إليها ، بسبب مانشأها عليه أبوها لورنثو كورتشويلو وأمتها الدوثا نوجالس من حياء وحشمة .

فصاح سنشو : ماذا ، ماذا هل ابنه لورنثو كورتشويلو هي الآن لسيدة دلشينا دل توبوسو ، تلك التي تسمّى أيضاً لورنثو ؟ .

فأجاب دون كيخوته : نعم هي ، هي التي تستحق أن تكون سيدة الدنيا بأسرها .
فقل سنشو : إنّي أعرفها جيداً ، واستطيع أن أقول أنها تحسن الإلقاء العمود كأقوى شباب القرية . أوها ! إنها بنت صلبة مبنية مستوية ، صدرها أشعر ، قادرة على أن تنتزع لحية أي فارس جوال يتخذها سيدة له . ياللمارد ، وبالقوتها ولصوتها وفي وسعي أن أقول أنها سعدت ذات يوم على برج كنيسة القرية تنادي على فلاحين يعملون في مزرعة والدها ، وعلى الرغم من أن المسافة كانت أطول من نصف فرسخ ، فقد سمعوها وكأنهم كانوا عند قاعدة البرج . وأحسن من هذا أنها لا تحتشم أبداً ، بل فيها مجون ودلال ، وتمزج مع الجميع ، وتضحك وتهزل في كل مناسبة . والآن أقول لك يا مولاي الفارس الحزين الطلعة ، إنك تستطيع بل ويجب عليك أن تقوم بحماقات من أجلها ، وتستطيع بحق أن تياس وأن تشنق نفسك ، وكل الذين سيعلمون عنك ذلك سيقولون : لقد أحسن فعلاً حتى لو أطاح بك الشيطان . وإنّي أودّ أن أرحل توّاً ، لا لشيء إلا لأحظى بلذة رؤياها ، لأنّي لم أرها منذ وقت طويل ، ولا بد أن تكون قد تغيّرت فلا شيء يفسد بشرة المرأة أكثر من العمل باستمرار في الحقول حيث الشمس والهواء . ولكن يجب عليّ مع ذلك أن أصارح مولاي دون كيخوته بحقيقة ، لأنّي بقيت حتى الآن في جهل تام . لقد ظننت بسذاجتي أن السيدة دلشينا لا بد أن تكون أميرة هام بها مولاي ، أو شخصية ذات مركز سام ، جديرة بالهدايا النفيسة التي بعثت بها إليها ، وأقصد بها : البشكوني المنهزم أو المحكوم عليهم الذين خلصتهم وأمور أخرى كثيرة بمقدار الانتصارات التي أحرزها مولاي في الوقت الذي لم أكن فيه بعد حامل سلاحه . ولكن إذا قدرنا الأمور التقديم السليم ، فليت شعري ماذا عسى أن تستفيده

السيدة الدونثا لورنثو ، أعني السيدة دلثنيا دل توبوسو ، من ركوع المهزومين الذين يرسلهم مولاي إليها أمامها ، أو الذين سيرسلهم بعد إليها ؟ إذ قد يحدث في اللحظة التي يمثلون فيها أمامها أن تكون مشغولة بجدل التيل أو درس القمح في الجرن ، فإذا رآوها استشاطوا غضباً ، وسخرت هي أو غضبت من هذه الهدية .

فقال دون كيخوته : كم مرة قلت لك ياسنشو أنك ثرثار كبير وأنتك تتدخل بروحك الغليظة لتمزح وتطلق النكات . ولكي تعرف كم أنت أحمق وكم أنا حكيم ، أريد منك أن تسمع قصة صغيرة . اعلم إذن أنه كانت هناك أرملة شابة جميلة حرة غنية ، مولعة جداً باللهو ، فأحبّت أخاً شماساً ، ضخّم الجثة ، في ميعة الشباب ، نصيراً طويل السمّ ، وعلم بذلك رئيسه ، فقال للأرملة الطيبة زاجراً إياها برقة : « إنني مندھش ياسيديتي ، وعندي من الأسباب ما يدعوني لذلك ، من أن سيدة نبيلة مثلك ، ولها ما لك من جمال ومال ، تتعشق رجلاً وضع المنزل فقير العقل مثل هذا ، بينما في نفس المكان كثير من العلماء والاساتذة واللاهوتيين ، تستطيعين أن تختاري من بينهم كما تختارين بين مائة كمثرى ، وتقولين : هذا يعجبني وذاك لا يعجبني » . فأجابته السيدة بالطلاق وانعناق قائلة : « أنت على خطي » ، أي سيدي وأخي . إنك تفكر بعقلية قديمة إذا كنت تحسب أنني أسأت الاختيار بتفضيلي ذلك الفتى مهما بدا لك من بلاهة ، لأنه في الأمر الذي أريده من أجله يعرف من الفلسفة بقدر أرسطو طاليس وأكثر » . كذلك ، ياسنشو ، فيما يتصل فيما أريده من دلثنيا ، إنها تعدل أعظم أميرة في الدنيا . ويجب ألا تعتقد أن جميع الشعراء الذين يتغنون بسيدات بأسماء يطلقونها عليهن حسب خيالهن يقصدون شخصيات حقيقية . وإلا فهل تحسب أن مثيلات أمارليا وفيليا وسيلفيا وديانا وجلاتيا وفيلديا وشبهياتهن ممن يملأن الأسفار والحكايات ومحلات الحلاقين ومسارح الملاهي - كن مخلوقات حقيقية ومعشوقات فعلية لأولئك الذين تغنوا بهن ؟ كلا إن معظم الشعراء يتخيلوهن ليجدوا موضوعات لأشعارهن ولكي يعتقد الناس أنهم كانوا عاشقين ، أو على الأقل قادرين أن يكونوا كذلك . ولهذا يكفيني أن أظن وأعتقد أن الدونثا لورنثو الطيبة جميلة وعاقلة . أما نسبها وحسبها ، فلا يهم كثيراً ، فلن نقوم بتحقيق من أجل أن نمنحها مسوح الكاهنة ، وأنا مقتنع بأنها في نظري أعظم أميرة في الدنيا . إذ يجب أن تعلم ، يا سنشو ، إذا لم تكن تعلم بعد ، أن أعظم ما يثير العشق أمران : الجمال والصيت الذائع . وهذان الأمران متوفران في دلثنيا إلى أعلى درجة ، إذ لا يساويها أحد في الجمال ، ولا يضارعها في ذبوع الصيت إلا القليلات . وفي ختام القول أتخيل أن كل ما أقوله هو هكذا دون حاجة إلى إضافة شيء أو نقصه ، وإني أصورها في خيالي

كما أودّها سواء من ناحية نبالة الأصل أو مفاتن الجمال ، الى درجة لا يدانيها فيها واحدة : لا هيلانة ولا لوكريسيا ولا جميع البطلات في القرون الخالية اليونانية أو الرومانية أو المتبربرة . وليقل الناس عنها ما يشاءون ، فلئن لامني الجهال فلن يعاقبني أهل الجد . فقال سنشو : وأنا أقول إن مولاي على حق في كل شيء ، وما أنا إلا حمار . ولست أدري لم يبادر هذا اللفظ الى لساني إذ لا يجوز الحديث عن الحب في بيت مشنوق . لكن أعطني الرسالة ، وعليّ الرحيل .

وانتزع دون كيخوته دفتر المذكرات وانتحى جانباً وبدأ في كتابة الرسالة رابط الجأش . فلما فرغ من كتابتها دعا سنشو وقال له إنه يريد أن يقرأها عليه ليحفظها عن ظهر قلب لإحتمال ضياعها في الطريق ، إذ يخشى من سوء الطالع .

فقال سنشو : خيراً من هذا أن يكتبها مولاي مرتين أو ثلاث في هذا الدفتر ثم يعطيني إيّاه ، وسأحرص على صونه ، أمّا الظن بأنّي أستطيع استظهاره فهو الحق كل الحق . إن ذاكرتي من الضعف بحيث أنسى أحياناً ما اسمي . ومع ذلك أقرأه عليّ إذ يسرني سماعه ، فلا بد أن يكون مكتوباً بعبارات مشبوبة .

فقال دون كيخوته : اسمع اذن ما ورد فيه :

رسالة دون كيخوته الى دلثنيا دل توبوسو

« سيدتي السامية المبهجة !

« إن جريح سهم البعاد ، المكلوم نسيج الفؤاد ، أي دلثنيا توبوسو الناعمة العذبة ، ليتمنى لك سلامة عافية لا ينعم بها . إذا ازدراني جمالك ولم تشملني مناقبك بالعطف ، وإذا ظلت قسوتك توالييني بالمخاوف وإن كنت ممن يتحملون الآلام ، فلن أقوى على البقاء في هذا الجزع الشديد المتواصل . وإنّ حامل سلاحي الطيب سنشو سيصف لك بالتفصيل ، يا أيتها الجاحدة الجميلة والعدوة المعبودة ، أقول أنه سيصف لك بالتفصيل الحالة التي أنا فيها من أجلك . فإن طاب لك أن تنقذيني ، فأنا لك ، وإلا فافعلي ما يحلو لك ، فبانقضاء أيّامي أكون قد أرضيت هواك وقسوتك .

« المخلص لك حتى الممات

الفارس الحزين الطلعة »

- وحيّة أبي ١ - هكذا صاح سنشو لما أن سمع الرسالة - هذه أسمى وأجمل قطعة من النشر سمعتها! يا لله! كم أحسن مولاي العبارة عن كل ما أراده! وما أجمل ما وضعت في

الخاتمة : « الفارس الحزين الطلعة » أقول وقولي الحق إنك الشيطان بعينه ، فلاشيء ، ثم لا تعرفه .

فأجاب دون كيخوته : كل شيء مطلوب في المهنة التي أمارسها .
فقال سنشو : والآن اكتب وثيقة التنازل عن الحمير الثلاثة على ظهر الصفحة ووقع عليها بكل وضوح ، فإذا رآها أحد تعرف خطك .
فقال دون كيخوته : عن طيب خاطر .
ثم كتبها وقرأ مضمونها عليه ، وما هو ذا^(١) :

«الرجا أن تدفعي ، يا ابنة أخي ، بموجب وثيقة الحمير هذه الى سنشو پنشا ، حامل سلاحي ، ثلاثة من الحمير الخمسة التي تركتها في البيت تحت رعاية عصمتك ، وهذه الحمير الثلاثة تدفع له وتسلم اليه نظير مبلغ مساو تسلمته هنا عدداً ونقداً ، وهذا إيصال تحزرت به هذه الرسالة . تحريراً في أحشاء جبال الشارات السمراء ، في السابع والعشرين من شهر أغسطس من هذا العام » .

فقال سنشو : حسن جداً ، ما على مولاي الآن إلا التوقيع .
فقال دون كيخوته : لاداعي للتوقيع ، سأكتفي بوضع خاتمة ، وقيمتها قيمة التوقيع ، ليس فقط بالنسبة الى ثلاثة حمير ، بل وأيضاً للثلاثمائة حمار .
فقال سنشو : إني أضع ثقتي في مولاي . دعني الآن أذهب لسرج روئينانته واستعدت انت لمنحي بركتك ، لأني عازم على الرحيل فوراً دون أن أشاهد الحماقات التي ستقوم بها ، وسأستطيع أن أقول إني رأيك بعيني تقوم بها .

فقال دون كيخوته : أريد على الأقل يا سنشو - وهذا أمر لا غنى عنه - أن تراني عارياً تماماً لا ثوب علي غير الجلد وأنا أقوم بعشر حماقات أو عشرين . ويكفيني لذلك أقل من نصف ساعة ، وإذا رأيت هذا بعينك تستطيع أن تحكم وأنت مطمئن الضمير على كل ماسيطيب لك إضافته من عندك ، وأؤكد لك أنك لن تروي بقدر ماأنا عازم على فعله .

فقال سنشو : بحق الله يا مولاي ألا أعفيتني من رؤية جلدك وإلا فسيتملكني العطف فلا أستطيع أن أتمالك من ذرف الدموع ، وقد أصاب رأسي الوجع من بكائي بالأمس على حماري المسكين حتى لا أستطيع أن استأنف البكاء . وإن أصرّ مولاي على ضرورة مشاهدتي بعض حماقاته ، فليقم بها وعليه ثيابه ، ولتكن قصيرة مرتجلة أيّاً كانت ، أما عن نفسي فقد

(١) في هذه الوثيقة يقلد ثريبتس ساخراً لغة المعاملات التجارية واصطلاحاتها .



الفصل الخامس والعشرون : دون كيخوته في جبل الشارات
(سيرًا مورينا)

قلت لك أن لا ضرورة لهذا وأنا مستغن عن مشاهدتها ، ففي ذلك اختصار لوقت الرجل وإسراع بالعودة التي لا بد ستأتي لك بالأنباء الطيبة كما تودّ يامولاي وتستحق . وإلا فعلى السيدة دلثنيا أن تأخذ أهبتها لأنها إذا لم تجب بما يقضي به العقل ، فإنّي أقسم قسماً عظيماً بأن انتزع منها الجواب المفيد ، انتزعه من بطنها بالرفسات واللكمات . فمن ذا الذي يحتمل أن يصبح فارس جوال شهير كمولاي مجنوناً بغير داع لأجل امرأة... أوه ألا ليت هذه السيدة لا تجعلني اضطر الى وصفها ، وإلا والله أطلقت لساني ولم أحفل بما سيكون . إنني رجل طيب في هذه المواقف ، وهي لا تعرفني ، وإلا لو عرفتنني لحسبت لي ألف حساب^(١)

فقال دون كيخوته : وأيم الله فإنّك فيما تبدو لي لست أعقل منّي .
فقال سنشو : لست مجنوناً مثلك ، ولكنني أشد غضباً منك . والآن دع هذا جانباً ، وأخبرني ماذا ستأكل الى حين عودتي ؟ هل ستصنع صنيع كردينو فتكمن للرعاة وتنقض على طعامهم فتنتزعه منهم ؟

فقال دون كيخوته : لا عليك من هذا ، فحتّى لو كان لدي زاد وفير ، فإنّي لن أكل إلا الأعشاب والشمار التي تقدّمها لي هذه الأشجار وتلك المروج . والمثل الأعلى في هذه المسألة ألا أكل أبداً ، وأن أتحمّل كثيراً من ألوان الزهد والمجاهدة .

فقال سنشو : ولكن ، هل تعرف ما أخشاه ؟ أن أخشى ما أخشاه هو ألا أهتدي الى الطريق وأنا عائد الى هذا المكان الذي أترك فيه لأنه موحش خفي .

فقال دون كيخوته : استجمع كل ما تستطيع من علامات ، وأنا أيضاً سأحرص على عدم الإبتعاد عن هذه النواحي ، بل سأصعد أعلى الصخور لأرغب ما إذا كنت أستطيع أن أشهد عودتك . وعلى كل حال وخشية أن تفقدني وتضل طريقك ، فإن الأحسن أن تقطع شجيرات الرتم المحيطه بنا هنا ، وتثرها بين مسافة وأخرى حتّى تبلغ السهل . فتعينك هذه الأغصان كعلامات وصوى تهتدي بها في عودتك اليّ على غرار الخيط^(٢) الذي استعمله يرسبوس في التيه .

فأجاب سنشو : هذا ما أنا فاعله .

وراح يقطع بضع شجيرات ثم عاد يسأل مولاه البركة وودعه بعد أن ذرف كلاهما أحز

(١) النص الحرفي : « لصامت من أجلي » .

(٢) هو خيط أريادنا المشهور في الأساطير ، وقد أعطته أريادنا أو أريادنا ، ابنة مينوس ملك أقريلش ، الى ثيسبوس فاستمان به على الخروج من التيه بعد أن قتل المينوتور .

العبرات ، وأوصاه دون كيخوته بروثينانته وصية حارة راجياً إياه أن يعنى بها عنايته بشخصه ، وأخذ سنشو في المسير في السهل نائراً أغصان الرتم على طول الطريق كما نصحه موله ، وسرعان ما أصبح بعيداً على غير ماكان يهوى دون كيخوته الذي كان يودّ لو أنه أطلعه على حماقتين أو ثلاثاً على الأقل .

ولكن سنشو لم يكد يخطو مائة خطوة حتى عاد وقال لموله : « اعترف يا مولاي بأنك كنت على حق . فلنكي أقسم وأنا مطمئن الضمير أنني شاهدتك تقوم ببعض الأعمال الجنونية ، فمن الخير أن أشاهد ولو عملاً واحداً وإن كنت قد رأيت جنوناً كبيراً في مجرد بقائك هنا في هذا المكان .

فقال دون كيخوته : « أو لم أقل لك ذلك ؟ انتظر ياسنشو وسأؤذي حماقة في أقل من المدة التي يستغرقها قول «أبانا الذي...»^(١) .

وفي الحال خلع دون كيخوته لباسه ولم يبق عليه إلا قميصه ، وبدأ يرفس في الهواء ، ويقفز إلى أعلى ويتدحرج وقدماه في الهواء ورأسه في أسفل حتى كشف عن أمور لم يشأ سنشو أن يراها أكثر من ذلك ، فاستأنف مسيره واقتنع بأنه يستطيع أن يقسم في اطمئنان بأن موله قد أصابه لجنون .

والآن فلندع سنشو يسلك سبيله إلى أن يعود ، وهو لم يبطل العودة طويلاً .

(١) في النص : قول عقيدة الإيمان credo .

الفصل السادس والعشرون

في استمرار دون كيخوته في مغامراته الغرامية الرائعة في جبل الشارات

ولنعد الى حديث الفارس الحزين الطلعة لما صار وحيداً . تقول القصة أن دون كيخوته لم يكذب يفرغ من وثباته وتقلباته التي قام بها وهو عارٍ من وسطه الى أخمص قدميه مكسوً من وسطه الى رقبته وقد رأى كيف أن سنشو قد ارتحل قبل أن يرغب في مشاهدة حماقات أخرى . نقول أن دون كيخوته سعد بعد ذلك الى قمة صخرة عالية وراح هناك يفكر في أمر طالما شغل باله دون أن يصل بعد الى قرار بشأنه ، ألا وهو أن يعلم ، من الأحسن والأنسب بالنسبة إليه أن يحاكيه ، رولدان في حماقاته المدمرة ، أو أماديس في حماقاته الحزينة ، وكان يحدث نفسه ويقول : « إذا كان رولدان فارساً شجاعاً قوياً على نحن مايقول الناس ، فأى شيء عجيب في هذا ؟ أو لم يكن مسحوراً ، ولا يستطيع أحد من الناس قتله إلا إذا غرز في لوح قدمه إبرة سوداء . ولكنه كان ينتعل حذاء ذا سبعة نعال من حديد^(١) . ورغم ذلك فإن سحره كله لم يفد شيئاً ضد برنردو دل كرييو^(٢) الذي فطن للحيلة فخنقه بين ذراعيه في رونسفال . لكن سنترك جانباً شجاعته ، وننظر في جنونه ، إذ لاشك في أنه فقد رشده لما رأى العلامات على أشجار الينبوع وعلم من المراعي أن أنجليكا نامت مع ميدورو أكثر من قيلولتين ، وكان ميدورو هذا مراكشياً مضفر الشعر وخادماً لأجرمنته^(٣) . على أنه إذا كان قد خيل إليه أن هذا الخبر صحيح وأن السيدة قد فعلت معه هذه الفعلة ، لما كان له فضل في أن أصبح مجنوناً . أما عن نفسي ، فكيف أستطيع أن أحاكيه في جنونه ، إذ كنت لم أحاكيه

(١) يقول كلمنتين أن دون كيخوته يخلط هنا بين شيئين يرويهما أريوستو عن شخصين مختلفين هما : لراجوس وأورلاندو . فأولهما كان يحمي بطنه بسبعة ألواح من الحديد ، والثاني (رولدان أورولندو) لم يكن من الممكن جرحه إلا في لوح قدمه .

(٢) راجع ماقلناه عنه من قبل .

(٣) راجع « أورلندو الغضوب » ، النشيد رقم ٢٣ . على أن ميدورو كان خادماً لوردنيل الأمير الافريقي ، لا لأجر منته - أنا الينبوع والعلامات فيشار بها الى الأشجار التي نقشها ميدورو في كهف ينبت فيه ينبوع .

في الموضوع الذي تسبب في هذا الجنون ؟ إذ أنه فيما يتصل بدلثنيا دل توبوسو فإني أقسم أنها لم ترَ في حياتها ظلاً لمراكشي واحد ، وبلحمه ولباسه ، وأنها لاتزال حتى اليوم كأمرها التي ولدتها . فستكون لها إذن إهانة بالغة أن أعتقد فيها أمراً آخر وأجنّ بنفس النوع من الجنون الذي أصاب رولدان الغضوب . ومن ناحية أخرى أرى أن أماديس الغالي قد ظفر بشهرة في الحب لا يدانيه منها إنسان ، دون أن يفقد عقله ويرتكب حماقات . ومع ذلك فالقصة تقول أنه لمّا رأى سيده أوريانا قد ازدرت وأمرته ألا يمثل بعد في حضرتها دون إرادتها - فإنه لم يفعل شيئاً أكثر من أنه انسحب الى الصخرة الفقيرة بصحبة راهب ، وهناك راح يذرف أحرّ العبرات مسلماً أمره الى الله ، وظل كذلك إلا أن أعانته السماء بأشد المحنة والآلام . فإذا كان هذا حقاً ، وهو حق قطعاً ، فلماذا أشغل نفسي بأن أعري نفسي تعرية كاملة ، وأؤذي هذه الأشجار التي لم تؤذني ؟ وما حاجتي الى تعكير ماء هذه الجداول الصافي الذي سيرويني حين العطش ؟ فلتحتي ذكرى أماديس ، وليقلده دون كيخوته المنشاوي في كل ما يستطيع ، وسيقول الناس عن دون كيخوته ما قالوه عن غيره^(١) وهو : إذ لم يكن قد عمل أعمال عظيمة فقد هلك في سبيل محاولة القيام بها ! وإذ كانت دلثنيا لم تهني ولم تزدري ، أفلا يكفي كما قلت أن أكون بعيداً عنها ؟ هيا إذن ، الى العمل ! وتعال الى ذاكرتي يا أعمال أماديس ، أنبئيني من أين أبدأ في المحاكاة . بيد أنني أعلم أن الصلوات كانت أكثر ما شغلني ، وهذا ما سأفعله أنا أيضاً .

ثم صنع مسبحة من ثمرات الفلين الكبيرة عدتها عشر حبات^(٢) ولكن الأمر الذي ضايقه كثيراً هو أنه لم يكن عنده راهب يأخذ منه الإعراف ويمنحه السلوى . لهذا أمضى وقته في التجوال في البراري أو الكتابة والرسم على لحاء الأشجار أو على الرمل نفسه ، كتابة أشعار يشكو فيها أحزانه أو يتغنّي فيها بدلثنيا . بيد أن الأشعار الوحيدة التي وجدت كاملة وأمكن قراءتها حينما جاءوا للبحث عنه - كانت المقطوعات التالية :

أيتها الأشجارُ ، أيتها الأعشاب ، أيها النبات
أيتها الزاكيّات في هذه الأعالي

(١) الإشارة الى فايثون كما حكى أوليفيوس (التحولات ، الكتاب الثاني) .

(٢) النص هنا كما في طبعة كوستا ، وهي الطبعة الثانية التي ظهرت في نفس السنة ، سنة ١٦٠٥ . أما في الطبعة الأولى فكان النص هكذا : «... ما شغلني ، وأكمل امرئ الى الله . ولكن ماذا أعمل للحصول على مسبحة ؟ هناك خطر بباله كيفية صنعها ، فانتزع خرقة كبيرة من طوايا قميصه المتدلية وعقد فيها إحدى عشرة عقدة إحداها أغلظ من الباقيات ، واستعان بها كمسبحة طوال المدة التي أقام فيها هناك حيث تلا مليون مرة صلاة «سلام عليك يا مريم» . وقد تساءل النقاد عن سبب في تعديل فرينس للنص هكذا : أهو الخوف من محاكم التفتيش ، أم ما يقتضيه الذوق ؟

سامقات ناضرات زاهيات
إن كنتن لا تشمتن بأحزاني
فاستمعن الى شكاتي المقدسة
لا تضيقن بآلامي
وإن كانت رهيبة
فلكي يدفع لكن ثمن الترحيب
بكي هنا دون كيخوته
على فراق دلثنيا
دل توبوسو

هذا هو المكان
الذي يستتر فيه عن حبيبته
أخلص عاشق
انهال عليه الشقاء
دون أن يعلم كيف ومن أين
إن عشقاً خبيث النحيضة
يعبث به ويعتبه
لهذا - وبما يملأ برميلاً -
بكي هنا دون كيخوته
على فراق دلثنيا

دل توبوسو
راح يسعى وراء المغامرات
خلال الصخور العاتيات
لاعناً الطوايا القاسيات
فلم يجد بين - الصخور
والأدغال - لم يجد الحزين إلا النائبات
لقد ضربه « الحب » بسوطه
لابنطاقه الرقيق
فأصابه في قفاه

وهنا بكى دون كيخوته على فراق دلثنيا

دل توبوسو

وكانت إضافة كلمتي «دل توبوسو» في سطر منفصل الى اسم «دلثنيا» موضوع تنذر أولئك الذين اكتشفوا هذه الأشعار ، إذ ظنوا أن دون كيخوته تخيل أنه إذا لم يصف كلمتي «دل توبوسو» الى اسم «دلثنيا» فإن المقطوعة لن تكون مفهومة ، وهذا فعلاً ما اعترف هو نفسه به فيما بعد ، وكتب أشعاراً أخرى ، ولكن هذه الأشعار التي أوردناها هي الوحيدة التي أمكن قراءتها . وهكذا أمضى الفارس العاشق أوقات فراغه ، وأحياناً أخرى كان يرسل زفراته ويهيب بجنّيات الحقول والغابات في هذه الخماثل ، وبالحواريّات في تلك الينابيع ، و«بالصدى» الشاكي الطيّار - متوسلاً إليها أن تصغي اليه وترد عليه وتواسيه ، وفي أحيان ثالثة كان يبحث عن بعض لأعشاب المغذية ليقيم أود حياته في انتظار عودة سنشو . ولو أن سنشو تأخر ثلاثة أيام ، لكان الفارس الحزين الطلعة قد حالت ملامح وجهه فلا يعود يعرفه أحد ولا أمه التي ولدته .

ويخلق بنا أن ندعه مستغرقاً في أهاته وأشعاره ، ونحكي ماجرى لسنشو پنشا في المهمة التي أوكلت اليه . فنقول إنه لم يكد يبلغ الطريق العام حتى مضى متوجّهاً الى توبوسو ، فبلغ في الغداة الفندق الذي وقعت له فيه حادثة تقلّبه على الغطاء . فلم يكد يلّمحه حتى تخيل نفسه يخلق مرة أخرى في الهواء فصمّ على ألا يدخله ، مع أن ذلك كان وقت دخوله ، أعني وقت العشاء وكان يرغب رغبة شديدة في تناول لقمة ساخنة ، وهو الذي لم يطعم منذ عدة أيام غير الأطعمة الباردة . فدفعته بطنه الى الاقتراب من الفندق ، وهو متردد بين الدخول والعبور . وكان معلقاً بين الاقدام والإحجام لما أن خرج من الفندق رجلاً ما شاهده حتى قال أحدهما للآخر :

- خبرني ، يا صاحب الإجازة ، أوليس هذا الراكب هو سنشو پنشا الذي تقول خادمة صاحبنا المغامر عنه إنه صاحب موله بصفة حامل سلاحه ؟

فقال صاحب الإجازة : بلى ، إنه هو ، وهذا فرس صاحبنا دون كيخوته .

لقد عرفا الرجل وركوبته بسهولة ، لأن أحدهما كان القسيس والآخر حلاق القرية وهما اللذان أجريا محاكمة كتب الفروسية . فما كادا يتعرفان سنشو وروثينانته ، حتى دفعهما الشوق الى معرفة أبناء دون كيخوته ، فاقتربا منه ، وناداه القسيس باسمه قائلاً :

- أي صديق سنشو پنشا! أين مولاك ؟

وعرفهما سنشو في الحال ، لكنه قرّر أن يكتّم عنهما موضع مولاه والحالة التي تركه عليها ، وقال لهما إنه مشغول في مكان ما بأمرٍ ما ذي أهميّة بالغه لديه ، ولكنه لم يكشف عن ذلك ولو كلّفه الأمر عينيّه اللتين في وجهه!

فقال الحلاق : كلا ، كلا ، يا سنشو پنثا! إن لم تخبرنا أين هو وماذا يعمل فسنعتقد - ولنا الحق في هذا الاعتقاد - أنك قتلتَه وسرقت أمواله ، وها أنت ذا تركب فرسه . فعليك أن تخبرنا عن صاحب هذا الفرس ، وإلا فالويل لك .

فأجاب سنشو : لا داعي لتهديدي ، ولست أنا قاتلاً ولا سارقاً . فليمت كل موته المقدرة له حسب إرادة الله . أمّا مولاي فهو في أعماق هذه الجبال معتزل وفق مشيئته .

ثمّ راح يقص عليهم في الحال ودون أن يأخذ نفسه كيف تركه ، والمغامرات التي وقعت لكليهما ، وأنّه يحمل رسالة الى السيدة دلثنيا دل توبوسو ابنه لورنثو مورتشويلو التي هام بها مولاه حتّى الجنون . فدهشا مما رواه سنشو پنثا ، ولئن كانا يعرفان من قبل عن جنون دون كيخوته وغرابة نوع جنونه ، فقد ازدادا دهشة فيما سمعاه . والتمسا من سنشو پنثا أن يطلعهما على الرسالة التي يحملها الى السيدة دلثنيا دل توبوسو . فقال سنشو إن الرسالة مكتوبة على دفتر مذكرات وأنّ مولاه قد أمره بتكليف ناسخ ينسخها على الورق في أوّل قرية يصادفها . فقال القسيس ماعلى سنشو إلا أن يطلعه عليها وسينسخها هو بنفسه بخط جميل . فوضع سنشو پنثا يده في صدره ليبحث عن دفتر المذكرات ، ولكنه لم يجده ، وما كان له أن يجده ولوظل يبحث عنه حتّى هذه الساعة ، لأنّ دون كيخوته احتفظ به دون أن يفكّر في إعطائه الى سنشو ، ودون أن يفكّر سنشو أيضاً في أن يطلبه منه .

فلما رأى سنشو أنه لم يجد الدفتر ، اتّابه عرق بارد وصار شاحباً كالموتى ، وراح يتحنّس جسمه كلّهُ بلهفة وإسراع من أعلى الى أسفل ، فلما لم يجد شيئاً أمسك بلحيته بكلتا يديه وانتزع نصفها وانهال بخمس أو ست لكلمات على فكّيه وأنفه حتّى انهمر الدم على وجهه كلّهُ . فلما رأى ذلك القسيس والحلاق سألاه عما جرى له حتّى يعامل نفسه هذه المعاملة العنيفة .

فقال سنشو : ماجرى لي ؟ لقد ضيّعت ثلاثة حمير أدناها يساوي قصراً .

فقال الحلاق : وكيف كان ذلك ؟

فأجاب سنشو : لقد ضيّعت دفتر المذكرات الذي كانت فيه رسالة الى دلثنيا ثمّ وثيقة بتوقيع مولاي يأمر فيها بنت أخيه بإعطائي ثلاثة حمير من الخمسة أو الستة التي في الزريبة .

وراح يقص عليهما كيف أضاع حمارة . فواساه القسيس قائلاً أنه إذا لقي مولاه فسيطلب منه أن يجدد الهبة ، وستكون في هذه المرة مكتوبة على الورق وفقاً للعرف الجاري ، بينما الوثائق المكتوبة على دفتر المذكرات لا يمكن أن تقبل أو تدفع قيمتها . فأحسن سنشو بالطمأنينة لدى سماعه هذه الكلمات وقال أنه مدام الأمر كذلك فلا يهم فقدان الرسالة الى دلثنيا لأنه يعرف مضمونها عن ظهر قلب ويمكن اتساخها من ذاكرته أين ومتى أريد ذلك .

فقال الحلاق : « اسمعناها إذا ياسنشو وسننسخها .

فتوقف سنشو وراح يحك رأسه عساه أن يتذكر الرسالة ، ويستند تارة الى رجل ، وتارة أخرى الى الأخرى ، ومرة يتطلع الى السماء ، وأخرى الى الأرض ، وأخيراً وبعد أن قرض نصف أظفر أحد أصابعه . وهما في لهفة شديدة لسماع مايقول - صاح بعد وقفة طويلة :

- يا صاحب الإجازة! بحق الله لوددت أن الشيطان انتزع ماذكره من الرسالة! على أنها تبدأ هكذا ، « سيدتي السامية الرقيقة^(١) » .

فقال الحلاق : لا ، لايمكن أن تكون « الرقيقة » ، بل « الرقيقة » أو ماأشبه ذلك .

فقال سنشو : نعم هو كذلك ، ثم - حسبما أذكر ولم تخفي الذاكرة - ورد بعد ذلك : « ... الجريح الفاقد النوم والمكلوم يقبل أياديك الكريمة ، أيتها الجميلة الجاحدة المنكرة كل النكران » . ثم لأدري من أشياء أخرى قالها عن سلامة العافية والمرض وأرسلها إليها ، وراح يسهب ويرمح في الكلام الى أن ختم رسالته بقوله : « المخلص لكن حتى الممات ، الفارس الحزين الطلعة » .

وضحك السامعان كثيراً مما شاهداه من قوة ذاكرة سنشو پنثا ، فهناه على ذلك ، والتمسا منه أن يعيد عليهما الرسالة مرتين أخريين حتى يحفظاها عن ظهر قلب وينسخاها عند الحاجة . فكررها سنشو إذن ثلاث مرات ، وراح خلال ثلاث مرات يعيد آلاف الالتباسات اللفظية . وبعد ذلك أنشأ يروي مغامرات مولاه ، بيد أنه لم يشر أبداً الى مغامرة تقلبيه على الغطاء التي جرت له في هذا الفندق ، وقد رفض أن يدخله . وأضاف قائلاً أن مولاه حينما يتلقى أنباء مشجعة من سيدته دلثنيا دل توبوسو فإنه سيقوم على حمله ليصبح امبراطوراً ، أو ملكاً على الأقل ، كما وقع الإتفاق بينهما على ذلك ، وهذا أمر بسيط جداً

(١) حاولنا هنا أن نحاكي اشتباه الألفاظ في كلام سنشو ، وإن كان من العسير محاكاة الأصل الاسباني تماماً ، وهو يقوم هنا على اشتباه الألفاظ المتقاربة النطق وتؤدي الى معان مخالفة قبيحة تثير الضحك من عقلية سنشو .

وسهل جداً ، نظراً لعلو شأنه وقوة ساعده ، وأنه حينما يرقى العرش سيزوج سنشو الذي سيكون حينئذ أرمل لأن الأمر لا يمكن أن يكون بخلاف ذلك ، سيزوجه من إحدى وصفات الامبراطورة ، وهذه الوصيفة وريثة دولة غنية عظيمة توجد على الأرض الثابتة ، بلا جزائر ولا جزيرات ، ولن يشغل نفسه بعد بالجزر .

وكان سنشو يقول هذا كله بلهجة فيها من الجد والخلو من العقل - وكان يمسح أنفه ولحيته بين الحين والحين - مما جعل السامعين ينحدرون من على وهما يشهدان شدة جنون دون كيخوته بحيث استولى أيضاً على عقل هذا الرجل الساذج المسكين . ولم يشاء أن يتعبا نفسيهما في النزاع من ضلاله ، إذ بدا لهما أن وعيه ليس في خطر فالأحسن تركه على حاله ، وسيكون من الممتع لهما أن يستمعا الى تهويلاته الجنوبية . ولهذا طلبا إليه أن يدعو الله ليمنح مولاه العافية وقالوا إنه من الجائز والممكن الوقوع أن يصبح مولاه مع مرور الزمن ، امبراطوراً أو على الأقل رئيس الأساقفة أو صاحب مرتبة معادلة .

فقال سنشو : في هذه الحالة إذا عقد الحظ الأمور فأصبح مولاي رئيس الأساقفة ، لا امبراطوراً ، فإني أود أن أعرف منذ الآن ماجرت عادة رؤساء الأساقفة الجوالين على إعطائه لحاملي سلاحهم .

فأجاب القسيس : من عادتهم أن يعطوهم منحة بسيطة ، أو منحة معقودة على النفوس ، أو مرتبة حارس خزانة الكنيسة وهي مهنة تدر دخلاً ثابتاً ذا قيمة ، هذا بخلاف الجرايات التي تقدر بهذا المقدار أيضاً .

فقال سنشو : لكن يلزم أن يكون حامل السلاح أعزب وأن يعرف كيف يقيم خدمة القديس على الأقل . فإن كان الأمر كذلك فيا ويلتاه عليّ أنا متزوج - وما أكثر خطاياي ، وأجهل حتى الحرف الأول من حروف الهجاء ، ماذا سيؤول اليه أمري ، يا إلهي ، إذا دخل في رأس مولاي أن يصبح رئيساً للأساقفة ، لا امبراطوراً كما هو العرف والبدع السائد لدى الفرسان الجوال ؟

فقال الحلاق : لاتعذب نفسك يا صديقي سنشو بهذه الأمور ، فإننا سنحرص على التوسل الى مولاك ونصحه وعند اللزوم سنقنعه بأنه فرض عليه أن يصبح امبراطوراً ، لارئيساً للأساقفة ، وهو أمر سيكون أسهل عليه لأنه شجاع أكثر منه عالماً .

فقال سنشو : هذا أيضاً ما كنت أعتقد دائماً ، وإن كنت أستطيع أن أقزر أنه صالح لكل أمر . أما أنا فإني من ناحيتي سأدعو ربنا أن يبعث به الى حيث يبلغ أربه على أحسن وجه ، وحيث ينيلني أربي أيضاً على أحسن وجه .

فقال القسيس : أنت تتكلم بحكمة ، وستعمل عمل المسيحي الصالح . والمهم الآن أن نحاول انتزاع مولاك من هذه المجاهدة التي لافائدة منها والتي لذّ له القيام بها هناك كما تقول . وحتى نفكر في الوسيلة التي نتذرّع بها الى ذلك ، ولنتناول العشاء أيضاً - فقد حلّ وقته - يحسن بنا أن ندخل هذا الفندق .

فقال لهما سننشو أن يدخلهما ، أما هو فسيبقى خارجه ، وسيخبرهما فيما بعد بالسبب الذي يمنعه من دخوله ، وهو يرجوهما أن يأمرا بإحضار شيء له ليأكله ، شيء ساخن طبعاً ، وبإحضار شعير لروثيناته . ودخل الصديقان الفندق وتركاه هناك خارجه ، وبعد قليل أحضر له الحلاق ما يأكله . ثم راح الحلاق والقسيس يبحثان معاً في الوسائل الواجب اتخاذها لإنجاح مشروعهما ، ثم توقّف القسيس عند فكرة تتفق تماماً ومزاج دون كيخوته وتلائم غرضهما ، وقال للحلاق أن يلبس ثياب نبيلة جولة ، بينما الحلاق يلبس زي حامل سلاح ، ويذهب كلاهما للبحث عن دون كيخوته ، ويتظاهرا القسيس بأنه نبيلة محزونة تطلب النجدة ، ويسأل دون كيخوته معروفاً لا يملك إلا أن يسديه بوصفه فارساً جوالاً شهماً ، وهذا المعروف الذي سيسأله هو أن يصحبهما حيثما تريد لإصلاح مضرة أوقعها بها فارس غادر ، وتلتمس منه كذلك ألا يسألها أن تخلع نقابها ولا أن يسألها عن شؤونها الى أن يخلص بحقها من ذلك الفارس اللئيم . وقال القسيس إنه لا يشك في أن دون كيخوته سيذعن لكل ما يطلب منه على هذا النحو ، وهكذا يمكنهما أن يخلصاه مما هو فيه وإعادته الى بلده ، وهناك يحاولان أن يجدا دواءً لجنونه الغريب .

الفصل السابع والعشرون

في كيف أفلح القسيس والحلاق في خطتهما، وأمور أخرى
خليقة بالذكر في هذه القصة العظيمة

لم ير الحلاق بأساً فيما دبره القسيس بل وجداه صالحاً حتى إنهما قاما بالتنفيذ في الحال . فسألا صاحبة الفندق أن تعيرهما تنورة ونقاباً ، ورهنا في مقابل ذلك لديها كسوة القسيس الجديدة . واصطنع الحلاق لنفسه لحية طويلة عملها من ذنب ثور ، لحية شقراء أو حمراء ، علق فيها صاحب الفندق مشطه^(١) . وقد سألهما عن السبب في طلب هذه الأزياء التنكرية فقصّ عليه القسيس باختصار قصة جنون دون كيخوته وكيف أنهما في حاجة الى هذه الأزياء التنكرية لإنقاذه من الجبل الذي اعتزل فيه . فأدرك صاحب الفندق وزوجته في الحال أن هذا المجنون إنما هو نزيلهم منذ أيام ، صانع البلسم ، ومولى حامل السلاح الذي عانى تقلبه على الغطاء ، ولهذا راحا يقصّان على القسيس كل ما حدث في الفندق دون أن يخفيا ما أخفاه سنشو . وأخيراً ألبست صاحبة الفندق القسيس على أغرب نحو ، فألبسته تنورة من القماش المنقوش بأشرطة من القطيفة السوداء سعتها شبر مفصلة قطعاً ، وصدريّة من الفضّة الخضراء مزوّدة بإطار من الساتان الأبيض ، وكلتا التنورة والصدريّة لابد أن تكون قد صنعت في زمان الملك ومبا^(٢) . ولم يشأ القسيس أن يضع نقاباً ، وإنما غطّى رأسه بطاقيّة صغيرة من التل المنقوط كان يلبسها في الليل أثناء النوم . ثم عصب جبهته بعصابة واسعة من التفتة السوداء ، واتخذ من عصابة أخرى نوعاً من النقاب يغطّي لحيته ووجهه كلّهُ . ووضع على رأسه قبعته الدينية وكانت كبيرة بحيث كانت بمثابة مظلة ، وغطّى كتفيه بمعطفه ، وركب بغلته على نحو ماتركب النساء ، بينما ركب الحلاق بغلته ولحيته نازلة

(١) كان من عادة الفقراء أن يضعوا مشطاً في ثنايا شعر ذنب الغور لتنظيفه .

(٢) ومبا Wamba ملك القوط الغربيين (في القرن السابع الميلادي) . وهذا الاصطلاح « زمان الملك ومبا » يعبر به الاسبان عن عصر بعيد جداً .

حتى خصره ، ولونها بين الأشقر والأبيض ، لأنها كانت مصنوعة من ذنب ثور محمار .
وودعا الجميع ، كما ودعا أيضاً ماريتورنس الطيبة التي وعدت بقراءة عدية مسبحة ،
وإن كانت خاطئة ، ليوقفهما الله في عملهما الشاق الخير . لكن القسيس لم يكده يتجاوز
عتبة الفندق حتى خطر بباله هذا الخاطر السيئ وهو أنه لا يليق به أن يتزياً بهذا الزي غير
اللائق بقسيس ، وإن كان ذلك لغاية نبيلة . فأفصى بهذا الخاطر الى الحلاق وسأله أن
يستبدل كلاهما ، زيه بزي الآخر ، لأن الأليق أن يتخذ الحلاق زي نبيلة راجية ، فإن لم يشأ
الحلاق ذلك ، فقد عزم على ألا يتابع الخطة وليذهب الشيطان بدون كيخوته .

وهنا أقبل سنشو ، فلم يتمالك من الضحك لما أن رآهما بهذا الزي . ووافق الحلاق على
كل ماأراده القسيس ، وهكذا غير هذا دوره وراح يلقن زميله كيف يكون تصرفه وماذا يجب
أن يقول لدون كيخوته لحمله على المجيء معهما وترك المكان الذي اختاره لمجاهدته غير
المجدية . فقال الحلاق إنه يعرف كيف يقوم بدوره دون حاجة الى درس وتلقين . ولم يشأ
التنكر الآن ، مؤثراً التريث حتى يقتربوا من مكان دون كيخوته . فطوى ثيابه ، بينما رتب
القسيس لحيته وسارا في طريقيهما وسنشو پنشا دليلهما . وفي الطريق قصص عليهما سنشو
ماوقع لمولاه وماوقع له مع المجنون الذي صادفاه في الجبل ، ولكنه أخفى عليهما أنه وجد
حقيبة وماحتوته هذه الحقيبة ، لأنه رغم بلاهته كان شراً .

وفي اليوم التالي بلغوا الموضع الذي نثر فيه سنشو الأغصان صوئ يهتدي به الى المكان
الذي ترك فيه مولاه . ولم يكده يتعرف الموضع حتى قال لهما إنهم بلغوا مدخل الجبل ،
وماعليهما إلا ارتداء الأزياء التنكرية إن كان في ذلك فائدة في استنقاذ مولاه . ذلك أنهما
قد قالاه من قبل إن ذهابهم هكذا جماعة وتنكرهما على هذا النحو أمر ذو أهمية بالغة
لانتزاع مولاه من الحياة البائسة التي فرضها على نفسه . وطلبا اليه كذلك ألا يخبر مولاه عن
حقيقتهم أو أنه يعرفهما ، وإذا سأله دون كيخوته - كما هو المتوقع - ماإذا كان قد سلم
الرسالة الى دلثينا فليجب بنعم ، ولكن السيدة لما لم تكن تعرف القراءة فقد أكتفت بجواب
شفوي أمرت فيه دون كيخوته بالمشول في حضرتها حالاً لأمر في غاية الأهمية ، وإلا غضبت
عليه ، وأضافا أن هذا الجواب ومايعتزمان قوله من ناحيتهما يجعلهما على يقين من الرجوع
عما فيه واضطراره الى السير حالاً ليصبح امبراطوراً أو ملكاً ، إذ لم يعد ثم خوف من أنه
يريد أن يصبح رئيساً للأساقفة .

وأصغى سنشو الى كلامهما بانتباه تام ووعاه في ذاكرته بعناية ، وشكر لهما ماأبدياه
من رغبة في نصح مولاه بأن يصبح امبراطوراً لارئيساً للأساقفة ، لأنه كان يعتقد اعتقاداً

جازماً أن الأباطرة أقدر وأوسع باعاً من رؤساء الأساقفة الجوّالة فيما يتّصل بمكافأة حاملي سلاحهم . وقال لهما إنه من الأفضل أن يسبقهما الى مولاه ويعطيه جواب سيدته ، ولعلّ هذا الجواب أن يكون كافياً وحده لإنتزاعه من ذلك المكان ، دون أن يكونا في حاجة الى تحمّل كل هذه المشقّة . فاستحسنّا مقالته سنشو ، ولهذا قرّرا الانتظار حتى يعود بخبر العثور على مولاه .

ونفذ سنشو في أعماق هذه الجبال تاركاً رفيقيه وسط وادٍ ضيّق يجري فيه جدول صغير ذو خريز وتلقي عليه الظلال الوارفة صخور عالية وبعض أشجار تنمو على جوانبها . وكان الوقت شهر أغسطس ، وفي هذه النواحي يكون القيظ في ذلك الشهر شديداً ، وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً . وكل هذا جعل المكان بديعاً ودعا الراحلين الى المكوث فيه انتظاراً لأوية سنشو . وكان أن أقاما فيه . وبينما هما جالسان في الظل في هدوء ، طرق أسمعهما صوت مفاجئ كان غناءً صافياً رقيقاً لا تصحبه رنات آلات . فاستولت عليهما الدهشة البالغة لأنّهما لم يكونا ينتظران في هذا الموضع شادياً يغني هذا الغناء الجميل . ولئن اعتاد الناس أن يقولوا أنّ المرء يلتقي في وسط الحقول والغابات وبين الرعاة أصواتاً جميلة ، فهذا أقرب الى خيال الشعراء منه الى واقع الحال . وتضاعفت دهشتهم لما أدركا أنّ ما كانا يسمعهما كان شعراً ينشده رجال مهذبون لطاف ، لا رعاة قطعان غلاظاً جفاة . ويدل على هذه الحقيقة هذه الأشعار التي سمعناها :

من ضييع الآمال ؟

الإهمال

من زادني حسرة ؟

الغيرة

من حطم الصبر ؟

الهجر

من هذه اللأواء

ماثم من شفاء

قد بدّد الرجاء

الهجر والإهمال - والغيرة

من أحدث الآلام ؟

الغرام

من يمنع المجد ؟

الحظ

من رضي لي الشقاء ؟

السما

إخال أتّي أموت

من دائي الممقوت

اتفقت على عذابي

الحظ والغرام - والسما

من يصلح بختي ؟

موتي

ونعيم الحب - من ينال ؟

القلب الأحوال

من شقاء الحب - من يعين ؟

الجنون

ليس ثمّ فطنة

في علاج محنة

دواؤها المضمون

الموت والجنون - وتقلب الأحوال

وكان الوقت والزمان والوحدة وجمال الصوت وبراعة الغناء - كان لهذا كله أثره في إشاعة الدهشة واللذة معاً في نفوس السامعين . فأرعيا سمعيهما ساكنين على رجاء أن يزدادا سماعاً . فلما رأيا أن صمت المغني قد طال واستطال ، قرّرا السعي للبحث عنه ولمعرفة من صاحب هذا الصوت الرخيم . ومأنهضاً حتّى أمسك بهما الصوت نفسه في مكانيهما فراحا يستمعان فيه الى هذه المقطوعة :

أيتها الصداقة المقدسة ، يامن طرت بأجنحة رقيقة

تاركة مظهرك على الأرض

وصرت بين الأبرار في عليين

تقيمين ناعمة في منازل الخالدين

ومن هناك تهدين لنا - إن شئت -

وجهك الجميل منتقياً بنقاب
 تشع من خلاله أحياناً
 حمية الفعّال النبيلة التي تُضحي في النهاية دميّة
 غادري السماء أيتها الصداقة ، ولا تسمح
 للخداع أن يرتدي ثيابك
 ليقتضي على النوايا الصادقة
 فإنك إن لم تنتزعي منه مظاهره
 فسرعان ما يقع العالم في معركة
 خليط الكراهية الأولى

وانتهت المقطوعة بزفرة عميقة وأصغى السامعان بانتباه عساهما أن يسمعا مقطوعات
 أخرى . فلما رآيا الموسيقي قد استحالت شكايات وزفرات ، بادرا لمعرفة مَنْ المغني الحزين
 ذو الزفرات الأليمة والصوت البغوم . ولم يبحثا طويلاً ، إذ أبصرا عند منعطف سن صخرة
 رجلاً قامته ووجهه كما وصف سنشو حينما قصّ عليهما قصة كردنيو . فلما رآهما هذا
 الرجل لم يضطرب ولم تستول عليه الدهشة ، بل توقف وألقى برأسه على صدره في وضع من
 يحلم حلماً عميقاً دون أن يرفع نظره اليهما اللهم إلا في اللحظة الأولى التي ظهر لها فيها .
 وتعرّفه القسيس حسب الوصف الذي قام به سنشو ، وكان القسيس مهذب اللفظ أنيقه
 فاقترب منه ورجاه رجاء صارعاً حاراً بعبارات موجزة ملحقة أن يترك الحياة البائسة التي
 يحيها في هذه القفار وإلا فقد عمره وتلك مصيبة المصائب . وكان كردنيو حينئذ في تمام
 رشده بمعزل عن تلك النوبات العنيفة التي كانت تخرجه عن طوره . فلما رأى هذين الرجلين
 في لباس غير مألوف لدى من يردون هذه القفار انتابه نوع من الدهشة ، خصوصاً حين
 سمعهما يتحدثان عن قصّته حديث العارف العليم بها ، فإن كلمات القسيس أكّدت له هذا
 المعنى بما لا مجال بعده لأي ارتياب . فأجابهما بهذه الكلمات :

- « إنني أرى أي سيدي - أيّاً من كنتما - أن السماء - عناية منها بإغاثة الأخيار ،
 والأشرا أحياناً أيضاً - قد أرسلت إليّ في هذه الأماكن النائية عن البشر أشخاصاً يرسمون
 أمام عيني وبأجلى صورة جنوني في قضاء عمري بهذه النواحي ويحاولون انتزاعي من هذه
 الخلوة الحزينة وإعادتي الى مقام أحسن ، وهي نعمة لأستحقّها . ولكن لأنهم لا يعرفون
 ما أعرف ، وهو أنني إذا خرجت من محنتي الحاضرة فسأقع فيما هو أشدّ منها - فسيعتقدون
 أنني رجل ضعيف العقل بل لعلهم يحسبون أيضاً أنني فقدت عقلي تماماً . ولن يكون هذا

داعياً الى الدهشة ، إذ أعلم بنفسني أن ذكرى آلامي متصلة ثقيلة ولها تأثير عارم لإهلاكي ، وما أملك منها فكاكاً ، حتى أنني لأظل أحياناً كالحجر مجرد من كل وعي وشعور . وعلى الاعتراف بهذه الحقيقة حين يذكر لي بالبينات الواضحة ما ارتكبت من أفعال لمّا تعتريني تلك النوبات المروعة . هنالك لأملك إلا أن أصرخ بشكايات لاجدوى منها وأن ألعن سوء طالعي بغير فائدة ، واعتذاراً عن جنوني أخبر عن أسبابه كل من يودون الاستماع إلي ؛ فإن عرف العقلاء السبب بطل العجب ، وإذا كانوا لا يملكون دواءً يقدمونه إلي ، فهم على الأقل لا يجدون مبرراً لتحميلي أصره ، ويستحيل هول تهاويلي الى شفقة على آلامي . فإن كنتما ، يا سيديّ ، قد جئتما تحذوكما النية التي حدثت غيركما ، فإني أرجوكم أن تصفيا الى قصتي الأليمة قبل أن تستأنفا إسداء النصيح الخالص الرشيد . ولعلكم بعد أن تستمعا لها أن تعفيا نفسيكما من عناء التعزية عن مصاب غلقت دونه كل أبواب العزاء .

فألح عليه الرفيقان في أن يقصّ قصته ، فهما لا يودان خيراً من أن يعرفا منه هو سبب علته ، ووعداه بالأّ يعمل غير ما يشاء هو لعلاجيه أو مواساته . هنالك بدأ هذا الفارس الحزين يروي قصته الدامية بنفس الألفاظ والتفاصيل تقريباً التي رواها بها لدون كيخوته وراعي الماعز قبل ذلك بأيّام حينما بقيت الرواية ناقصة بمناسبة السيّد اليسابات وحرص دون كيخوته على التدقيق في أداء واجبات الفروسية . أمّا الآن فقد شاءت المصادفة السعيدة ألا تنتاب كردنيو نوبة جنون فاستطاع أن يتم قصته حتّى النهاية . فراح يقصّها حتّى بلغ مسألة البطاقة التي وجدها دون فرنندو في ثنانيا كتاب «أماديس الغالي» فقال كردنيو إنه يذكرها جيداً ، وإنها كانت على النحو التالي :

من لوسنده الى كردنيو

« كل يوم تتكشف لي فيك مواهب تحملني على زيادة تقديرك . فإن أردت منّي الوفاء بديني ، دون أن يكون ذلك على حساب الشرف ، فالوصول الى ذلك ميسور . إن لي أباً يعرفك ويحبني ، وسيستجيب لرغبتك دون أن يرغم إرادتي ، رغبتك العادلة ، إذ كان حقاً أنّك تقدّرني كما تقول وكما أعتقد » .

وهذه البطاقة هي التي دعّنتني الى طلب يد لوسنده كما قصصت عليكم ، وهي عينها التي جعلتها في نظر دون فرنندو فتاة من ألطف وأمهرفتيات عصرها ، وولدت فيها الرغبة في إهلاكي قبل تحقيق رغباتي . وأفضيت الى دون فرنندو أنّ والد لوسنده يشترط أن يكون والذي هو الذي يطلب يدها منه ، وقلت له أيضاً إنني لأجرؤ على محادثة أبي في هذا الشأن خوفاً من أن يكون جوابه الرفض ، لا لأنّه كان يجهل فضائل لوسنده ومفاتها التي تزين

أعلى البيوتات في اسبانيا ، ولكن لأنني افترضت أن أبي لا يودّ تزويجي قبل أن يعلم ما يريد الدوق ريكردو أن يفعله بي . وأخيراً قلت له أنني لا أخطر بمفاتحة أبي في الموضوع لهذه العقبة ولعقبات أخرى كثيرة كنت أتبينها بخوف دون أن أتحدثها ، ولأنه كان يخيل إلي أن رغباتي لن تتحقق أبداً . فأجاب دون فرندو عن هذا كله قائلاً إنه سيتولى بنفسه أمر مفاتحة أبي في الموضوع وحمله على أن يكلم والد لوسنده بشأني . أوه! أي ماريوس الغادر ، أي كاتلينا الظالم ، أي سلا الأثيم ، أي جانلون الخداع ، أي فليدو الخائن ، أي خوليان المنتقم ، أي يوداس الدنيء الطعمة! أيها الصديق الغدار ، أيها الجاحد اللئيم القاسي! ماذا فعل بك هذا المسكين الذي أطلعك على أسرار قلبه وأمانيه ؟ أية إهانة بلغتك مني ؟ أية كلمة قلتها ، أو نصيحة أسديتها لم يكن هدفي الوحيد منها نفعك وإعلاء قدرك ؟ لكن لماذا أشكو وأأسفاه! أوليس من الحقائق المقررة أن المصيبة إذا انحدرت من القدر المحتوم مندفعة من العلو إلى السفلى بقوة لا تقاوم ، فلن تستطيع قوة على ظهر الأرض أن توقفها ، ولأية حكمة إنسانية أن تتلافها ؟ من كان يتصور أن دون فرندو ، هذا الفارس النبيل الأعراق الرائع الذكاء ، الذي غمرته بأيادي ، وعنده القدرة على نوال كل ماتهواه شهواته الغرامية أينما أراد ، أقول ، من كان يتصور أنه يقرر في نفسه أن يسلبني نعجتي الوحيدة ، التي لم أظفر بها بعد^(١) ؟ لكن لنطرح جانباً هذه الاعتبارات التي لانفع فيها ، ولنعد إلى قصتي الأليمة . فأقول أن دون فرندو حينما رأى أن في وجودي عقبة تحول دون تنفيذ غرضه الدنيء ، قرر أن يرسل بي إلى أخيه الأكبر ، بحجة طلب بعض المال منه لدفع ثمن ست أفراس تعتمد شراءها في نفس اليوم الذي قدر فيه التحدث إلى والدي ، وذلك إبتغاء إبعادي حتى يخلو الجو لغدره . أكان في وسعي ، يا حسرتاه ، أن أتوقع هذه الخيانة ؟ أكان من الممكن أن يخطر هذا الأمر ببالي ؟ كلا وأيم الله ، كان الأمر بالعكس ، فقبلت عن طيب خاطر أن أرحل في الحال ، راضياً عن هذه الصفقة . وفي الليل تحدثت مع لوسنده وأفضيت إليها بما اتفقت عليه أنا ودون فرندو ، وعبرت لها عن وطيء الأمل في تحقق أمانينا المقدسة العادلة . فأجابت ، وهي تخشى مثلي من خيانة دون فرندو ، إن علي أن أعود سريعاً ، لأنها تعتقد أن أمانينا لن تتأخر في التحقق إلا بمقدار ما يتأخر أبي في التحدث في هذا الموضوع مع أبيها . ولست أدري ما الذي جرى لها في هذه اللحظة ، بيد

(١) إشارة إلى ما ورد في « سفر الملوك » الثاني ، إصحاح ١٢ ، وقد ورد ذكره في القرآن في حكاية داوود (سورة ص آيات ٢٣-٢٤) ، « إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ، فقال ، أكفلنيها وعزني في الخطاب * قال ، لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبني بعضهم على بعض... » .

أنها لم تتم هذه الكلمات حتى امتلأت عينها بالدموع واختنق صوتها ، ولاح كأن عقدة قد ربطت حلقها فلم تدعها تنطق بالكلمات التي حاولت أن تفصح عنها . فاعتراني ذهول لهذا الحادث الذي لم يقع لها من قبل أبداً . ففي كل مرة كانت الصدفة السعيدة أو مهارتي تجمعنا لتحدث معاً ، كان يسود حديثنا البهجة والرضا ، دون أن يداخله بكاء أو زفرات أو حسد أو شكوك . وأنا من جانبي كنت في نعمة تامة وشكر دائم على أن وهبني إياها الله حبيبة ، وكنت دائم الإطراء لمفاتنها ومحاسنها . وكانت هي بدورها تبادلي إطراءً بإطراء ، مثنية على ما أظهره حبها من سمائل عندي خليقة بالثناء . كما كنا نتبادل آلاف الأحاديث الصبائية ونروي مغامرات الجيران والمعارف ، ولم تتجاوز بي الجرأة حداً أبعد من تناول إحدى يديها البيضاء ، في شيء من العنف ، وتقريبها من فمي بقدر ما كانت تسمح بذلك قضبان نافذة واطنة كانت تفصلنا عن بعضنا بعضاً . أما في الليلة السابقة على اليوم المشؤوم لرحيلي ، فقد كانت تبكي وتنوح ، ثم تركتني في اضطراب شديد ومخاوف . فقد أفرغني ما رأيته على لوسنده من شواهد جديدة حزينة من الأسف والتعاسة . وحتى لا أقضي بنفسه على آمالي ، أرجعت كل شيء إلى قوة الغرام الذي تشعر به نحوي وإلى الأمل الذي يسببه دائماً غرام أولئك المتحابين المولاهين . وأخيراً رحلت ، حزينا مطرقاً ، ونفسي تساورها الشكوك والمخاوف ، دون أن أعلم على وجه التحقيق أسباب الشكوك والمخاوف ، وهي علامات بينات على الضربة الأليمة التي كانت تنتظرني .

بلغت إلى حيث أرسل بي وسلمت الرسائل لأخي دون فرندو فأحسن استقبالي ولكن لم يعجل إنجاز مهمتي بل تركني أنتظر - على مضض بالغ - ثمانية أيام في مكان لم يكن الدوق يستطيع أن يراني فيه ، لأن دون فرندو كتب طالباً أن يرسل إليه المال دون أن يعلم ذلك أبوه . وما كان ذلك إلا من حيل الغدر ، فإن المال لم يكن ليعوز أخاه فكان في وسعه أن ينجز مهمتي في الحال . وكان هذا الوضع غير المنتظر يخول لي أن أعصاه ، إذ بدا لي من المستحيل أن أحتمل العيش هذه المدة الطويلة بعيداً عن لوسنده ، خصوصاً وقد تركتها على حال من الحزن وصفقتها لك من قبل . ورغم ذلك فقد رضخت وأطعت ، شأن الخادم المخلص ، وإن كنت قد شاهدت أن ذلك سيكون على حساب راحتي وصحتي . وبعد مضي أربعة أيام وصل رجل بحث عني ليوصل إلي رسالة عرفت أنها من لوسنده حينما شاهدت خط العنوان ، ففضضتها وفي نفسي فزع بالغ إذ توقعت أن يكون ثمة سبب هام قد حملها إلى الكتابة إلي خلال البعاد ، لأنها نادراً ما كانت تكتب لي وأنا حاضر . لكن قبل أن أتلو الرسالة ، سألت الرجل عما أعطاه إياها وكمن من الوقت استغرقت رحلته . فأجابني أنه كان

يمر صدفة في أحد شوارع المدينة عند الظهيرة وإذا بسيدة رائعة الجمال تدعوه الى النافذة ، وعيناها مغرورتان بالدموع ، وقالت له بلهجة وسرعة : « أخي ! إن كنت مسيحيًا مؤمنًا كما يبدو لي ، فأني أرجوك ، لله ، أن تحمل هذه الرسالة بسرعة ، بسرعة جدًا ، الى المكان والشخص المذكورين على الرسالة ، جزاك الله خير الجزاء ، وحتى أسهل عليك هذه المهمة ، خذ ما يحتويه هذا المنديل » . وماالت حتى القت من النافذة منديل يحتوي على مائة ريال ، وهذا الخاتم الذهبي الذي أحمله ، وهذه الرسالة التي تمسك بها في يديك ، ودون أن تنتظر جوابي ، تركت النافذة بعد أن شاهدت أنني التقت المنديل والرسالة وبعد أن أخبرتها بالإشارات أنني سأنفذ ما أمرت به . فلما رأيت أنني سأكافأ هذه المكافأة على المهمة التي سأقوم بها ورأيت من عنوان الرسالة أنني موفد اليك يامولاي ، وأنا أعرفك جيداً والحمد لله ، ولما كنت خصوصاً قد تأثرت بدموع هذه الحسنة ، فقد قررت ألا أوكّل هذه المهمة لأحد غيري فحضرت بنفسي لتوصيل الرسالة إليك ، فأخذت سبيلي منذ أن أعطتني الرسالة فقطعت المسافة في ست عشر ساعة ، إذ طولها كما تعرف ١٨ فرسخاً » .

« وبينما كان هذا الرسول الشاكر للجميل يقص عليّ هذه التفاصيل كنت كأني معلق على كلماته ، وكانت فرائصي ترتعد بقوة لم أكد أحتمل معها الوقوف . وأخيراً فتحت الرسالة فوجدتها تتضمن هذه العبارات القليلة :

« إن ما تعهد به دون فرندو من التحدث الى أبيك ليفاتح أبي ، قد وفي به لصالحه لا لصالحك . فلتعلم ياسيدي أنه التمس الزواج مني ، وأبي ، وقد أعماه ماظن لفضل دون فرندو عليك ، قد قبل . والأمر من الجدّ بحيث ستم الخطبة في خلال يومين ، ولكن في الخفاء بحيث لا يكون ثم شهود عليها سوى السماء وبعض أهل البيت . في أي حال أنا ، هذا ماأترك لك تصوّره ، فإن كان يهّمك التعجل فالحكم لك ، وإذا كنت أحبّك أو لأحبّك ، فالحوادث ستشهد . وإني أسأل الله أن تصل رسالتي هذه الى يدك قبل أن تضطر يدي الى الإنضمام الى يد رجل لا يفي بعهده » .

تلك كانت خلاصة كلماتها في رسالتها هذه . لم أكد أتم فراءتها حتى رحلت من فوري دون انتظار لمال أو جواب عن مهمتي ، إذ تبين لي حينئذ أن دون فرندو لم يبعث بي الى أخيه من أجل شراء أفراس ، بل ليخلو الجو لتدبيره وأهوائه . واندفعت بقوة الحفيظة ضد هذا الصديق الغادر وبقوة الخوف من إضاعة قلب كسبته بعد سنوات من الغرام والخضوع ، فوصلت الغداة الى المدينة في الساعة المناسبة للتحدث الى لوسنده . دخلت بيتها سرّاً ، وتركت البغلة التي ركبها عند ذلك الرجل الفاضل الذي أتى إليّ برسالتها . وشاء الحظ

السعيد أن أجد لوسنده لدى النافذة الواطئة التي طالما كانت شاهدة على غرامنا . فتعرفتني في التو وأنا كذلك ، لكن لا كما كان يجب أن تراني وأن أراها ، هل في الدنيا ، وياحسرتاه . رجل يقدر أن يقول أنه سبر أعماق الأفكار المضطربة والأحوال المغايرة في نفس المرأة ؟ كلاً قطعاً . فلما شاهدتني قالت لي ،

– كردنيوا إني ألبس ثياب الزفاف ، وهاهو ذا دون فرنندو الغدار وأبي الطموح ينتظراني في البهو ، مع شهود آخرين هم بالأحرى شهود موتي لا شهود زفافي . لاتضطرب يا حبيبي ، بل حاول حضور هذه التضحية . فإن لم تستطع كلماتي أن توقفها ، فهناك خنجر أخفيه هناك يستطيع أن يدفع عني كل قهر ويحول دون أن تخور قواي ، به ستختم حياتي وحنني لك معا .

فأجبتها في اضطراب واندفاع وأنا أخشى ألا يكون لدي وقت لكي تفهم مني وتسمعي ،

– لعل أفعالك أن تبرّر كلماتك يا لوسنده ، إن معي سيفاً ليدافع عنك ، أو ليقتلني إذا عاكسنا الحظ .

ولا أحسبها قد سمعت كل كلماتي ، إذ جاءوا لدعوتها بسرعة لاقيادها الى حيث ينتظرها خطيبها .

هنالك غربت شمس سعادتي وخيم ليل أحزاني . أصبحت عيناى لا تبصران وطار عقلي ، فلم أهد الى مدخل منزلها ولم أستطع التوجه الى أية ناحية . وأخيراً – وقد تبين لي أهمية حضوري في مثل هذه المناسبة الحرجة الهامة – استجمعت قواي مااستطعت ودخلت المنزل . وكنت أعرف منذ عهد بعيد كل مخارجه ومداخله ، فدخلت دون أن يراني أحد نظراً الى ماكان في المنزل من جلبة وحركة ، واستطعت التسلل الى ركن تتألف منه نافذة البهو وتخطيه ستارتان من السجاد كان في وسعي أن أرى من خلالها كل ما يدور في البهو دون أن يراني أحد . من يقدر أن يصف مامرّ بي من مخاوف اضطرب لها قلبي طوال المدة التي أمضيتها في مخبأي هذا أي خواطر جالت بنفسي أي أمور عزمت عليها لقد كانت هذه كلها من الاضطراب بحيث يتعذر ذكرها ويكفي أن تعلم أن الخطيب دخل البهو غير مرتد إلا ملابسه العادية . وكان شاهد زواجه هو ابن عم لوسنده ، ولم يكن في البهو كلاً إلا خدم المنزل . وبعد قليل برزت لوسنده من غرفة زينتها مصحوبة بأمها وقهرمانتها ، لابسة ومرتزة على النحو الذي يقتضيه حبها وجمالها ووفق ذوقها المرفه الكامل ، ولم يسمح لي تشتت ذهني أن ألاحظ دقائق ثيابها ، فلم أبصر منها غير ألوانها ، الأحمر ، والأبيض ،

والانعكاسات التي كانت تلقيها حليها الشمينة التي زينت رأسها وكل ثيابها . أما جمال شعرها الأشقر فلم يكن له مثيل ، كان يتألق تألقاً أروع من الأحجار الكريمة ، وأبهج من المشاعل الأربعة التي كانت تضيء البهو . أيتها الذكرى ، يا لعدوة راحتي! ماذا يجدي الآن تذكر مفاتن هذه العدوّة المعبودة ، لوسنده ؟ أوليس الأفضل ، أيتها الذكرى القاسية ، أن تذكريني وتصوري لي مافعلته حينئذ ، حتّى تدفعني هذه الإهانة البالغة الى البحث عن القضاء على حياتي ، إن لم يكن عن الإنتقام ؟ سادتي ، لا تملّوا من سماع الاستطرادات التي قد انساق إليها ، بيد أن قصّتي الأليمة ليست من تلك القصص التي يمكن روايتها بإيجاز وبسرعة ، وكل ظرف من ظروفها يبدو لي أنا خليقاً بالإسهاب .

فقال له القس إنهم لم يملّوا من سماع مايقول ، بل بالأحرى هم شديداً الشوق لسماع كل التفاصيل التي تستحق من الانتباه مثلما يستحقّه فحوى القصة نفسها . فتابع كردينو حديثه قائلاً : بعد أن التّم الشمل في البهو ، أدخل قسيس الناحية فأخذ بيدي الخطيبين في يده ، لإقامة المرسوم المثبّع في هذه الحالة . فيما نطق بالكلمات المعهودة : «هل تقبلين يا سيدتي أن يكون السيد دون فرنندو الحاضر هنا زوجاً شرعياً لك ، كما تأمر بذلك الكنيسة المقدّسة ؟» .

- أخرجت رأسي وعنقي من وراء الستار وأرعبت سمعي بنفس مضطربة للإصغاء الى ما ستجيب به لوسنده ، وأنا أرقب من جوابها قرار إعدامي أو التصديق على حياتي . أواه! لماذا لم أخرج حينئذ من مخدعي ؟ ولماذا لم أصح ، «لوسنده ، لوسنده انظري ماتفعلين ، انظري ما تدنين به لي ، إنك لي ولست لأحد غيري ، إنك إذا نطقت بالقبول فقد نطقت بحكم إعدامي في نفس اللحظة ، وأنت أيها الخائن دون فرنندو ، يامقتصب مالي ، وسالبي حياتي ، ماذا تريد ؟ وماذا تزعم ؟ ألا ترى أنّك لاتستطيع إمضاء رغباتك إمضاء مشروعاً ، لأنّ لوسنده هي زوجتي وأنا زوجها ؟» آه ما أتعسني! الآن وأنا بعيد عن الخطر أقول ما كان يجب عليّ فعله فلم أفعله ، الآن وقد تركت كنزي العزيز يسلب مني ، هأنذا ألعن السالب عبثاً وقد كان في وسعي الإنتقام منه لو كان لي من القلب والشجاعة للإنتقاص عليه مثلما لي الآن من القلب للشكاة والأنين! على كل حال كنت جباناً أحمق ، فحقّ عليّ الآن أن أموت مسربلاً بالعار ، نادماً مجنوناً .

وظلّ القس ينتظر جواب لوسنده التي صمتت طويلاً دون جواب . ولكن حينما خيل اليّ أنها بسبيل سلّ خنجرها وفاء بعدها ، أو حل عقدة لسانها لإبراز الحقيقة والتحدّث عما بيننا ، إذ بي أسمعها تقول بصوت خفيض مضطرب : «نعم ، أقبّله» . وقال دون فرنندو

نفس العبارة ووضع في إصبعها خاتم الزواج ، وهكذا ارتبطا برباط لاإنفصام له . وتقدم الزوج لتقبيل زوجته ، ولكنها وضعت كفها على قلبها وسقطت بين ذراعي أمها مغشياً عليها .

« بقي أن أقص عليكم وصف حالتي حينما شاهدت في هذا « القبول » منها ضياع آمالي وزيف وعودها واستحالة رد ما فقدته تلك اللحظة . فقدت وعي وشعرت أن السماء تخلت عني وأنا على الأرض موضوع كراهية ، لأن الهواء لم يعد يمدّ زفراتي بالأنفاس ، والماء لم يعد يمدني بالدموع ، إنما تطلّبت النار ، واحترق قلبي بالحسد والغضب . وكان إغماء لو سنده قد أثار الانفعال في كل الحاضرين ، وأبعدتها أمها عن ذراعيها لتستطيع استنشاق الهواء ، فوجد على صدرها ورقة مختومة سرعان ما التفتفها دون فرندو وأنشأ يقرأها على ضوء أحد المشاعل . فلما فرغ من القراءة ، ارتمى على كرسي وأسند رأسه الى يده ، في وضع من يفكر ، دون أن يسهم في مظاهر العناية التي وفّرت لزوجته لجعلها تفيق من إغمائها . أمّا أنا ، فحينما رأيت البيت كله على هذا الحال من الاضطراب ، تجاسرت على الخروج دون أن أهتم بأن يكتشفوا أمري ، وفي عزمي في هذه الحالة أن أثور ثورة دامية ليعرف الناس جميعاً غضبتي العادلة التي تدفعني الى عقاب الخائن ، بل وعقاب تلك التي تغيّرت عن عهدا وإن كانت لاتزال في حالة إغماء . ولكن شاء طالعي أن يحتفظ بي لشقاء أعظم ، إن كان ثم أعظم من شقائي ، فأمرني بالتعقل ، ثم حرمني بعد هذا الحدث من كل تعقل . فبدلاً من أن أنتقم من أعدائي الألداء ، وهو أمر كان حينئذ سهلاً ، لأنهم لم يكونوا متنبهين لي ، تخيلت أن أنتقم من نفسي فأعاقبها بالعقاب الذي استحقّوه هم ، وبقسوة أشد مما كان عليّ أن أفعله ضدهم لو أنني قتلتهم ، لأن العقاب المفاجيء ينهي العذاب سريعاً ، أمّا العقاب الذي يطول أمده في ألوان من العذاب لاتنتهي فيقتل بموت بطيء . - وأخيراً غادرت البيت وذهبت الى الرجل الذي تركت عنده بغلتي . وسرعان ماأسرّجتها وغادرت المدينة دون أن أودّع الرجل ، ولم أجرؤ على إدارة رأسي لرؤية المدينة شائي شأن لوط . فلما كنت وحدي وسط الحقول التي أرخى الليل عليها سدوله ، يدعوني هدونها الساجي الى إطلاق العنان لنواحي دون خوف من أن يسمعي أو يتعرفني أحد ، أطلقت لساني وصرخت بلعناتي ضد لو سنده وفرندو ، كما لو أنني بهذا أنتقم لنفسي مما لحقني منها من إهانة . واتجهت لعناتي خصوصاً اليها ، ناعثاً إيّاها بالقاسية ، الجاحدة ، الزائفة ، الحائثة باليمين ، والمستغلة الشرهة ، لأن ثروة عدوي هي التي بهرت عينيها وجعلتها تفكر بمن جابه الحظ بمالٍ أوفر ، وفي هذه الغضبنة وتلك اللعنات كنت أحاول تلمّس عذر لها فأقول : « إن فتاة

نشأت في عزلة بين أهلها واعتادت دائماً الإذعان لأبويها - لاجب في أن تنزل عند رغبتهما إذا زوجها من سيد نبيل غني وسيم ، فلو أنها رفضته لاتهمت بالجنون أو بحب شخص آخر ، وكلاهما يسيء الى سمعتها أبلغ إساءة»! ثم أعود بعد ذلك الى أفكارى الأولى فأقول : « ولماذا لم تقل أنني زوجها ؟ لقد كانوا سيرون حينئذ أنها لم تختار اختياراً سيئاً غير جدير بها لا تستطيع تهريره ، لأنه قبل أن يتقدم دون فرندو لخطبتها ، لما كانا أبواها قد طمعا في خير مني لوأنهما قاسا رغبتهما بمقياس العقل . أفلم يكن في وسعها إذن - قبل أن تخطو هذه الخطوة المروعة الأخيرة ، وقبل أن تقبل ، أن تقول أنها وعدت من قبل بالزواج مني ، ففي هذه الحالة كنت سأعمل على الاستجابة لكل ما كانت ستظاهر هنالك به ؟ » وأخيراً أنعت نفسي بأن قليلاً من الحب ومن العقل ، وكثيراً من الطمع والشهوة للعظمة ، قد جعلها تنسى الوعود التي ناغتني بها وخدعتني وغزت أمالي النزيفة الشريفة . وكنت خلال هذه المناجيات والاضطرابات أسلك طريقي الليل كله ، حتى وصلت عند مطلع النهار الى مدخل من مداخل هذه الجبال . فدخلت منه ومضيت قدماً ثلاثة أيام كاملة دون أن أسلك طريقاً بعينه ، الى أن وصلت الى مرج لأعرف مكانه بالدقة ، وسألت الرعاة الذين كانوا يرعون دوابهم فيه عن أوحش مكان في هذه الجبال وأشدّها وعورة ، فأشاروا عليّ بهذا المكان ، فغدوت اليه توّأ وأنا موطن العزم على أن أنهى حياتي فيه . ولما دخلت هذه الوحشة الموحشة كبت بغلتي وماتت من الجوع والاضطهاد ، أو بالأحرى - فيما يخيّل إليّ - للتخلص من حمل لافائدة فيه هو شخصي أنا . فوقفت على الأرض ثم انطرحت عليها وقد بلغ مني الإعياء والشقاء ، دون أن أريد من أحد - ولم يكن ثم أحد - أن يهبّ لمساعدتي . وبعد أن بقيت مطروحاً على هذا النحو وقتاً لا أدري مداه ، نهضت ولم أعد أشعر بعد بالجوع ، فرأيت الى القرب منى بعض رعاة الماعز وهم بلا شك أولئك الذين سدّوا حاجتي الملحة العاجلة . فقد قصّوا عليّ بعد ذلك كيف عثروا عليّ ، وكيف أنني رويت لهم من الخزعبلات والترهات ما جعلهم يوقنون أنني مذهوب العقل . ولقد أحسست بنفسى منذ تلك اللحظة أن عقلي لم يعد سليماً حرّاً دائماً ، بل بالعكس ، صار من الضعف والاختلال بحيث صرت أرتكب آلاف حماقات وأمزق ثيابي ، وأصرخ في هذه القفار ، لاعناً حظي العاثر ، مكرراً باستمرار اسم عدوّتي الحبيب ، دون أن يكون ثم غرض إلا أن أدع حياتي تنطلق مع صرخاتي . وحينما أعود لنفسى وأثوب لرشدي أراني على نحو من الإعياء والاستسلام بحيث لأقوى على القيام بنفسى . وأغلب مسكني في تجويف شجرة فلّين تستر هذا البدن الناحل البائس . ورعاة الضأن والماعز اللذين يجوبون هذه الجبال بقطعانهم تأخذهم الشفقة

بي فيعطونني ما أتبلّغ به وذلك بأن يتركوا على الطرقات أو على الصخور التي يظنون أنني سأمر بها بعض ألوان الطعام لأجدها عندما أمر بها ، ففي نوبات الجنون أيضاً تنطق الحاجة فتدفعني الغريزة الفطرية الى البحث عن الطعام وتولد فيّ إرادة إشباع حاجتي منه . وفي أحيان أخرى - كما علمت منهم حينما ألقاهم وأنا في كمال عقلي - أكمّن لهم في الطريق واستولي بالقوة على المؤونة التي يأتي بها الرعاة من القرية الى أكوأخهم ، وإن كانوا هم مستعدّين لتقديم ماأشاء من الطعام طواعية وعن طيب خاطر . وهكذا أقضي بقية عمري ، الى أن يطيب للسماء أن تبلغ به نهايته ، أو تسلبني ذاكرتي ، حتّى أستطيع أن أنسى مفاتيح لوسنדה وخياتتها ، وإهانة دون فرنندو . فإذا أنعمت عليّ السماء بهذه النعمة دون أن تنتزع مني حياتي ، فسأقتاد أفكاري الى الطريق الصواب ، وإلاّ فليس أمامي إلاّ أن أسألها أن تعامل روحي بالشفقة والرحمة ، لأنّي لا استشعر في نفسي الشجاعة ولا القوّة على إنقاذ بدني من ألوان التفتّش التي فرضتها على نفسي .

تلك يا سادتي هي قصة مصائبي الأليمة . فأنبئوني هل في الوسع روايتها على نحو أقلّ فجيعية وحزناً مما فعلت . ولا تتعبوا أنفسكم في محاولة إقناعي بما يدلي به العقل لعلاج أدواني بإسداء النصائح لي ، فليس فيها من الفائدة أكثر مما في شراب يأمره الطبيب مريضاً لا يريد تناوله .إنّي لا أريد شفاءً غير لوسنده ، ومادامت قد شاءت أن تكون لغيري ، فأني أريد أن أكون للشقاء بعد أن كان من الممكن أن أكون للنعيم . لقد أرادت بعدم اكتراثها أن تؤبّد ضياعي ، إذن فأني أريد بإضاعتي لنفسي أن أرضي أمنيّتها . وسيقول الناس من بعد إنه ينقصني وحدي مالدی جميع البائسين من وسيلة أخوية ، إذ يعزّيهم استحالة تعزيتهم^(١) ، بل بالعكس هذه هي عندي سبب لأشدّ الأحزان وأقسى الآلام ، لأنني أحسبها ستستمر الى بعد موتي .

وهنا ختم كردينو روايته الطويلة لقصّته الغرامية الأليمة . ولما أوشك القس أن يوجّه إليه بعض عبارات العزاء ، منعه من ذلك صوت دويّ فجأة في آذانهم ، صوت يحكي ، بنبرات نائحة ، ماسيرويه القسم الرابع من هذه القصة ، إذ هاهنا أنهى القاص الحكيم المجتهد سيدي حامد ابن الأيّل القسم الثالث من حكايته .

(١) يرى pellicer أن هنا إشارة الى عبارة لفرجيل .

الفصل الثامن والعشرون

في المغامرة الجديدة البهيجة التي وقعت للقوس والحلاق

ما أسعد الأزمان التي عاش فيها الفارس الشجاع دون كيخوته المنتشاوي! لقد أمضى نيته النبيلة على بحث طريقة الفروسية الجوالّة بعد أن انقضى عهدها وكادت تتلاشى ، فأصبحنا بفضلها نتمتع الآن ، في هذا العصر المحتاج الى التسلية والبهجة ، بلطائف قصته الحقيقية ، وبما تنطوي عليه من نوادر وأحداث لا تقل لطفاً في معظمها ولا براعة صدقها عن القصة نفسها ، هذه القصة التي تتابع خيطها المتلوي المعقد فتحكي أنه في اللحظة التي تهياً فيها القوس لمواساة كردنيو ما استطاع الى المواساة سبيلاً ، منعه من ذلك صوت هزّ مسامعهم بهذه العبارات الحزينة :

« يا إلهي! هل لي أن أجد مكاناً أستطيع أن أدفن فيه هذا البدن الذي أحمل عبئه الثقيل رغماً عني؟ نعم ، وأيم الله ، اللهم! إذا لم أظفر بالوحدة التي أرجوها من هذه الجبال . أواه! كم تهنيء لي هذه السماء ، صعبة أشد إمتاعاً من صعبة أي إنسان على ظهر الأرض ، إذ ليس في الدنيا أحد تتوقع منه النصيحة الصادقة في الملمات ، والسلوى في الأحزان ، والدواء في الأمراض! » .

هذه الكلمات الأليمة سمعها القوس ومن كان معه ، سمعها كأنها قريبة منهم ، فنهضوا في الحال ليستدلّوا على هذا الشاكي الباكي . فلم يكادوا يخطون عشرين خطوة حتّى شاهدوا عند منعطف صخرة شاباً في ملابس فلّاح يجلس عند قاعدة شجرة فرامسنوس (المُران) لم يستطيعوا أنئذ أن يتبينوا وجهه لأنّه كان يخبئه وهو يغسل رجليه في جدول يجري في هذا المكان . وقد وصلوا في صمت تام بحيث لم يحس بهم الفتى ، الذي لم يكن مشغولاً بغير غسل قدميه وكانت من الشفوف والوضاء كأنهما قطعتان من البلور الناصع مختلطتان بسائر أحجار الجدول . بهرهم هذا الجمال وهذه الوضاء ، إذ بدت قدماه كأنهما

لم تخلقا لتطأ الطين خلف المحراث والثيران كما دلت على ذلك ملابسه . فلما رأوا أنه لم يحس بهم ، أشار القس وكان في مقدمتهم الى زميله بأن يستترا خلف الصخور القائمة هناك . واستتر ثلاثتهم هناك ليراقبوا ما يفعله الفتى . وكان الفتى يلبس معطفاً صغيراً شدة الى وسطه بحزام غليظ أبيض ، وجوارب طويلة من الصوف الأسمر ، وعلى رأسه قلنسوة من القماش نفسه . فلما فرغ من غسل قدميه ، ورفع قلنسوته ورفع رأسه ، هنالك شاهد الذين يراقبونه جملاً منقطع النظير ، حتى قال كردينو بصوت خفيض للقس : « مادام هذا ليس لوسنده ، فليس أيضاً بشراً » وخلع الفتى قلنسوته وهز رأسه يمناً ويسرة فالتشر من تحتها شعر يحسده عليه شعاع الشمس نفسه . هناك أدرك الثلاثة الطلعة أن هذا الذي حسبوه فلاحاً كان فتاة شابة رقيقة ، أجمل ما وقعت عليه أعين صديقي دون كيوخته بل وعينا كردينو نفسه لو لم يعرف لوسنده لأنه أكد بعد ذلك أن جمال لوسنده هو وحده الذي يمكن أن يقارن بهذا الجمال . وكان هذا الشعر الأشقر الطويل يغطي كتفيها ، بل يغطيها كلها تحت غدائره الكثيفة ، حتى لم يكن المرء يرى منها غير قدميها . والتسريحة لم يكن لها من مشط غير أناملها التي بدت في الشعر كأنها كرات من الثلج ، كما بدا القدمان في الجدول كأنهما قطعتان من البلور . كل هذا زاد من إعجاب المشاهدين الثلاثة ومن شوقهم لمعرفة حقيقة أمرها ، فقررّوا الخروج من مختبأهم . لكن حركة نهوضهم جعلت الشابة الحسناء تدير رأسها وتفصل يديها شعرها الذي يغطي وجهها ، ثم نظرت من أين جاءت الضوضاء . ولم تكد ترى هؤلاء الرجال الثلاثة حتى نهضت بلهفة ودون أن تتمهل لبس حذائها وضم شعرها ، ثم أمسكت بحزمة صغيرة من الخرق المهلهلة كانت بالقرب منها ، ثم هربت في دعر واضطراب . بيد أنها لم تكد تخطو بضع خطوات حتى عجزت قدمها الرقيقتان عن احتمال وعورة الصخور فارتمت على الأرض . هنالك أسرع اليها الأصدقاء الثلاثة ، وبدأ القس في الكلام فقال : « قفي يا سيدتي ! أياً من كنت فاعلمي أننا لا نبغي إلا خدمتك . فلا تحاولي الفرار ، فقدماك لن تتحملان ، ونحن أيضاً لن نسمح لك بذلك » . فلم تحر جواباً وغلبتها الدهشة والاضطراب . فاقتربوا منها ، وأخذ القس بيدها واستمر يقول :

« إن ما أخفته ثيابك ياسيديتي قد نمت عنه شعرك ، وهي دلائل واضحة على أن الدوافع التي حملتك على تمويه جمالك تحت هذا القناع غير اللائق به ودفعتك الى اللجوء الى أعماق هذه القفار التي يسعدنا أن نلتاق فيها لا نجد دواء لإدوائك ولكن على الأقل لنبذل لك محض النصيحة . نقول هي دلائل واضحة على أن هذه الدوافع ليست هيئة . وأية مصيبة لا يمكن ،

مادامت الحياة قائمة ، أن تبلغ الحد الذي عنده لا يريد صاحبها أن يصغي الى النصيحة التي تُسدى اليه بإخلاص . فاخلصي ياسيدتي ، أو ياسيدي ، أيّاً من كنت ، من الفرع الذي أثاره مرآنا في قلبك ، وقصتي علينا ماأصابك من نحس أو سعد ، وثقي أنك ستجدين فينا ، فرادا ومجتمعين ، معيناً لك على تحمّل المصائب ومشاطرتك إياها .

وبينما كان القس يتحدث هذا الحديث ، ظلّت الحسنة المستخفية مذهولة مشدوهة ، تنظر إليهم واحداً بعد واحد ، دون أن تنبس ببنت شفة ، شأنها شأن فلاح شاب يشاهد فجأة ولأول مرة أشياء نادرة لم يرها أبداً .

واستمرّ القس في كلماته الرقيقة ، فانطلقت منها زفرة عميقة قطعت بها صمتها ثم قالت :

« مادامت وحشة هذه الجبال لم تستطع أن تسترني عن العيون وشعري لما انتشر لم يدع للساني مجالاً للتمويه ، فمن العبث أن أموه الآن وأن أقول ما لا يمكن تصديقه إلا مجاملة . وبعد فأقول ياسادتي إنني أشكر لكم تطوعكم لخدمتي مما يحملني الى جميع ماسألتموه . بيد أنني أخشى من أن رواية ماحل بي من كوارث ستحدث لكم من الضيق بقدر ما ستشير من الشفقة ، لأنكم لن تجدوا دواء لشفائي منها ، ولاعزاء لتخفيف وقعها عليّ . وحتى لا يضر شرفي لديكم بعد أن عرفتم أنني امرأة ورأيتوني شابة وحيدة وفي هذا الزم ، وكلها أمور يمكن أن تقدر في الشرف ، فقد قرّرت أن أفضي اليكم بما كنت أودّ أن يظل سراً مكتوماً » .

كان هذا خطاب هذه الحسناء الرقيقة للأصدقاء الثلاثة ، نطقت به دفعة واحدة بصوت بغوم سلسال ، فأحدثت لطافة روحها دهشة لا تقل عن الدهشة التي أثارها جمالها . فراحوا يردّدون استعدادهم لخدمتها ، ويلحفون عليها في الوفاء بما وعدت به . هنالك أصلحت حذاءها وصفّفت شعرها وجلست على حجر كبير وتحلّق حولها الإخوان الثلاثة ، ثم كتمت بضع عبارات طفرت الى عينيها ، وأنشأت تقول بصوت جهير موزون قصة حياتها .

« في اقليم الأندلس المجاور لنا مدينة صغيرة باسمها يتلقّب دوق^(١) ، ويلقبه هذا صار من عداد من يسمّون عظماء اسبانيا . ولهذا الدوق ولدان : الأكبر ، وهو وارث أملاكه ، هو

(١) يرى كلمنثين أن المقصود لعلّه دوق أسونا duque de Osuna ، وإن كان لم يعثر في تاريخ القرن السادس عشر على الأصل الذي رسم على نحوه دون فرندو . ولكن أبحاث فرنشكو رودريجث مرين في هذا الموضوع دلت على أنّ لهذه الأسماء كلها أصولاً تاريخية واقعية : فإن كورديو هو Gardenns de Gordoba ودون فرندو هو don pedro Giron الابن الثاني لدوق أسونا الاول ، ودوروتيه هي Dona Marin de Torres التي اغتصبها دون بدرو خيرون . وهذه الغراميات جرت في السنوات ١٥٨٢ ، ١٥٨٣ ، أما ثريبتس فقد بدأ تجواله في مدن وقرى الأندلس في سنة ١٥٨٧ . ولم يستطع دون بدرو الزواج من ماري دي طوريس هذه . ولما عن أبوه نائباً للملك في نابلي ذهب معه ومات أعزب في سنة ١٥٨٢ م .

أيضاً وارث صفاته الجميلة فيما يبدو ، أما الأصغر فلا أدري هو وارث لماذا ، اللهم إلا أن يكون وارث خدع جلالون وغدر وليدو . وأهلي أتباع لهذا الدوق ، متواضعو الأصول ولكنهم ذوو ثراء ضخم ، فلو كانت مواهبهم الطبيعية بقدر ثرواتهم المادية لما كانوا في حاجة الى المزيد ، ولما كنت أنا في خوف من الوقوع في المحنة التي أنا الآن فيها ، لأن مرجع شقائي كله ربما كان لأنهم لم يولدوا من أصل نبيل . نعم هم ليسوا من انحطاط الأصل بحيث يخلجون ، ولكنه ليس من العلو بحيث يزيل من فكري أن مرّة تعاستي كلها هو تواضع أصلهم . إنهم مزارعون ولكنهم من دم صريح لم يهجن بأي جنس دنيء ، وهم كما يقولون نصارى عريقون من أعرق الأصول المسيحية ، وقد بلغوا من العراقة ما جعل ثرواتهم ومظاهر ترفهم تدعو الى تلقيبهم بالأشراف بل بالنبلاء . ولكن أكبر ثروة وأسمى نبالة افتخروا بهما أنني ابنتهم . ولهذا ، ولما لم ينجبوا ورثة غيري وكانوا دائماً يعزوني ، أقول لهذا كنت أعز فتاة دللها أبواها . كنت المرأة التي فيها ينظران ، والعصا التي تتوكأ عليها شيخوختهما ، والهدف الوحيد الذي تتجه اليه كل أمانيهما التي حسبوها إرادة السماء ، ولم تكن أمانتي أيضاً تنحرف عن أمانيهما وفاقاً لإحسانهما قبلي . وكما كنت المسيطرة على قلبهما ، كنت أيضاً صاحبة الأمر في أموالهما . كنت أنا التي تعين الخدم والتي تطردهم ، وكل الحسابات المتعلقة بما كانوا يبدّون أو يحصدون كانت تمر بين يدي . فطواحين الزيت ، ومعاصر الخمور ، وقطعان الماشية كبيرها وصغيرها ، وخلايا النحل ، وبالجملة كل ما يمكن أن يملكه مزارع غني مثل أبي كانت رعايته مكفولة مني . كنت ناظرة الضيعة وسيّدة البيت ، وكنت أؤدي وظيفتي هاتين باهتمام بالغ ولذة شديدة لا أقدر على وصفهما . وما بقي لي من الفراغ بعد أن أعطي أوامري للأسطوات والتملية وأنفار اليومية ، كنت أزجيه في الأعمال التي تتناسب وكوني امرأة : شغل الإبرة ودف التطريز ، والمنسج أحياناً كثيرة . فإذا تركت هذه الأشغال طلباً للترويح عن نفسي كنت استمتع بقراءة الكتب الجيدة أو بالعزف على الهارب ، إذ دلّنتني التجربة على أن الموسيقى تهدئ النفوس المتعبة وتريح من عناء أعمال الذهن . - تلك كانت الحياة التي أقضيها في بيت أهلي ، وصفتها بكل تفاصيلها لاتباهاً مني وافتخاراً بثراني ، بل لكي تدركوا أنه لم يكن ذنبي أن أنحدر الى هذه الحالة التي تشاهدوني عليها بعد أن كنت في منزلة عالية . وعبثاً قضيت عمري وسط هذه المشاغل وفي عزلة قاسية تضاهي عزلة الدير لا يراني أحد فيما كنت أظن اللهم إلا أهل البيت ، لأنني في الأيام التي كنت أذهب فيها لحضور مراسم القداس كنت أذهب مبكراً جداً تصحبني أمي وقهرماناتي ، وعلى وجهي نقاب وفي نفسي من الخجل والاستحياء مالم أكن أرى معه من الأرض أكثر

مما تبطأه قدماي . ورغم ذلك فإن عيون الحب ، أو البطالة ، بتعبير أدق ، وهي أحدُ نظراً من عيون اللئس ، قد أسلمتني الى مطاردات دون فرندو ، وهذا اسم الابن الثاني للدوق الذي حدثتكم عنه » .

ولم يكذب فيها ينطق باسم دون فرندو حتى تغير وجه كرديو وبدأ لونه يرتعد وبدنه يتغير الى حد ظنّ معه القس والحلاق لما شاهداه أنه قد انتابته إحدى نوبات جنونه التي سمعوا أنها كانت تتناوب بين الحين والحين . ولكن كرديو لم يحدث منه إلا أنه كان العرق يتصبّب منه وكان يرتعد دون أن يتحرك من مكانه ، ويثبت نظراته في الفلاحة الحسنة ، وهو يتخيل من هي . ولكنها لم تنتبه لحركات كرديو المتشنجة واستمرت في روايتها تقول :

« ولم تكذب عيناه تلمحاني حتى شعرت حسبما قال فيما بعد . باشتعال الغرام الذي كشف عنه فيما بعد . وحتى أصل الى ختام قصة آلامي ، سأغفل الخطوات التي خطاها دون فرندو للإفضاء إليّ بأمانيه . فرشا كل من في البيت ، وانها على والدي بالهدايا والنعم ، وكانت الأيام أعياداً مستمرة في الشارع الذي أظن فيه ، وفي الليل كانت أناشيد المساء لاتدع النوم يطرق عيون أحد ، وكان يرسل ملاحصر له من البطاقات فتصل الى يدي لست أدري عن أي طريق ، وكلها مملوءة بكلمات الغرام ، وفيها من الألفاظ أقل مما فيها من الوعود والأقسام المغلظة . ورغم هذا فلا يمكن لأي شيء من هذا أن يلين قلبي ، بل بالعكس كان يزيدني صلابة وكأنه ألد أعدائي ، حتى كانت المجهودات التي يبذلها لإغرائني وكأنها بذلت لإثارتني وإثارة حقني عليه . وليس ذلك لأنني كنت لا أعترف بقيمة دون فرندو الشخصية أو لأنني كنت أريد أن أبادل عنايته بالإهانة لشخصه ، بل بالعكس كنت أشعر برضا تام حينما أجد تقدير فارس نبيل كهذا وحبّه لي ، ولم أستشعر ضيقاً من قراءة إطرانه لي في رسائله ، لأنني أعتقد أننا معشر النساء ، مهما تكن دمامتنا ، نرتاح مدى الارتياح لدى سماع من ينعتنا بالجمال . لكن الأمر الذي حمانني من الإغراء والميل هو حرصني على شرفي والنصائح المتصلة التي كان أبواي يسديانها إليّ وقد استكشفا بسهولة نوايا دون فرندو الذي لم يبذل جهداً في الإفصاح عنها لدى جميع الناس . كان أبواي يقولان لي أنهما أودعا في فضيلتي كل شرفهما واعتبارهما ، وأن عليّ أن أقيس المسافة التي تفصل بيني وبين دون فرندو لأدرك أن أغراضه كانت تتجه الى ملذاته لا الى مصالحني على الرغم من أنه كان يزعم العكس . وقال لي إنني إذا كنت أريد أن أضع حداً لمحاولاته وأن أرغمه عن العدول عن ملاحظاته المهينة ، فإنهما على استعداد على تزويجي في الحال بمن أودّ اختياره من أهل المدينة أو من النواحي المجاورة ، فالناس جميعاً يرجون الكثير من ثرائهما ومن حسن سمعتي . هذا

الوعد ونصائحها التي شعرت بسدادها قوت عزيمتي الى حد أنني لم أشأ أن أرد بكلمة يمكن أن يستشف منها دون فرندو ولو من بعيد أي أمل في تحقيق أمانيه . وكل هذه الاحتياطات التي حسبها ازدراء مني له قد ألهمت شواظ رغبته الآثمة : فهذا هو النعت الوحيد الذي أستطيع أن أصف فيه حبه الذي أعلنه لي ، لأنه لو كان حبه كما يجب ، لما أتيت لي فرصة التحدث إليكم عنه في هذه اللحظة . وأخيراً علم دون فرندو أن أهلي يريدون تزويجي حتى ينتزعوا منه كل أمل في الظفر بي ، أو على الأقل ليكون لي حراس يدافعون عني غيرهما . وهذا الخبر أو هذا الظن كانا كافيين ليحملاء على القيام بما سأرويه لكم الآن :

« ذات ليلة كنت وحدي في مخدعي ليس معي غير إحدى وصيفاتي ، وقد أغلقت الأبواب بكل عناية ، خوفاً من أن يسبب أقل إهمال في وضع شرفي موضع الخطر . وفجأة ودون أن أستطيع أن أتخيل ماذا عسى أن يكون ، وسط عديد المشاغل وفي خلوة وصمت ، ظهر أمامي . فسبب مرآه اضطراباً سلب من عيني بصرها ومن لساني نطقه ، حتى إنني لم أستطع أن أصرخ طلباً للنجدة ، وأعتقد أنه لم يكن ليدعني أصرخ ، لأنه تقدم إلي في الحال وطوقني بذراعيه ومنعني الاضطراب من دفعه عني ، وأنشأ يقول لي بعبارات لا أدري معها كيف يبرع الكذب في تزويقها حتى تبدو كالحقائق . وشاء هذا الغادر أن يتبع كلماته بالدموع ليموه عن صدق شعوره ، وبالزفرات يؤكد بها سلامة نواياه . وأنا البنت المسكينة الوحيدة بين أهلي ودون خبرة في مثل هذه المواقف بدأت - لست أدري كيف - بدأت أصدق هذه الأكاذيب ، ولكن دون أن تغير في نفسي أكثر من مجرد الشفقة على زفراته وعبراته ، ولهذا حينما ثبت إلى رشدي بعد الوهلة الأولى قلت له بشجاعة لم أكن أصدق أنني لأزال أملكها ، إن كانت حالي ياسيدي بين ذراعيك كحالي بين مخالف ليث غضوب وكان عليّ لتخليص نفسي بيقين أن أفعل أو أقول شيئاً ضد الفضيلة ، فلن يكون من الممكن أن أفعله أو أقوله تماماً مثلما أن ما وقع ألا يكون قد وقع . وإذن فإذا كنت تمسك بجسمي مشدوداً بين ذراعيك فأنا أيضاً أمسك بروحي مجفوفة داخل عواطف الطيبة وهي تختلف عما سترى من عواطفك إذ كنت تريد أن تستخدم العنف في تحقيقها . إنني من أتباعك ولكنني لست من عبديك : وثبالة جنسك لاتعطيك الحق في احتقار تواضع جنسي ، وتدنيس شرفه ، وإنني لأقدر نفسي ، أنا الفلاحة الوضيعة ، أنني مثلك أنت السيد النبيل . وما لقوتك من سلطان عليّ ولا لثرائك نفوذ عندي ، وكلماتك لا تستطيع أن تخدعني ، ولا زفراتك ودموعك تشير الشفقة في نفسي . ولكنني لو وجدت شيئاً مما أتيت على ذكره في شخص يختاره أبوي

زوجاً لي ، فإن إرادتي ستكون طوع إرادته وسأخلص له الى الأبد . فحتى لو لم يشأ قلبي مادام شرفي سليماً فإنني أمنح عن طيب خاطر ما تريد أنت الآن أن تستولي عليه بالقوة . وأريد من هذا أن أقول إنني لن أمنح أحداً شيئاً إلا إذا كان زوجي الشرعي .

« فقال الفارس الغادر : إذا لم يكن في الأمر إلا هذا لإرضائك فما أنذا يا دوروتيه (وهذا اسم البائسة التي تتحدث إليك الآن) أمد إليك يدي وأقسم أن أكون لك زوجاً وأشهد السماء على ذلك ولا يخفى عليها شيء ، كما أشهد صورة أم الإله المقدسة القائمة أمامي الآن » .

وفي اللحظة التي سمعها كردينو تذكر دوروتيه انتابته حركة تشنج وأيقن تمام اليقين بالرأي الأول الذي خطر بباله عنها . ولكنه لم يشأ أن يقطع حبل القصة التي توقع والتي كان يعرف ختامها ، بل قال لها : « ماذا ياسيداً هل اسمك دوروتيه ؟ لقد سمعت أخباراً عن فتاة تسمى بهذا الاسم ، كانت محنتها قريبة لمحنتك . ولكن أتمنى قصتك وسيأتي الوقت الذي أفضي فيه إليك بأمور ستسبب لك من الدهشة بقدر ماثير من الشفقة » .

ولدى سماع دوروتيه لهذه الكلمات ألقت نظراتها إليه وتأملت ملابسه الزرية الغريبة ، ورجته إذا كان يعرف شيئاً عنها أن يقوله في الحال ، ثم استمرت تقول : « كل ما تركه لي الحظ هو الشجاعة على تحمل المصائب التي تحل بي ، وأنا واثقة أنه لا توجد مصيبة يمكن أن تزيد من شقائي » . - فأجابها كردينو : « كنت أود ألا أضيع دقيقة يا سيدتي لأقول لك ما أظنه ، إذا كنت متأكداً أنني لا أخطئ التقدير ، ولكن الفرصة للإفضاء بذلك لم تكن بعد ، ولا يهتك مطلقاً أن تعرفي ذلك بعد » . فقالت دوروتيه : « كما تشاء ، إنني عائدة الى استئناف حديثي » .

« وأمسك دون فرندو بصورة العذراء الموجودة في الغرفة ووضعها أمامنا لتكون شاهدة على خطبتنا وحلف لي بالأقسام المغلظة والأيمان المؤكدة أنه ليتعهد أن يتزوجني . لكن قبل أن يتم النطق مما حذرته مما هو بسبيل فعله ولينظر فيما عسى أن يكون من غضب أبيه إذا علم أن ابنه سيتزوج فلاحه من أتباعه ، ولا يعميته جمالي ، لأن جمالي ليس عذراً كافياً عن خطيئته ، وقلت له إذا كان الحب يدعوك الى الاحسان الي ، فعليه أن يدعني أقترن بمن في مثلي منزلي ، لأن الزواج غير المتكافئ لا يمكن أن ينجح أبداً ، والسعادة التي يعطيها لا يمكن أن يطول أمدها . كل هذه الحجج والأسباب أوضحتها له هي وغيرها مما لا أذكره ، لكننا لم تحد به عن خطته ، مثله مثل من يستدين وفي نيته ألا يدفع فلا يكثرث لشروط الدين . وفي هذه اللحظة تحدثت الى نفسي وقلت لها : « كلا ، لست أول فتاة يرفعها الزواج

من منزلة وضيعة الى منزلة عالية ، وليس دون فرندو أول من أعماه الحب وأضلته مفاتن الجمال فحمله على أن يتزوج زواجا لا يتناسب مع علو أصله . ومادمت لا أريد أن أغير الدنيا ولأن أخلق عادات جديدة ، فعندي الحق في اقتناص هذا الشرف الذي هتأه لي الحظ ، فحتى لو لم يدم غرامه بي الى أطول من تحقيق شهواته ، فإنني سأكون زوجة أمام الله ، كما أنني إذا أردت إبعاده باحتقاري إياه وجفوتي عنه لصار الى حال ينسى فيها كل واجب ويستعمل القوة والعنف ، فأبقى بعد ذلك دون شرف ، بل ودون عذر مما ارتكبت من خطأ في نظر من لا يعرفون كيف قاومته . فما هي الحجج التي تستطيع أن تقنع أبوي وغيرهما من الناس أن هذا الرجل قد دخل مخدعي دون إذني ولا برضاي ؟ » - كل هذه الأسئلة والأجوبة أثارها خيالي خلال لحظة ، بيد أن الشيء الذي بدأ يهزني ويدفعني الى الهلاك دون أن أدري هو تلك الأقسام التي أقسم بها دون فرندو ، والشهود الذين استشهد بهم ، والدموع التي ذرفها بغزارة ، وأخيراً مفاتن وجهه الوضيء وقد عززها حب صادق ، فكان هذا كله قادراً على أن يلين القلب الحر الأبوي العاقل مثل قلبي . دعوت وصيفتي لتكون شاهدة في الأرض الى جانب من استشهد بهم من السماء ، فعاد دون فرندو يجند أقسامه الأولى ويؤكدها ، ويحلف بقديسين آخرين ، ويستنزل آلاف اللعنات على رأسه إذا لم يف بعهده ، وامتلأت عيناه مرة أخرى بالدموع ، واشتعل فمه زفرات وأحكم ضمّي بين ذراعيه وكنت لم أستطع أن أخلص من قبضتهما لحظة واحدة ، وأخيراً حينما غادرت وصيفتي الغرفة ، أتمّ تجريدي من شرفي وجريمة غدره .

« ولم يطلع صباح الليلة التي فقدت فيها شرفي بالسرعة التي كان يرجوها دون فرندو ، كما خيل اليّ ، فإنه بعد أن أرضى شهواته الأثيمة لم يكن يودّ إلا البعد قدر المستطاع عن المكان الذي ارتكب فيه فعلته النكراء هذه . أو هذا هو ماخيل اليّ حينما شاهدت دون فرندو يعجل الرحيل . وهذه الخادمة التي اقتادته الى مخدعي هي عينها التي اقتادته الى خارج المنزل قبل أن يتنفس الصباح . ولما ودّعني كرّر مراراً توكيده لي بأن أطمئن الى ما وعد به حتى اعتقدت صدق إيمانه وإخلاصه فيها ، وإن كان هذه المرة يقولها بحماسة أقل مما فعل حين مجيئه . وتوكيداً لكلامه انتزع من إصبعه خاتماً ثميناً وضعه في إصبعي . وأخيراً تركني ، وبقيت أنا على حال لست أدري أكانت حال حزن أم ابتهاج . وكل ما أستطيع أن أقوله أنني بقيت حائرة حالمة قد خرجت عن طوري تقريباً بسبب هذا الحادث ، دون أن يكون لديّ من الشجاعة ، بل من الفكر ما يجعلني أنتهر وصيفتي لخياتها إياي بإخفائها دون فرندو في غرفتي ، ذلك أنني لم أستطع أن أقرر آنذاك

ما إذا كان قد حدث شرٌّ أو خيرٌ . وقلت لدون فرندو ساعة ارتحالة إن في وسعه اتخاذ نفس الطريق لزيارتي في الليل سراً مادمت قد أصبحت له ، الى أن يتيسر إعلان زواجنا . ولكنه لم يعد إلا في الليلة التالية فحسب ، ولم أستطع أن أراه بعد ذلك ، لا في الطريق ولا في الكنيسة ، طوال شهر كامل أتعبت نفسي عبثاً في سبيل العثور عليه ، وإن كنت قد علمت علم اليقين أنه لم يبرح المدينة وأنه كان يمارس الصيد في معظم الأوقات وكان بالصيد شديد الولوع . وإني لأعرف ، ويأسفاه كم كانت هذه الأيام طويلة عليّ وساعاتها مريرة ، وأعرف أنني بدأت أشك في إخلاص نيّته بل توقفت عن تصديق عهده . وأعرف كذلك أنّ خادمتي قد سمعت منّي أنّشد التقرّيع الذي لم أوجهه إليها من قبل لجرأتها على فعلتها هذه ، وأخيراً أعلم أنني كنت أشتد على نفسي لأحبس دموعي وأستعيد رباط جأشي ، حتّى لأحمل أبويّ على سؤالني عن سرّ حزني ولا أحمل نفسي على الكذب معهما . ولكن هذا الوضع المصطنع المغتصب لم يستمر طويلاً . فسرعان ما جاء الوقت الذي فقدت فيه كل صبر ودست بأقدامي على كل اعتبار واحتشام ، فأطلقت لغضبي العنان وأعلنت سخطتي . وكان ذلك بعد مدة من الزمان لما أن انتشر بيننا خبر يقول إن دون فرندو قد تزوّج من المدينة المجاورة بفتاة رائعة الجمال نبيلة المحدث . ولكنّها لم تكن من الشراء بحيث تطمع بمالها في مثل هذا القران السامي . وكان يقال إن اسمها لوسنده ، وتروى أشياء غريبة عمّا جرى أثناء مراسيم الخطبة » .

فلما سمع كردينو اسم لوسنده لم يفعل إلا أن لوى كتفيه وقطّب حاجبيه وعصّ على شفّتيه وأطلق على خديّه جدولين من الدموع . بيد أنّ لوسنده لم تقطع حبل قصّتها واستمرت تقول :

« وصل هذا النبأ الأليم الى مسامعي سريعاً ، ولكن قلبي بدلاً من أن يتجمّد لدى سماعه اشتعل بغیظ بلغ من شدّته أنني كنت على وشك الخروج من المنزل والسير في الطرقات العامة في المدينة وأنا أصبح بالخيانة التي كنت ضحيّة لها . ولكن هذا الغیظ هدأه خاطر سنح لي عن خطّة قمت بتنفيذها في الليلة التالية . فارتديت هذه الملابس التي أعطانيها أحد خدم أبي ، وهو من أولئك الذين يسمّون الزغل^(١) Zagal عند المزارعين ، وقد أفضيت اليه بمغامرتي كلها البائسة والتمست منه أن يصحبني الى المدينة التي رجوت أن أجِد فيها خصمي . فراح هذا الزغل يلومني على جرأة خطّتي وينصحني بالعدول عنها ،

(١) الكلمة الاسبانية Zagal مأخوذة من العربية هذه ، ويطلق في الاسبانية على « الفتى القوي الضحوك المملوء حيوية ، وعلى الراعي الشاب ، وعلى الصبي الذي يمسك السرج على عربات الحمل ويساعد الاسطى في مختلف الأعمال .

ولكنه لما رأى تصميمي التام تطوّر لمرافقتي حتى نهاية الدنيا ، كما قال . هنالك وضعت في حقيبة من التيل لباس امرأة ونقوداً وجواهر لاستخدامها عند الحاجة ، وفي جنح الليل ودون أن أقول شيئاً عن رحيلي لخادمتي الخائنة تركت البيت بصحبة الزغل وفي رأسي آلاف الأفكار المضطربة . فسرت في طريق المدينة على قدمي ، ولكن الرغبة في الوصول جعلتني أطيّر حتى أستطيع أن أسأل دون فرنندو بأي وجه تصرف هذا التصرف ، هذا إن لم استطع أن أمنع من حدوث ما اعتقدت أنه حدث إلى غير رجعة . فبلغت وجهتي في يومين ونصف يوم ودخلت المدينة وأنا أسأل عن منزل أهل لوسنده . وقد أجابني أول من سألته بجواب أعطاني أكثر مما كنت أريد السؤال عنه . دلّني على منزلها وقصّ عليّ كل ماجرى أثناء خطبتها ، وقد ذاع هذا الأمر في أرجاء المدينة حتى أصبح حديث الناس المتداول على كلّ الأفواه ومادة أسماهم . فقال لي إنه في الليلة التي احتفل فيها بزواج دون فرنندو من لوسنده بعد أن أجابت للقبول بالزواج منه قد أصابها إغماء طويل وأن زوجها حينما حلّ عنقه منها لتستنشق الهواء وجد بطاقة بخط لوسنده تقول فيها أنها لا يمكن أن تكون زوجة لدون فرنندو لأنها زوجة كردينو - وكردينو هذا فارس نبيل من نفس المدينة ، حسبما قال لي هذا الراوي - وإذا كانت قد وافقت على الزواج من دون فرنندو فما ذلك إلا لإطاعة أبويها . وفهم من هذه البطاقة فيما تضمّنته أن لوسنده قد قرّرت الانتحار عند إتمام مراسم الخطبة وأبدت حجبها التي تحملها على التخلص من الحياة . وهذه النية قد تأيّدت - فيما قيل - بوجود خنجر أخفته تحت ملابس زفافها . هنالك أدرك دون فرنندو أن لوسنده قد عبثت به وأهانتته . فانقضّ عليها قبل أن تفيق من إغوائها ، وأراد أن يطعنها بنفس الخنجر الذي وجدوه في صدرها . وكان على وشك أن يطعنها لولا أن منعه من ذلك أهل والحاضرون . ويضاف إلى هذا أن دون فرنندو خرج في الحال ، وأن لوسنده لم تفق من إغمائها إلا الغداة ، ولما أفاقت قصّت على أبويها كيف أنّها الزوجة الحقيقية لكردينو هذا الذي ذكرته . وعلمت بذلك ، من الشائعات الرائجة ، أن كردينو اكتشف وجوده حاضراً مراسم الخطبة ، ولما رأى سيدته قد عقد قرانها - وهو أمر لم يكن يعتقد أنّه ممكن - غادر المدينة يائساً ، بعد أن كتب رسالة اشتكى فيها من الإهانة التي أصابته بها لوسنده ، وأعلن أنّه لن يعود . كل هذا كان حديثاً شائعاً في المدينة ، ولم يكن للناس حديث غيره . وزاد الحديث سعة لما علم الناس أنّ لوسنده اختفت من منزل أبيها ، ومن المدينة نفسها ، فقد بحثوا عنها عبثاً في أنحائها ، حتى فقد أهلها صوابهم ، لما أعيتهم الذرائع للبحث عنها . فزادت كل هذه الأخبار في آمالي ، واعتقدت أنّ عدم عثوري على دون فرنندو أشدّ

إبهاجاً من العثور عليه متزوجاً . وبدأ لي في الواقع أن مصيبيتي ليست بغير دواء ، وحاولت إقناع نفسي أنه ربما وضعت السماء هذه العقبة غير المتوقعة أمام هذا الزواج الثاني كيما يتذكر عهوده بالنسبة الى الزواج الأول ولحملة على التفكير في أن مسيحي يهمله خلاص روحه أكثر من كل الإعتبارات الانسانية . وأدريت هذه الخواطر كلها في رأسي ، وأنا أواسي نفسي دون أن يكون ثم داعٍ للمواساة ، وأحلم بالأمال البعيدة لأقوى على حياة صرت الآن أمقتها .

« وبينما كنت أتجول في المدينة دون أن أعرف ماذا أقرّر ، لأنني لم أقابل دون فرندو ، سمحت الصانح العام يعلن في الطرقات عن مكافأة سخية لمن يعثر عليّ أنا ، ذاكرًا أوصافي ، سنّي وقامتي وملابسي . وسمعتهم يقولون إن الخادم الذي صحبني قد اختطفني من منزل أهلي . وهذه ضربة جديدة نفذت الى صميم نفسي ، إذ رأيت الى أي درك من الانحطاط هبطت سمعتي وأنا في حالة من اليأس بالغة ، فلم يكفر أنني فقدت سمعتي بهروبي بل زاد الأمر نكراً بأن جعلوا شريكي في ذلك شخصاً وضع المنزل لايمكن أن يخطر ببالي أن أهرب معه . فلم أكد أسمع هذا الإعلان حتى تركت المدينة يتبعني خادمي ، وبدأ خادمي يدي تردّد في الإخلاص المطلق الذي تعهد لي به . وفي الليلة نفسها نفذنا الى أعماق هذه الجبال خشية أن يكتشف أحد من الناس أمرنا . ولكن المصائب تتداعى ، كما يقولون ، ونهاية مصيبة هي في العادة بداية لمصيبة أكبر . وهذا ماحدث لي ، إذ لم يكد خادمي الطيب الذي كان حتى ذلك الوقت أميناً وفيّاً يخلو بي في هذه القفار حتى أراد انتهاز الفرصة التي هيأتها له خلوتنا المطلقة ، مدفوعاً بنزائله أكثر من أن يكون مدفوعاً بمفاتيحي . ودون توقير لشخصي أو خشية من الله ، تجاسر على أن يوجّه اليّ عبارات قبيحة ، ولمّا رأي أرفض عباراته الوقحة بازدرأ بالغ ، توقّف عن التضرعات التي بدأ محاولاته بها ، وراح يستعمل القوة معي . ولكن السماء العادلة التي تأتي بالعون لذوي النوايا الطيبة ولا تبخل عليهم بالنجدة إلا نادراً ، قد أعانتني حتى استطعت رغم قلة قوتي أن أدفع به في هاوية تركته فيها ، حياً أو ميتاً لست أدري . وهذا دون كبير مشقة . وفي الحال نفذت الى أعماق هذه الجبال بأسرع مما بدا أن التعب والخوف يسمحان به ، دون غرض آخر غير الاختفاء فيها والنجاة من أهلي أو ممن يبعثون للبحث عني . ويرجع هذا كله الى قبل عدة أشهر . وسرعان ماالتقيت براعي قطعان حسبني راعياً واقتادني الى قرية صغيرة في قلب الجبل . وبقيت في خدمته حتى ذلك الحين ، عاملة على البقاء في البرية طوال النهار حتى أخفي هذا الشعر الذي كشف لكم عن حقيقتي دون أن أعلم . لكنّ مهارتي

وحرصني ذهباً هباءً في النهاية . إذ اكتشف سيدي أنني لست صبيّاً ، وأحسنَ بنفسِ
الشهوات الأثيمة التي دارت في نفس خادمي . ولكنّ الحظ لا يعطي وسيلة الخلاص دائماً
الى جانب الخطر ، ولم أجد هاوية ألقى فيها سيدي بعد أن القيت في مثلها خادمي ،
فوجدت أنّ الأفضل أن أهرب واختفيت مرة أخرى في هذه القفار الموحشة ، بدلاً من أن
امتنح مع قواي أو انتهاري له . فعدت إذن أبحث ، في هذه الصخور والغابات ، عن مكان
أستطيع فيه أن أبت - دون خطر - شكاتي الى السماء وأذرف دموعي ، وأسترحمها أن
تعطف عليّ في محنتي ، وأن تهنيّ إحدى الحسنيين : فإمّا أن تنهي حياتي ، أو تدعها
طليقة في هذه الخلوات حيث تدفن ذكرى منكودة كانت - عن براءة - موضوعاً لللسن
السوء تنتاش سمعتها » .

الفصل التاسع والعشرون

في الحيلة اللطيفة التي بذلت لاستخلاص فارسنا العاشق
من المجاهدات القاسية التي كان يقوم بها

« هذه ، يا سادتي ، القصة الحقيقية لمغامراتي الأليمة . فشاهدوا واحكموا الآن ما إذا كانت الزفرات التي سمعتموها تنبعث من كلماتي ، والدموع التي شاهدتموها تنحدر من عيوني كان ثم ما يبرر انطلاقتها بغزارة . إذا نظرتم في طبيعة محنتي فسترون أن كل تعزية لاطائل تحتها ، لأن العلاج مستحيل . لهذا لست أسألکم إلا أمراً واحداً من السهل عليكم أن تحققوه لي ، ألا وهو : أن تدلوني على موضع أستطيع أن أقضي فيه عمري دون أن أتعرض لفقده في كل لحظة بسبب الخوف ودواعي الاضطراب ، لأنني أخشى أن يعثر عليّ الذين يباحثون عني . نعم أنا أعلم جيداً أن حنان والديّ عليّ حنان بالغ يجعلهما يحسنان استقبالتي ، بيد أنني أشعر بعار شديد من مجرد تفكيرتي في أنني سأبدو في حضرتكما على غير ما كان يأملان ، حتى أنني لأفضل أن أبعد عنهما نهائياً عن أن أقرأ في سيماهما أنهما لم يعودا يشهدان في وجهي الطهارة والبراءة اللتين كانا ينتظرانهما من ابنتهما » .

ولما أتممت هذه الكلمات سكنت ، وعلت وجهها حمرة أظهرت بجلاء ما امتلأت به نفسها من أحزان واضطراب . أما الذين استمعوا إلى قصتها فقد أحسوا في أعماقهم بالعجب والشفقة . وأراد القس المبادرة إلى مواساتها وتُصحبها ، ولكن كردنيو سبقه وقال :

ـ ما هذا يا سيدتي ! أنت دوروتيه الجميلة ، الابنة الوحيدة لكلينر دوالثري ! فدهشت دوروتيه لما سمعت اسم أبيها وشهدت ضالة مظهر من نطق به ، فنحن نعلم كيف كان ملبس كردنيو آنئذ .

فقالت دوروتيه : من أنت يا أخي حتى تعرف اسم أبي ؟ إنني لم أذكر اسمه مرة واحدة خلال حديثي كله ، إذا لم تخفي الذاكرة .

فقال كردنيو : أنا ذلك البائس الذي قالت عنه لوسنده أنه زوجها ، حسبما قلت

ياسيديتي ، أنا كردنيو البائس الذي وضعه غدر من ألقى بك في هذه الحال - وضعه في الحال التي ترينني عليها الآن : عارياً ممزقاً ، محروماً من كلّ عزاء على الأرض ، وأفزع من هذا محروماً من العقل ، لأنني لأملك عقلي إلا في اللحظات القليلة التي تشاء السماء أن تجعلني أنعم به فيها . أجل يادوروتيي ، أنا شاهد سفالات دون فرنندو وضحيّتها ، أنا الذي انتظرت حتى نطقت لوسنده بقبولها القاتل الزواج من دون فرنندو ، ولكنني لم أكن من الشجاعة لانتظر حتى أرى الى أي شيء سينتهي إغماؤها وأرى اكتشاف البطاقة التي أخفتها في صدرها ، وذلك لأنّ روحي لم يكن فيها من القوة ماتستطيع معه احتمال هذه المصائب كلّها دفعة واحدة . لقد غادرت المنزل لما أن عيّل صبري وتركت لصاحبي كتاباً رجوته أن يسلمه الى لوسنده يداً بيد ، وجئت الى هذه القفار على قصد أن أنهى فيها حياتي ، حياتي التي صارت منذ ذلك الحين وكأنّها ألد أعدائي . لكنّ السماء لم تشأ أن تنتزع منّي حياتي ، واقتصرت على أن انتزعت منّي عقلي ، ولعلّها احتفظت بي لألّفاك اليوم . لأنّ إذا كان كل ما قلته صحيحاً - وهذا ما أعتقد - فمن الممكن أن تكون السماء قد هيأت لكلينا نهاية أفضل لمصائبنا ، أفضل مما كنا نظن . فإن صحّ أنّ لوسنده لاتستطيع أن تتزوج دون فرنندو ، لأنّها لي ، كما أعلنت ذلك بكل صراحة ، ولايستطيع دون فرنندو الإقتران بها لأنه لك ، ففي وسعنا أن نرجو أن تعيد لنا السماء ما هو لنا ، لأن هذه الأشياء لاتزال موجودة لم تتحطّم ولم يمتلكها الغير . والآن وقد بقيت لنا هذه السلوى غير المستندة الى خيالات جنوبية وأماني وهمية فأني أتضرّع إليك ياسيديتي أن تتخذي في خاطرك قراراً جديداً شبيهاً بالقرار الذي أفكر في أن أتخذه لنفسي ، وأن تقتصري على الأمل في مستقبل أفضل . أمّا عن نفسي فأني أقسم بشرفي وديني ألا أتركك قبل أن تُردّي الى دون فرنندو . فإن لم أستطع إقناعه بأن يعترف لك بحقوقك عليه ، إقناعه بالحسنى والبرهان ، فسأستعمل برهاناً آخر يملّيه مركزي بوصفي رجلاً مهذباً ، وذلك أن أدعوه لمبارزتي بسبب ما أصابك به من غير سبب ، دون أن أتذكر إهاناته لي ، تلك الإهانات التي أترك عقابه عليها للسماء ، حتى لأشغل نفسي إلا بالانتقام من إهاناته لك على الأرض » .

وزاد كلام كردنيو هذا من دهشة دوروتيي فلم تدر كيف تشكر له تطوعه لخدمتها حتى كادت أن تجشو عند قدميه وتقبلهما ، بيد أنّ كردنيو منعها من ذلك . وتكلّم عنها حامل الإجازة ، فحبّذ مشروع كردنيو وأقنعهما - بالنصح والرجاء - أن يصحباها الى قريته للتزود بأشياء تنقصهم والاتفاق على خطة للبحث عن دون فرنندو وإعادة دوروتيي الى منزل أهلها . أو عمل أنسب الأشياء في هذا الموقف - فوافق كردنيو ودوروتيي على ما اقترحه شاكرين .

والحلاق الذي اعتصم بالصمت حتى ذلك الوقت ألقى هو الآخر كلمة صغيرة وتطوَّع عن طيب خاطر لخدمتهما قدر ما يستطيع . ثم قصَّ بإيجاز السبب الذي دعاهما الى الحضور الى هذا المكان ، وجنون دون كيخوته الغريب ، وهما كانا في انتظار حامل سلاحه الذي أرسله بحثاً عنه . هنالك تذكَّر كوردينو - وكأنه في حلم - تذكَّر النزاع الذي وقع له مع دون كيخوته ، وروى هذه الحادثة دون أن يستطيع أن يبيِّن سبب هذا النزاع . وفي هذه اللحظة سمعت نداءات ، تعرَّف فيها القس والحلاق صوت سنشو بنثا الذي لم يجدهما في المكان الذي تركهما فيه فراح يناديهما بأعلى صوته . فذهبا جميعاً لملاقاته ، ولما سألهما باهتمام عن أنباء دون كيخوته ، روى لهما سنشو كيف وجد مولاه ، عارياً عليه قميص فقط ، جاف العود ، منقوف البدن ، شاحب اللون ، يموت من الجوع ، ولكنَّ يتنهد دائماً من أجل سيدته دلثنيا . وأضاف :

- « ولقد قلت له إنها تأمره بمغادرة هذا المكان والذهاب الى توبوسو حيث تنتظره ، فأجابني أنه لا يريد المثل أمام مفاتنها قبل القيام بمجاهدات خطيرة تجعله جديراً برضاها السامي . ولكن الواقع أنه إذا استمر مولاي في هذه المجاهدات أكثر من هذا فإنه يخشى عليه ألا يصبح إمبراطوراً كما أخذ على عاتقه أن يكون ، بل وألاً يصبح رئيس أساقفة وهو أقل منصب يليق به . فانظروا إذن في الوسيلة التي يمكن بها انتزاعه مما فيه » .

فقال حامل الإجازة لسنشو لعليه من هذا ، وإن من السهل انتزاع مولاه من مجاهداته تلك ، مهما يكن غيظه من ذلك . وفي الحال قصَّ على كوردينو ودوروتي الوسيلة التي اتخذها لعلاج دون كيخوته ، أو في القليل لإعادته الى بيته . هنالك تطوَّعت دوروتي عن طيب خاطر لتمثل دور السيدة المحزونة ، فهي تقوم بهذا الدور خيراً من الحلاق ، فمعها ملابس نساء تهتئ لها تمثيل ذلك بصورة طبيعية ، وقالت إن في وسعهم الإعتماد عليها في مهمة تمثيل هذه الشخصية ضماناً لنجاح الخطة ، لأنها قرأت الكثير من كتب الفروسية وتعرف الأسلوب الذي به يخاطب الأنسات المحزونات الفرسان الجواله حينما يطلبن اليهم القيام بمهمة . فقال القس :

- « حسنأ! ماعلينا إلا الشروع في التنفيذ فوراً ، والحق أن الحظ معنا ، إذ لم تخطرا أنتما في بالنا أبداً ، وهاهو ذا يبسم الحظ لنا فيفتح للأمل باباً ويوجد لنا فيكما العون الذي كنا في حاجة إليه » .

هنالك انتزعت دوروتي من الحزمة التي تحملها غلالة من النسيج الفاخر الدقيق وشالاً من الديباج الأخضر ، كما أخرجت من مثبتتها عقداً من اللؤلؤ وجواهر أخرى . وفي لحظة

تزينت حتى بدت سيدة جلييلة غنية . وكل هذه الأثواب قد حملتها - فيما قالت - من منزل أهلها لاستخدامها عند الحاجة ، لكن لم تتح لها الفرصة حتى ذلك الوقت لاستخدامها . فسحرتهم جميعاً بكامل لطافتها وروعة جمالها ، وحسبوا دون فرندو رجلاً مأفوناً لرفضه هذه المفاتن كلها . وأكثرهم دهشة وإعجاباً كان سنشو پنشا ، فإنه لم يشاهد أبداً طوال حياته مخلوقاً بهذا الجمال . لهذا بادر يسأل القس من هذه الحسناء وعمّاذا تبحث في هذه القفار . فقال القس :

- هذه الحسناء ، يا صديقي سنشو ، هي الوريثة المباشرة ، أباً عن جد ، لمملكة ميكوميكون الواسعة الأرجاء ، وقد جاءت للبحث عن مولاك لترجوه أن يمنحها فضل القيام برد إهانة أصابها بها مارد غدار . وقد جاءت هذه الأميرة تسعى من شواطئ غينيا للبحث عن مولاك بعد أن طبقت شهرته الآفاق بوصفه فارساً مجيداً .

فصاح سنشو نشوان ، ما أجمل السعي ، وأروع اللقبة ! خصوصاً إذا حالف الحظ مولاي فانتقم لهذه الإهانة ورد الاعتبار ، فقتل هذا المارد الشرير العجيب الذي ذكرته . وأيم الله إنه لقادر على قتله اللهم إلا إذا كان شبحاً ، لأن مولاي لا يقوى على الأشباح . ولكن ياسيدي أطلب منك خدمة . وذلك أنه منعاً من أن يخطر ببال مولاي أن يصبح رئيس أساقفة - لأن هذا هو كل ما أخشاه - فإنك تحسن صنعاً لو نصحتة بالإقتران فوراً بهذه الأميرة ، وبهذه الطريقة يستحيل عليه أن يرسم رئيس أساقفة ، ويقتنع بسهولة بالإكتفاء بمنصب امبراطور ، وهذا هو غاية ما أتمناه . وبصراحة أقول لك إنني فكرت في الأمر جيداً وحسبت لكل شيء حساباً فوجدت أنه ليس من مصلحتي أن يكون مولاي رئيس أساقفة ، ذلك لأنني لا أصلح لشيء في الكنيسة ، لأنني متزوج ، وقيامي بالسعي والإنفاق الآن من أجل الحصول على معاش من الكنيسة ، وعندى امرأة وأولاد ، هذا أمر سيطول الى غير نهاية . وعلى هذا فزبدة المسألة يا سيدي هي أن يتزوج مولاي في الحال بهذه السيدة التي لا أستطيع أن أسميها باسمها لأنني لا أعرفه بعد ، فقال القس : اسمها الأميرة ميكوميكونا ، لأن مملكتها تسمى ميكوميكون ، فمن الواضح أن اسمها يجب أن يكون كذلك .

فقال سنشو : بلا شك ، وقد شاهدت ناساً يتخذون أسماء أسرهم من المكان الذي ولدوا فيه ، فيسمون : بدرو القلعي أو خوان الأبدي Juan de Ubeda أو ديجو البلدوليدي ، ولا بد أن يكون العرف جارياً كذلك في غينيا ، فتتخذ الملكات أسماء الملكة . فقال القس : هذا محتمل . أمّا عن زواج مولاك ، فاعلم أنني سأبذل كل ما في وسعي من بلاغة للوصول الى تحقيقه .

ورضي سنشو بهذا الوعد تماماً كما دهش القس من سذاجته ، وأدرك كيف أن عدوى جنون مولاه قد انتقلت الى سنشو بحيث اعتقد هذا فعلاً أن مولاه سيصبح امبراطوراً ذات يوم .

وأثناء هذا الحديث ، كانت دوروتيه قد امتطت صهوة بغل القس ، ووضع الحلاق في ذقنه لحية من ذيل البقرة . ثم طلبوا من سنشو اقتيادهم الى حيث يوجد دون كيخوته بعد أن حذروا سنشو وأكدوا عليه ألا يبدو عليه مايدل على أنه يعرف القس والحلاق ، ففي هذا ضمان نجاح السحر الذي سيجعل مولاه امبراطوراً . أما القس وكردنيو فلم يرغبوا في صحبتهم ، كردنيو خوفاً من أن يتذكر دون كيخوته النزاع الذي وقع له معه ، والقس لأنه لم يكن ثم فائدة من حضوره آنذاك . لهذا تركا الآخرين يسبقونهما ، وتبعاهم على الأقدام دون إسراع . ورأى القس من الأفضل تلقين دوروتيه دورها ، ولكن هذه طمأنته من هذه الناحية وأكدت له أن كل شيء سيسير تماماً وفقاً للأوصاف الواردة في كتب الفروسية .

وبعد أن سارت وصاحبيتها ثلاثة أرباع فرسخ ، اكتشفوا دون كيخوته بين مجموعة صخور متكاثفة ، وقد لبس ملابس دون سلاحه . فلم تكذب دوروتيه تلمحه وتعرف من سنشو أنه دون كيخوته حتى حثت فرسها المطمئن يتبعها الحلاق بلحيته . ولما اقتربوا منه وثب السائس من فوق بغلته وأخذ دوروتيه من بين ذراعيها فنزلت الى الأرض بخفة ورشاقة ، وألقت بنفسها عند قدمي دون كيخوته ، وهي تتحدث إليه بهذا الكلام ، - كلاً ، لن أنهض من مكاني هذا ، أيها الفارس الشجاع المروء ، إلا إذا شاء فضحك السابغ أن تمنحني فضلاً يزيد من شرفك وعلو صيتك ويفيد أنسة أهبت أبلغ إهانة ولن تنفع فيها السلوى ، فإن كانت قوة ذراعك التي لا تقهر جديرة بصوت شهرتك الخالدة ، فأنت مضطر الى أن تهبط لنجدة فتاة بائسة جاءت من أقاصي الدنيا اقتفاء لصيتك الذائع لتجد لديك علاجاً لمصائبها .

فقال دون كيخوته : أيتها السيدة الحسناء النبيلة لن أجيب بكلمة ولن أسمع شيئاً مما جرى لك قبل أن تنهضي من الأرض . فقالت الأنسة المنكودة : وأنا لم أنهض قبل أن يتعطف عليّ أدبك فتمنحني ماأنا طالبة .

فأجابها دون كيخوته : منحتك سؤالك ، بشرط ألا يكون في تحقيقه ما يضر أو يسيء الى شرف ملكي ووطني وتلك التي بيدها مفتاح قلبي وحرّيتي . فقالت الأنسة المحزونة : كلاً ، لن يضر أو يسيء الى شرف أحد ممن ذكرت .

وكانت على وشك استئناف كلامها حينما اقترب سنشو من أذن سيده وهمس له فيها قائلاً :

- سيدي! إن سيادتك تستطيع أن تمنحها ما تطلبه ، فما تطلبه أمر تافه جداً ، وهو أن تقتل مارداً ثقيلاً ، والتي تطلب إليك هذه الخدمة هي الأميرة السامية القدر ميكوميكونا ، ملكة دولة ميكوميكون العظيمة في الحبشة .

فقال دون كيخوته : أيأ من كانت فإنني سأفعل ما يمليه عليّ الواجب والضمير وفقاً لقواعد مهنتي .

ثم اتجه الى الأنسة بالحديث قائلاً : فلينهض جمالك الرائع ، فقد منحتك كل ما يلزم له أن يطلبه .

فقالت الأنسة : إن ما أسألك هو أن يتفضل شخصك العظيم فيأتي معي فوراً الى حيث أقتاده وأن يعدني بعدم الدخول في أية مناصرة ولا يتدخل في أية مشاجرة قبل أن يشار لي من خائن اغتصب ملكي ، بغير حق من حقوق الأرض والسما .

فقال دون كيخوته : أعود فأؤكد أنني أمنحك سؤالك ، وفي وسعك ياسيدي أن تمسحي الحزن عن وجهك وتجدي أملك المتداعي . فبعون الله وبفضل ساعدي هذا ، ستعودين قريباً الى مملكتك وتجلسين على عرش دولة أجدادك العظيمة ، رغمًا عن كل الأوغاد الذين قد يقفون في الطريق . هيا بنا إذن الى العمل ، ففي التأخير يكمن التقصير ، كما يقول المثل .

هنالك تظاهرت الأنسة الراجية عونه بالرغبة في تقييل يده ، ولكن دون كيخوته . وكان في كل مناسبة فارساً نبيلاً مهذباً - لم يوافق على هذا أبداً . بل أنهضها وعانقها باحترام ، وأمر سنشو بشد السرج على روثينانته وأن يحضر له سلاحه في الحال . فانتزع حامل سلاحه الأسلحة وكانت معلقة كالغنيمة على فروع شجرة سنديان . وبعد أن رتب السرج على الدابة ألبس مولاه سلاحه في لحظة . فلما اكتمل له سلاحه صاح :

- هيا بنا لنجدة هذه الأميرة الجليلة ، بعون الله .

أما الحلاق فكان لا يزال راكعاً ، حريصاً على ألا ينطلق بالضحك أو تسقط لحيته منه ، خوفاً من أن يؤدي سقوطها الى إخفاق خطتهما الحكيمه هذه . فلما رأى أن دون كيخوته تفضل بالمنحة وكيف تهياً دون كيخوته للتنفيذ بكل حماسة ، نهض وأخذ سيده من يدها ، وحملها الى كاهل البغلة بمساعدة الفارس دون كيخوته الذي امتطى صهوة روثينانته بكل رشاقة ، واستقام الحلاق على ظهر دابته ، أما سنشو المسكين فقد ظل على قدميه مما جدد في أحزانه وأشعره بمصابه في فقد حماره . ولكنه صبر وتجلد ، إذ بدا له أن سيده قد أوشك

أن يصبح إمبراطوراً ولم يعد لديه أدنى شك في أن دون كيخوته سيقتربن بالأمية ، وبهذا يصبح على الأقل ملكاً لمملكة ميكوميكون . ولكن هناك شيئاً واحداً أزعجه : ألا وهو أن هذه المملكة في بلاد الزنوج وأن القوم الذين سيصبحون أتباعه كلهم سود . ولكن خياله سرعان ما أسعفه وقال لنفسه : ماذا يهمني إن كان كل أتباعي زنوجاً ؟ ماذا عليّ حينئذ أن أفعل - اللهم إلا أن أحزمهم جميعاً وأبعث بهم إلى اسبانيا حيث أستطيع بيعهم بالدنانير الرثانة ؟ وبهذا المال اشترى لقباً أو وظيفة تكفل لي العيش بقية عمري دون هموم . هذا هذا ! أو تظن أن ينال المرء ، ملء جفنيه ولا يكون لديه ذكاء ، ولا قريحة للإفادة من الظروف واستغلال هذه المسألة ، وبيع ثلاثين أو عشرة آلاف تابع كما يحرق الإنسان حزمة من القش ؟ أه ! أتياً من كنت ، صغيراً أو كبيراً ، فإن في وسعي أن أنجح بهذه المسألة ، وأن أحيلهم في جيبي إلى بيض أو صفر ، حتى لو كانوا سوداً مثل روح ابليس . تعالوا ، تعالوا ، وسترون إذا كنت أمص إصبعي^(١) .

ومشى سنشو مليئاً بهذه الأحلام مشغولاً بها راضياً رضى أنساء تعب المشي على الأقدام .

هذا المشهد الغريب كله قد ظلّ كوردنيو والقس يراقبانه من خلال الأعشاب ولا يدريان أية حيلة يتذرعان بها للانضمام إلى سائر الركب . ولكن القس ، وكان واسع الحيلة ، سرعان ما تنبه إلى ما يمكن تدبيره للخروج من هذا المأزق . فأخذ مقصاً كان معه وحلق لحيته كردنيو بعناية ، ودقّر بمعطف أسمر كان يلبسه وألبسه بنية سوداء ، ولم يحتفظ لنفسه إلا بسرّوالة وصدريته . فتغيّرت هيئة كردنيو بهذا الملابس تغيّراً لو شاهده في مرآة لأنكره ، ولما أتى ذلك وعلى الرغم من أن الركب قد سبقهما بمسافة طويلة ، فقد استطاعا الوصول إلى الطريق العام قبلهم ، لأن الصخور والحشائش الغليظة كانت تعترض الطريق فلا تسمح للراكبين بالسير بسرعة الراجلين . ولما وصلا إلى السهل توقفا عند مخرج الجبل ، ولم يكد القس يلمح دون كيخوته مصحوباً بمن معه قادماً حتى تفرسه بدقة ، وأبدى حركات من يحاول تعرّفه . وبعد أن تفحصه طويلاً ، أقبل عليه بذراعين مفتوحتين وهو يصيح بأعلى صوته :

— أهلاً وسهلاً بمرآة الفروسية مواطني دون كيخوته المنتشاي ، زهرة الشهامة وزبدتها ، وعماد المحزونين ودرعهم الواقى ، وخالصة الفرسان الجوّالة .

(١) كناية عن بلاهته ، أي أنه ليس أبه إلى هذا الحد .

وكان وهو يقول هذا الكلام يعانق ركبة دون كيخوته اليسرى ، فبهت دون كيخوته مما فعله هذا الرجل وراح يتفرسه باهتمام ، وأخيراً تعرّفه من هو .
ودهش دون كيخوته دهشة عجيبة من عثوره على القس في هذا المكان ، وسرعان ما حاول النزول من فرسه ، لكنّ القس لم يوافق . فقال دون كيخوته :
- سيّدي صاحب الإجازة! دعني أنزل ياسيّيدي ، فلا يليق بي أن أظل على صهوة جوادي ، بينما فضيلتك راجل .

فقال القس : لا أقبل ذلك أبداً ، بل جلالتك يبقى على صهوة فرسه ، لأن جلالتك إنما يواجه أعظم المغامرات ويقوم بأخطر الأعمال التي عرفها عصرنا هذا وهو ممسط صهوة جواده . أمّا أنا ، القس الحقيق ، فيكفيني أن أركب ردفاً على بغلة أحد هؤلاء السادة الذين يسيرون في موكب جلالتك ، إن تفضّلوا وتنازلوا ، وسأعتقد أنني أركب الفرس بيجاس^(١) أو حمار الوحش الذي كان يحارب عليه المراكشي الشهير مُزْرَق الذي لا يزال يوجد مسحوراً في كهف سليمة بالقرب من مدينة كومبلوتو^(٢) .

فقال دون كيخوته : لم أنتبه لهذا ، أي سيّدي صاحب الإجازة ، ولكنّي متأكّد أن الأميرة الجليلة ستوافق - إرضاء لي - أن تأمر سائسها أن يتنازل لسيادتك عن ظهر بغلته وأن يكتفي بالإرتداد خلفك ، مادامت الدابة تحتمل ركوب اثنين .

فقالت الأميرة : نعم ، فيما أحسب . ولكنّي أعلم أنه ليس من الضروري إعطاء أوامر للسائس ، لأنه من الأدب والتّهذيب والعلم بقواعد المروءة بحيث لا يرضى أن يمشي رجل الدين على قدميه مادام يستطيع الركوب .

فقال الحلاق : طبعاً ، لا - ثم نزل من البغلة ، وعرض على القس أن يركب . فوافق القس دون إطالة في المجاملات . ولكن المصيبة هي أن البغلة كانت بغلة في الأجرة ، أي أنها بغلة رديئة . فلمّا أراد الحلاق أن يرتدّف قمصت ورفست رفستين لو أصابتا بطن الاسطى نقولا أو رأسه للعن ميلاد دون كيخوته . على أنّ هاتين الرفستين قد هزّته بعنف حتّى سقط على الأرض بشدّة ، دون أن يهتم بلحيته ولهذا سقطت منه اللحية من الجانب الآخر . فلمّا رأى أنه أضاع لحيته لم يجد خيراً من أن يخفي وجهه بكفّيه ويشكو من أنّ الدابة اللعينة قد حطّمت فكّيه . ولمّا شاهد دون كيخوته هذه الحزمة من الشعر وليس معها

(١) بيجاس Pegasus فرس أسطوري مجنّح ، صعد إلى السماء وتحول إلى مجموعة كواكب تحمل اسمه .

(٢) عند الجنوب الغربي من كومبلوتو الكبرى (قلعة هنارس ، موطن ثرينتش) توجد رابية كبيرة تسمى سفح سليمة كانت الموقع الأصلي القديم لمدينة كومبلوتو القديمة ، كما تشهد على ذلك الآثار الباقية .

لحم ولا دم وقد قذف بها بعيداً عن وجه السانس ، صاح : - الله أكبر ، هذه معجزة كبرى !
لقد نزعتم منه اللحية من الذقن كالشعرة من العجين !

هنالك بادر القس - وقد خشي على لحيته أن تفتضح - بجمع أشتات اللحية وحملها الى
حيث يرقد الاسطى نقولا وكان هذا لا يزال يصرخ صرخات مخنوقة ، وحمل رأسه الى بطنه
ورتب له اللحية بعقدة واحدة وهو يتمم ببضع كلمات قال أنها تعويذة مفيدة جداً في
استرداد اللحية . والواقع أنه لم يكذب يلصق الذيل (اللحية) حتى ابتعد ، وشوهد السانس
سليماً معافى ذا لحية كما كان من قبل . فدهش دون كيخوته كل الدهشة من هذا العلاج ،
والتمس من القس أن يعلمه هذه التعويذة ، حينما يتهيا الوقت ، فلا بد أن يكون تأثيرها
أكبر من مجرد لصق اللحي ، إذ من الواضح أنه إذا انتزعت اللحية جرح اللحم ، فإذا كانت
التعويذة قد عالجت الكل فيجب أن تكون نافعة في اللحم كما في الشعر سواء بسواء .
ورافاه القس على رأيه ، ووعد به بأن يعلمه التعويذة في أول فرصة تسنح .

هنالك تقرر أن يركب القس وحده على البغلة ، ومن حين الى حين يتناوب الحلاق
وكردنيو الركوب عليها مكان القس ، الى أن يصل الركب الى الفندق ، وهو على بعد
فرسخين . ثلاثة إذن كانوا راكبين : دون كيخوته ، والقس ، والأميرة ، وثلاثة كانوا راجلين
هم كردنيو والحلاق وسنشو بنشا . وقال الفارس للأميرة : « اقتادينا جلالتك الآن حيث
تشانين » . ولكن قبل أن تجيب تكلم حامل الإجازة (القس) فقال : « الى أي مملكة تريد
عظمتك اقتيادنا ؟ الى مملكة ميكوميكون ؟ هذا ما يخيّل لي ، وإلا فأنا قليل البضاعة من
العلم بالممالك » . وكانت دوروثيه حاضرة البديهة ، ففهمت بماذا تجيب ، وقالت : « نعم
ياسيدي ، إنني متوجهة الى تلك المملكة » . فقال القس : « في هذه الحالة ، لابد من المرور
خلال قريتنا ، ومن هناك نسلك طريق قرطاجنة ، حيث يمكنك الإبحار باسم الله وفي
حفظه ، فإن جرت الرياح بما نشتهي وكان البحر هادئاً والسماء بلا عواصف ، فيمكن في
مدى تسع سنوات أو أقل قليلاً أن تبصري بحيرة ميونا العظيمة ، أقصد ميوتيدس ، التي
لا تبعد إلا مائة يوم عن الطريق الى مملكة عظمتك » .

فكانت : يخيّل الي ياسيدي أنك أخطأت ، لأنه لم تمض بعد سنتان على مغادرتي
لمملكتي ، ودون أن يكون الجو ملائماً ، ورغم ذلك فقد بلغت أربي بقاء ، قبله آمالي أعني
السيد دون كيخوته المنتشاي الذي ملأت شهرته أسماعي منذ أن وصلت الى اسبانيا . وإن
الضجة التي أثارها مغامراته هي التي حملتني على البحث عنه لألقي بأمرى الى مروءته وأودع
عدالة قضيتي بين ذراعي شجاعته التي لا تقهر .

فصاح دون كيخوته : عفواً ، عفواً ، مولاتي ، كفى إطرأً لشخصي ، فأنا أكره كل أنواع الملق ، وعلى الرغم من أنك لا تقصدين ملقي ، فإن هذه العبارات تخذش مع ذلك حياء أذني . كل ما أستطيع أن أقوله يامولاتي ، سواء أكان لدي شجاعة أو ليس لدي ، هو أن مالدي أو ماليس لدي منها سأضعه في خدمتك حتى الممات . وندع هذا لأوانه ، ولكني أرجو السيد حامل الإجازة أن يتفضل فيذكر لي السبب الذي دفع به الى هذا المكان ، وحده بغير خادم ، لابساً لباساً خفيفاً يخيفني .

فأجاب القس : « أجيبك عن هذا السؤال بإيجاز . اعلم ياسيدي دون كيخوته أنني أنا والاسطى نقولا ، صديقنا الحلاق ، كنا بسبيل الذهاب الى اشبيلية لاستلام مبلغ من المال أرسله الى أحد أقاربي الذي ارتحل الى الهند الغربية ، منذ عدة سنوات ، وهو مبلغ لا يستهان به ، لأن قيمته ستون ألف قطعة فضية . ولما اجتزنا هذه المنطقة النائية بالأمس فاجأنا أربعة لصوص أشرار اغتصبوا منا كل شيء ، حتى اللحية ، نعم حتى اللحية ، الى حد أن الحلاق اضطر الى وضع لحية مستعارة ، أما هذا الفتى الذي يصحبنا (وأشار الى كاردنيو) فقد جردوه وتركوه كما ولدته أمه . وأعجب ما في الأمر هو أن الإشاعة تقول في هذه النواحي أن هؤلاء اللصوص الذين اغتصبوا أموالنا هم محكوم عليهم بالأشغال الشاقة أطلقوا سراحهم ، في هذا المكان نفسه تقريباً ، رجل شجاع جداً استطاع أن يخلصهم جميعاً رغماً من المندوبين والحراس . وليس من شك في أن هذا الرجل فقد عقله ، أو لعله مجرم عات لا يقل إجراماً عن أولئك الذين خلصهم ، رجل بلا روح ولا ضمير ، لأنه أراد أن يطلق الذئب بين الضأن ، والشعلب بين الدجاج ، والزئبار فوق العسل ، لقد أراد تحطيم عمل العدالة ، والتمرد على ملكه ومولاه فخرق أوامر العدالة ، أقول أنه أراد أن ينتزع من السفن الأذرع التي تحرّكها ، وأن يثير ثائرة الأخوة المقدسة التي ترقد في سلام منذ سنوات طوال ، وبالجملّة لقد أراد القيام بمغامرة فقد فيها روحه دون أن يكسب منها بدنه شيئاً » .

وكان سنشو قد روى للقس والحلاق مغامرة المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، تلك المغامرة التي خرج منها مولاه مكللاً بالمجد ، ومن أجل هذا حرص القس على تأكيد العبارات في هذه القصة حتى يرى ماسيفعله دون كيخوته أو يقوله . ولكن هذا الفارس كان لونه يتغير لدى سماعه كل كلمة من كلمات القس ولم يجزؤ على الاعتراف بأنه مرّر هذه العصبة الكريمة .

واستأنف القس قائلاً : هؤلاء هم الذين سلبونا أموالنا وجعلونا على هذه الحال . عفا الله برحمته الواسعة عمّن حال دون اقتيادهم الى العقاب الذي يستحقونه!

الفصل الثلاثون

في كياسة دوروتيه الجميلة وأمور أخرى لطيفة شائقة جداً

ولم يكد القسّ يتم كلماته حتّى قال سنشو ،
- سيدي صاحب الإجازة ، أوتعرف من قام بهذه المغامرة الرائعة ؟ إنه مولاي . ورغم ذلك فلم أقصر في تحذيره من عمله هذا ، فتلك خطيئة قاتلة أن يطلق سراحهم ، لأنهم محكوم عليهم بالأشغال بوصفهم من عتاة المجرمين .
فقال دون كيخوته : أيها المغفل ! هل من شأن الفرسان الجوّالة أن يحقّقوا فيما إذا كان المكروبون والمقيّدون والمضطهدون الذين يعثرون بهم في قارعة الطريق قد وقعوا في هذه الحال وتلك الآلام بسبب أخطائهم أو فضائلهم ؟ إنه ليس عليهم إلا أن يهرعوا لنجدتهم بوصفهم تعساء ، ولا يعينهم إلا إسعاف تعاستهم ، لا البحث في جرائمهم . لقد التقيت بطائفة من البائسين الفقراء ، المحزونين المتألمين ، ففعلت من أجلهم ما يقتضيه يمين الطريقة التي أتبعها . وليكن مايكون . فلو كان لأحد اعتراض - مع احترامي لقداسة صاحب الإجازة ولشخصه الكريم - فسأقول إنه لا يفهم شيئاً في أمور الفروسية ويكذب كذباً حنبريتاً ، وسأبرهن له على ذلك بالرمح والسيف ، راجلاً أو راكباً ، أو على أي وضع يختاره هو .

ولمّا قال هذه الكلمات الأخيرة شدّ مقعده على فرسه ووضع خوذته حتّى عينيه ، أما صحن الحلاقة - الذي كان يعده خوذة ممبرينو ، فقد علّقه على السرج ، انتظاراً لإصلاحه مما أصابه به المحكوم عليهم بالأشغال .

أمّا دوروتيه . وكانت راجحة الحصاة ذكية ، تعرف مزاج دون كيخوته الغريب ، وتعرف أنهم جميعاً يسخرون منه - فيما عدا سنشو پنثا - نقول : أمّا دوروتيه فلم تشأ أن تظنّ بمعزل عن هذه المساجلة ، فلمّا رأت الغضب في وجه دون كيخوته قالت :

- سيدي الفارس! لا تنس يا صاحب السعادة ما تفضلت فأنعمت به عليّ وتعهّدت به بشرفك وهو : ألا تدخل في أية مغامرة ، مهما تكن ملحة . فليهدأ قلبك الثائر ، ولو عرف صاحب الإجازة أن إطلاق سراح المحكوم عليهم بالأشغال قد تمّ على يديك الظافرتين ، لوضع إصبعه في فمه ثلاث مرّات ، بل لعصّ لسانه ثلاث مرّات ولا أن يتفوّه بكلمة تضايق سعادتك أقل مضايقة .

فقال القس : أوه! قسماً بالله على ذلك ، بل لكنت أيضاً قد انتزعت شاربي! فقال دون كيخوته : سأهدأ إذن ياسيّدتي . وسأطفي غضبتي العادلة التي اشتعلت في قلبي وألتزم الهدوء والسلام ، حتّى أفي بالعهد الذي قطعته لك . ولكن في مقابل هذه النية الطيبة أرجوك أن تتفضلي - إن لم يكن في هذا مايزعجك - فتذكرى موضوع شكواك ، ومن هم وما عدد الأشخاص الذين يجب عليّ أن أنتقم لك منهم انتقاماً عادلاً كاملاً . فقالت دوروتيّه : عن طيب خاطر أذكر لك ماتطلب ، إذا لم يكن يسوؤك سماع أخبار المصائب والشكاوي .

فأجاب دون كيخوته : كلاً ، أبداً .

فقالت دوروتيّه : إذن فليعرني مولانا سمعه .

ولم تكد تنطق بهذه العبارة حتّى وقف الى جانبها كردنيو والحلاق وهما متلهّفان لمعرفة كيف تصوغ دوروتيّه قصّتها المصنوعة ، وكذلك فعل سنشو ، وكان مثل مولاه مخدوعاً بشأن الأميرة . - أمّا هي فقد اعتدلت في ركوبها وسعلت واتخذت كل احتياطات الخطيب قبل أن يبدأ خطبته ، ثمّ أنشأت تقول بلطف وسهولة :

« سادتي ، قبل كل شيء أريد أن أخبركم أنني أدعى... » وهنا توقّفت لحظة ، وهي لم تعد تذكر الاسم الذي أطلقه عليها القس ، ولكنّ هذا فهم سبب تلعثها فهبّ لنجدتها وقال لها : « ليس بمستغرب ياسيّدتي أن تضطرب عظمتك في رواية مصائبها . فمن أثر الشقاء عادة أن ينتزع الذاكرة ممن أصابهم ، حتّي لينسوا أسماءهم كما حدث الآن لجلالتك ، إذ يبدو أنك لم تعودى تذكرين أنك الأميرة ميكوميكونا ، الوريثة الشرعية لمملكة ميكوميكون العظيمة . وبهذه الإشارة البسيطة يمكن عظمتك الآن تذكّر ماتشائين أن ترويه لنا » .

فقالت الأنسة : ماتقوله حق ، لكن يخيّل إليّ أنه لم يعد من الضروري بعد أن تخبرني أو تلقّني أي شيء ، وسأروي قصّتي على التمام . وها هي ذي : « كان السلطان أبي واسمه تينكريو الحكيم^(١) - متبحراً في علم السحر . وبفضل صنعته

(١) الحكيم هنا بمعنى : الساحر ، تماماً كما في عنوان كتاب المجريطي : « غاية الحكيم » .



الفصل الثلاثون : دون كيخوته ودوروتيه والحلاق

هذه اكتشف أن أمي - وتدعى الملكة خرملة - ستموت قبله ، وأنه سيموت بعدها بقليل ، فأصبح أنا يتيمة الوالدين . ورغم ذلك كان يقول إن هذا الخاطر لم يكن يزعجه بقدر ماأزعجه خاطر آخر وهو أنه كان يعلم علم اليقين أن مارداً عاتياً يسيطر على جزيرة كبيرة قريبة جداً من مملكتنا ، اسمه پندفلندو المظلم البصر(إذ تبين أنه على الرغم من أن عينيه في موضعهما الطبيعي ومستقيمتان ، فإنه ينظر دائماً عن عرض كأنه أحول ، وهذا مكر منه لإرهاب من ينظر اليهم) ، أقول أن أبي عرف أن هذا المارد حينما يعلم أنني أصبحت يتيمة ، سيأتي بجيش عرمرم للإنقضاخ على مملكتي ويتزعونها مني جزءاً جزءاً حتى آخرها ، بحيث لن أجد قرية بعد ألجأ إليها ، لكنني أستطيع تجنب هذه الكارثة وذلك الدمار إذا أنا وافقت على الإقتران به . وكان أبي يرى أنني لايمكن أن أوافق على هذا الزواج غير المتكافئ ، وهذا حق ؛ إذ لم يخطر ببالي قط أن أتزوج هذا المارد ولأبي مارد آخر مهما يكن عاتياً هركولاً . وقال أبي أيضاً أنه بعد أن يموت وأرى پندفلندو يبدأ في الإغارة على مملكتي لن أفكر أبداً في الدفاع وإلا كان في ذلك ضياعي ، بل سأتركه ينجزو مملكتي إذا أردت أن أجنب رعيتي الوفية الطيبة الموت والدمار ، لأنه من المستحيل أن أقاوم قوة هذا المارد الشيطانية . وأضاف أنه يجب عليّ حينئذ الإرتحال فوراً الى اسبانيا ، فهناك سأجد الدواء لمصائبي في شخص فارس جوال طبقت شهرته أفاق تلك البلاد ، اسمه - إن لم تخني الذاكرة - دون أسوطة أو دون خجوته^(١)... » .

فقاطعها سنشو بنشا قائلاً : إنه يقصد دون كيخوته ياسيديتي ، ويلقب أيضاً الفارس الحزين الطلعة .

فقال دوروتييه : نعم هذا هو ، وقال أبي عنه أنه فارغ القامة ، ساهم الوجه ، وفي جنبه الأيمن تحت الكتف اليسرى أو بالقرب من هناك عليه شامة سمراء اللون وحولها شعر كزغب الخنزير البري ،

هنالك قال دون كيخوته : اقترب مني ياسنشو يابني ، وساعدني على خلع ملابسي ، لأنني أريد أن أعرف ماإذا كنت الفارس المقصود في نبوءة هذا الملك الحكيم .

فقال دوروتييه : ولماذا تريد سيادتك التعري هكذا ؟

فأجاب دون كيخوته : لأرى ماإذا كانت عندي هذه الشامة التي ذكرها أبوك .

فقال سنشو : لاجابة بك الى التعري من أجل ذلك ، فأنا أعلم جيداً أنه عند سيادتك شامة من هذا النوع في وسط شوكة الظهر ، وهي علامة على القوة في الرجال .

(١) اسوطة = nzote = السوط بالعربية (والكلمة أصلها عربي) ، خجوته = jigote = كفتة (لحم مفروم) .

فقلت دوروتييه : هذا يكفي ، فبين الإخوان لا محل للتدقيق . فأن تكون الشامة على الكتف أو على العمود الفقري ، أو في أي موضع تشاؤه ، ليس هذا مهماً بشرط أن يكون ثمة شامة ، وعلى كل حال فهو نفس اللحم . ولا شك في أن أبي قد صدق النبوءة ، وأنا أيضاً قد صدقت الملاقاة بتوجهي الى السيد دون كيخوته ، الذي عنه تحدثت أبي ، لأن أوصاف وجهه تتفق مع أوصاف الشهرة التي ينعم بها هذا الفارس ليس فقط في اسبانيا ، بل وأيضاً في كل اقليم المنتشا .

« والواقع أنني لم أكد أنزل في أشونه وسمعت الناس يتحدثون كثيراً عن مغامراته العديدة حتى قال لي قلبي في الحال إنه هو الذي أتيت للبحث عنه » .
فقاطعتها دون كيخوته قائلاً : لكن كيف نزلت في أشونه ، وهذه المدينة ليست ميناءً بحرياً ؟

وقبل أن تجيب دوروتييه ، قال القس : إن الأميرة تريد قطعاً أن تقول أنها بعد أن نزلت في مالقة كان أول مكان سمعت فيه عن أنبائك كان أشونه .
فقلت دوروتييه : نعم هذا ما كنت أقصد .

فقال القس : كل شيء واضح إذن . تستطيع جلالتك أن تكملتي قصتك .
فقلت دوروتييه : ليس لدي بعد ما أقوله سوى أنه من حسن طالعي أن ألقى السيد دون كيخوته ، فقد أصبحت أشعر أنني سيّدة مملكتي كلّها وسلطانتها . لأنه بفضل أدبه الجم وكرمه الشامل أنعم عليّ بنعمة اقتياده الى حيث أشاء ، وإني أريد اقتياده الى مواجهة پندلفندو المظلم البصر ليقّته ويعيد اليّ ما اغتصبه ذلك الغدار ضد كل قانون وعقل . وكان هذا سيحدث بحذافيره كما تنبأ بذلك تنكريبو الحكيم ، أبي الكريم ، الذي ترك وصيّة بحروف يونانية أو كلدانية - لست أدري - يقول فيها أنه إذا أراد فارس هذه النبوءة أن يتزوج بي بعد أن يقطع رأس المارد ، فعليّ دون أدنى تردد أن أسلم نفسي له زوجة شرعية وأن يملك في مملكتي كما ملكته في شخصي .

فقال دون كيخوته : ماذا ترى في هذا يا صديقي سنشو ؟ ألا ترى ما يجري ؟ ألم أقل لك ذلك من قبل ؟ أو لا ترى أننا قد أصبح لنا مملكة نحكمها ومملكة نتزوجها ؟
فصاح سنشو : « أقسم بالله على هذا وتباً لمن لا يتزوج حالما يفتح حلق السيد يندميلا^(١) ! قد تكون الملكة بشعة ، ولكن! لكن كل براغيث سريري هكذا خلقت! » -

(١) ، جملي : سنشو دائماً في النطق بهذه الأسماء الغربية .

ولمّا قال ذلك وثب في الهواء وثبتين وهو يضرب عقب قدمه ، بنشوة بالغة ، ثم أخذ لجام بغلة دوروتيه وأوقفها وركع أمام الأميرة وتوسل إليها أن تتفضل فتقدم يديها كي يقبلها ، علامة أنها ملكته وسيدته .

من كان منهم يستطع أن يمسك عن الضحك وهو يرى جنون السيد وسذاجة الخادم ؟ لقد قدمت دوروتيه يدها الى سنشو ووعده أن تجعله سيّداً جليلاً في مملكتها حالما تستعيد ملكها . فراح سنشو يشكرها بعبارات أطلقت الضحك من جديد .

وتابعت دوروتيه قصتها تقول : هذه قصتي على حقيقتها يا حضرات السادة ، ولم يبق لدي ما أقوله لكم بعد سوى أن أقول أنه لم يبق من الحاشية التي صحبتني غير هذا السانس الملتحي ، أما الباقون فقد غرقوا جميعاً في عاصفة هبت ونحن مقبلون على الميناء . وقد بلغنا الشاطئ ، هو وأنا ، على لوحين من خشب ، وقد وصلنا بنوع من المعجزة ، لأن كل شيء معجزة وسر في مجرى حياتي ، كما لعلك لاحظت . فإن كنت قد ذكرت أموراً لاجاجة إليها ، وكنت لم أقابل دائماً من يجب مقابلتهم ، فمرد ذلك الى ما أشار اليه السيد صاحب الإجازة في مستهل قصتي ، ألا وهو أن الآلام المتصلة غير العادية تقتلع الذاكرة ممن يعانونها .

فقال دون كيخوته : إنها لن تقتلع ذاكرتي أنا ، أيتها الأميرة النبيلة الشجاعة ، مهما تكن شديدة رهبة تلك الآلام التي سأعانيها في سبيل خدمتك . وهكذا أؤيد من جديد المنحة التي منحتك إياها ، وأقسم أن أتبعك الى نهاية العالم حتى أجد نفسي في مواجهة عدوك المروع الذي سأحتز رأسه ، بعون الله ويفضل ساعدي هذا ، سأحتزه بهذا السيف... ولأقول السيف الصارم ، بفضل خنيس دي يسمونته الذي انتزع مني سيفي .

قال دون كيخوته هذه الكلمات الأخيرة بين شفّتيه ، وتابع حديثه قائلاً : وبعد أن أحتز له رأسه وأعيد لك مملكتك ، ستكونين حرة في أمر نفسك تفعلين ما يحلو لك ، وذلك لأنه طالما بقيت ذاكرتي مشغولة ، وإرادتي أسيرة وعقلي مستعبداً لتلك التي... ولا أزيد ، ولأستطيع التفكير ، مجرد التفكير ، في الزواج ، حتى ولا بالعناء .

فوقعت هذه الكلمات الأخيرة التي نطق بها دون كيخوته ورفض الزواج وقع الصاعقة على سنشو ، فغضب وصاح بصوت عالٍ : مولاي دون كيخوته! أقسم بالله وبالشيطان أنك الآن غير سديد الرأي . وإلا كيف تتردد بالزواج بأميرة نبيلة كهذه ؟ أوتظن أن حسن الطالع سيقدم لك في كل مرة فرصة سعيدة كهذه ؟ وهل السيدة دلثيا أجمل ؟ كلاً والله ، ولانصف جمال هذه ، بل أود أن أقول أنها ليست جديرة أن تحل رباط حذاء هذه المائلة أمامك! إي

نعم! سأنعم بالضبيعة التي أرقبها ، إذا ظلّ مولاي يسعى للبحث عن البطاطس في البحر^(١)!
تزوج ، تزوج بسرعة ، وخذ هذه المملكة التي وقعت في يدك حلالاً ، وحينما تصبح ملكاً
اجعلني مركيزاً أوحاكماً ، وليذهب الشيطان بالباقي!

لكن دون كيخوته لم يملك نفسه لما أن سمع هذا التجديف باسم دلثنيا . فرغ منخاسه
من مقبضه ودون أن يوجه كلمة الى سنشو ودون أن ينبهه ضربه في بطنه ضربتين جندلتاه
على الأرض ، ولولا أن صرخت دوروتييه بوجهه أن يكف ، لكان قد قتله . ثم قال له دون
كيخوته :

- هل تظن ، أيها الوغد البائس ، أنك تستطيع أن تحشر نفسك في كل مناسبة . وأنه
ليس لدينا من شغل إلا أن تذهب أنت وأصفيح أنا عن هذا الذنب ؟ لاتصدق ذلك أيها النذل
الخشيس ، وإنك لذلك لأنك أطلقت لسانك في دلثنيا المنقطعة النظير . أوتعلم أيها السافل
الحقير الدنيء أنه لولا المدد الذي تشدّ به ساعدي ، لما كانت لديّ القدرة حتّى على قتل
برغووث ؟

قل لي أيها الساخر ولسانك لسان الأفعى ، من ذا الذي تظن أنه قد ظفر بهذه المملكة
واحترز رأس المارد وجعلك مركيزاً . فهذا كلّ أمر أعدّه مفروغاً منه وصار في قوة الشيء
المحكوم به - إن لم يكن قوة دلثنيا التي اتخذت من ساعدي أداة لأعمالها الجبّارة ؟ إنها هي
التي تقاثل وتتصر في شخصي ، وأنا إنما أحيا وأتنفس بها ، ومنها أستمد الوجود والحياة .
أيها الجلف الوضيع الأصل السيء التهذيب كم أنت جاحد! أرفعك من تراب الحقول لأجعل
منك سيّداً صاحب لقب ، فتقابل هذا الجميل بالإساءة الى من يحسن اليك .

ولكن إصابة سنشو لم تكن بحيث تحول بينه وبين سماع ما قاله مولاه . وسرعان
مانهض وراح يستتر وراء فرس دوروتييه ، ومن هناك أجاب مولاه قائلاً : « قل لي مولاي ،
هل أنت مصمّم على عدم الزواج بهذه الأميرة العظيمة ؟ إذن لن تكون المملكة لك . فإن لم
تكن لك ، فماذا تستطيع أن تعمل لي ؟ من هذا أشكو . صدقني وتزوج بهذه الملكة
واخلص ، فقد نزلت عليك من السماء ، وبعد هذا تستطيع أن تعود الى السيدة دلثنيا ، فقد
حدث لبعض الملوك أن كانت لهم حظايا الى جانب زوجاتهم . أمّا عن الجمال ، فلا أتدخل
فيه . وإذا قلت الحق ، قلت إن كليهما في نظري لابس بهما ، وإن كنت لم أر السيدة
دلثنيا أبداً .

(١) أي يسعى للحدود على المستحيل .

فصاح دون كيخوته : كيف ؟ ألم ترها أيها الخائن الكافر ! أولم تأتني منذ قليل برسالة منها ؟
فأجاب سنشو پنشا : أريد أن أقول أنني لم أستطع مشاهدتها عن قرب بحيث أنفرس
ملاحظتها بالتفصيل واحداً بعد واحد ، لكنها في جملتها لأبأس بها .
فعاد دون كيخوته يقول : الآن أصفح عنك ، واعتذري عما بدر مني نحوك ، إن البوادر
الأولى ليست في وثاق المرء .

فقال سنشو : أقر بذلك ، وأول بادرة عندي هي الرغبة في الكلام ، ولأستطيع أن أمنع
نفسي من أن أفضي بكل مايرد على لساني .
فقال دون كيخوته : ومع ذلك كله فخذ حذرك مما تقول ياسنشو ، إذ الجرة مهما
تحمل الى العين فلا بد في النهاية أن تنكسر... ويكفي هذا .

فأجاب سنشو : حسناً والله في عليائه يرى خداع الخادعين ، والله يحكم بيننا : من
منا يسيء أكثر ، أنا بكوني لأحسن الكلام ، أو مولاي بكونه لا يحسن الفعل .
فقاطعت دوروثيه قائلة : كفى ! اذهب ياسنشو فقتل يد مولاك . واطلب منه الصفح ، ومن
الآن كن أكثر احتياطاً في مديحك وفي نقدك ، وخصوصاً لاتسيء أبداً الى السيدة توبوزا
التي لا أعرفها أبداً ، وإن كنت على استعداد لخدمتها ، وثق بالله الذي لن يحرمك من
إقطاعية تستطيع أن تعيش فيها مثل الأمير .

فمضى سنشو كسير الجناح خفيض الرأس يسأل مولاة العفو ويطلب يده ، فمدها مولاة
اليه بوجه جاد حازم . ولما قتل سنشو يد مولاة ، منحه هذا بركته وطلب منه أن يخلي به
ناحية لأن لديه أسئلة يوجهها اليه ويريد أن يتحدث معه في أمور على جانب كبير من
الخطورة . فاطاع سنشو ، ولما تقدما قال له دون كيخوته :

- منذ عودتك لم يسمح الوقت ولم تنهياً الفرصة لكي أسألك عن المهمة التي كلفتك
بها وعن الجواب الذي أتيت به منها . والآن وقد أتاح لنا الحظ هذه الخلوة ، لا تتأخر عن
إرضائي بالأنباء السعيدة .

فأجاب سنشو : سل ما شئت يا مولاي ! سأفضي اليك تماماً بكل ماوعته أذنائي . لكن
أرجوك في المستقبل ألا تكون عنيفاً هكذا .

فقال دون كيخوته : لماذا هذا الرجاء يا سنشو ؟

فقال سنشو : أقول هذا لأن ضربات العصا التي تلقيتها منذ قليل ترجع بالأحرى الى
النزاع الذي قام بيننا في تلك الليلة ، لا من أقوالي عن السيدة دلثنيا ، التي أحبها وأقدسها
كبحدى المقدسات ، حتى لو لم تكن جديرة بذلك ، لا لشيء إلا لأنها صاحبتي .

فقال دون كيخوته : لا تعد الى هذا الموضوع ياسنشو ، وحياتك إنه يؤلمني ويحزني . لقد عفوت عنك منذ قليل ، وتذكر جيداً ما يقال عادةً : لكل خطيئة جديدة كفارة جديدة .

ولما بلغا هذا المبلغ من حديثهما شاهداً على طول الطريق الذي يسلكانه قادماً على حمار لهما اقترب منهما بدا لهما من الغجر . لكن سنشو پنثا الذي لم يكن يستطيع أن يشاهد حماراً دون أن تعلق به عيناه لم يكذب يلح الرجل حتى عرف فيه خينس دي پسمونته . ذلك أن پسمونته - لكي يبيع الحمار كما يشاء - تخفى في زي غجري وكان يتقن لهجة الغجر كما يتقن لهجات أخرى . رآه سنشو وعرفه ، فصاح في أعلى صوته : - خنسيو أيها السارق ، ردّ مالي ، اترك حياتي ، انزل عن سرير راحتي ، ردّ روحي ، ردّ الي بهجتي وكبريائي ، اهرب يا وعد ، ارحل يا لص ، ورد ما ليس لك .

وما كان في حاجة الى كل هذه الكلمات واللغات ، لأنّ خينس لم يكذب يسمع أول كلمة حتى قفز الى الأرض وسار يعدو عدو فرس الرهان وسرعان ما غاب عن الجميع . هنالك أسرع سنشو الى حماره يقبله ويقول له :

. كيف حالك يا ولدي ورفيقي ، يا حماري يا عزيز عيني وأحشائي ؟

وكان وهو يقول ذلك يقبله ويربت عليه وكأنه إنسان عاقل ، ولكن الحمار صمت ، لا يدري ماذا يقول ، تاركاً سنشو يقبله ويربت عليه دون أن يرد عليه بكلمة . ووصلت الرفقة كلّها ، وكلهم يهتئ سنشو بعثوره على حماره ، وقال له دون كيخوته إن عثوره على حماره لن يجعله يعدل عن منحه الجحاش الثلاثة ، وكانت لفظة كريمة تلقاها سنشو بعرفان الجميل .

وبينما كان الفارس وسائسه يتحدثان معاً في خلوة ، كان القس قد هتأ دوروتي على ما أبدته من مهارة وفطنة ، سواء في اختراعها قصتها وفي تلوينها بلون قصص الفروسية . فأجابته بأنه كان يلذ لها قراءة كتب الفروسية ولكن لأنها لم تكن تعرف أين توجد المقاطعات وموانئ البحار ، فإنها قالت إنها نزلت في ميناء أشونه . فقال القس : - لقد لاحظت ذلك ، ولهذا بادرت الى القول لإصلاح الموقف .

لكن أليس من الغريب أن نرى ذلك الرجل المسكين يصدق بسهولة كل هذه الإختراعات والأكاذيب لا شيء ، إلا لأنها من أسلوب ترهات كتبه التي ألح بها ؟ وقال كردنيو : نعم إنه لجنون بلغ من الغرابة حدّاً يتساءل معه المرء ما إذا أراد اختراعه على هواه أو كان يجد عقلاً ساذجاً يمكن أن يتعلّق به وينطلي عليه أمره ؟

وعاد القس يقول : لكن هناك ماهو أدهى من ذلك : فإنه بخلاف التهاويل التي ينزلق إليها هذا الرجل البسيط ، يكفي أن يطرق المرء موضوعاً آخر إذ به يكشف عن راحة تفكير ووضوح ذهن وتعقل في كل شيء . فلو لم يطرق المرء موضوع الفروسية الجوّالة ، لما شك أحد في أنه سليم العقل مستقيم التفكير . وبينما كان أولئك في غمرة هذا الحديث ، كان دون كيخوته وسنشو ينشأ يتجاذبان أطراف الكلام : قال له دون كيخوته :

– صديقي پنشا ، لننسّ خلافاتنا ولننعد السلم ولتخبرني الآن ، دون أن تحمل في نفسك حقناً ولا غضباً – حدثني ، كيف ومتى وأين وجدت دلثيا . ماذا كانت تعمل ؟ وماذا قلت لها ؟ وبماذا أجابتك ، وماذا ارتسم على تعابير وجهها لدى قراءة رسالتي ؟ ومن الذي خطّ لك الرسالة ؟ وبالجملّة اذكر لي كل ما تراه خليقاً بالسؤال عنه ومعرفته في هذه المغامرة ، ولا تكذب ولا تتزيّد طمعاً في زيادة رضاي ، ولا تقلّ حتى لاتقل لذتي . فقال سنشو : مولاي ! إن شئت الصدق قلت لك إن أحداً لم يخطّ الرسالة ، لأنني لم أحمل رسالة ما .

فقال دون كيخوته : الأمر كما تقول لأنني بعد يومين من رحيلك عثرت على الدفتر الذي كتبتها فيه ، مما أثار في نفسي ألمّاً بالغاً ، لأنني لم أدر ماذا ستقول حينما ترى نفسك دون رسالة ، واعتقدت أنك ستعود لأخذ الرسالة لما تجد نفسك بدونها . فأجاب سنشو : هذا ما كنت فاعله لو أنني لم استظهرها حينما قرأها مولاي ، لقد حفظتها عن ظهر قلب حتى رويتها لحارس كنيسة أثبتتها على الورق كلمة فكلمة حتى قال لي أنه لم يقرأ في حياته رسالة رقيقة كهذه ، على الرغم من أنه قرأ الكثير من بطاقات الدفن . فسأله دون كيخوته : وهل لاتزال تحفظها ؟

فأجاب سنشو : كلاً يامولاي ، فمنذ أن رويتها لحارس الكنيسة رأيت أنه لاجدوى بعد من إبقائها في الذاكرة ، فعملت على نسيانها . ولو بقي منها شيء في الذاكرة فهو استهلالها ، سيدتي (النيلة) أقصد النبيلة . والخاتمة : « المخلص لك حتى الممات ، الفارس الحزين الطلعة » . وبين الاستهلال والخاتمة وضعت ثلاثمائة نفس وحياة وعيون جميلة .

الفصل الحادي والثلاثون

في الحديث الشائق الذي دار بين دون كيخوته
وسنشو پنثا ومغامرات أخرى

وعاد دون كيخوته ليقول :

- كل هذا لا يضايقني ، استمر في حديثك . حينما اقتربت منها ، ماذا كانت تعمل ملكة الجمال هذه ؟ لقد وجدتها من غير شك تسلك الدرر في عقد ، أو تطرّز بخيط من الذهب كلمات غرامية لأسيرها الفارس .

فأجاب سنشو : لقد وجدتها تغربل قدحين من القمح في الحواش . فقال دون كيخوته : قدّر أنّ حبّات القمح لما مستها أناملها تحولت الى حبّات من اللؤلؤ . لكن هل لاحظت ما إذا كان من خالص القمح الأبيض ، أو من الغليظ الأسمر ؟ فأجاب سنشو : كان من الشعير الأبيض .

فقال دون كيخوته : ورغم ذلك أوكد لك أنّه بعد أن غربلته بيديها تحولت الى أجود أنواع القمح . لكن دعنا من هذا . حينما سلّمتها رسالتي ، هل قبّلتها ؟ هل رفعتها فوق رأسها ؟ هل قامت بمراسم جدية بمثل هذه الرسالة ؟ وبالجملّة ، ماذا فعلت ؟

فأجاب سنشو : في اللحظة التي تهيتّ فيها لتسليمها الرسالة كانت في حميّة العمل تهزّ في الغربال مقداراً كبيراً من القمح ، وهنالك قالت لي : يا ولدي ، ضع هذه الرسالة على هذه الزكّية ، فلن أقرأها قبل أن أفرغ من غربلة هذا القمح كلّهُ .

فقال دون كيخوته : يالها من فتاة حريصة! ذلك أنّها قصدت من ذلك أن تقرأ الرسالة على مهل لكي تستمتع بكل ما فيها من عبارات . استمر في حديثك ياسنشو . بينما كانت بسبيل إنهاء عملها ، فيما تحدّثتما ؟ وماذا كانت أسئلتها بشأني ؟ وبماذا أجبت ؟ انتّه من حديثك ، قصّ عليّ كل شيء ولا تنس حرفاً واحداً .

فأجاب سنشو : لم تسألني أي سؤال . أمّا أنا فقد ذكرت لها كيف أنّ مولاي بقي هناك

للقيام ببعض المجاهدات لخدمتها وكيف أنك كنت عارياً من الوسط حتى الرقبة ، معتزلاً في أعمال الجبال والصخور ، كأنك متوحش حقاً ، تنام على التراب ولا تتناول خبزاً على مائدة ولا تمسّط لحيتك ، دائم البكاء والنواح تلعن حظك العاثر .

فقال دون كيخوته : لقد أخطأت العبارة حين قلت أنني ألعن حظي العاثر ، لأنني على العكس من ذلك أبارك حظي وسأباركه طوال عمري ، إذ جعلني جديراً باستحقاق حب سيّدة كبيرة مثل دلثيا دل توبوسو .

فقال سنشو : أمّا أنها كبيرة فهذا صحيح ، وأستطيع بكل إطمئنان أن أوكد أنها أطول مني بشبر .

فقال دون كيخوته : وكيف عرفت هذا يا سنشو ؟ هل قست نفسك بها ؟ فأجاب سنشو : قست نفسي بها على هذا النحو : وهو أنني اقتربت منها لأساعدها في حمل زكية قمح على حمار فاقترّب كلانا من الآخر بحيث استطعت أن ألحظ أنها أطول مني .

فقال دون كيخوته : ولكن أليس من الحق أيضاً أنها تصحب كبر البنية بآلاف من رشاقة الروح ؟ هناك شيء لا تستطيع أن تنكره ياسنشو : حينما اقتربت منها ، ألم تستروح عطراً رائعاً وأريجاً لطيفاً كأريج المسك بل أعذب ، ونسمات رفاقاً ، وكأنك كنت في دكان عطار رقيق ؟

فأجاب سنشو : كل ما أستطيع أن أقوله هو أنني شممت رائحة كرائحة الرجال ، ولاشك أن ذلك كان بسبب ما تصبّب منها من عرق غليظ من فرط المجهود . فقال دون كيخوته : ليس الأمر كذلك ، بل لابد أنك كنت مزكوماً أو كنت تشم رائحتك أنت نفسك ، لأنني أعلم رائحة هذه الوردة بين الأشواك ، هذه الزنبقة في الحقول ، هذا العنبر المحلول .

فأجاب سنشو : هذا ممكن ، لأنني كثيراً ما أشمّ خارجة منّي تلك الرائحة نفسها التي بدت لي خارجة من بدن صاحبة العصمة السيّدة دلثيا . لكن لاداعي للدهشة من هذا فالشياطين أشباه .

وهناك قال دون كيخوته : ثمّ لمّا فرغت من غربلة القمح وأرسلته الى الطاحونة ، ماذا فعلت حينما قرأت رسالتي ؟

فقال سنشو : أمّا الرسالة فلم تقرأها لأنها قالت أنها لاتعرف الكتابة ولا القراءة ، بل بالعكس مزقتها قطعاً صغاراً وهي تقول أنها لاتريد أن يقرأها أحد حتى لا يطلع أحد من أهل

الناحية على أسرارها وأنه كفها ما سمعته مني شفها مما يتعلّق بحب مولاي لها ، وما تقوم أنت به من مجاهدات شاقة بشأنها . وأخيراً قالت لي أن أقول لك أنها تقبّل يدك ، وأنها تودّ أن تراك أكثر مما تودّ أن تكتب إليك ، ولهذا ترجوك وتأمرك في الحال أن تترك هذه الأحراش وتوقف هذه الحماقات وتمشي فوراً الى التوبوسو ، لأنها تموت هياماً برؤياك ، اللهم إلا إذا أعاقك عن ذلك أمر أهم . وقد ضحكت ملء فيها حينما قصصت عليها أن مولاي قد تسمّى باسم «الفارس الحزين الطلعة» . وسألته ما إذا كان قد زارها ذلك الرجل البشكوني ، فأجبت بالإيجاب وقالت إنه رجل ظريف جداً . وسألته نفس السؤال فيما يتصل بالمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، فقالت إنه لم يزرها أحد منهم بعد .

فقال دون كيخوته : كل شيء حتى الآن على مايرام ، لكن قل لي ، حينما ودّعته أيتها حلبة هدتك للأنباء التي حملتها اليها عن فارسها ؟ لأن العرف القديم المقدس الجاري بين الفرسان الجوالّة وصواحبهم يقضي بإهداء السائسين أو الوصيفات أو الأقزام الذين الى فرسان سيداتهم أو سيّدات فرسانهم أبناء عنهم - إهدائهم حلياً نفيسة مكافأة عن الرسالة . فأجاب سنشو : هذا ممكن ، وأرى من ناحيتي أن هذا عرف جميل ، ولكن لا شك أن هذا العرف كان جارياً في الأزمنة الخالية فقط ، أما اليوم فالعادة لا بدّ جرت بالإكتفاء بإعطاء رغيّف أو قطعة من الجبن ، لأنّ هذا هو ما أعطتنيّه السيّدة دلثنيا من فوق سور الحوش حينما ودّعته ، وهذا الجبن جبن غنم .

فقال دون كيخوته : إنها كريمة الى أقصى حدود الكرم ، وإذا كنت لم تتلقّ منها حلبة ذهبية فلا بدّ أن ذلك لأنّه لم يكن في متناول يديها شيء لتهديه اليك . لكنّ المؤجّل غير مضئّع ، سأراها وسأرتّب الأمر . هل تعرف مم أنا مندهش ياسنشو ؟ من أنّه يبدو لي أنّك قمت برحلتك ذهاباً وإياباً على متن الهواء ، لأنك لم تقض إلا ثلاثة أيّام - ذهاباً وإياباً - من هذه الجبال الى التوبوسو ، بينما المسافة من هنا الى هناك تبلغ ثلاثين فرسخاً على الأقل . هذا يجعلني أحسب أنّ هذا الساحر الحكيم الذي يعنى بأموري وهو صديقي - فلا بدّ أن يكون لي صديق ، وإلاّ لم أكن فارساً جوالاً حقّاً - أقول أن هذه الساحر لا بدّ أنّه قد ساعدك على المسير دون أن تشعر بذلك . والحق أن ثمة حكماء يأخذون الفارس الجوال من سريره وهو مستغرق في النوم ، ودون أن يشعر يستيقظ في الغداة واجداً نفسه في مكان يبعد بآلاف الفراسخ عن المكان الذي كان نائماً في سريره فيه . ولو لم يكن الأمر كذلك لما استطاع الفرسان الجوالّة أن يساعد بعضهم بعضاً في إبان الخطر ، كما ينجد بعضهم بعضاً في كلّ مناسبة . فقد يحدث أن يكون أحدهم في معركة في جبال أرمينية ضد أفعى أو تنين ،

أوضح فارس آخر ويقع في خطر الموت ، وفجأة ودون أن يشعر يأتي الفارس من أصدقائه على سحابة أو عربة من نار قادماً من انكلترا ليدافع عنه وينقذ حياته ، وحينما يأتي الليل يعود الى بيته ويتناول عشاءه على مائدته في هدوء ، ورغم ذلك فإن المسافة بين كلا الموضوعين تبلغ ألفين أو ثلاثة آلاف من الفراسخ . وإنما يتم هذا كله بفضل علم وحكمة هؤلاء الحكماء السحرة الذي يسهررون على رعاية أولئك الفرسان الشجعان . ولهذا لا أجد مشقة يا صديقي سنشو في الاعتقاد في أنك ذهبت فعلاً الى التوبوسو وعدت منها ، فلا بد كما قلت لك أن أحداً من الحكماء الأصدقاء قد حملك على جناح طائر دون أن تشعر أنت بذلك .

فقال سنشو : هذا ممكن ، لأن روئيناتته كانت تسير ببطء ، كبطء حمير الفجر في أذانها الزئبق .

فصاح دون كيوخوته : ماذا تقول ، الزئبق ؟ لقد كانت عصابة من العفاريت تسير وتسير غيرها ، دون أن تكل ، وحسبما يحلو لها . لكن دعنا من هذا وقل لي ماذا يجب علي أن أعمله فيما يتعلق بالأمرا الذي بحثت به سيدتي ، أمرها إيتي بزيارتها ؟ إنني أرى إنني ملزم بتلبية أمرها ، ولكن هذا يجعل من المستحيل علي أن أقوم بأداء النعمة التي وهبتها للأميرة التي ترافقنا ، وقوانين الفروسية تلزمني بإطاعة ماتعهدت به أولى من إطاعة ملذاتي . من ناحيتي تحفزني الرغبة لرؤية سيدتي ، ومن ناحية أخرى يدعوني العهد الذي قطعته والمجد الذي ينتظرني من وراء هذه المغامرة . وأرى أن أعمل الآتي : سأسرع السير الى حيث يوجد هذا المارد ، وحينما أصل اليه سأحز رأسه ، وأعيد الأميرة الى عرشها في مملكتها ، فإذا تم هذا ، أرحل وأعود لرؤية هذا الكوكب الذي يضيء بنوره إحساسي . فأقدم بين يديها الأعذار فلا تغضب بل بالعكس تطرب لتأخري حينما ترى هذا التأخر مصدرراً لمجدها وشهرتها ، لأن كل ماأناله من مجد وكل ماثلته وسأناله في السلاح في هذه الحياة الدنيا إنما أدين بالفضل فيه لما تمنحني من عطف وما تحبوني به من نعمة حبها .

فقال سنشو : يا للعداء ! كم أنت ضعيف العقل ! لكن قل لي يا مولاي ، هل تريد أن تقطع هذه المسافة كلها لشمّ الهواء ! وهل تدع فرصة هذا الزواج السامي تفلت من بين يديك ، بينما بائنتها مملكة يحيطها أكثر من عشرين فرسخ - كما أخبروني - وفيها كل ما هو ضروري لإقامة أود الإنسان ، وبالجملة هي أكبر من البرتغال وقشتالة مجتمعتين ؟ كلاً ما اسكت بحق الله واخجل مما قلته واتبع نصيحتي واغفر لي ، وأعقد قرانك في أول قرية نمر بها ونجد فيها قسيساً ، وإلا ، فها هنا صاحب الإجازة يستطيع أداء هذه المهمة على خير وجه ، واعلم أن

ستني تسمح لي بإسداء النصائح ، وأن نصيحتي هذه تلائمك كل الملائمة ، لأن عصفوراً في اليد خير من عشرة على الشجرة ، وإذا أعطاك أحداً خاتماً فمد إصبعك للبسه .

فقال دون كيخوته ، انتبه أنت أيضاً ياسنشو ، إن كنت تنصحنني بالزواج حتى أصير ملكاً لما أن أقتل المارد ، ويكون في مقدوري حينئذ أن أمنحك المنح وأعطيك ما وعدتك به ، فإنني أنبئك كذلك بأنني أستطيع أيضاً أن أحقق أمنيته دون أن أتزوج . فإنني قبل أن أبدأ المعركة مع المارد سأشترط أنني إذا خرجت منها ظافراً فيجب إعطائي شطراً من المملكة سواء تزوجت أو لم أتزوج ، شطراً أستطيع أن أمنحه لمن أشاء . ولمن تظن أنني سأعطيه إن لم يكن لك أنت ؟

فقال سنشو ، هذا واضح ، ولكن لينتبه مولاي حتى يختار هذا الشطر في ناحية البحر ، حتى إذا لم يطب لي المقام استطعت أن أبحر مع رعاياي الزوج ، لأفعل بهم ما ذكرته من قبل . ولا تهتم الآن بزيارة السيدة دلثنيا ، بل اذهب فوراً لقتل المارد ، ولننتهي من هذه المسألة التي تبدو لي بحق الله ذات شرف عظيم وربح جسيم .

فقال دون كيخوته ، أقول إنك على حق يا سنشو ، وسأتبع نصيحتك فيما يتصل بالذهاب مع الأميرة ، لا إلى دلثنيا ، لكنني أحذرك من عدم البوح بشيء لأحد ، حتى ولا أولئك الذين في صحبتنا لأن دلثنيا من التواضع والحياء ، بحيث لا تريد أن يعلم أحداً عن أسرارها شيئاً ، وسيكون شيئاً خطيراً حقها أن تفشي أسرارها عن طريقي أو عن طريق من يتصل بي .

فقال سنشو ، لكن إذا كان الأمر كذلك ، فكيف يرى مولاي أن على الذين يظفر بهم أن يمثلوا أمام السيدة دلثنيا ؟ أليس هذا اعترافاً صريحاً بأنك تحبها وأنت عاشقها ؟ ومادمت تلزم كل هؤلاء بالذهاب للركوع أمامها وأن يقولوا أنهم جاءوا من قبلك ليقدموا فروض الطاعة والولاء ، فكيف تظل مع هذا أسراركم مصونة ؟

فقال دون كيخوته ، أوه كم أنت ساذج مغفل! أولاً ترى أن هذا كله تمجيدٌ لها وتعظيم ؟ ألا فلتعلم إذن أن أسلوب الفروسية يجعل شرفاً عظيماً أن يكون في خدمة السيدة عدد جم من الفرسان الجواله ، دون أن يتجاوز فكرهم مجرد أن يتشرفوا بخدمتها ، لالشيء إلا لأنها هي ، ودون أن يتوقعوا عن خدماتهم وتمنياتهم مكافأة غير أن تسمح لهم بأن يكونوا لها فرساناً .

فقال سنشو ، هذا هو الحب الذي سمعت الواعظ ينصح به في حب سيدنا المسيح ، أن يحب المرء لذاته ، دون أن يكون الدافع لذلك رغبة في الجنة أو رغبة من النار ، وإن كنت أنا أقنع بحبه وخدمته لسبب من الأسباب .

فصاح دون كيخوته : يالك من شيطان! إن لك لخواطر رائعة في بعض الأحيان! حتى
ليقول المرء أنك درست(اللاهوت) في شلمنقة .

فأجاب سنشو : إنني لا أعرف حتى الكتابة!

وفي تلك اللحظة صاح الأسطى نقولا فيهما لينتظراه ، لأن رفقاءه يريدون الإرتواء من
ينبوع موجود على حافة الطريق . فتوقف دون كيخوته مما أشاع السرور في نفس سنشو إذ
شعر هذا بأنه متعب من فرط ما كذب وكان يخشى أن يكتشف مولاه كذبه ، ولكنه وإن كان
يعلم أن دلثنيا كانت فلاحه في قرية التوبوسو ، فإنه لم يرها بعينه . وخلال هذه الفترة كان
كردنيو قد لبس الملابس التي كانت دوروتي ترتديها لما أن التقوا بها ، وهي ملابس إن
لم تكن فاخرة فقد كانت أفضل بكثير من تلك التي كان يلبسها من قبل .

ونزلوا جميعاً عند ينبوع ، وتبلغوا ببعض ماتزود به القس من الفندق وكانوا جوعاً
كل الجوع .

وأثناء تناولهم الطعام مرّ غلام على الطريق ، وتوقف ليتفرّس في وجوه الجالسين عند
الينبوع ، ثمّ عدا نحو دون كيخوته وعانق قدميه وأنشأ يبكي بدموع غزار ويقول : مولاي!
أولا تعرف من أنا ؟ تأمل في وجهي جيداً ، إنني أندريس ذلك المسكين الذي حللتّم وثاقه
من شجرة السنديان . هنالك تعرفه دون كيخوته وأمسك بيده وتوجّه الى الحاضرين بهذا
الكلام يقول بجد :

– من هذا ترون ياسادة أهمية وجود فرسان جولة في هذا العالم للإلتصاف من الآثام
والذنوب التي يرتكبها الأشرار والأوغاد . ألا فلتعلموا أنه منذ بضعة أيّام كنت أمر بالقرب من
هذه الغابة فسمعت صرخات وأنبثاً كأني البائس المتألم . فأسرعت ، يدفعني الواجب ، الى
المكان الذي انبعثت منه هذه الشكاية الأليمة ، فوجدت هذا الفتى مقتيداً في شجرة سنديان ،
وهذا أمر تبهج له نفسي كل البهجة ، فهذا شاهد على صدق ما أقول . لقد كان مقتيداً في
السنديانة عارياً من الرأس حتى الوسط وكان ثمة جلف . عرفت من بعد أنه سيّده - يمزّق
جلده بضربات من سيور فرس . فلما شاهدت هذا المنظر سألت ذلك الفلاح عن السبب في
هذه المعاملة القاسية الفظيعة . فأجابني الوغد بأنّ هذا الغلام هو خادمه ، وأنه كان يعجلده لأن
بعض الوان الإهمال التي ارتكبها يشتمّ منها رائحة اللصوصية لا الغفلة . هنالك صاح هذا الولد :
« سيّدي ، إنّه يجلدني لأنني طلبت منه أجري » . فأجاب سيّده بعبارات جوفاء واعتذارات ،
قبلت سماعها دون تصديقها . وأخيراً حلّت وثاق الولد المسكين وحملت ذلك الوغد على أن
يقسم بأنه سيعود بالغلام الى البيت ويدفع له أجره فلساً فلساً ، بل وبمائدة . أليس الأمر

كذلك يا ولدي أندريس ؟ أما شاهدت كيف كنت أمر سيّدك باستعلاء ، وكيف وعدني بكل تذلل أن ينفذ كل ما أمرته به ؟ أجب بلا تردّد ، وارو لهؤلاء السادة كيف جرى الأمر ، حتّى يرى الناس الفائدة من وجود الفرسان الجوّالة على الطرقات العامة ، كما سبق أن قلت . فقال الغلام : كل ما قاله سيدي هو الحق كل الحق ، بيد أن نهاية المسألة قد جرت على عكس ماتخيّل .

- على العكس ؟ كيف هذا ؟ هكذا قال دون كيخوته . هل لم يدفع لك ذلك الوغد ؟ فأجاب الغلام : ليس فقط لم يدفع لي بل لم تكذب ياسيّدتي تخرج من الغابة ونبقى وحدنا حتّى أمسكني وقيدني بشجرة السنديانة ، وانهال عليّ ضرباً بالسيور ، ولم يخلّ عني حتّى سلخني سلخ القديس برتلوميو ، وكل ضربة كان يصحبها بنكتة أو سخريّة ليهزأ بك ، ولولا الألم في أضلاعي لضحكّت أنا أيضاً ما كان يقول . وعلى كل حال فقد تركني على حالٍ اضطررت معه الى ملازمة المستشفى للعلاج ممّا أصابني به هذا الشرّير ، وكل هذا سببه أنت يا سيّدي ، إذ لو كنت مضيت لسبيلك دون أن تأتي حيث لم يدعك أحد ودون أن تحشر نفسك في شؤون غيرك ، لكان سيدي اكتفى بإثنتي عشرة أو أربعة وعشرين جلدة ، ثم حلّ وثاقي ودفع لي أجري كلّهُ ، لكنك ياسيّدتي رحت تشتمه بغير داعٍ وتنهال عليه بالسباب حتّى ثار الغضب في أنفه ، ولمّا كان لم يستطع أن ينتقم لنفسه منك ، فقد انتقم لنفسه في شخصي وانقضّت سحابة غضبه عليّ ، حتّى أني لن أكون رجلاً طوال حياتي . فقال دون كيخوته : سبب المصيبة هو أنني تركتكما مبكراً ولم أنتظر حتّى تنال أجرك . لقد كان عليّ أن أعرف من طول الخبرة ، أنّ النذل لا يمكن أن يفي بعهده ، إلّا إذا كان لا مفرّ له من ذلك . لكنك تذكر يا أندريس أنني أقسمت أنني سأعود للبحث عنه إذا لم يدفع لك ، وسأعثر عليه حتّى لو اختفى في بطن الحوت .

فقال أندريس : نعم ! ولكن هذا لم يفد شيئاً .

فصاح دون كيخوته : سترى الآن إذا كان في هذا فائدة !

وماقال ذلك حتّى نهض مسرعاً ودعا سنشو وأمره بأن يسرج روثينانته وكانت ترعى بينما كان القوم يأكلون . هناك سألت دوروتييه دون كيخوته عمّا أعزم فعله . فقال دون كيخوته إنه عازم على البحث عن هذا الوغد لعقابه جزاء وحشيّته وإلراغامه على دفع أجر أندريس الى آخر مرابطي ، رغم أنف جميع الأوغاد في العالم . لكنّها نبهته الى أنه حسب المنحة التي وعد بها لا يستطيع خوض أية مغامرة قبل تنفيذ المهمة الخاصة بها ، ودون كيخوته يعلم ذلك تمام العلم لهذا يجب عليه أن يكظم غضبه الى حين رجوعه من مملكتها .

فأجاب دون كيخوته : لك الحق ، وعلى أندريس أن ينتظر حتى أعود ، كما قلت يا سيدتي ، بيد أنني أقسم مرة أخرى وأعد بشرفي أنني لن يهدأ لي بال حتى يُنتقم له ويدفع . فقال أندريس : هذه الأيمان لا تهمني ، وأودّ خيراً من هذا أن يكون في يدي الآن مايمكنني من الذهاب الى اشبيلية ، فهذا أفضل عندي من كل أنواع الإنتقام ، فأعطني شيئاً أتبلغ به إذا كان معكم طعام أو ما أضعه في جيبي ، والله يحرسك أنت وجميع الفرسان الجوّالة وأتمنى لهم حظاً سعيداً مثل حظّي معهم .

هنالك أخرج سنشو من خرجه قطعة من الخبز والجبن وقدمتهما الى الفتى قائلاً : خذ يا أخي أندريس ، وبهذا ينال كلّ منا حظاً من مصيبتك . فسأله اندريس : وأي شطر ينالك أنت ؟

فأجاب سنشو : إن هذه القطعة من الخبز والجبن التي أعطيتها لك . والله يعلم حاجتي إليها ، إذ يجب أن تعلم يا صديقي أننا سائسي الفرسان الجوّالة معرضون للجوع والبؤس ولأمور كثيرة أخرى الإحساس بها أقوى من التعبير عنها .

فأخذ أندريس الخبز والجبن . ولم ير أحداً آخر مستعداً لإعطائه شيئاً ، فحنى رأسه وأدار ظهره وأمسك الطريق بيديه كما اعتاد القوم أن يقولوا . غير أنّه قال لدون كيخوته وهو يرحل :

- استحلفك بالله أيها الفارس الجوّال إذا لقيتني مرة أخرى فلا تنهض لنجدتي حتى لو رأيتني أمزق إرباً إرباً ، بل دعني في محنتي فإنها لن تكون أسوأ مما يصيبني بسبب نجدتك إياي ، وإني لأدعو الله أن يلعنك أنت وجميع الفرسان الجوّالة في الدنيا .

فهبّ دون كيخوته لعقاب هذا الفتى الوقح ، لكن هذا جرى سريعاً فلم يخطر ببال أحد

اللاحق به .

وظلّ فارسنا إذن في مكانه ، والخجل يسريه بسبب حكاية أندريس هذه ، وأمسك الآخرون أنفسهم جهدهم حتى لا ينطلقوا في الضحك ، كيلا يثيروا حفيظة دون كيخوته .

الفصل الثاني والثلاثون

فيما جرى في الفندق لأفراد كوكبة دون كيخوته

وما انتهت المأدبة الفاخرة حتى أسرجت الخيول ، وفي الغد وصلت الجماعة الى الفندق ، مشار خوف سنشو پنشا ، دون أن يقع ما يستحق الذكر . وودّ سنشو لو لم يدخل الفندق . بيد أنه لم يكن في وسعه تجنّب ذلك . فصاحب النزل وامراته وابنتهما وماريتورنس ، وقد شاهدوا دون كيخوته وسنشو ، خرجوا للقاءهما وقابلوهما بأعظم مظاهر الحفاوة والسرور . ولكنّ فارسنا تلقّاهم بوجه عابس جادّ وطلب اليهم أن يعدّوا له فراشاً أحسن من الفراش الذي هيأوه له في المرة الأولى . فقالت صاحبة النزل إنه سيجد منامة أمير بشرط أن يدفع الثمن . فوعد دون كيخوته بالدفع ، ونصب له سرير مقبول في نفس العنبر الذي بات فيه المرّة الأولى ، وذهب على الفور لينام لأنه كان محطّم البدن موهون العقل . ولم يكد يغلق الباب ، حتى اقتربت صاحبة النزل من الحلاق ووثبت على وجهه وأمسكت بلحيته بيديها وقالت :

- والله لن تستخدم ذيلي بعد اليوم لحية لك ، وعليك أن تسلّمني إيّاه فوراً . فمنذ أخذته فإنّ أقدار زوجي تزحف على الأرض وإنه لعار ، أقصد المشط الذي كنت أعلّقه على ذيلي .

وراحت صاحبة النزل تشدّ لحيته ، ولكنه رفض أن يسلمها اليها . وهنا قال القسيس للحلاق إنه يستطيع الآن رد هذا الذيل ، فما ثمّ حاجة بعد الى الاستمرار في هذه الحيلة ويمكنه أن يظهر في مظهره العادي . وقال :

ستقول لدون كيخوته أنه بعد أن سلبك المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة هربت ولجأت الى هذا الفندق وإذا سأل عما جرى لسائس الأميرة فسيقال له أنها أمرته بأن يسبقهم ليعلن للناس في مملكتها أنها عائدة بصحبة من سيحرّرها ويحرّره .

هنالك أعاد الحلاق الذيل الى صاحبة النزل وأعيدت اليها كل الخرق وأدوات الزينة التي أعارتها إياهم لإنقاذ دون كيخوته .

وأخذ جمال دوروتيه وحسن طلعة الراعي كردنيو بألباب كل من في النزل . وطلب القسيس إعداد عشاء حسبما وجد في النزل ، وقدم لهم صاحب الفندق طعاماً بالفندق ، طعاماً لا بأس به ، على أمل أن يدفع له بسخاء . بيد أن دون كيخوته استمر يغط في نومه ، واستقر الرأي على عدم إيقافه ، فالسرير كان أنفع له من المائدة . وفي أثناء العشاء كان الكل : صاحب النزل وزوجته وابنته وماريتورنس وجميع النزلاء يستمعون الى قصة جنون دون كيخوته المسكين والحال التي وجدوه عليها في الجبل . وروت صاحبة النزل ماحدث له مع صاحب البغال ، وروت كذلك حكاية تقليب سنشو مما أثار المرح في جميع الحاضرين ولم يكن سنشو فيهم . وبهذه المناسبة قال القسيس إن كتب الفروسية التي قرأها دون كيخوته هي التي أوقعت الخبال في عقله ، فصاح صاحب النزل :

— لست أدري كيف وقع هذا ، أما عن نفسي فالحق أقول إنني لأعرف قراءة ألد من قراءة هذه الكتب . وعندي هناك إثنان أو ثلاثة كتب منها هي التي أعادت الي الحياة مراراً ، كما أعادت الحياة الى كثيرين غيري . فني أيام الحصاد يتجمع هنا عدد كبير من الحصادين في أيام الأعياد ، ومن بينهم دائماً شخص يحسن القراءة ، فيتناول واحداً من هذه الكتب ونتحلق نحن أكثر من ثلاثين شخصاً حوله ، ونصفي اليه بلذة باللغة تنتزع منا آلاف الشعارات البيض . وعلى الأقل بالنسبة الى نفسي أقول إنني حين أستمع الى رواية هذه الضربات الرهيبة العنيفة من السيوف التي يتبادلها الفرسان ، تتملكني رغبة شديدة في أن أكيل مثلها وأود أن أستمع اليها طوال الأيام والليالي .

فقالت صاحبة النزل : وأنا أيضاً ، فليس ثم من وقت لذيد أقضيه في النزل إلا ذلك الوقت الذي تمضيه أنت في الإستماع ، لأنك تكون حينئذ مستغرقاً بكل نفسك بحيث لاتتذكر أن تتهربي .

وقالت ماريتورنس : هذا حق والله! إنني ألد جدّاً من سماع هذه الأشياء خصوصاً حين يحكي أن السيدة تقف تحت أشجار البرتقال تقبل حبيبها كما تهوى ، بينما تتولى حراستهما قهرمانة تموت حسداً ويملوها الفرع . كل هذا شهى حلو كالعسل .

فقال القسيس موجهاً الخطاب الى بنت صاحب النزل ، وما رأيك أنت يا أنستي الجميلة ؟ فأجابت : وحق نفسي يا سيدي لا أدري . ولكن أستمع ، شأني شأن غيري ، ورغم أنني لا أفهم فإنه يلذ لي السماع . بيد أنني لأسر للضربات كوالدي ، بل تطربني الشكاية والأنين

الذنان يصدران من الفرسان حينما يكونون بعيدين عن حبيباتهم ، وأحياناً أذرف الدموع عطفاً عليهم .

فقلت دوروتي : وإذن لو كانت دموعهم من أجلك فإنك لا تدعينهم يطيلون الشكاة ؟ فأجابت الفتاة : لست أدري ماأنا فاعلة إذن ، لكنني أعلم جيداً أن من بين هؤلاء المحبوبات من هنّ من القسوة بحيث ينعتهم الفرسان بأنهنّ قساة كالنمرة والفهود ، ونعوت سيئة أخرى . أي يسوع ! ما هذا النوع من البشر عديمي الروح والضمير ، حتى يدعوا الرجل الفاضل يموت أو يجن ولا يمينونه نظرة ولا أدري لماذا كل هذا التعقيد ، إن كنّ يفعلن ذلك لحكمة ، فلماذا لا يتزوجن بهم لأنّ هؤلاء لا يريدون شيئاً غير ذلك .

فقلت ربّة النزل ، اخبرسي يا بنيتي . ليقال إنك تعرفين الشيء الكثير عن هذا الموضوع ، ولا يخلق بمن في ستك أن تعرف هذا كلّه وتثرثر كل هذه الثرثرة .

فأجابت البنت : مادام هذا السيّد يسألني فعليّ أن أجيب .

فقال القسيس : والآن أرني هذه الكتب يا صاحب النزل فإني أودّ أن أراها .

فأجاب هذا قائلاً : عن طيب خاطر ! - ثمّ ذهب الى غرفته وعاد منها بخزانة قديمة مغلقة بثقل ، ثمّ فتحها وأخرج منها ثلاث مجلدات ضخمة ، أخذها القسيس ووجد أولها هو : « دون ثيرونخيلو التراقي »^(١) والثاني : « فليكسمارتي الهركاني »^(٢) والثالث : « قصة القائد العظيم غنصالبه هرناندث القرطبي مع حياة ديجو غرسيه من باريدس »^(٣) . وبعد أن قرأ القسيس عنوان القصتين الأوليين ، توجه الى الحلاق قائلاً :

- زميلي ، إنّ قهرمانه صديقنا وبنت أخيه ينقصاننا الآن !

فأجاب الحلاق : لا ! إنني أيضاً أستطيع حملها الى الفناء ، أو رميها في المدخنة ، ففيها نار متقدة .

فصاح صاحب النزل : هل تريد فضيلتك إحراق كتبي ؟

فقال القسيس : هذين فقط : « دون ثيرونخيلو » و « فليكسمارتي » .

فقال صاحب النزل : ماذا ؟ هل كتبي فيها هرطقة أو « سندقة » حتى تريد إحراقها ؟

فقاطعه الحلاق قائلاً : « زندقة » لا « سندقة » .

(١) تأليف برنردو دي برجاس ، أسبيلية سنة ١٥٤٥ .

(٢) ذكرناه من قبل .

(٣) طبعت في سرقسطة سنة ١٥٥٩ بدون اسم المؤلف . وغنصالبه القرطبي بطل روائي مشهور . أما ديجو غرسيه من باريدس فكان منامراً صعلوكاً تقلّب في عدة أحوال ، فكان جندياً لدى البابا ، وقرصاناً ، وقائد أسبانياً (في القرن السادس عشر الميلادي) .

فقال صاحب النزل : كما تريد نطقها ، ولكن إذا شئت إحراقها فلا تحرق منها إلا قصّة ذلك القائد ديبجو غرسيه . أمّا الآخراّن فإنني أفضّل أن تحرق زوجي وأولادي ولا يُحرقا .

فأجاب القستيس : يا أخي! هذان الكتابان قصّتان كاذبتان مليتان بالحماقات والتهاويل ، أمّا الأوّل فهو على العكس تاريخ حقيقي ، يتحدث عن مغامرات غنصالبه القرطبي الذي استحقّ بجلال أعماله الكثيرة أن يلقّب في الدنيا كلّها بلقب « القائد العظيم » وهو لقب لامع واضح استحقّه هو وحده . أمّا ديبجو غرسيه من باريديس فكان فارساً نبيلاً ، أصله من تروجيله Trujillo في استرمدورا ، وكان محارباً صلب العود شديد الأسر ، حتّى أنّه كان يستطيع بإصبعه أن يوقف عجلة طاحونة تدور بمنتهى الشدّة والسرعة . وحدث ذات يوم أن وقف عند مدخل جسر وفي يديه سيف ذو مقبضين لمنع مرور جيش عرمرم . وكان له من المغامرات ماله ترك غيره يصفها بحريّة بدلاً من أن يصفها هو بتواضع الفارس الذي يروي مغامراته بنفسه ، إذن لأنست هذه المغامرات مغامرات هكتور وأخيلوس ورولان .

فصاح صاحب النزل : ستعطيني إتياء إذن! إن وقف عجلة طاحونة أمر يدعو الى أشدّ العجب . فمن فضلك إذن دعني أقرأ الآن ماسمعه عن فليكسمارتي الهوركاني الذي كان بضربة واحدة من ظهر كفه يشقّ أبدان خمسة مرّة من أوساطها ، وكأنّها من لحم الملفت ، أو كصغار الرهبان الذين يصنعهم الأطفال . وذات مرّة هاجم بمفرده جيشاً عظيماً قوياً مؤلفاً من مليون وستمئة ألف جندي كلّهم شاهر السلاح ، ورغم ذلك مزّقهم جميعاً إرباً إرباً كأنهم قطيع من الضأن . وماذا تقول عن ذلك الشجاع ثيرونخيلو التراقي ، لقد كان جسوراً متهوراً كما ستري في قصّته هذه التي تروي أنّه ذات يوم كان يركب زورقاً في نهر وإذا بشنّين من نار ينبثق فجأة من الماء ، ولم يكد يراه حتّى وثب ثيرونخيلو عليه وامتنطى على أكتافه الصدفية وجمع يديه خنقه من حلقه . فلمّا رأى الشنّين أنّه كاد يُخنق عول على الغوص في أعماق النهر حاملاً هذا الفارس الذي أبى أن يتركه! ولمّا وصلا الى القاع وجد الفارس نفسه في قصر فخم وسط جنّات رائعه الجمال ، ثمّ تحوّل الشنّين الى شيخ وقور راح يقول له أشياء جميلة . هيا يا سيّدي ، لو شئت قراءة هذا كلّهُ ، لجنّنت من اللذّة ، وتينتين^(١) لهذا القائد العظيم الذي تقول عنه ، ولد بيبجو غرسيه .

ولمّا سمعت دوروتيّه هذا الحديث البليغ انحنت الى كرديو وقالت له بصوت خفيض :
لم يبق إلا قليل ويصبح صاحب النزل قريباً لدون كيخوته .

(١) نمبر للتخفير مثل قولنا في اللغة الدارجة : طز في ...

فأجاب كردنيو : هذا ما يبدو لي! إذ يظهر من كلامه أنه يؤمن كل الإيمان بأن كل ماتقوله كتبه هذه قد وقع فعلاً بحذافيره ، وأنا أتحدى جميع الرهبان الحفاة أن يقنعوه بخلاف هذا . وفي تلك الأثناء قال القسّيس : لكن حذار يا أخي! إنه لم يوجد في الدنيا أبداً فليكسمارتيه الهوركاني هذا ولا تشيرونخيليو التراقي ، ولا فرسان من النوع الذي تصفه كتب الفروسية . وما هذا كله إلا كذب واختلاق ، إن هي إلا أساطير اخترعها قومٌ متعطّلون وكتبوها للغرض الذي ذكرته أي لإزجاء الفراغ كما يزجيه الحصادون عندكم ، وأقسم لك أنه لم يوجد أبداً أمثال هؤلاء الفرسان وأنهم لم يقوموا بهذه المغامرات ولا تلك التهاويل .

فصاح صاحب النزل : قل هذا لغيري! وابحث عن كلب آخر ليعرق عظامك ، أو لأعلم أين يوجعني الحذاء ، أو كم عدد الأصابع في يدي ؟ لا تفكر في أن تجعلني أبتلع هذه الشرية ، فوالله لست مفقلاً . أوتريد مني أن أعتقد أن كل ماورد في هذه الكتب المكتوبة بحروف مصبوبة ليس إلا تهويلاً وكذباً ، مع أنها طبعت برخصة وإذن من أعضاء المجلس الملكي ؟ وكان هؤلاء يمكن أن يسمحوا بطبع هذه العشرات من الأكاذيب عن معارك وألوان من السحر يطير لها صواب الإنسان ؟

فردّ القسّ قائلاً : لكنني قلت لك يا عزيزي إن هذا كله إنما كتب لتزجية أوقات الفراغ ، وكما يسمح في الدول المنظّمة بممارسة ألعاب الشطرنج وسعف النخل وكرة المنصدة (البلياردو) لشغل فراغ من لا يريدون أو لا يستطيعون أو لا ينبغي لهم أن يشتغلوا ، كذلك يسمح بطبع وتداول أمثال هذه الكتب ، على افتراض أنه لا يوجد امرؤ هو من البلاهة والجهل بحيث يعتقد أنّ الحكايات الواردة بها هي حكايات صحيحة وحقائق . ولو كانت لديّ اليوم فسحة من الوقت وأمامي جمهور ملانم ، إذن لقلت عن قصص الفروسية وما ينقصها لتكون جيّدة صالحة أشياء لعلّها أن تجعلها ليست خلواً من الفائدة بل والمتعة ، لكنني أرجو أن تتاح لي الفرصة للتفاهم مع أولئك الذين يستطيعون أن يقوموها . وحتى ذلك الحين ، ياسيدي صاحب النزل ، صدق ماقلته لك ، استعد كتبك ، وهيئ أمورك مع حقائقها أو أكاذيبها ، ولتعد عليك بالنفع ، والله يعصمك من أن تعرج قدم ضيفك دون كيخوته .

فأجاب صاحب النزل : أمّا هذا فكلّاً لن يبلغ بي الجنون حدّاً يجعلني فارساً جوالاً ، وإني لأدرك جيّداً أن الأمور لا تجري اليوم كما كانت تجري في الأزمان حينما كان هؤلاء الفرسان المشهورون يجولون في أنحاء الأرض ، كما يقال .

وكان سنشو حاضراً القسم الأخير من هذا الحديث ، وظلّ ساهماً يفكر فيما سمعه من أنّ الفرسان الجوالّة لم يعد اليوم لهم شأن ، وأنّ جميع قصص الفروسية أباطيل وحماقات .

لهذا رأى وقرّر في نفسه ألا ينتظر غير نهاية سيّده الحالية ، فإن لم تكن خاتمتها كما تخيل فإنه سيرجع الى زوجه وأولاده ليستأنف معهم أعماله العادية .

وأخذ صاحب النزل كتبه وخزائنه . بيد أن القسّ خاطبه قائلاً ،

– انتظر قليلاً ، أود أن أشاهد ما في هذه الأوراق المكتوبة بخط جميل .

فأستخرجها صاحب النزل من الخزانة وقدمها للقسّيس ليقرأها فوجد هذا أنها تؤلّف كراسة من ثماني ورقات مخطوطة ، وعلى الصفحة الأولى كتب بحروف كبيرة العنوان التالي ، « قصة الفضولي » . فقرأ ثلاثة أو أربعة أسطر منها بصوت هامس ، ثم صاح ، – إن عنوان هذه القصة يغريني ، وأودّ قراءتها كاملة .

فأجابه صاحب النزل ، أحسنت يا صاحب الفضيلة ، إذ ينبغي أن تعلم أن بعض ضيوفي قرأوها فأعجبوا بها وألخوا عليّ فوراً في طلبها ، ولكنني لم أشأ أبداً إعطاءها لأحد ، لأنني أود ردها الى من نسيها عندي . هنا هذه الخزانة ومافيها من كتب وأوراق . ومن الممكن أن يعود صاحبها ذات يوم فأردها اليه لأنني وإن كنت صاحب نزل فإنني مع ذلك مسيحي تقي ، ورغم أن الحتب هنا تعوزني .

فقال القسّ ، أنت على حق يا عزيزي ، لكن إذا أعجبتني القصة هل تسمح لي باستنساخها ؟

فأجاب صاحب الفندق ، نعم طبعاً !

وخلال هذا الحديث كان كردنيو قد تناول القصة وشرع يقرأ بعض عبارات منها ، وكان رأيّه كراي القسّيس فرجاه أن يقرأ بصوت عالٍ حتّى يسمعها الجميع . فقال القسّيس ، « كنت لأقرأها عن طيب خاطر إن لم يكن من الأفضل صرف الوقت في النوم لا في القراءة » .

فقال دوروتيه ، إنه لمريح أن يمضي الإنسان ساعة أو ساعتين في الإستماع الى قصة . لأنني لا أشعر بهدوء كافٍ كي أنام حسبما أريد .

فقال القسّ ، إذا كان الأمر هكذا ، فإنني أريد أن أقرأ ، ولو من باب حب الاستطلاع ، وأرجو ألا يخيب رجاؤونا فيها فيكون فيها ما يبهج خاطر . وكذلك قام الأسطى نقولا وحشّ سنشوا نفسه فوجها اليه نفس الرجاء . فرأى القسّيس أن الأمر مما يبهج الجميع ولن يضيع جهده سدى فقال ، إذن أعبروني أسماعكم ، هكذا تبدأ القصة :

(تم الجزء الأول وبتلوه الجزء الثاني ويبدأ بالفصل الثالث والثلاثين)

فهرس الكتاب

5	تصديرو عام
25	استهلل
	القسم الأول
33	الفصل الأول: في أحوال وأعمال النبيل الشهير دون كيخوته دلا منتشا
39	الفصل الثاني: في أول خرجة للماهر دون كيخوته خرجها من وطنه
45	الفصل الثالث: في الطريقة الظريفة التي بها سلح دون كيخوته فارساً فيما
53	الفصل الرابع: جرى لصاحبنا الفارس حينما غادر الفندق
60	الفصل الخامس: في تنمية حكاية محنة فارسنا هذا
	الفصل السادس: في التفتيش الكبير الشائق الذي قام به القسيس والحلاق في
67	مخنة صاحبنا النبيل المبقرى
76	الفصل السابع: في خروج فارسنا الطيب دون كيخوته دلا منتشا ثاني مرة
	الفصل الثامن: في النجاح الرائع الذي ناله الشجاع دون كيخوته في المغامرة
83	المروعة العجيبة
	الفصل التاسع: في خاتمة المعركة الرهيبة التي نشبت بين الفتوة
93	الشخونشي وبين الشجاع المتشاوي
	الفصل العاشر: في الحوار الشائق الذي جرى بين دون كيخوته وسنشو پنشا
98	حامل سلاحه
105	الفصل الحادي عشر: في المغامرة التي جرت بين دون كيخوته ورعاة الماعز
111	الفصل الثاني عشر: فيما رواء أحد الرعاة لمن كانوا مع دون كيخوته
117	الفصل الثالث عشر: في تنمية قصة الراعية مريثلا وحوادث أخرى
126	الفصل الرابع عشر: في أشعار الراعي الفقيد اليانسة وحوادث أخرى مفاجنة
	الفصل الخامس عشر: في المغامرة الأليمة التي غامرنا دون كيخوته حينما لقي
134	بعض اليجواسيين الأشرار
	الفصل السادس عشر: فما وقع للنبيل المبقرى (دون كيخوته) في الفندق الذي
141	حسبه قصراً
	الفصل السابع عشر: في تلاوة أخبار الأمور التي وقعت للشجاع دون كيخوته
	وحامل سلاحه الطيب سنشو پنشا في الفندق الذي حسبه -
148	لسوء حنله - قصراً

	الفصل الثامن عشر:	وفيه تروى المحادثة التي جرت بين سنشو وبنشا ومولاه دون
158		كيخوته ، وحوادث أخرى جديدة بالذكر
	الفصل التاسع عشر:	في الأسفار الطريفة التي سافر بها سنشو ومولاه وما جرى
169		لهذا مع جثة ميت ، وحوادث أخرى مثيرة
	الفصل العشرون:	في المغامرة العجيبة التي قام بها الشجاع دون كихوته بأقل
176		خطر تعرّض له فارس شهير في أية مغامرة
	الفصل الحادي والعشرون:	في المغامرة الرائعة والغنيمة الوافرة التي ظفر فيها بخوذة
187		مجهرينو ، وفي أمور أخرى جرت لفارسنا الذي لا يقهر
	الفصل الثاني والعشرون:	في تحرير دون كихوته طائفة من المساكين اقتيدوا رغم
198		أنفسهم إلى حيث لا يريدون
	الفصل الثالث والعشرون:	فيما جرى لدون كихوته الشهير وهو في جبل الشارات
210		(سيرّا مورينا) ، مغامرة من أندر ما ترويه هذه القصة
222		في تلاوة مغامرة السيرّا مورينا ، (جبل الشارات)
	الفصل الخامس والعشرون:	في غرائب الأمور التي وقعت لفارس الممتشا الشجاع في
		جبال السيرّا مورينا ، والنذر التي قام بها اقتداءً بالأدهم
232		الجميل
	الفصل السادس والعشرون:	في استمرار دون كихوته في مغامراته النرامية الرائعة في
249		جبل الشارات (السيرّا مورينا)
	الفصل السابع والعشرون:	في كيف أفلح التسييس والحلاق في خطتهما ، وأمر أخرى
257		خليقة بالذكر في هذه القصة العظيمة
271		في المغامرة الجديدة البهيجة التي وقعت للقسن والحلاق
	الفصل التاسع والعشرون:	في الحيلة اللطيفة التي بذلت لاستخلاص فارسنا العاشق من
283		المجاهدات القاسية التي كان يقوم بها
	الفصل الثلاثون:	في كياسة دوروثيه الجميلة وأمر أخرى
293		لطيفة شائقة جداً
	الفصل الحادي والثلاثون:	في الحديث الشائق الذي دار بين دون كихوته وسنشو وبنشا
304		ومغامرات أخرى
312		فيما جرى في الفندق لأفراد كوكبة دون كихوته
	الفصل الثاني والثلاثون:	

أعمال
نائلة



ثربانتس

أعمال خالدة ١

دون كيخوته تجسّد للمثال ، وللقيم المجردة ، إنه الجانب
المشالي من الوجود ، الذي يصرعه الجانب الواقعي ، ويظل الصراع
بين كلا الجانبين متصلًا ، لا يفت في عصفه انتشار الواقع على
المثال باستمرار . ومن هنا كان هذا الديالكتيك الحي الذي يمثل
طرفيه كل من الفارس دون كيخوته وحامل السلاح سنشو پنثا .
ولهذا كانت قصة «دون كيخوته» هي قصة الوجود نفسه بتطبيقاته
المتناقضين المتصارعين المتنازعين ، ومن نزاعهما يتألف ديالكتيك
الوجود ، وكانت شخصية دون كيخوته من النماذج الانسانية
العليا ، الى جانب پرومثيوس ، وقاوست ، وهاملت ، ودون جويان .
إن دون كيخوته يمثل روح الانسان ، أما رفيقه سنشو پنثا فيمثل
بدن الانسان ، هذا الرفيق الأصيل للروح .